اللغة العربية.. من محاولات الإجهاض إلى منارات الإنهاض

إعداد
الأستاذ الدكتور/
عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع
أستاذ التاريخ والحضارة - قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة صنعاء
aalshujaa@hotmail. com

مدخل:

لست لغوياً حتى أدعي أنني سابح ماهر.. أخوض غمار بحار اللغة العربية لأجوب بقواربها أرجائها الواسعة وأدلي حبال النجاة هنا وهناك.. ولست طبيباً لغوياً نطاسياً أقدم عقاقير الشفاء حتى أمنع عنها عوارض الإجهاض المفتعلة.. ولست محارباً لغوياً أقارع أعداء اللغة العربية بما تمتلكه من أسلحة ماضية هي بنفسها كفيلة بأن تهزم خصومها إن وضعت في أيدٍ مخلصة قادرةٍ على الثبات والصمود..

إنني لست هذا ولا ذاك ولكنني (مدون أخبار) أو (جامع أخبار) لكي أضعها على (موقد) النقد والتحليل، فإذا ما نضجت على نار هادئة، أشكل منها قوالب هي بمثابة مواليد تاريخية - كما أحسب -، مكتملة النمو، تكون هذه المواليد يوماً ما فرساناً يقفون حراساً لحماية اللغة العربية من الإجهاض..

وللأخذ بيد بُنَاتها أن ينهضوا بها، كانسين كل الأشواك التي وضعت في طريقهم، محبطين كل محاولات الإجهاض البائسة، التي حاول أعداؤها أن يدسوها عبر طرق ووسائل ملتوية كي يحولوا دون نهوضها.

إضافة إلى كوني جامع أخبار ومشكلاً لها، فأنا ابن لهذه اللغة العظيمة.. في أرضها ولدت، وعلى حروفها تغذيت وتربيت وعلى سلمها الذهبي صعدت، وعلى منهج كتابها الخالد (القرآن الكريم) سرت، وبوعائها البديع أقدم أفكاري.. أفلا أكون من هواتها، ومحبيها، والمنافحين عنها، وممن يسعى إلى كشف أيدي خصومها الذين يتربصون بها الدوائر للإجهاز عليها؟!

إن هذه الورقة البحثية تقدم جانباً من الجهود التي بذلت لإقصاء اللغة العربية بوسيلة الإجهاض، وإخراج جنين مشوه، أو سرقة جنين آخر وتقديمه للناس على أنه هو اللغة العربية..

إن ما بذلته الأيدي العابثة بمقدرات وفكر الأمة الإسلامية في القرنين الأخيرين (التاسع عشر والعشرين الميلاديين) جديرة بأن تكشف، وأن توضع في حجمها الطبيعي، حتى يتم الحذر منها.

وفي الجانب المقابل لابد من إزالة (الدخان) الذي صنع لتغطية (منارات) و (قمم) الفكر الإسلامي التي لاحت في الأفق منها (قمة) و (منارة) اللغة العربية. وهي تُلَوِّح بأعلامها بأنها باقية، بقاء البشر على

ظهر الأرض، وبقاء القرآن هادياً وداعياً للبشر الذين يعيشون على وجه البسيطة. سواء أكانت (منارات) فكر.. أو (منارات) فعل، ليس في الأرض (الأصلية) للّغة، بل على أرض الواقع البشري كله، وفي جميع أركان الأرض..

وستتحدث هذه الورقة البحثية عن جانبين:

الجانب الأول: الجهود الفكرية والعملية - الفردية والجماعية والدولية - لإجهاض اللغة العربية التي بذلت على مدى نصف قرن من أواخر القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الثانية.

الجانب الثاني: عرض (المنارات) الملوحة بأعلام البقاء.. فسيعرض هذا الجانب لمجموعة من المنارات.. دون الدخول في تفاصيل كثيرة حتى لا يطول البحث عن الحدود المسموح بها.

مسوغات محاولات الإجهاض:

ظلت اللغة العربية هي لغة المحادثة اليومية، ولغة الأدب، والتأليف والمكاتبة الرسمية في وسط الأمة الإسلامية، وتألقت في إنتاج تراث ضخم عبر بطلاقة عن كل اتجاهاته المعرفية المختلفة دون استثناء، ولم تواجه ذلك التراث أية صعوبة في التعبير عن أي من تلك العلوم المتنوعة ليس في العلوم الشرعية واللغوية فحسب بل في العلوم الطبية والكيميائية والفلكية والزراعية والإدارية... الخ. ولم يتحرج أحد من مؤلفي ذلك التراث الضخم طوال أربعة عشر قرناً - منذ أن تسلم الإسلام قيادة البشرية - عن التعاطي مع أي من المصطلحات المستخدمة في كل الساحة المعرفية الواسعة الممتدة من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن البحر الأسود والأبيض شمالاً حتى المحيط الهادي والهندي جنوباً. ولم يجد أبناء الأمم واللغات - غير العربية أية صعوبة في التعامل مع اللغة العربية، بل نبغوا فيها وصاروا من علمائها، وواضعي قواعدها.

ولكن لأن السلطات الحاكمة - في قرون عدة - تولاها أناس من غير العرب، وهم لا يجيدون اللغة العربية، تحولت لغة التخاطب - واقعياً - بغير اللغة العربية، وفي هذه الحالة ظهرت لغة عربية غير سليمة فلجأت الجهات الرسمية لاستخدام لتلك اللغة غير السليمة في مكاتباتهم الرسمية، مما أدى إلى أن بعض المشتغلين بالكتابة وصناعة الإنشاء في الدواوين الرسمية استخدم أسلوباً عربياً متكلفاً يعتمد على السجع المفتعل وتنسيق العبارات، والإكثار من الاستعارات والجناس، واختيار الغريب من الكلمات[1]، مما أوجد عسراً واضحاً في التعبير عما يريدون الحديث عنه. فاضطر الحريصون على اللغة العربية أن يؤلفوا كتباً إرشادية للموظفين في الدواوين الرسمية حتى يؤدوا مهماتهم بنجاح دون الخروج عن الأسلوب اللغوي الفصيح كما فعل القلقشندي[2].

ومما زاد الأمر سوءاً أن استخدمت لغة رسمية غير اللغة العربية في بعض الدول الإسلامية الصغيرة ثم في الدولة العثمانية التي بسطت نفوذها على معظم الرقعة الإسلامية مكتفين بكتابة تلك اللغات بالحروف العربية[3]. فظهرت لغات عدة مكتوبة بالحروف العربية على مدى القرون الثلاثة الأخيرة. كالفارسية، والتركية، والأردية، والأفغانية، والكردية، والتترية، والمغولية، والبربرية، والسودانية، والزنجية، والساحلية، والملاوية[4]. فحلت هذه اللغات محل اللغة العربية، مستبقين قراءة القرآن وما يتعلق به من تفسير، بل سعت بعض الفئات لترجمة القرآن إلى بعض تلك اللغات، وعملت تفاسير للقرآن بغير اللغة العربية، وحظى هذا السعي بتشجيع من قوى الاستعمار (الاستعباد) الأوروبي للعالم الإسلامي، بهدف غرس التوجهات القومية، ثم فصل تلك الأمم عن اللغة العربية أولاً، ثم فصلها عن الإسلام ثانياً.

ورغم ذلك كله فقد ظلت اللغة العربية متألقة في

(1) ذكر هذا الشيخ اليازجي في رده على دعاة العامية (نفوسة. تاريخ الدعوة إلى العامية 96).
(2) ألف القلقشندي. أبو العباس احمد بن عبدالله (ت 821هـ/ 1418م) كتاباً شهيراً وهو صبح الأعشى في صناعة الإنشاء يقدم فيه نماذج لكتابة الخطابات الرسمية وغيرها.
(3) نفوسة. تاريخ الدعوة إلى العامية 188.
(4) د. محمد محمد حسين. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر 379/2.

المجالات التأليفية، والأدبية، محافظة على رونقها وقوتها وصلابتها وأسلوبها..

من ذلك العرض الموجز السابق يتضح لنا أن اللغة العربية لا ذنب لها في الجمود، ولا في التوقف عن العطاء، بل الذنب ذنب الأجيال الذين حملوا اللغة العربية. فأهلها هم الذين جمدوا وانحطت مداركهم، واختلت موازينهم لمقومات أمتهم فأوغلوا في إهمال اللغة العربية، مستبعدين لها عن أن تكون لغة رسمية للدولة ولغة الثقافة، وفي المقابل حصل انهزام واضح - سواء من قبل سلاطين الأمة أو من أفرادها - أمام نهوض الغرب وتقدمهم المعرفي، والمادي. فكان كلما زاد الغرب تقدماً زاد المنهزمون انهزاماً ويأساً وسوء ظن بأنفسهم وبمقومات أمتهم[5]. وهكذا فإن الجمود أتى من قبل أبناء الأمة لا من اللغة التي رماها المستشرقون، ومن سايرهم من أبناء العربية نفسها بكل أنواع التهم سواء في قواعدها، أو في أسلوب كتابتها أو في صعوبة تعلمها، ومعلنين عن شكواهم عن عسر استيعابها لمتطلبات العصر، ومن ثم وجهت إليها كل السهام للقضاء عليها، مستخدمين مشاريع كثيرة - بحجة الإصلاح - على مدى قرن كامل بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حتى منتصف القرن العشرين الميلادي.

فقد سعت الدول الأوروبية المستعبدة لشعوب العالم الإسلامي بكل جهودها لإلغاء اللغة العربية أو توهين عراها مستغلة ذلك الأسلوب الركيك الذي أصاب العمل الكتابي الرسمي في الأنظمة الحاكمة وبالذات في مصر والشام والمغرب، فاستخدمت القوى الاستعمارية وسائلها الظاهرة والخفية، وأساليب الإرهاب والإغراء. مدعية البحث العلمي ومرددة الكلمات التي تظهر الحرص على خدمة اللغة العربية، فبرزت دعوات في أكثر من مكان في العالم الإسلامي كلها كانت تهدف إلى هدم اللغة العربية وموتها حتى أن أحد اللبنانيين أصدر كتاباً في عام 1925م في بيروت تنبأ فيه بموت العربية الفصحى داعياً إلى الكتابة بالعامية في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي بعاميته[6].

والغريب أن هذه الدعوات جاءت في الوقت الذي تربعت فيه اللغة العربية عرش القوة والإبداع بوجود حركة أدبية موارة على مستوى العالم الإسلامي كله كانت معبرة عن نفسها بأقوى تعبير وأسلسه. حيث ظهرت قمم أدبية في الشعر والنثر والتأليف بدءاً من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. من أمثال عبدالله النديم والمنفلوطي ومحمد عبده وأحمد محرم وشوقي.. وغيرهم كثير.

وكأن أعداء هذا الدين ولغته صدموا بعملقة اللغة العربية في هذا الوقت. فصاروا يصرخون - عبر أبواقهم المختلفة - في كل مكان بأن اللغة العربية لا تصلح للحضارة الحالية، ولا تصلح لاستيعاب المصطلحات العلمية في العلوم المختلفة. ولكي تتطور الأمة لابد من استبعاد هذه اللغة التي أصابت الأمة بالتخلف. ولابد من البحث عن لغة أخرى إما العامية أو اللغات الأوروبية، إلى حد أن قاسم أمين (ت 1325هـ/1908م) الذي كان يكتب باللغة العربية الفصحى تأفف من هذه اللغة ودعا إلى التحرر منها كما دعا إلى (تحرر!!) المرأة من الإسلام. ولعله كان يردد ما كان يقوله المستشرق (ولكوكس) من أن (سوريا ومصر وشمال أفريقيا ومالطة تتكلم اليونانية لا العربية)[7]. كما سيأتي تفصيل هذا لاحقاً.

خطوات الحملة ضد اللغة العربية:

لم يكل ولم يمل أعداء الإسلام من بذل جهود طويلة المدى، متصفة بالصبر والأناة، والتخطيط البطيء، والتنويع في الأساليب، والخطط، والمشاريع. واستخدام العناصر المتنوعة، ورفع شعارات ظاهرها البراءة والمنفعة، وباطنها الرداءة والهدم. وكانت اللغة

---

(5) انظر: المقالة التي نشرها محب الدين الخطيب بعنوان (لأن اكون مخطئاً احب إليّ من أن اكون ظالماً) في رده على محمد فريد أبو حديد. ونشر في مجلة الفتح عدد 852، 18 صفر 1367هـ ص 8 - 11.

(6) هذا اللبناني اسمه خوري مارون غصن وقد رد عليه أنس من حسنه منذ نوبير شيحو في مجلة الشرق عدد 2. 3 من السنة 23 سنة 1925م (نظر حوسة تاريخ الدعوة إلى العامية ص 117، 118)

(7) هذا عنوان كتاب نشره ولكوكس سنة 1926م.

العربيــة واحدة مما وجه إليه أعداء الإســلام جهدهم لهدمه عبر طرق ملتوية ومراحل كثيرة.

وســنحاول في هذه العُجَالة عرض خطوات مجملة للجهــود التــي بذلوها للإجهاز على اللغــة العربية بكل الطــرق والوســائل مــع العلــم أن الاتجــاه الصليبي - الصهيونــي - كان هــو المتكفل بهذه الحملة.. مســتغلاً هيمنة أوروبا على العالم الإسلامي.

الخطـوة الأولى: دراسـة اللغـة العربيـة في بلدانهم..

بدأ اهتمام أوروبا بدراسة العلوم الإسلامية في وقت مبكر منذ القرن الثالث عشــر الميــلادي عبر الأندلس وصقلية والمغرب ومصر والشــام محاولة منهم للتحلي بالثقافة العالمية حينذاك وهي الثقافة الإسلامية. مما أدى إلى تأثير المتعلمين الأوروبيين بالثقافة الإسلامية، حتى خشيت الكنيسة الكاثوليكية من أن يكون للإسلام تأثير على المسيحين، فلجأت الكنيســة فــي أوربا إلى تكليــف فريق مــن رجالهــا لدراســة الإســلام، وعمل دراســات خاصة تحط من شــأنه وقــدر ثوابته وقيمه. وهذا الفريق عرف فيما بعد بالمستشــرقين. فالكنيسة كانت أول مــن رعى هذا النوع من الدراســات، الهدف منه هو تحصين الأوربي المسيحي من أي تأثير إسلامي قد يحصل ف الســاحة الأوروبية نفسها وذلك بتشويه كل ما يمت إلى الإسلام بصلة.

وتحــول الاتجــاه الاستشــراقي فيما بعــد إلى تيار تولت رعايته الدول الاســتعمارية والمؤسسات المرتبطة بها. حيث صار مرافقاً لكل حملة عســكرية استعمارية دخلت العالم الإســلامي، وكل حملة تنصيرية تشــرف عليها الكنائس المختلفة دون استثناء.

وجــزء من هذه الحملة العامة ضد الإســلام، وضد العالــم الإســلامي كانــت الحملة ضــد اللغــة العربية بصفتها الوعاء الذي يحتوي الفكر الإســلامي وعلومه وثقافتــه فقد لجأوا إلى دراســة اللغــة العربية بهدف الإجهاز عليهــا حتى يقطعوا الصلة بــين الأمة وتراثها الإسلامي كله.

بدأت هــذه الخطوة في وقت مبكر جداً. إلا أنه من مطلع القرن الثامن عشر الميلادي تقريباً بدأت تتشكل وتنشأ مدارس وكليات لدراســة اللغة العربية، ودراسة اللهجات العامية التي ممكن أن تحل محلها.

- ففــي إيطاليا أنشــئت ســنة 1727م مدرســة نابولي للدروس الشرقية تهدف إلى دراسة اللهجات العربية المحلية.
- وفي النمســا أنشــئت في ســنة 1754م مدرســة في (فينا) اســمها مدرســة القناصل، وتهدف إلى تعليم هــؤلاء لغــات الشــرق وبالــذات اللهجــات المحليــة العامية. ثم في سنة 1851م أسست مدرسة اللهجات الشــرقية. وكان من مدرســيها عرب يتولون تدريس اللهجات العامية بل ألفوا كتباً بهذا الشأن.
- وفي فرنسا أنشئت في ســنة 1759م مدرسة باريس للّغات الشــرقية الحيــة - ويقصد بالحيــة اللهجات العاميــة - ومــن درس فيهــا المستشــرق الفرنســي المعروف (سلفتر دي ساسي) الذي صاحب الاحتلال الفرنســي للجزائــر. وكانــوا يســتعينون بمدرســين مصريين وشاميين لتدريس العامية المصرية والعامية الشامية.
- وفي روســيا أنشــئت في ســنة 1814م مدرسة تابعة للأكليريكية الشــرقية وكانت تــدرس العامية وتضم في هيئة تدريســها بعض العرب، وفي ســنة 1909م افتتحت فرعاً لتدريس اللهجات العامية.
- وفي انجلترا أنشــئت في أوائل القرن التاســع عشــر جامعــة لنــدن كانــت تدريــس الفصحــى والعاميــة مســتعينين بمدرســين مــن لبنــان، وألفــوا كتب عن العامية وباللغة الانجليزية.
- وفي المجر أنشئت في سنة 1891م كلية تتولى تدريس اللهجات العامية.
- وهكذا الحال في ألمانيا التي اســتعانت بمدرسين من مصر والشام يتولون تدريس العامية.

وكانــت - كمــا لاحظنــا - بدايــة التأليــف على يد مدرســين عرب، ولكن ما أن شارف القرن التاسع عشر

الميلادي على الانتهاء وأطل القرن العشرين حتى ظهرت مؤلفات لأوروبيين عاشوا في الشرق، داعين إلى الأخذ باللهجات العامية، فظهرت مؤلفات عن لهجة بغداد العامية، وعن لغة بيروت العامية، وعن لغة مراكش العامية، وعن عامية دمشق، وعامية مصر[8].

الخطوة الثانية: فرض اللغات غير العربية في ظل الاستعمار الأوروبي..

وهذا الدور تولاه الأوروبيون أنفسهم منذ أن فرضوا هيمنتهم العسكرية والسياسية على مناطق العالم الإسلامي. وقد كان هذا الفرض:

تارة بالقوة كما هو حال الاستعمار الفرنسي في بلاد المغرب العربي.

وتارة بطريقة خادعة براقة وعلى أنها ضرورة تعليمية.

فقد فرضت اللغة الفرنسية أو الانجليزية على طلاب المدارس الأجنبية، بشكل كامل أو على المدارس الحكومية بشكل جزئي. مما أوجد فجوة كبيرة بين الجيل الذي تعلم اللغات الأجنبية وبين الجيل الذي كان محافظاً على تعلم اللغة العربية. هذه الفجوة تمثلت في طلاقة المتعلم لغة الغرب في لهجته العامية وفي لغته الأجنبية، بينما الآخر ظل يتقعر متعثراً في كلماته العربية الغريبة، مع عدم معرفة باللغات الأوروبية فأحدث ذلك انهزاماً نفسياً أمام الجيل الآخر المتحلي بالثقافة الأوروبية عن طريق لقائهم.

ومما زاد من إستبعاد اللغة العربية في هذه الأثناء أن الجيلين الذين سيتخرجان من المدارس سيتباين مستقبلهما الوظيفي فجيل اللغة الأجنبية سيجد أبواب الوظائف أمامه مشرعة، بينما الآخر سيجدها مقفولة دونه. وهذا سيؤدي إلى إقبال تلقائي على تعلم لغات الغرب وإهمال اللغة العربية، ولا يقبل عليها إلا ذوي الرغبات القوية، أو ذوي العاهات الذين لا يجدوا مفراً من الالتحاق بهذه المدارس التي ليس لها مثل ذلك البريق الذي للمدارس الأجنبية[9].

الخطوة الثالثة: ارتفاع الشكوى من صعوبة اللغة العربية وحاجتها إلى تطوير..

وهذه الخطوة بدأت أيضاً في كنف وبرعاية الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي وبالذات في مصر والشام والمغرب. سواء بشكل مباشر أو غير مباشر.

وترددت هذه الشكوى بقوة في أكثر من مستوى. وكانت نابعة من منطلقات غير بريئة. لأن من تحدث عن هذه الشكوى هم المستشرقون الذين رفعوا عقيرتهم بالنذير من مخاطر الإبقاء على اللغة الفصحى لغة للعلم والتعلم وكانت البداية لديهم نابعة من عدم قدرتهم على إتقان العربية الفصحى لاختلاف المدارك لديهم واختلاف نشأتهم الثقافية واللغوية. إلا أن المستعمرين استغلوا هذه الشكوى مستخدمين المستشرقين أنفسهم للدعوة للعدول عن الفصحى إلى العامية. ورغم أن المستعمرين فرضوا لغتهم في الواقع غير المدارس والمصالح الإدارية إلا أن اللغة العربية الفصحى ظلت تفرض نفسها وتتغلب على مناوئيها. فقد عاد الناس إليها طائعين. فأنتج الأدباء والكتاب أدباً يتميز بالقوة والسلاسة وسحر البيان. فلجأت الدوائر الاستعمارية وكل أجهزتها التوجيهية إلى اتباع خطة جديدة لإبعاد الفصحى وهي الدعوة إلى إصلاحها أو إلى تبني العامية لتلافي الصعوبة التي يلاقيها الجيل الجديد في تعلم الفصحى - حسب زعمهم - نظراً لعمق البعد بينهم وبين العربية.

فقد ظهرت الدعوة إلى العامية بشكل علني صريح مكتوب. سواء بشكل عدائي فاضح أو بشكل الدعوة البريئة لتسهيل الفصحى. أو بشكل ترويجي واقعي تحت مسوغات متعددة.

فأما الشكل الترويجي الواقعي فقد ظهر على هيئة إصدار مجلات تنشر مقالاتها باللغات العامية مثل مجلة (أبو نظارة زرقاء) التي أصدرها يعقوب بن صنوع - اليهودي - سنة 1295هـ/ 1878م. مدعيا

(8) نفوسة. تاريخ الدعوة إلى العامية 9 - 11.

(9) انظر: محمد حسين الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر 2/ 366.

أن هدفه التسلية والإضحاك منتقداً من خلال ذلك بعض جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية. ومثل مجلة (الغزالة) أصدرها ج زنانيري 1896م للتعريف بالقضايا السياسية. ومثل مجلة (الأرغول) أصدرها محمد النجار (ت 1330هـ/ 1911م) وهو أحد علماء الأزهر سنة 1894م وأراد من وراء ذلك أن تكون مرحلة تمهيدية للوصول إلى الفصحى.

ويظهر من هذا الشكل أن القصد ليس هو إلغاء الفصحى، وإنما محاولة لخدمة العامة وتثقيفهم[10]. ولكن كما يبدوا فقد وقعوا تحت التأثير الدعائي الإعلامي الذي يسيطر عليه المستعمرون، ولا اعتبار لحسن النوايا - إن كان موجوداً - لأن العمل نفسه يحقق الغرض الاستعماري شاء أصحابه أم أبوا.

أما الشكل العدائي الفاضح فقد بدأ على أرض مصر وعلى يد أجنبي وهو الدكتور ولهام سبيتا الألماني الذي كان مديراً لدار الكتب المصرية فقد ألف كتاب (قواعد العربية العامية في مصر)، ونشر سنة 1880م باللغة الألمانية. دعا في هذا الكتاب إلى اتخاذ العامية لغة أدبية، مردداً الشكوى من صعوبة العربية الفصحى، واصفاً مقترحاً جريئاً - إن صح التعبير - باستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية لكتابة العامية. واستكمالاً لهذا العداء ودعماً لما قام به (سبيتا) قدم اللورد (دوفرين) تقريراً إلى حكومته البريطانية عام 1882م دعا فيه إلى هجر اللغة العربية وإحلال العامية المصرية محلها في مصر وجعلها أساساً في بناء منهج الثقافة والتعليم والتربية ثم قال: " إن أصل التقدم ضعيف في مصر طالما أن العامية تتعلم اللغة الفصيحة العربية - لغة القرآن.. في الوقت الحاضر "[11].

وتبعه بعد عشر سنوات ألماني آخر في مصر هو الدكتور كارل دان فولرس الذي تولى دار الكتب المصرية بعد سبيتا فقد ألف كتاب بعنوان (اللهجة الحديثة في مصر) وقد نشره باللغة الألمانية سنة 1890م وترجمه إلى الإنجليزية سنة 1895م مردداً ما قاله سبيتا ممثلاً ببعض النصوص.

وبعد عشر سنوات أخرى - تقريباً - انبرى القاضي الانجليزي (سلدن ولمور) فأصدر كتابه (العربية المحكيَّة في مصر) سنة 1901م، مؤلفاً له باللغة الإنجليزية.. ثم أصدر كتاب (لغة القاهرة) سنة 1902م، وكرر الشكوى من صعوبة الفصحى، وأنها لا تلبي متطلبات الحياة، مقترحاً قواعد للعامية مع كتابتها بالحروف اللاتينية لتبقى الفصحى لغة الصلاة فقط[12].

وتلقف هذه الدعوة مستشرقان انجليزيان هما (بارل) و (فيلوت).. الأول كان قاضياً في المحاكم الأهلية بالقاهرة، والثاني كان أستاذاً للغات الشرقية في جامعة (كمبردج) وجامعة (كلكتا). فقد انبريا يدافعان عن اللغة العامية التي ضاعت لعدم ضبط قواعدها. فوضعا كتاباً أسمياه (المقتضب في عربية مصر)[13]. وقام المهندس الزراعي الانجليزي وليم ولكوكس في سنة 1893م لإصدار مجلة باسم خادع غير ملفت (جريدة الأزهر الرياضية) وقد شن حملة على اللغة العربية الفصحى، داعياً إلى العامية لأنها وحدها التي تستطيع استيعاب المصطلحات الحديثة. ولما لم يجد تجاوباً بل قوبل بمواجهة شديدة من المصريين إلى حد أن بعض المهندسين أصدروا مجلة أطلق عليها اسم (المهندس للأبحاث الرياضية والعلمية) ليثبتوا علمياً قدرة اللغة الفصحى على استيعاب كل المصطلحات العلمية.

ولكن ولكوكس لم يعلن عن تراجعه بل أصدر سنة 1926م كتاباً بعنوان (سوريا ومصر وشمال أفريقية ومالطة تتكلم اليونانية لا العربية) مفصحاً عن نواياه الحقيقية. داعياً السلطات الحاكمة لفرض العامية في مناهج التدريس، وأن هذا كفيل بتخليص المصريين من

(10) نفوسة. تاريخ الدعوة إلى العامية 82 - 93. وانظر: موقع معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

(11) حبنكة. عبدالرحمن حسن. أجنحة المكر الثلاثة 359/1.

(12) محمد حسين. الاتجاهات الوطنية 363/2 وما قبلها. نفوسة. تاريخ الدعوة إلى العامية 18 - 41،26 - طه حسين. مستقبل الثقافة في مصر 229، 230 وقد دعى في هذا الكتاب إلى أن تكون اللغة العربية الفصحى هي لغة دينية كاللاتينية للنصارى في أوروبا.

(13) حبنكة. أجنحة المكر الثلاثة 359/1.

ربقة الفصحى[14].

وأما الشكل البريء - الخادع - فقد تولاه أبناء العربية أنفسهم ممن تربوا على يد المستشرقين أو يعملون لحساب الاستعمار الأوروبي - سواء أعلنوها أم أخفوها، أدركوها أو لم يدركوها. وبعضهم خرج مدافعاً عن اللغة الفصحى فأراد خدمتها فانزلق إلى خطة الأعداء دون أن يشعر.

وأول من دعا إلى الدخول في هذا الميدان لمناقشة قضية الفصحى وعملية تسهيلها المقتطف[15] - الجريدة ذات الاتجاه الانجليزي - بدءاً من عام 1881م أي بعد صدور كتاب سبيتا عن قواعد العربية العامية في مصر بسنة داعياً إلى كتابة العلوم بالعامية، دون أن يشير إلى من سبقه في هذه الدعوة وهو سبيتا[16]. وكأن الاقتراح جاء من المقتصف ولمصلحة وطنية خالصة.

وأعلن قاسم أمين عن تأففه من الفصحى مدعياً أنها لا تواكب العصر - رغم أنه يكتب بالفصحى. وبدأ أحمد لطفي السيد من عام 1899م يدعو إلى تمصير اللغة والأدب والفن. ثم تبنى في صحيفة (الجريدة) من سنة 1913م الدعوة إلى القومية المصرية بما فيه اللغة العامية[17].

وتعددت وسائل هذا الفريق المباشرة منها وغير المباشرة، وتحت شعارات إصلاحية وتطويرية وتسهيلية، وإيجاد لغة متوسطة بين الفصحى والعامية، والدعوة إلى تعديل بعض قواعد النحو أو إسقاط وحذف أبواب معينة منه.

ومن تلك الوسائل عمل استفتاءات لاستكتاب كل من يريد الكتابة عن هذه القضية، وقد تولى كل من المقتطف والهلال هذه المهمة. شارك فيها أدباء وكتاب عرب ومستشرقون. منهم المدافع والمحبذ للعامية. ومنهم المعترض المنافح عن اللغة العربية الفصحى. وكان السؤال المطروح (هل اللغة العربية في حاجة إلى إصلاح) فاندفع البعض بحسن نية. والبعض الآخر بسوء نية ليطرح الآراء والمقترحات، إلى حد أن أحدهم - غيرة على اللغة العربية، ومن منطلق العصبية الوطنية - ناشد الكتاب أن يتركوا اللغة العربية وشأنها فلم تبق - كما قال - إلا هي تجمع العرب. ويتعهد للمستر (ولور) أن العرب حالما يستقلون سيعملون على حصر الفصحى بالكتب الدينية[18].

ومن تلك الوسائل الدعوة لعمل معاجم للمفردات العامية وأساليبها وإنشاء معامل للأصوات في الكليات المختصة، ودراسة اللهجات العربية قديمها وحديثها[19].

ومن الوسائل تشجيع سلطات الاحتلال للسلطات المحلية أن تقوم بفرض الكتابة بالعامية سواء في الصحف أو غيرها[20]. وقد تدخلت وزارة المعارف المصرية في هذا الشأن وقدمت لجانها مقترحاً لتغيير مسميات قواعد النحو العربي كالفعل والفاعل والمفعول، بحجة التيسير[21].

ومن الوسائل الدعوة - خدمة للتراث كما زعموا - إلى ترجمة الصالح من التراث إلى العامية[22].

كل هذه الوسائل الحثيثة كانت تتلاحق على جميع الأصعدة، حتى وصلت إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي أنشئ للمحافظة على اللغة العربية. وإذا به سمح للنصراني عيسى اسكندر المعلوف - ابن اسكندر الذي دعا إلى العامية في مطلع القرن العشرين - لأن يكتب سلسلة مقالات نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية من سنة 1934م إلى سنة 1937م وكلها تسير على نهج أبيه

(14) نفوسة. تاريخ الدعوة إلى العامية 41، 100 - 117.

(15) المقتطف: جريدة أنشاها كل من يعقوب صروف (ت 1346هـ/ 1927م) وفارس نمر (ت 1951م) في بيروت سنة 1876م ثم نقلت إلى القاهرة سنة 1888م وكانت مرتبطة بسياسة الغرب وبالذات بريطانيا. وتخفي حقيقة دورها بقناع علمي (انظر: محمد محمد حسين. الاسلام والحضارة الغربية ص 116، 117 - ويكيبيديا - الموسوعة الحرة، والموقع الإلكتروني للموسوعة العربية).

(16) عدد نوفمبر 1881م من المقتطف. السنة السادسة ص 352، 354 تحت عنوان (اللغة العربية والنجاح) (انظر: نفوسة. تاريخ الدعوة إلى العامية 94).

(17) نفوسة. تاريخ الدعوة إلى العامية 123، 124.

(18) محمد حسين. الاتجاهات 389/2، 370، 374.

(19) هذا جزء من دعوة طه حسين. مستقبل الثقافة في مصر فقرة 40 ص 346

(20) محمد حسين. الاتجاهات 371/2.

(21) المصدر نفسه. 383/2

(22) المصدر نفسه. 371/2.

في الحط من اللغة العربية والدعوة إلى العامية[23].

ووصلت الجرأة داخل المجمع أن أعطيت الفرصة لعبد العزيز فهمي سنة 1943م وهو عضو المجمع أن يقدم اقتراحاً بكتابة العربية بالحروف اللاتينية - وهو اقتراح مستنسخ ممن سبقه من المستشرقين -. ورغم أن المجمع رفض المقترح في نهاية المطاف إلا أن هذا الاقتراح شغل المجمع عدة جلسات امتدت خلال ثلاث سنوات. بل إن الحكومة المصرية شاركت في هذا حيث أعلنت عن جائزة مقدارها ألف جنيه لأحسن اقتراح في تيسير الكتابة العربية[24].

مع العلم أن مستشرقين كانوا أعضاءً في المجمع ومنهم المستشرق (هـ. ا. ر. جب) الذي كان يحذر من الوحدة الإسلامية والتي تعد اللغة العربية من أهم مظاهر الوحدة الإسلامية[25] فماذا نتوقع من أعضاء مثل هذا في المجمع؟

ولم يقتصر الأمر عند المجمع بل تعداه إلى ما عرف بعد ذلك بالجامعية العربية حيث أصدرت لجنتها الثقافية عام 1955م كتاباً في اللهجات وأسلوب دراستها[26].

مجالات اللغة التي تعرضت للحملة:

عرفنا في السابق مدى الجهد المبذول في سبيل إجهاض اللغة العربية، أو قتلها لتحقيق هدف كبير هو محاولة إبعاد القرآن الكريم عن حياة الناس، وهي محاولة عابثة كعبث الطفل الذي يريد أن يطفئ نور الشمس بنفخة من فمه.. وصدق الله إذ يقول ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [التوبة: آية 32].

وقد شملت تلك الجهود المجالات الثلاثة للّغة العربية:

مجال اللغة ذاتها ومفرداتها. بالدعوة للتحول إلى العامية بدعوى أن هذه أقدر على مواجهة كل المتغيرات والمفردات اللغوية.

ومجال الكتابة وتيسير الخط العربي.. بالدعوة لإصلاح قواعدها بدعوى التيسير، أو بالتحول عنها إلى الحروف اللاتينية، مدعين أن الحروف الطباعية تجد صعوبة شديدة في إخراج الحروف العربية، بسبب تعدد وتنوع صور تلك الحروف، ولذا فالأسلم - حسب زعمهم - هو تركها إلى الحروف اللاتينية.

والمجال الثالث هو مجال الأدب.. مرددين الدعوة للابتعاد عن الأدب المصنوع - كما زعموا - سواء أكان جاهلياً أو إسلامياً والتحول إلى الأدب الحديث بصورته وقواعده الغربية، أو الأدب الشعبي باللهجات المحلية.

وقد حاولنا آنفاً أن نبرز محاولات إجهاض اللغة العربية في مجاليها الأولين - اللغة والكتابة - وهنا سنحاول أن نعرج عليهما مسرعين للتذكير لنتوسع قليلاً في المجال الثالث بعض الشيء.

ونُذَكِّر قبل هذا بأن الأهداف التي كانت تكمن وراء تلك المحاولات أهداف غير بريئة، ومن ثم لا علاقة لها بالعلم أو بالمنهجية العلمية مهما روج أصحابها ذلك، ومهما ألبسوا دعاواهم ألبسة مزركشة عليها اسم العلم والعلمية، ومهما أبدوا من عبارات الحرص على اللغة العربية وعلى الأمة ولغتها، ومهما تغنوا بأن الحضارة لن تطالهم إلا إذا أصلحوا من شأن اللغة العربية. فكل هذه مسوغات مدعاة يريدون من خلالها إقصاء اللغة العربية لا لذاتها ولكن للوصول إلى إقصاء القرآن الكريم الذي فيه الأمل للرفع من شأن هذه الأمة.. لأنه هو المنهج الوحيد الذي - إن أراد المسلمون - أن يكونوا في مركز الصدارة مرة أخرى. ولن يتمكن منهم عدوهم ماداموا مستمسكين به ملتزمين نهجه، سائرين في سبيله. وهذا ما أدركه أعداء هذه الأمة تماماً. فقد صرح جلادستون (ت 1898م) وزير المستعمرات

(23) مجلة مجمع اللغة العربية الأجزاء: الأول ص 350 - 369 والجزء الثالث ص349 - 371 والجزء الرابع ص 294 - 315 مع العلم أن المعلوف كان مشاركاً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

(24) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء السادس جمادي الآخرة 1370هـ إبريل 1951م ص 18، 85، 170.

(25) جاء هذا في كتابه إلى أين يتجه الإسلام؟ ص20، والكتاب عبار عن مجموعة من المواد اشترك في تحريرها أساتذة متخصصون في الدراسات الإسلامية والشرقية في جامعات فرنسا وألمانيا وهولندا وانجلترا وأشرف على هذه البحوث مستر جب، وقدم لها مقدمة طويلة. وهو أحد مستشاري وزارة الخارجية البريطانية.

(26) محمد محمد حسين. الاتجاهات الوطنية. 2/364 الكتاب لأنيس فريحة.

البريطانية داخل مجلس العموم البريطاني رافعاً المصحف في يده قائلاً: ما دام القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم. لذلك فلا مناص من أن نزيله من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به[27].

ولهذا بدأت الحَمْلَة في الأوساط الاستعمارية - أفراداً ومؤسسات -، ثم أوكلوا المهمة إلى من استخدموهم - في وسط العرب أنفسهم - لتحقيق ذلك الهدف سواء أكانوا واعين لما يفعلون أو غير واعين، ولكنهم كانوا يعملون من خلال خطة العدو، لتحقيق أهدافه.

فالمجالان الأولان - اللغة، والكتابة - وهما أول ميدان عمل فيهما الداعون إلى إقصاء اللغة العربية وفي البداية كان - كما ذكرنا آنفاً - العاملون في هذين المجالين أناساً يعملون لحساب الاستعمار سواء أكانوا من الألمان أو الإنجليز. ثم حمل الراية في الداخل مؤسسات صحفية، وأدباء، وكتاب، ودعاة سياسيين، ومنظمات عربية.. مقدمين المشاريع والمقترحات لتحسين وإصلاح اللغة - كما زعم - ابتداءً باقتراح أحمد لطفي السيد - الذي وصف بأنه منشئ الوطنية الحديثة - حيث قدم في سنة 1899م مقترحاً مزدوجاً يجمع بين اللغة وتحسين الخط العربي[28]. ونهاية بمقترح عضو مجمع اللغة العربية عبدالعزيز فهمي المقدم للمجمع في جلسة بتاريخ 1943/5/3م ملخصاً ما سبقه من مشاريع داعية إلى اتخاذ الحروف اللاتينية للكتابة العربية[29].

وقد جوبهت هذه الدعوات والمشاريع بقوة سواء من قبل أدباء وكتاب أو من قبل أعضاء المجمع، ومن أطرف الردود القوية ما قام به المستشرق الإيطالي (كارلو الفونسو نلّلينو) (ت 1357هـ/ 1938م) وهو ليس من أبناء اللغة العربية لكنه درس العربية وتاريخ المسلمين وعاش بمصر أربع سنوات فقد كتب في الهلال[30] مقالاً تحت عنوان (الحروف اللاتينية.. هل تصلح للكتابة العربية؟) منكراً على من يطالب بهذه الدعوة وينقض بقوة ما يزعمه الداعون إلى الكتابة بالحروف اللاتينية مدللين على دعواهم بأن هذا قد تحقق في تركيا قائلاً: بأن تغيير الكماليين للغة العربية بأنه تغيير سياسي، وهو محاربة العنصر العربي والدين الإسلامي ليقطعوا صلتهم بالإسلام[31]. ثم قدم أسبابا وجيهة لرفضه لهذه الدعوة: بأن الخط العربي موافق لطبيعة اللغة العربية. وأن الأبجدية اللاتينية ليست مكافئة للحروف العربية. وأن الخط العربي يمتاز بميزة فذه فطبيعته لا يحتاج إلى طرق الاختزال. وأن استبدال الخط العربي بالخط اللاتيني سيؤدي إلى فقدان الكنوز العظيمة التي خلفتها الآداب الإسلامية. وأن هذه الدعوة ستؤدي إلى فقدان الوحدة العربية. وأن مصر نفسها ستخسر المركز الأدبي الممتاز.

هكذا فكر أحد العقلاء من غير أبناء اللغة العربية فأي دافع جعل بعض أبنائها يدعون إلى وأدها؟ إن لم يكن إلا الولاء لغيرهم.. أو الهزيمة أمام الهجوم الماكر على اللغة العربية بعدة وسائل.

أما المجال الثالث وهو مجال الأدب فقد حامت حوله دعوات للعمل على تكسير مفاصله هادفين صرف الناس أو الأجيال القادمة عن الثقافة العربية وتقليل العناية بالماضي العربي الإسلامي: شعره ونثره وتاريخه وعلومه، بزعم أنها قد أصبحت شيئاً قديماً لا يلائم حياتنا، ولا يتصل بها من أي سبيل. وأن الأدب العربي - كما قال بعضهم - أدب مِعَدَة لا أدب روح. وواضح أن تمزيق الآداب - بهذه الصورة - يصلون إلى تحقيق الهدف الخفي وهو تمزيق المجتمع. ومن

(27) كان لسعيد النورسي (ت 1962م) رد فعل لهذا القول حيث أصبح يعمل بكل جهد لا يكل فيه ولا يمل للعيش مع القرآن والتربية على أساس القرآن (انظر محسن عبدالحميد. حياة الإمام النورسي).

(28) من الطرافة ان المقترح يدعو للتيسير ومع هذا لا ادري اين التيسير في هذا المثال المقترح: فقد اقترح لطفي السيد أن تكون الدلالة بالحروف لا بالحركات فيكتب اسم (محمد) هكذا (موحامادون) في حالة الرفع و (موحامادان) في حالة النصب و (موحامادين) في حالة الجر.. فاي تسهيل هذا؟!.

(29) مجلة المجمع الجزء السادس - المطبعة الأميرية بالقاهرة ص195 - وانظر: د. محمد محمد حسين. الاتجاهات الوطنية 2/ 377 - 380 كان ممن اعترض بقوة على كتابة الخط العربي بالحروف اللاتينية (الأب انستاس الكرملي).

(30) الهلال سنة 44 عدد مارس 1936م ذي الحجة 1354هـ ص 517 - 519 وانظر د. محمد محمد حسين. الاتجاهات الوطنية 2/381 - 382 - الموسوعة العربية - موقع إلكتروني)

(31) انظر عن دور الكماليين في استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية (مجلة الرابطة الشرقية العدد الأول من السنة الأولى ص13) وشكيب أرسلان حاضر العالم الإسلامي 3/389 وما بعدها)

ثم إبعاده عن الدين الذي هو الضمان لبقاء اللغة وبقاء الثقافة[32].

وقد استخدمت وسائل كثيرة للحصول على نتائج ناجحة لذلك الهدف.. ومن تلك الوسائل:

- الدعوة إلى الاهتمام بالآداب القومية (الوطنية) في ظل (حُمَّى) أو (موضة) الحركات الوطنية والقومية التي دعمتها جهات استعمارية من أواخر القرن التاسع عشر. فصار كل إقليم يدعو إلى أدب خاص به. فالقومية المصرية - أو الفرعونية - تدعو إلى تمصير الأدب والفن واللغة. والعراقيون يدعون إلى أدب عراقي، والشامي يدعو إلى أدب شامي وهكذا[33].

- الاهتمام بالأدب الشعبي بحجة أن هذا لون من الأدب في حاجة إلى الرعاية والاهتمام والخروج بالأدب من أدب (القصور) أو الأدب (الرسمي) إلى أدب (الشعب). ولذا قامت مراكز، ومؤسسات ذات موارد مالية كثيرة تتولى رعاية أنشطة الأدب الشعبي، والتراث الشعبي، بل صار الأدب الشعبي له مقررات في الجامعات، وإنشاء أقسام أو كرسي الأستاذية للأدب الشعبي، ويدرس في برامج الدراسات العليا[34].

- الهجوم الشرس على من يتمسك بالأدب العربي بأنهم جهلة بالأدب العالمي، وأنهم جامدون وكسالى. أما الذي يعرف ويعيش الأدب العالمي - بلغات أخرى غير العربية - فهو وحده الذي يتذوق الأدب.

ووصل ببعضهم إلى أن يقول: بأن خضوع الشعر العربي للأوزان حرَمَنا من الملاحم الطويلة التي نجدها في أدب الأمم الأخرى[35]. ولاشك أن الخطر الخفي الذي يكمن وراء هذه الدعوة هو تنشئة جيل جديد من أبناء العرب لا يستطيع أن يتذوق أساليب البيان العربي الأصلية وموضوعاته للتجهيل في أسلوب القرآن الكريم. وهذا الاتجاه أدى إلى الشغف بأدباء الغرب، ومفكري الغرب وسياسة العرب، ولا ثقافة إلا ثقافة الغرب. وهذه الوسيلة واضح الهدف منها وهو قطع الصلة بما هو عربي. وقد نجحت في إنشاء جيل هواه ليس عربياً، ثم سلمت لهم مقاليد الأمور في الدول التي تحكمها الدول الاستعمارية تلك الدول التي تسلمت الحكم من الاستعمار[36].

- ومن وسائلهم نقل الكلمات العامية إلى الأسلوب الغربي.. وهذه الوسيلة لعلها تتجاوب مع خطة المستشرق جب الذي يدعو إلى السير الهادئ التدريجي الذي لا يكاد يسترعي الانتباه فيحصل التغيير دون ضجة[37] والخطر في هذه الوسيلة يكمن في تذويب اللغة وحرمان المسلمين من كل كنوز الحضارة الإسلامية[38].

- ومن وسائلهم الكتابة الأدبية بالعامية مبتدئين بالكتابة الأدبية المسرحية الهزلية[39] أولاً ثم الجدية، ثم جاء دور الروايات حيث كتبت بالعامية وكان أول رواية على يد الداعين إلى الوطنية[40]، ثم أصبحت الروايات بالعامية تنشر في أكثر من مكان وبالذات بالعامية المصرية واللبنانية والشامية، وانتشرت الأفلام السينمائية والمسلسلات وكلها باللغة العامية..

ولكن من اللافت للنظر أن انقلب الأمر رأساً على عقب فما أن شارف القرن العشرين على الانتهاء حتى صار الكثير من الأفلام والمسلسلات تؤلف وتلقى باللغة العربية الفصحى وصار لها رواج وإقبال كبيرين في الأسواق سواء للأطفال أو للكبار.

---

(32) انظر: تفصيلات أوفى عن هذا الموضوع: د. محمد محمد حسين. الاتجاهات الوطنية 2/ 382، 383. حصوننا مهددة من داخلها. ص192 - زكي مبارك. جناية أحمد امين على الأدب العربي 39، 49.

(33) تولت صحيفة الجريدة لصاحبها أحمد لطفي السيد الدعوة لهذا الاتجاه من سنة 1913م (انظر. نفوسة. تاريخ الدعوة إلى العامية 124 وما بعدها..).

(34) محمد محمد حسين. حصوننا مهددة من داخلها 192.

(35) قائل هذا هو احمد امين (انظر: زكي مبارك. جناية احمد امين على الأدب العربي ص 57 - 64).

(36) د. محمد محمد حسين. الاتجاهات الوطنية 2/273 - 284 - حصوننا مهددة من داخلها 191.

(37) جب. إلى اين يتجه الإسلام؟ ص350 وراجع: محمد حسين. الاتجاهات الوطنية 2/211 - 220.

(38) د. محمد محمد حسين. الاتجاهات الوطنية 2/ 387، 388.

(39) كانت البداية لهذه المسرحيات الهزلية في أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم تشكلت (فرقة رمسيس) التي تولت التمثيل المسرحي بقيادة نجيب الريحاني.

(40) انظر: المنفلوطي.. النظرات ج3 ص77 واول رواية بالعامية رواية (زينب) لمحمد حسين هيكل.

منارات الإنهاض:

رغم الحملة المنظمة - الطويلة المدى - لإجهاض اللغة العربية في مجالاتها المختلفة - متعددة الوسائل، الميسر لها كل المراكز الإعلامية، والتعليمية، المهيأ لها وظيفياً ومالياً - فإنها حملة لم تحقق أغراضها المرسومة كاملة، مع العلم أن الدفاع عن اللغة العربية لم ينل رعاية رسمية، ولا تبنته جهات قوية، بل على العكس كانت الجهات الرسمية من وراء الداعين إلى الحط من اللغة العربية أو تطويرها بهدف تذويبها..

أما ما حصل في أيام الخديوي عباس الثاني من إيعاز وزارة المعارف المصرية إلى أساتذة المدارس بتحويل الألفاظ العامية إلى أصولها العربية[41] فهي محاولة وكما يبدو من قبل الخديوي للدفاع عن نفسه ليس حباً في اللغة ولكن كراهية في الإنجليز في مقتبل حكمه حيث كان هناك صراع بينهما فقد كان الإنجليز يسعون لنزع سلطات الخديوي أو عزله وهو يسعى لإحباط كل المحاولات التي تسعى للإطاحة به.

فالجهود التي بذلت ضد دعوات الإجهاض للغة العربية هي جهود ذاتية أو فردية سواء أكانوا أدباء، أو شعراء، أو كتاب، أو أصحاب جرائد، أو باحثين دون دعم رسمي أو مالي من جهات رسمية.

فقد كانت الجهود - رغم محدوديتها - تسعى لمقاومة كل الهجوم الموجه ضد اللغة العربية سواء أكان من السلطات الاستعمارية أو من المستشرقين أو من أبناء اللغة العربية الذين كانوا - قاصدين أو غير قاصدين، بسوء نية أو بحسن نية - يخدمون المخطط الاستعماري.

فقد ألفت كتب كثيرة من أواخر القرن التاسع عشر تدافع عن اللغة العربية بمجالاتها الثلاثة منها ما يسعى لتهذيب العامية وإرجاع أصولها إلى العربية الفصيحة[42]، وكتبت مقالات، وألفت كتب كثيرة تنافح عن العربية الفصيحة وتقارن بينها وبين لغات العالم يقول زكي مبارك على سبيل السخرية بمن يدعو لإلغاء العربية.

وتصدى لدعوى هد اللغة العربية كتاب بعضهم من غير العرب وبعضهم من العرب ولكنه لا يدين بالإسلام كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

ومن تلك الجهود إنشاء المجمع العلمي العربي بدمشق في 1919/6/8م من منطلق القومية العربية في مواجهة حملة التتريك التي تولاها الاتحاديون الأتراك[43].

ثم أنشئ مجمع اللغة العربية بالقاهرة[44]. وصحيح أنه صار مؤسسة رسمية لكنه قام منذ البداية بجهود شخصية، ورغم غزوه من قبل المستشرقين والتحاقهم فيه أعضاءً، وكذا تبنيه لمشروعات هادمة للغة العربية إلا أن تلك المحاولات كسرت قرونها في الجدار الصلب للغة العربية.

ولأن اللغة العربية محفوظة كونها لغة القرآن الموعود من الله سبحانه بالحفظ فإن جهات رسمية قد تكون معادية للإسلام ولكنها - بشكل غير مفسر منطقياً - تتولى حماية اللغة العربية كما صنعت سوريا في تعريب كل العلوم وصارت الجامعات تتولى تدريسها باللغة العربية.

وصارت المؤسسات الإعلامية، بكل أنواعها المقروءة والمسموعة والمشاهدة تستعمل اللغة العربية الفصحى إلا ما ندر وهزل. وليس هذا في البلدان العربية بل كل الإذاعات العالمية التي تسعى للتوسع وإسماع المسلمين والعرب صوتها فقد كانت اللغة العربية الفصحى هي الوسيلة وليست اللغات العامية. وتختار تلك الجهات المذيعين والمذيعات من شتى البلدان على أساس إجادة

---

(41) نفوسة. تاريخ الدعوة إلى العامية 171، 172.

(42) من هؤلاء الذين قام بهذا الجهد محمد علي الدسوقي، وحبيب غزالة الذي ما فتئ يذكر الكلمة العامية ثم يذكر أصلها العربي (انظر: نفوسة: تاريخ الدعوة إلى العامية 171 - 178).

(43) انظر: الموقع الإلكتروني لمجمع اللغة العربية السوري حيث تولى حكم سوريا المولى من قبل الإنجليز إصدار قرار بإنشاء المجمع لمواجهة سياسة التتريك السابقة.

(44) كانت بداية المجمع في سنة 1892م حيث سعى محمد عبده وبعض رفاقه لإنشائه، ولكن المجمع الحالي أسس بالقاهرة في 14 شعبان 1351هـ/ 13 ديسمبر 1932م في عهد الملك فؤاد وبدأ العمل به من سنة 1934م على أن يتكون المجمع من عشرين عضواً نصفهم من المصريين ونصف الآخر من العرب والمستشرقين. ولهذا ضم فيه حاخام يهودي مصري وبعض المستشرقين منهم (هاملتون الكسندر جب) المستشرق البريطاني وأوجست فيشر الألماني (انظر الموقع الإلكتروني للمجمع)

اللغـة الفصحى، وبعـض الإذاعات العالمية كالروسـية والصينية واليابانية سعت إلى اختيار مذيعين من أبناء جنسهم يجيدون العربية الفصحى.

وأنشـئت مراكز علمية في عواصم الـدول الكبرى تتبنـى العربيـة لغة رسـمية في دراسـاتها. هـذا غير المراكز التي أشئت هناك على أساس أن اللغة العربية هي الأصل.

وصـارت اللغة العربيـة الفصحى لغـة معترف بها فـي المجاميع والمنظمات الدولية كالأمم المتحدة سـواء فـي الاجتماعات أوفـي دورات العمـل أو الترجمة في المؤتمـرات، فقـد أصبحـت اللغـة العربيـة واحدة من أهـم اللغات السـت المعتمدة في منظمـات هيئة الأمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإسـلامي والإتحاد الأفريقي والمنظمات الدولية الأخرى[45].

وظلـت الحـروف العربية حتى الآن أسـاس اللغات الملاوية، والأردية والفارسـية والأندنوسـية والأفغانية رغم أنهم ليسوا عرباً.

إضافة إلى ذلك فإن العربية هي الأكثر اسـتخداماً فـي تشـاد ومالي والنيجـر، بـل إن اللغـة العربية في أفريقيا تعد أهم اللغات وصارت العربية في باكسـتان مادة دراسـية فـي آلاف المدارس الحكوميـة حتى في الهنـد لا تخلـو من تدريـس اللغة العربيـة في مدارس حكومية[46].

وأنشـئت جامعات وكليـات ومعاهد لدراسـة اللغة العربية في أكثر من دولة - سواء دول العالم الإسلامي أو غيرهـا - تقوم على برامج ومناهج دراسـية معمقة فـي كل فنون اللغـة العربيـة ومنها كلية اللغـة العربية

(45) ويكيبيديا -الموسوعة الحرة.

(46) انظـر. محمـود فهمـي حجازي. اللغـة العربية بـين اللغات العالميـة المعاصرة (الشبكة العنكبوتية).

والحضـارة الإسـلامية التابعـة لجامعـة السـلطان الشـريف علي الإسـلامية. بروناي دار السلام. وكلية اللغة العربية في ماليزيا.

وصـارت اللغـة العربيـة معتمـدة فـي الشـركات الصناعيـة الكبرى فلا نجد - غالباً - جهازاً إلكترونياً أو كهربائيـاً إلا وله نشـرة تبين نظام التشـغيل للجهاز باللغة العربية. وليس باللغات العامية.

وأصبحت شـركات الأدوية ترفق منتجاتها بوصفة مفصلـة بلغات عـدة منها اللغة العربيـة الفصحى وإن كان فيهـا قصور في التعريب إلا أنهـا لم تكن الوصفة بالعامية لأي من الأقطار العربية.

إضافـة إلـى ذلك فـإن الشـكوى التـي راجت في النصـف الأول مـن القـرن العشـرين الميـلادي حـول صعوبـة الطباعـة بالحـروف العربية لتعدد أشـكالها وصورهـا وكانت مبرراً للدعوة إلى اسـتبدال الحروف اللاتينيـة بالحـروف العربية لحل تلك الشـكوى.. قد سـقطت تماماً لأن صناعة الطباعة اسـتوعبت معظم أشـكال الحروف العربية ثم جاءت الثـورة الإلكترونية لتمسـح كل تلـك الأوهام فأصبح الخـط العربي يكتب بكل أشكاله وصوره دون عناء يذكر.

ونختـم هـذا البحـث بالإشـارة إلـى إنشـاء المجلـس الدولـي للغـة العربيـة فـي 10مـن ربيـع الآخر1429هـ/16أبريـل2008م في الرياض، بحضور (150) رئيـس جامعة عربية،ويهدف إلـى خدمة اللغة العربيـة وثقافتها، من خـلال العديد من النشـاطات، ولـه صفة عالميـة، له مواقـع ومقرات فـي معظم دول العالم[47].

(47) الموقع الإلكتروني للمجلس الدولي للغة العربية.

المصادر والمراجع

أحمد لطفي السيد.

1. مقالات عن اللغة العربية والعامية. صحيفة (الجريدة) أصدرها صاحبها لطفي السيد من سنة 1913م.

جب. هاملتون الكسندر (مستشرق إنجليزي).

2. إلى أين يتجه الإسلام؟. بيروت. 1932م.

زكي مبارك.

3. جناية أحمد أمين على الأدب العربي. عرض ودراسة/ حسين خريس. المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

طه حسين.

4. مستقبل الثقافة في مصر. طبعة المعارف بمصر 1944م.

لو ثروب ستو دارد.

5. حاضر العالم الإسلامي. ترجمة: عجاج نويهض. وتعليق/ شكيب أرسلان. طبع في مصر في سنوات 1343هـ، 1352هـ.

محب الدين الخطيب.

6. لأن أكون مخطئاً أحب إليّ من أن أكون ظالماً. مجلة الفتح. عدد 852 - 18 صفر 1367هـ. ص8-11 في رده على محمد فريد أبو حديد.

محمد محمد حسين (الدكتور)

7. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. مؤسسة الرسالة. بيروت.

8. الإسلام والحضارة الغربية. الطبعة الأولى 1388هـ/1969م، دار الإرشاد، بيروت.

9. حصوننا مهددة من داخلها. ط الثامنة 1404هـ/1983م. مؤسسة الرسالة. بيروت.

المعلوف. عيسى اسكندر.

10. مقالات عن العامية. مجلة مجمع اللغة العربية. الأجزاء الأول. شعبان 1353هـ/ أكتوبر 1934م ص350-369. والجزء الثالث. شعبان 1355هـ/ أكتوبر 1936م ص349-371. والجزء الرابع. شعبان 1356هـ/ أكتوبر 1937م ص294-315. والجزء السادس. جمادي الآخرة 1370هـ/ إبريل 1951م ص18، 85، 170، 195. المطبعة الأميرية بالقاهرة.

المقتطف.

11. اللغة العربية والنجاح. المقتطف. السنة السادسة. عدد نوفمبر 1881م.

المنفلوطي. مصطفى لطفي.

12. النظرات. ج3. ط السابعة 1938م. مصر.

المواقع الإلكترونية.

13. موقع مجمع اللغة العربية السوري.

14. موقع مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

15. موقع الموسوعة العربية.

16. موقع ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

17. الموقع الإلكتروني للمجلس الدولي للغة العربية.

د. نفوسة زكريا سعيد.

18. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر. ط الأولى 1383هـ/ 1964م. دار نشر الثقافة بالإسكندرية. مصر.

نُللينو (كارلو الفونسوا- مستشرق إيطالي).

19. الحروف اللاتينية هل تصلح للكتابة العربية؟. مجلة الهلال. سنة 44 عدد ذي الحجة 1354هـ/ مارس 1946م ص517-519.

لماذا سمي المندب مندباً؟ (أ)

بقلم/ مطهر علي الارياني

الأسماء «البلدانية» جزء لا يتجزأ من الثروة اللغوية والتراثية، لأي شعب، ولأي أمة، فهي لا تشتمل على كثير من المعارف اللغوية فحسب، بل وعلى كنوز من المعارف التاريخية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها من الشؤون الإنسانية.

ومنذ بدايات حقب الاستقرار الحضرية، وقبل الدخول في العصور الحضارية، أخذ الإنسان يمتلك أزمة لغته، ويتصرف بها للتعبير عن ذاته، وعن رغباته الحياتية، وعن علاقاته بالآخرين، وماله ولهم من علاقات بالطبيعة من حولهم.

ومن ثم فإن اللغات، منذ تلك الحقب المبكرة، وعبر ما جاء بعدها من العصور التاريخية الحضارية، أصبحت أهم ما يتميز به الإنسان، وأصبحت لغة كل قوم خاضعة لإرادتهم الجمعية، ورغبتهم العفوية، في تطوير آليتها، وإثراء مادتها، وتوسيع دائرتها، ليكون تطورها مواكباً لتطور الحياة الإنسانية بمختلف جوانبها، وعاملاً من عوامل التطور أيضاً.

و «الاشتقاق» في لغتنا العربية اليمنية القديمة، وفي لغتنا العربية الشمالية، وفي سائر لغات المشرق العربي القديم التي تندرج تحت مصطلح (اللغات السامية) هو واحد من أهم وسائل تطوير هذه اللغات.

والأسماء « البلدانية» الخاصة، وهي التي يطلقها الناس على هذا أو ذاك من الأماكن، فيصير إسماً علماً له، سواءً أكان مدينةً، أو بلدةً، أو قرية، أو جبلاً، أو سهلاً، أو وادياً، أو أي بقعة يرى فيها الإنسان ما يميزها، أو توحي إليه بما تصلح له أو يصلح لها.. هي في جلها، إن لم تكن كلها، أسماء «مشتقة» وليست» مرتجلة» ولكن القضية هي أن كثيراً منها أسماء قديمة، قدم علاقة الإنسان بالأرض، ولهذا فإن الأصول اللغوية التي اشتق منها هذا الاسم أو ذاك بما كان له من دلالة قد يكون مما أميت استعماله بتلك الدلالة، ولهذا فإن اللغويين وأصحاب معجمات البلدان، لا بد أن يجهلوا الدلالة التي كانت هي المقصودة، حينما أطلق على هذا المكان ذلك الاسم فيكثر قولهم عن كثير من هذه الأسماء أنها «مرتجلة».

واليمن بلد حضاري قديم، دخل أهله حقب الاستقرار الحضري في أزمنة موغلة في القدم، ومنذئذ أخذت الحياة مسارها في التطور إلى الأمام،

فـي مختلف المجالات وشتى المظاهر، وفـي مقدمتها اللغة بمنطوقها ومفهومها، لا باعتبارها وسيلة للتفاهم فحسـب، بل لكونها أولاً أداة التفكير التي لا يستطيع الإنسـان بلورة أفكاره، ثـم التعبير عنها، ثـم حفظها بالتدوين.. إلا بها.

ونظراً لما للغة من هذه الأهمية، فإن جميع مفرداتها ومخرجاتهـا جديـر بالتأمل والدراسـة والاستطاق، وسنجد أنها إلى جانب نطقها بمعانيها اللغوية المباشرة وغير المباشرة.. الحقيقية والمجازية.. تنطق بالكثير من المادة المعرفية المتنوعة عن الإنسان وحياته وتطوراتها، بما في ذلك الأسماء «البلدانية» الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ وأغوار الإنسـان، فهـي لا تقل إفصاحاً عن مكوناتها وما لها من أبعاد.

وقد عرف الدارسـون عن الإنسـان اليمني، ولعه بتسـمية الأماكـن من حوله، بحاسـة لغويـة مدركة ما للأسـماء من أهمية، فجاءت هذه الأسـماء لتعبر أولاً عـن طبيعة الإنسـان اليمنـي، ولتعبر ثانيـاً عن الواقع الطبيعـي المحيط بـه، ولتعبـر ثالثاً عـن علاقته بهذا الواقع.

ومـن هذا المنطلق فإنه يحسـن بكل مـن له اهتمام بالجوانـب التراثية، أن يولي هذا التراث أهمية بجميع كلياته وجزئياته، وبسـائر مفرداتـه ومخرجاته، وحين يفضـي به هـذا الاهتمـام إلـى النظر في « الأسـماء البلدانية» الخاصة سيجد أنها في الأعم الأغلب أسماء« مشـتقة» من أصـول لغوية لها دلالتهـا، أو مفردات لها دلالاتها المتعددة وإحداها هي التي اشـتق منها الاسـم ذو العلاقـة، وما لـم يُهْتَدَ إلى دلالتـه، ليس بالضرورة اسـماً» مرتجلاً» وإنما هو اسم جهلت دلالته، إما لأنها خفيت على المعنى، أو لأنها مما أميت استعماله.

والموضوع التالي كتب أصلاً تحت الجذر اللغوي (ن د ب)، ليكـون مادة من مواد (المعجم اليمني - في اللغة والتراث) في طبعته الثانية المزمعة.

وكان الهـدف الأول منـه، هو إعادة الاسـم المكاني اليمني المشـهور (المندب) إلـى الدلالة الصحيحة التي نرى أنه اشتق منها، مع اتباع ذلك بـ» استطراد» مناسب يوضـح ما لهـذا الرأي الجديـد المتعلـق بالدلالة التي نرى أن هذا الاسـم اشـتق منها، من الأهمية التاريخية الكبيرة.

نعم: إن عـدداً قليلاً من مؤلفي كتب التراث العربي المرجعية، قد تعرض لهذا الاسـم (المندب) من الناحية اللغويـة الاشـتقاقية، فأعـادوا اشـتقاقه إلـى الندب بدلالته على: استدعاء الناس والإهابة بهم في المهمات، أو استصراخهم في الملمات، فيكون (المندب) عندهم، هو: اسـم المكان الذي يندب إليه النـاس لهذا الأمر أو ذاك، ثـم أنهم يعللون إطلاق الاسـم بهذه الدلالة، على هـذا المكان البلدانـي في اليمن، بأسـطورة موغلة في الأسطورية إلى حد استحالة حدوثها، فيفسدون رأيهم اللغوي الاشتقاقي إفساداً كاملاً شرحاً وتعليلاً، لفساد الأسـطورة التي يعتمدون عليها في اشـتقاقه وشرحه وتعليله، وهذا ما سيأتي توضيحه.

وأمـا المحدثون والمعاصرون، من الأجانب، والعرب، واليمنيـين، فإنهـم لا يكتبـون عن (المنـدب) الذي جاء ذكره في النصوص المسندية، بما له من منطوق ومفهوم يشمل مساحة واسعة من جنوب (البحر الأحمر)، وإنما يكتبـون عن (باب المندب)، ولهم الحـق في الكتابة عن هذا الممر اليمني بما له من أهمية تجارية واستراتيجية عالميـة كبيرة، ولكنهـم يخلطون بـين مفهومين: مفهوم (المنـدب) كمنطقة جغرافيـة متكاملـة، ومفهوم (باب المنـدب) الـذي لـم يطلق إلا إسـماً للمضيـق البحري الواقع بين جزيرة (مَيُّوْن) وجبل (الشيخ سعيد)، ويكون الخلط بين المفهومين أوضح ما يكون، حينما يتعرضون لكلمـة (المنـدب) لغوياً فيعيدون اشـتقاق الاسـم إلى الندب بدلالته على: البكاء والعويل وذرف الدموع، وفي تعليل التسـمية يذكرون للبكاء عدة أسـباب يعللون بها سبب إطلاق هذا الاسم على هذا المكان، وكلها تعليلات تعتمـد على التخمين والرجم بالغيـب، فهي متهافتة لا تثبت أمام التعليل المنطقي الصحيح كما سيأتي.

وأمـا الـرأي الـذي نقـول بـه، ونعتبـره الأصح والأصدق، إذا ما قورن بالرأيين السـابقين أعلاه، فإنه يعيد اشتقاق الاسم (المندب) بمفهومه الأصلي القديم

كمنطقة جغرافية متكاملة إلى الندب ولكن بدلالته على: قطع السائر للمكان بالعرض، أو اجتيازه للمكان من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر على النحو الأفضل، ونحو ذلك من تحقيق الغايات بأحسن الوسائل، وهو ما سيأتي شرحه، في مستهل الموضوع الذي يكتب له هذا التمهيد.

أما تعليل التسمية بذكر السبب الذي من أجله سمي (المندب) مندباً، فإن أي ملم بتاريخ اليمن القديم، لن يتبادر إلى ذهنه إلا التعليل المنطقي الوحيد، الذي يربط تسمية هذه المنطقة بـ (المندب)، بما كان لليمنيين منذ أقدم العصور، من ندب واجتياز عبر مياه (البحر الأحمر)، إلى السواحل المقابلة في بلاد (الحبشة) [(1)].. تلك الظاهرة الديموغرافية الفذة، التي يمكن إيجاز نتائجها التاريخية، بتلخيص أقوال عدد من كبار العلماء المتخصصين، الذين يقولون: إن هذه الظاهرة قد جعلت الحضارة اليمنية القديمة، أول حضارة من حضارات العالم القديم، تقتحم بلدان يقع فيما يعرف بـ« إفريقية جنوب الصحراء»، وجعلت (الحبشة)، أول بلد في ذلك الجزء من أفريقية، يدخل العصور التاريخية في الأزمنة القديمة، وينضوي إلى (اليمن) ليشكلا معاً مجالاً حضارياً واحداً لقرون من الزمن.

إن هذا الرأي في شرح (المندب) وفي تعليل التسمية به، يفتح أمام الدارسين المتخصصين وأمام المهتمين المؤهلين، أبواباً واسعة لكتابة الدراسات المطولة، بل ولتأليف الكتب المفصلة، لإعطاء هذا الموضوع التاريخي الكبير حقه بكل ما له من أبعاد ودلالات، وهو أيضاً رأي جديد، فعلى مبلغ ما نعلم، لم يسبق لأحد أن قاله لا إجمالاً ولا تفصيلاً، بل إنه مخالف لكل ما سبق لنا أن قرأناه مما كتب عن (المندب) أو عن (باب المندب)، في كتب التراث المرجعية، وعند المحدثين والمعاصرين.

ومخالفة هذا الرأي لما سبقه من الآراء والأقوال، ليست مخالفة اعتباطية ولا مرتجلة، ولم أقصدها بل هي التي قصدتني وجاءت إلي شيئاً فشيئا بحكم اهتمامي بالدراسات اليمنية القديمة، وعملي في مجال الدراسات اللغوية، وقد تشكل هذا الرأي لدي وتطور منذ عقود من الزمن، وسبق أن عبرت عنه عرضاً في سبعينيات القرن الماضي من خلال بعض الإصدارات، ثم عدت إلى التعبير عنه في كتاب مرجعي هام، هو (الموسوعة اليمنية) الصادرة عن (مؤسسة العفيف الثقافية) في طبعتها الأولى عام 1992م ثم في طبعتها الثانية عام 2003م، وذلك في موضوع جاء عنوانه مزدوجاً لأول مرة - (المندب - وباب المندب) - من أجل التمييز بين منطقة المندب كمنطقة واسعة، وبين مضيقها الذي هو بمثابة باب لها للخروج منها إلى (خليج عدن) أو للدخول إليها للقادم من خليج عدن، وقد كتب الأستاذ القدير أحمد قايد بركات، المادة الأساس لهذا الموضوع، وليس لي فيه إلا السطور الأولى التي تعيد اشتقاق كلمة المندب إلى الندب بدلالته على: القطع والعبور والاجتياز.

هذا وقد أعدت التعبير عن هذا الرأي للمرة الثالثة في كتابي (المعجم اليمني) الصادر عام 1996م تحت عنوان: معجمي لغوي هو مادة (ن د ب) صـ856 - صـ857.

وبحمد الله، فإن هذا الرأي الجديد، قد بدأ يشق طريقه إلى بعض الموسوعيين العرب[(2)] ويؤتي ثماره عندهم، فقد أتيح لي أن اطلع على (الموسوعة العربية) [(3)] وهي آخر الموسوعات الضخمة والشاملة صدوراً في الوطن العربي، فوجدتها تحت عنوان (باب المندب)[(4)] قد أعادت اشتقاق الاسم (المندب) إلى: الاجتياز

(1) الاسم المعتمد اليوم لهذه البلاد هو أثيوبيا) ولعلاقة هذه الدراسة بالتاريخ القديم فلن تستعمل فيها إلا التسمية القديمة (الحبشة) - وانظر الحاشية التالية في صـ7.

(2) قابلت بعض علماء المستشرقين، وعبروا لي عن اعتبارهم للرأي الذي يعيد اشتقاق (المندب) إلى الندب بمعنى الاجتياز والعبور، رأياً يستحق أن يوضع في الاعتبار، وأن تعليل التسمية بأنها تعود إلى ما كان لليمنيين قديماً من عبور واجتياز إلى بلاد (الحبشة) هو التعليل المنطقي الذي يتوافق مع إعادة الاسم إلى هذه الدلالة. ولعل منهم من يكون قد كتب حول هذا الموضوع، ولكنه لم يتح لي الاطلاع على شيء من ذلك حتى اليوم.

(3) صدرت في دمشق الفيحاء، وتشكلت لتأليفها هيئة بقرار رئاسي تضم نخبة من كبار العلماء والمحققين السوريين، واهيب بعدد كبير من العلماء والمختصين العرب للمشاركة في كتابة موادها كل في مجال اختصاصه، وصدرت في 25 مجلداً فخماً، وكان صدور آخر مجلداتها بتاريخ:.

(4) المجلد 1 صـ512.

والعبور بلغة اليمن القديمة، حيث تقول بعد التعريف العام: « وجاء ذكر (المندب) في المساند الحميرية، واسمه من: ندب أي: جاز وعبر.. الخ»، ورغم أن كاتب المادة اتبع ذلك بذكر الرأي الذي يعيد اشتقاق الاسم إلى الندب أي: البكاء وندب الموتى، إلا أنه قدم الدلالة الأولى مفضلاً لها على الدلالة الثانية، وما ذكره لهذه الأخيرة إلا بسبب أن الكتاب المحدثين والمعاصرين، من الأجانب، والعرب، وبعض اليمنيين، قد لجوا ولجحوا، وألحوا وألحفوا، في ذكرها والإصرار عليها في كل ما كتبوه متعرضين لشرح الاسم وتعليله، حتى لقد سيطر باطله على الأذهان وكأنه حقيقة.

ولا شك إن إعادة اشتقاق كلمة (المندب) إلى دلالة الندب على: الاجتياز والعبور في هذه الموسوعة[5] هو أمر يبعث على السعادة والحبور، لأن ذلك جاء أولاً بالاعتماد على المرجعية اليمنية[6]، ولأنه « ثانياً يجيء لأول مرة في تاريخ كل ما كتب عن (المندب) و (باب المندب) قديماً وحديثاً - على مبلغ ما نعلم -، ولأنه جاء ثالثاً ليؤكد أن الأخطاء الكثيرة التي ارتكبت فيما كتب عن اليمن قديماً وفي الأزمنة المتأخرة والحديثة، ولا تزال ترتكب في الأزمنة المعاصرة.. قابلة للتصحيح، ونفي ضلالاتها، ودحض شبهاتها، وإحلال ما هو صحيح وحقيقي محلها، إذا ما تكاتفت جهود اليمنيين المؤهلين للقيام بهذه المهمة الوطنية الجليلة.

ومما يبعث على الحبور والاستبشار، أن عدداً من المؤرخين، والموسوعيين العرب، قد شرعوا يتحدثون عن التفاعل الديموغرافي، والاجتماعي، والثقافي، والحضاري، والتجاري، والسياسي، بين اليمن والحبشة، بأساليب منهجية متعمقة، تؤكد أن الحضارة اليمنية، والاستجابات العفوية للسكان الأصليين في الحبشة، قد أدت إلى إنشاء مجال حضاري واحد، تجسد في أرجائه كيانان سياسيان رئيسيان، دون غزو ولا احتلال، وظلا طوال قرون من الزمن، مجرد كيانين متطابقين في جوانب، ومتماثلين في جوانب أخرى، ولم يد ربينهما - لقرون عديدة - إلا ما يدور بين كيانين سياسيين في مجال حضاري موحد. من التنافس المتسلح بالشرعية التي يعتقد كل من الطرفين أنه الممثل الحقيقي لها، وذلك حتى القرن الخامس الميلادي، حيث أصبحت الحبشة دولة موالية للرومان. فصارت بذلك دولة أجنبية غازية، ومن ثم جاء غزوها لليمن في القرن السادس.

ويمكن الاكتفاء هنا، بالإشارة مرة أخرى إلى (الموسوعة العربية) سابقة الذكر، فقبل ما ذكرته عن (المندب)، عقد فيها باب مطول بعنوان (إثيوبيا). وتحت العنوان الجانبي (التاريخ القديم ما قبل أكسوم) جاء الحديث عن تاريخ إثيوبية - الحبشة[7]، القديم، ومما جاء فيه - ج/1 صـ358 -:« إن ما يتوافر لدينا من معلومات مستقاة من مصادر قديمة. ومن الكشوف الأثرية، في شمال إثيوبية، ترجح عبور جماعات يمنية البحر الأحمر... [8]، حيث استقرت أول الأمر في المنطقة الساحلية، ثم توسعت إلى الداخل. لتقيم - في القرن الخامس قبل الميلاد - حضارة شبيهةً بتلك المعروفة في اليمن القديم، وتقدم الدليل على ذلك. النقوش المكتشفة في المنطقتين المذكورتين، من حيث لغتها، وخطها، ومضمونها، وكذلك الطراز المعماري. وأسلوب النحت، فقد عثر على مجموعة من النقوش

(5) كما اطلعت على فقرة من (الموسوعة الحرة) تعيد اشتقاق الاسم إلى هذه الدلالة، والموسوعة الحرة) هي مشروع جاد لا يزال العمل فيه جارياً من خلال« الشبكة المعرفية - العنكبوتية - ».

(6) المرجع هو أن (الموسوعة) كانت هي المرجع الذي اعتمد بهذا الصدد ولهذا يجب أن نتذكر بإجلال صاحب الفضل في صدور أول موسوعة يمنية، إلا وهو المغفور له الأستاذ أحمد جابر عفيف رحمه الله وأجزل ثوابه.

(7) في حاشية صـ4 السابق، تنبيه إلى أن الاسم القديم لإثيوبيا هو الحبشة. وإن الحديث عن التاريخ القديم لهذا البلد، لا يحسن إلا باستعمال الاسم نفسه وهو في اللغات الأجنبية ينطق "Alabasinyan" تحوير النطق (حبشي - بالجمع). والحبشة اسم يمني - عربي - لا يحمل في أصله، أي تصنيف إثني و أي توصيف لوني. وللحبشة والأحبوش والحبش والأحباش في التصويت لغوي وقع جميل. ولها في المعجمات دلالات حسنة. ومن أهم دلالاتها الخلط والمزج والجمع بين شيئين مختلفين لتشكيل شيء مؤتلف ومن ذلك الجمع بين اثنين او اكثر لإنتاج مجتمع جديد. و"الأحابيش العرب" جماعة مؤلفة من عناصر تنتمي إلى قبائل مختلفة فصار لهم كيان إيجابي مميز عن "إثيوبيا" فكلمة يونانية معناها أرض الوجوه المحترقة. فيكون الإثيوبيون هم أصحاب الوجوه المحروقة وكأنهم هنا استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير

(8) الفراغ المشار إليه بالنقاط ذكرت فيه الموسوعة تاريخ قيام مملكة لاكسوم. في سياق يوهم أن هذا هو تاريخ الهجرات اليمنية إلى الحبشة. وهو خطأ يجب تأكيد. فتاريخ هذه الهجرات أقدم بكثير من التاريخ المذكور - القرن الخامس قبل الميلاد - تاريخ نشوء الدولة.. ولا يمكن لدولة أن تنشأ بدون موجة من موجات الهجرة

المكتوبة بالخط العربي الجنوبي المسند، ولغتها سبئية أو وثيقة الصلة بها، وتتضمن أسماء لآلهة وأشخاص وأمكنة، وردت في النقوش اليمنية، وثمة شبه واضح بين تصميم واجهة معبد (يَحَا)، وقاعدته المدرجة، والمباني المماثلة له في اليمن، ولا سيما المعبد الكبير في مأرب، كما يلاحظ هذا الشبه في المباخر، والمذابح الحجرية، وكذلك في أسلوب المنحوتات البارزة، وفي أشكال التماثيل، ومنصات القرابين، وفي الرموز المقدسة كالهلال... الخ».

وعند الربط بين الفقرة السابقة القصيرة - ذات الدلالة الكبيرة - التي تحدثت فيها (الموسوعة العربية) عن (المندب) منوهة بورود هذا الاسم في المساند، ومعيدة اشتقاقه إلى دلالة الندب في اللغة اليمنية القديمة، على: الاجتياز والعبور، وبين هذه الفقرة الأخيرة أعلاه، التي ذكرت ما كان لليمنيين قديماً من اجتياز وعبور إلى أراضي (الحبشة)، ومن استقرار في مناطقها الساحلية والداخلية، ثم ظهور (مملكة الأكسوم) مع عقد المقارنة التي تكاد تكون تطابقية بين الحضارة الحبشية والحضارة اليمنية. نعم: لو تم هذا الربط لاستطاع أي باحث مهتم، أن يخرج بما هو جدير بأن تؤلف فيه الكتب بل والمجلدات.

أما ما يهم هنا، فهو أن هذا الربط، يبشر بإمكان أن يعاد (المندب) إلى الأذهان بمفهومه الأصلي القديم، وذلك بالكتابة عنه انطلاقاً من هذا المفهوم بما له من أبعاد جغرافية، وديموغرافية، وحضارية، وتاريخية، باعتباره الجسر الأول[9] الذي مده اليمنيون من سواحلهم إلى السواحل الإفريقية المقابلة، ليكون منصة للندب والاجتياز كظاهرة فذة أدخلت بلاد (الحبشة) العريضة الطويلة في مجال حضاري من مجالات العالم القديم، حيث انضوت مع (اليمن) في مجال حضاري واحد، دون غزو ولا احتلال كما سبق أن ذكرت.

ولم يبق إلا أن يتصدى الباحثون والمؤرخون لهذا الأمر، فيفرقوا في أعمالهم بين الكتابة عن (باب المندب) كممر بحري تجاري واستراتيجي عالمي هام، وبين الكتابة عن (المندب) كمجاز ومعبر تاريخي كان العامل الأول لإنشاء أول حضارة في عالم « إفريقيا جنوب الصحراء»، وكمجاز ومعبر أصبح فيما بعد منصة للاجتياز والعبور المتبادل، بين البلدين - الحبشة واليمن - على ضفتي جنوب (البحر الأحمر)، وحتى الغزو الحبشي الأخير عام 525م.

لقد وقع كثير من المؤرخين والباحثين - وبخاصة المؤرخون والباحثون العرب - في أسر أخبار الحملة الحبشية الأخيرة على اليمن، فحضرت في أذهانهم صورة العلاقات العدائية بين (اليمن) و (الحبشة)، وغابت عنها الصورة الأصلية الأهم بأبعادها الثلاثية... الجغرافية[10]، والديموغرافية، والحضارية، مع تفاصيلها التاريخية من العلاقات السياسية، والثقافية، والاقتصادية، والتجارية، وغيرها من العلاقات الإيجابية التي استمرت قروناً طويلة من الزمن وحتى علاقات الصراع والتنافس على « الشرعية السبئية»[11]، لم تكن أكثر من أي صراع تنافسي في نطاق أي مجال حضاري.

ومن هنا تأتي أهمية القضية، وأهمية الكتابة عنها من مداخلها المختلفة، ومنها مدخل الكتابة عن (المندب) بمفهومه الأصلي القديم، ولا شك أن هذه مهمة علمية، توجبها المسئولية العلمية على القادرين أينما كانوا، وتوجبها المسؤولية الملزمة، على القادرين

---

(9) من المعلوم انه اصبح لليمنيين ندب واجتياز وعبور من مواقع كثيرة في ضفاف سواحلهم على (البحر الأحمر) تتجاوز (مدينة المندب) و (المخاء) حيث تقع المنطقة التي سميت قديماً (المندب) يتجاوزها إلى (الخوخة) و (الأهواب) و (غلافقة) و (الفازة) فإلى جزر (فرسان) المتقدمة في لجة البحر، وما يقابلها وهو جزيرة (دهلك) التي يقع بإزائها مينا (غنولي) الميناء الرئيس لـ: مملكة الأكسوم والحبشة وعدولي) ولكن المنطقة الجنوبية الممتدة من (المخاء) إلى فم المضيق، هي التي خصت باسم (المندب) لأنها كانت المنطلق الأول والأقدم للاجتياز والعبور ومن يضع خريطة جنوب البحر الأحمر امامه يتضح له ان البحر يزداد ضيقاً كلما اتجه جنوباً، وان اضيق مناطقه هي المساحة الواقعة بإزاء ما بين (المخا) والمضيق والتي خصت باسم (المندب).

(10) يقول كثير من الدارسين: إن (البحر الأحمر) الفاصل بين (اليمن) و (الحبشة) فقد في المرحلة التاريخية القديمة، صفته كحاجز مائي طبيعي يكون فاصلاً أكثر منه واصلاً كما هو مفروض حتى لقد تحول ضمن مجال اليمن الحضاري الواسع، إلى بحيرة داخلية، تقع في قلب هذا المجال الحضاري - اليمني الحبشي - تضج بالحركة، وتمج بالنشاط، وتحفل السفن والمراكب التجارية بين ذهاب وإياب، طوال عصور اليمن الحضارية القديمة.

(11) انظر اوراق في تاريخ اليمن للأستاذ الدكتور يوسف محمد عبدالله، ص8 وما بعدها حول مالسبا من شرعية عامة.

من أبناء اليمن من وجهين، هما: الواجب العلمي، والواجب الوطني، وهما واجبان متلازمان ومتداخلان، فلا تقتضي الموضوعية العلمية المنهجية، عدم إعطاء الوطن حقه، ولا يقتضي الواجب الوطني المساس بالموضوعية العلمية ومنهجيتها الصحيحة.

لقد طال هذا (التمهيد) بدوره، كما طال (الموضوع) الذي كتب تحت جذر لغوي هو (ن د ب) ليكون مادةً مناسبةً للنشر في معجم لغوي تسمح له تراثيته بشيء من «الاستطراد»، ولما كان لكل مقام مقال، فقد استقر الرأي على نشر ما تمت كتابته كاملاً في هذه المجلة الرصينة، باعتباره «دراسة أولية» قد تصلح منطلقاً من المنطلقات التي يمكن أن يعتمد عليها، من يريد التوسع في الكتابة التاريخية حول هذا الموضوع وبرغم ما لهذه الدراسة من طابع تاريخي، إلا أن الإيغال في تفاصيل موضوعاته التاريخية الكبيرة، ليس هو الأمر المتوخى هنا، والواجب الأول هنا هو التأكيد على ما يلي:

أولاً: التنويه بالمندب الذي تذكره النصوص المسندية، وإعادته إلى ذاكرة كل دارس متخصص، للكتابة عنه، طبقاً لمفهومه التاريخي الأصلي القديم، وتقديم أهم المعارف والحقائق والمعلومات حول دوره التاريخي ذي الأهمية البالغة، إذ أنه لا غنى عنه لأي متخصص في هذه المادة المعرفية، إن هو أراد أن يكون علمه باليمن وتاريخه، متكافئاً مع تخصصه العلمي في هذا المجال.

ثانياً: فض الاشتباك الناشب بين موضعين بلدانيين يمنيين - عزيزين على قلب كل يمني - وهما: (المندب) و (باب المندب)، فالكتاب المحدثون والمعاصرون، من الأجانب، والعرب، واليمنيين، لم يعودوا يكتبون إلا عن (باب المندب) وهذا واجب علمي لا اعتراض عليه، ولكن غالبيتهم العظمى، يتعرضون لكلمة (المندب) من الناحية اللغوية، اشتقاقاً، وشرحاً، وتعليلاً، وهم في هذا يخبطون خبط عشواء، وسوف تأتي أمثلة على هذا الخبط، أما ما يجب الإشارة إليه هنا، فهو أن انعدام الكتابة عن (المندب) بمفهومه الجغرافي والتاريخي، قد أدى - اليوم إلى الجهل به وبمفهومه الحقيقي، عند السواد الأعظم من القراء والكتاب[12]. لتأتي كثرة الكتابات عن الاسم المركب والتي تتعرض لكلمة (المندب) فيه، من الناحية اللغوية، لتضيف إلى الجهل وهماً خاطئاً ومفهوماً مضللاً. يوقع الآخرين في أخطاء فاحشة، حتى أن من المؤرخين المحدثين والمعاصرين المحترمين من يقع فيها، وكمثال على ذلك نشير إلى أن بعض من يؤرخون للحملة الحبشية على اليمن في القرن السادس الميلادي، ويقرأون في المراجع القديمة من كلاسيكية وتراثية، أن الأحباش في غزوهم لليمن نزلوا في (المندب)، أو نزلوا في (ساحل المندب) فيقعون تحت طائلة الوهم المضلل، حيث يكتبون أنهم - أي الأحباش - اجتازوا إلى اليمن من (باب المندب)، أي أنهم دخلوا اليمن عبوراً إليه من (باب المندب) ومن ثم يبدو كأنهم جاءوا إليه من (خليج عدن)، وهذا خطأ فاحش ومزدوج، فهو خطأ تاريخي، وخطأ جغرافي لا يغتفر لمن يرتكبه، وإن كان مؤرخاً جديراً بالتقدير[13]، فالأحباش أبحروا نحو اليمن من (عَدَوْلي - مصوع حالياً) ونزلوا أساساً في (المخا) وكلاهما في ساحلي البحر الأحمر الغربي والشرقي.

ثالثاً: التنبيه إلى حقيقة بديهية، وهي أن (باب المندب) ليس (المندب)، لأن «باب» الشيء ليس هو «الشيء» نفسه، فكما أن باب المدينة ليس المدينة، وباب البيت ليس البيت، وباب الغرفة ليس الغرفة، فإن (باب المندب) ليس (المندب)، فهذا الأخير منطقة واسعة، والأول مجرد باب لها وهو المضيق الذي يقع في النهاية الجنوبية للمنطقة بين جبل (الشيخ سعيد) وجزيرة (ميون)[14].

(12) يستثنى من هذا الجهل، الدارسون المتخصصون من مستشرقين وغيرهم فهم على الأرجح يفرقون بين (المندب) المذكور في نصوص المسند [illegible] من مفهوم، وبين (باب المندب) الذي لا يزال دوره حياً، ولعل منهم من كتبوا عن هذا الموضوع من منطلق يختلف عن منطلق من يكتبون عن (باب المندب)، ولكنه لم يتح لنا الاطلاع على شيء من ذلك

(13) ينظر في هذا (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) للمرحوم الدكتور جواد علي/ ج3/ صـ471

(14) الاسم (باب المندب) لم يطلق قديماً إلا على الممر [illegible] الذي يقع شرق (ميون) ولم يكن للممر قديماً من منفذ غيره [illegible] المتصلة بالساحل الإفريقي غرب ميون (16كم) [illegible] للسفر، ومن ثم لم تكن منفذاً، وهي غير داخلة تحت مفهوم الاسم [illegible]، ولكن المحدثين والمعاصرين أصبحوا يطلقون على مضيق البحر الأحمر من جنوبه وبمجمله، اسم (المندب)، وهذا خطأ [illegible]

وأخيراً هذه هي الدراسة، التي هي بصدق دراسة أولية، تصلح منطلقاً لا يجوز تجاهله، فالرأي اللغوي الذي تطرحه شرحاً وتعليلاً، هو على الأقل أكثر منطقية من الآراء السابقة التي تتعرض لكلمة المندب من الناحية اللغوية، لأن هذا الرأي منطلق من صميم الواقع اليمني ومن حقائق تاريخه القديم، وكما سبق فإن إيراد الدراسة هنا، سيتم طبقاً لمنهج الكتاب الذي كتبت أصلاً من أجله، وهو (المعجم اليمني) الذي تأتي كل مادة من مواده تحت عنوان لا يزيد عن حروف الجذر اللغوي الخاص بالمادة. فالعنوان الأول هنا هو الجذر (ن د ب) من مادة ندب يندب ندباً، وقد جعلنا لها هنا عنواناً توضيحياً هو: (المفتاح اللغوي).

المفتاح اللغوي: (ن د ب)

الندب في اللهجات اليمنية، هو: قطع السائر للمكان بالعرض، مجتازاً له من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر، تقول في هذا: ندب فلان الوادي يَنْدُبُهُ نَدْباً، أي جزعه، أو قطعه واجتازه.

والجانب الذي شرع بالاجتياز منه يصح أن يسمى مَنْدَباً، والجانب الآخر الذي وصل إليه هو أيضاً مندب للقادم من الجهة الأخرى، والطريق المطروقة بعرض الوادي تُسَمَّى المندب..

ومن يعبر نهراً أو مسطحاً مائياً، من إحدى ضفتيه إلى الأخرى، فإنه يندبه نَدْباً والنَّدْبُ أيضاً، هو: انطلاق السائر المخف نحو المكان الذي يقصده، من أقصر الطرق المؤدية إليه، يقال لمثل هذا السائر: ما دمت مخفاً ومتعَجْلاً للوصول، فاترك الطريق العام، وانْدُبْ إلى غايتك من هنا ندباً لتصل أسرع، وقد يقوم من يقول ذلك بضرب الهواء أمامه بسيف يده في اتجاه المكان الذي يقصده السائر، وذلك عند قوله: أندب إليه ندباً وكأنه يقول اقطع إليه قطعاً، فيصور معنى الندب بتلك الحركة من يده.

والطريق التي من هذا القبيل، توصف بأنها «مندب» أو «مندبة، ولزيادة التأكيد أشير هنا إلى أنه يوجد في منطقتي، موضعان زراعيان - جربتان - متلاصقتان أراهما من نافذة بيتي، ويسميان (المندب الأعلى) و (المندب الأسفل)، ورغم ما للأرض الزراعية من حرمة، إلا أن طريق السائرين المخفين لا تزال تندبهما من منتصفهما - تقريباً ولا يزال هؤلاء السائرون، يتركون الطريق العام، عند نقطة معينة، ويختارون الطريق الأقصر، التي تندب الموضعين، مجتازة لهما نحو نقطة أخرى مقابلة على الطريق العام، ورغم ما يلحقه قطع هذين الموضعين واجتيازهما بالعرض، من ضرر بما يكون عليهما من زرع، إلا أن صاحبهما لم يستطع للأمر تغييراً، فالناس يرون أن موضعهما كان ظهراً من الأرض يجتازه السائرون ويسمى (المندب) فلما استصلح للزراعة، لم يلغ ذلك الحق الأصلي للناس في الاجتياز، ولما اقتضى انحداره أن يسوي إلى موضعين، أطلق الناس - وليس صاحبهما - عليهما الأسمين المذكورين، للحفاظ - ولو عفوياً ودون تعمد - على ما لهم من حق أصلي في ندب المكان، وجاء سلوك الناس ليجعل الإرادة العفوية، واقعاً عملياً.

والندب ثالثاً - أو الجذر (ن د ب) له استعمال في أعمال الحراثة، ومنه جاءت الصيغة الأسمية (المندب) الأكثر ترددا على الألسن في الأرياف وأوساط المزارعين، فالمندب، هو: ذلك التلم[15] الأعرض والأعمق الذي يختتم به الحارث عمله في حرث أرضه وبذرها، ففي هذه الحرثة - وهي الأخيرة لأنها حرثة التلام أي البذار - ما إن ينتهي المزارع من حرث أرضه تلماً بعد تلم - بطريقة عرضية غالباً والباذر بعده يبذرها - حتى يذهب بثوريه - ونحوهما - إلى الطرف المناسب من الجرية، فيستعرض أتلامها من ذلك الطرف، إلى الطرف الآخر الذي فيه» المِنْذَاة»[16]، ويندب جربته ندباً بالتلم. الذي لا اسم له إلا (المندب)، وقد يبدو للنظرة العابرة، أن دلالات الندب السابقة - بالعرض - لا تنطبق بوضوح على هذا العمل، ولكن النظرة

(15) التَّلْمُ - بكسر فسكون - هو الضبط الصحيح لمشق المحراث في الأرض، وقد أورده نشوان بن سعيد بهذا الضبط في (شمس العلوم - ج2/ صـ763) أما المعجمات الأخرى، فتضبطه بفتحتين وتنسبه إلى أهل اليمن، وهذا الضبط غير مسموع في اليمن. ونشوان أعلم من غيره بالصحيح في مثل هذا الأمر.

(16) المِنْذَاة والمِنْذى: فتحة تصريف ما زاد من الماء في الجرب، ويطلقان على غيرها من مفاجر الماء في الصهاريج ونحوها.

المتعمنـة، تجد أن تلك الدلالات تنطبق عليه تماماً، لأن المعاني العملية والحقيقية للندب، هي تقريب المقاصد، واختصار المسـافات، وذلك من أجل تيسـير الغايات لا مـن أقرب الطرق فحسـب، بل ومن أنسبها وأصلحها لتحقيـق المـراد، وهـذه الـدلالات بمعناهـا الحقيقي الشامل هي في صميم هذا الاسم وأهم ما له من المعنى وذلـك لأن المعلوم هـو أن الغاية المتوخاة من شـق هذا المنـدب، هي: تصريـف الماء الزائد عـن حاجة الجربة بعـد بذرها، وأثنـاء بقاء البذر في بطنهـا وبعد إنباتها إلى أن يرتفع النبات إلى حد معين وخلال هذه المراحل لا تحتاج الأرض إلا إلى كميات غير كبيرة من الماء، على أن تتناقـص كلما تتابـع المطر، والتلـم (المندب) يندب بالمـاء الزائد حتى يصرفـه من المنذاة بأقـرب طريقة وأنسب وسـيلة وأصلحها وبتدرج عجيب يطول وصفه ويكفي القول إن أي طريقة أخرى لتصريف الماء من كل الأتلام المشـطورة ومن جميع أنحاء الجربة لن تكون إلا أطول وأقل نفعاً فلا تؤدي المهمة كما يؤديها هذا المندب أبداً وفي الأمثال « مندب بجربة ولا سـبعة أقسام، أي أن قليـل الجيد خير من كثيـر الضعيف: « تلم بجربه .. الخ».

رابعاً: والندب رابعاً: وأخيراً كان له علاقة بالسـفر والمسافرين سيراً أو ركوباً على دواب الحمل، فالطريق المستقيمة التي تقطع - مثلاً سهلاً مستطيلاً من طرفه الأدنـى، إلـى طرفـه الأقصى، هـي مندب فـي طريق المسـافرين يندبونه أو يندبون عليه لأن ذلك أفضل لهم من الالتفاف حول أحد جانبي السـهل وكذلك أي مكان يقطعونه فيقـرب لهم الغايات ويختصر لهم شـيئاً من المسـافات، ومنطق اللغة لا يأبى أن يطلق على الطريق التي من هذا القبيل اسم (المندب).

هذه هي أهـم دلالات الندب فـي اللهجات اليمنية وهـي دلالة واحـدة ذات وجوه متعـددة، والمادة متعدية الأفعـال ومتصرفة يقال فيها ندب فـلان المكان يندبه ندبـاً فهو نادب له والمكان منـدوب وإذا خصص المكان للنـدب فصيغته الاسـمية المكانية هي المنـدب ويؤنث فيقال المندبة سمعتها اسم مكان بعينه وكان لهذه المادة في الماضي الذي عشـته اسـتعمال حي وهي اليوم أقل اسـتعمالاً، شـأن كثير مـن مظاهـر الخصوصية التي يحكم عليها التطور - بالتلاشي.

وإذا كان « قطـع المكان بالعـرض » هـو الأصل في النـدب، فـإن الدلالـة الحسـية للعـرض تبدو خفية وغيـر ظاهرة في بعض الاسـتعمالات المذكورة سـابقا ولكـن الحقيقة هـي أن الدلالـة العميقة لـ « العرض » هي: التقريب، والاختصار، وتسـهيل المهمات وتيسـير الغايـات.. ونحو ذلك من المعانـي الدقيقة التي تحتاج إلـى التصور الذهنـي الذي يربـط المفـردات اللغوية ودلالاتهـا القريبة والبعيدة بكل مـن البيئتين الطبيعية والاجتماعيـة بمـا للأولى مـن الصفـات المادية وبما للثانية من المتطلبات الحياتية. والاستعمالات السـابقة لـ « الندب» و« المندب» لها تنوعاتهـا ومفاهيمها التي تزيدهـا ارتباطـاً بهاتين البيئتين وتجعلهـا أكثر تعبيراً عنهما.

وأخيراً فإن هذا « المفتاح اللغوي» كما سـبق شـرحه يفضـي بنـا إلـى القـول: إن الاسـم البلدانـي اليمني (المندب) مشـتق من النـدب بدلالتـه اليمنية الخاصة علـى الاجتياز والعبور فيكون معنى (المنـدب) هو المجاز والمعبر والعدوة ونحو ذلك.

والمندب بصيغته المفردة غير المركبة: اسـم قديم لأنه مرتبـط بظاهـرة قديمة وهي ظاهرة مـا كان لليمنيين من ندب واجتياز انطلاقاً من سـاحل منطقة (المندب) وصولاً إلـى السـواحل الإفريقيـة المقابلـة. وبخاصة السواحل الحبشـية. وللمندب ذكر في نصوص المسند كما سيأتي.

والأرجح أن الاسـم أطلق أول ما أطلـق على المكان الأول الـذي ابتدأ منه الندب والاجتياز أول ما بدأ وهو المكان الذي بنيت فيه (   )[17] (مدينـة المنـدب) في موقع متوسـط بين (المخا) و (المضيق) الذي لا يسـمى إلا (باب المندب). أي في موقع القرية الصغيرة المروعة

---

(17) قرأت هذا الاسم بحروف المسند في [illegible] رمزه ورقمه والمرجع الذي قرأته فيه [illegible] مذكورة في مراجع أخرى من كتب التراث العربي.

اليوم باسم (ذباب) [18] جنوب (المخا) بنحو 45 كم وشمال (المضيق) بنحو 30كم.

ومن ينظر إلى خريطة المنطقة، يجد أن موقع (ذباب) المقابل لـ (رأس سيان) في الجانب المقابل، وما بين الموقعين من الجزر التي تصلح محطات للعبور البدائي في البداية ومنها جزيرة (فاطمة) وجزيرة (الهلب).. يجد أنه أنسب مكان للعبور في البداية المبكرة، وكان هذا العبور موصلاً أولاً إلى منطقة (عصب) ثم إلى ما يليها.

ومعلوم أن الندب أو الاجتياز والعبور تطور وتوسع فأصبح لليمنيين منطلقات للعبور على طول سواحلهم من (مدينة المندب) و (المخا) جنوباً إلى جزر (فرسان) شمالاً ومع ذلك فإن الساحل الممتد من المخا إلى فم المضيق والذي يبلغ طوله أكثر من 75 كم) هو الذي خص باسم (المندب) وهو الاسم الذي جاء ذكره في نصوص المسند في سياقات تدل بوضوح على أن هذا الاسم أصبح يشمل المنطقة الواقعة في جنوب اليمن الغربي كلها، بساحلها المذكور وما بإزائه من مياه البحر، بل ويشمل ما خلفه من البر إلى سلسلة الجبال الداخلية في هذا الجزء من جنوب (تهامه)، وهذا ما سيتضح من خلال الاستطراد التالي: -

الاستطراد الأول

(المندب) في نصوص المسند:

الدارسون المتخصصون في دراسات حضارات «العالم القديم» يعتبرون الوثائق الإبيوجرافية - الكتابية - العائدة إلى تلك الحضارات، أهم المصادر المرجعية التي يعتمدون عليها في إعادة بناء تاريخ أي حضارة قديمة.

ولكنهم رغم علمهم بأهميتها البالغة لا يتوقعون منها دائماً أن تمدهم بالمعلومات المطلوبة في الوقت الذي يريدونه ولا أن يكون ما تقدمه لهم من المواد المعرفية مرتبا ترتيباً زمنياً متطابقاً مع أزمنة حدوثها في أزمنتها التاريخية وخاصة حينما تكون ناقصة ولم يتم ترتيبها كرونولوجياً، كالوثائق الأبيوجرافية اليمنية - نصوص المسند -.

ولهذا فإنه لا بد لهم من الربط بين هذه الوثائق بمجملها وبين ما تشتمل عليه من مفردات المادة المعرفية ومخرجاتها ربطاً منطقياً مع التعليل والتحليل والاستنتاج من أجل الوصول إلى كثير من الحقائق المنطقية السليمة.

ولا شك أن هذا جزء من المنهج العلمي الذي لا غنىً عنه لكل متخصص في أي مجال من مجالات هذه الدراسات القديمة.

وحضارة اليمن القديمة هي واحدة من أهم حضارات عالم الشرق القديم ووثائقها الأبيوغرافية الكتابية، هي النصوص المسندية التي تمد من يملك أدواته في دراستها واستنطاقها بكثير من الحقائق والمعلومات المباشرة اليت لا جدال حولها، كما تقدم له مادة معرفية تكفي في كثير من الأحيان[19]، للربط، والتعليل والتحليل والاستنتاج المنطقي الذي لا غبار عليه، أو الذي يقبله المنطق ولا يأباه.

وحصراً للحديث فيما نحن بصدده نشير كمثال إلى أن ذكر (المندب) لم يأت إلا في النصوص المسندية المتأخرة. في أواخر الربع الأول من القرن السادس للميلاد - كما سيأتي، فهل معنى ذلك أن هذا الاسم التاريخي لم يطلق على هذه المنطقة الجغرافية الهامة إلا في هذه المرحلة المتأخرة؟؟ إن الجواب المنطقي الذي يتبادر إلى ذهن أي باحث يملك أدواته هو «لا» فهذه النصوص تذكر (المندب) كمنطقة جغرافية متكاملة أي تذكر «المندب» بمفهومه الأصلي القديم بما له من أبعاد جغرافية وديموغرافية وحضارية وتاريخية ومن ثم تربط بينه وبين الظاهرة الاجتماعية التي كانت علة إطلاق هذا الاسم عليه ربطاً قوياً وهي ظاهرة ما كان

(18) ذباب. هكذا يأتي رسمها في المراجع اليمنية، وفي محيطها السكاني ينطقونها (ذوباب)، وهذا يذكرنا بقول (ياقوت): « وكان يسمى ذو المندب »

(19) جاءت عبارة «في كثير من الأحيان» تحرزاً من التعميم حيث إن ما تم العثور عليه من نصوص المسند لا يزال ناقصاً مما يحول في كثير من الأحيان أيضاً دون القيام بعملية الربط والتعليل والتحليل والاستنتاج بجميع شروطها العلمية المنهجية الموصلة إلى أفضل النتائج المنطقية، ولكن المثال المذكور أعلاه، يمثل الشروط الكاملة وأمثاله كثيرة.

لليمنيين منذ القديم[20]، من ندب أي اجتياز وعبور من ساحل (المندب)، عبر بحر المندب إلى السواحل الإفريقية المقابلة.

فبحكم قدم الظاهرة وهي علة التسمية، فإن الاسم بالضرورة قديم لأنه المعلول بها، وبالتالي لا يستبعد ذكره في النصوص القديمة - مما لم يكتشف بعد - مع العلم بأن ذكر المناطق والأسماء البلدانية وعدم ذكرها يخضع لوجود المثير الموضوعي الذي يستدعي ذكرها من عدمه.

أما النصوص المسندية، التي تذكر (المندب) فهي ثلاثة من النصوص، تعرف بين الدارسين بـ (ريكمانز/507) و (ريكمانز/508) و (جام/ 1028)، وهي نصوص بالغة الأهمية فهي معا تؤرخ للفترة الأخيرة للدولة السبئية دولة اليمن المحورية الجامعة وذلك في عصرها «السبئي الريداني» المعروف بـ« العصر الحميري» الذي بلغت فيه منتهى القوة وسعة النفوذ، ثم آلت في هذه الفترة التي تتحدث عنها هذه النصوص، إلى الانحدار ومواجهة المصير المحتوم - والحديث عنها من حيث أهميتها للمؤرخين يطول وليس هذا مجاله وما هو مطلوب هنا، هو الإشارة إلى أهم ما لهذه النصوص من صفة تميزها، وهي صفة « الواحدية فهي:

أولاً: مدونة في عهد ملك واحد هو (يوسف أسأر يثأر[21] ملك كل الشعوب) أثناء ثورته - الأولى أو الثانية - ضد الوجود الحبشي في اليمن.

ثانياً: مدونها أو الرجل الذي أمر بتدوينها، قيل وقائد عسكري واحد. هو (شراحئيل يقبل ذويزأن) أي قيل (بني يزأن - بني يزن) الذي عينه الملك قائداً للحرب ضد (إقليم نجران) وللمرابطة شمال الإقليم تحسباً لمجيئ حملة رومانية لمناصرة الأحباش.

ثالثاً: مكان تدوينها واحد على الصخور الطبيعية في منطقة (ماسل الجمح) في قلب (نجد) كما يصفه الشيخ حمد الجاسر في كتابه (مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ) - صـ96 وما بعدها. ويصفه بأنه موضع استراتيجي كان ملوك اليمن القدماء ينزلونه ويرابطون فيه ويبنون فيه الحصينات ويذكر نصوصاً مسندية أخرى مدونة في هذا المكان وها هو القيل القائد (شراحئيل يَقْبلُ اليزني) بعد أن أخذ الرهائن من كبار (نجران) يرابط فيه، لمواجهة أي مدد روماني يأتي نصرةً للأحباش.

رابعاً: دونت كلها في عام واحد. هو عام 633 بالتاريخ الحميري، الموافق عام 518 للميلاد. وذلك خلال شهرين متتابعين، فأولها تدويناً - فيما نرى - هو ريكمانز/ 508 - مدون في شهر (ذي القيظ) = يونيو - حزيران من العام المذكور والآخران - ريكمانز 507، جام/1028 - مدونان في الشهر التالي وهو شهر (ذي المذرأ) يوليو - تموز من العام نفسه.

خامساً: موضوعها واحد. فهي - كما سبق - تسجيل أحداث هجوم الملك (يوسف أسار يثار - ذي نواس) على مدينة (ظفار) وتدمير كنيستها والقضاء على من في المدينة من الأحباش ثم انطلاقه بمن معه من الأقيال والجيش لمعاقبة القبائل المتعاونة مع الأحباش في جنوب (تهامه) من أجل الاستقرار في (المخا) للقيام بتحصين سلسلة جبال منطقة المندب المحاذية لـ (المخا) و (موزع) في الجانب الداخلي من تهامه وما يلي ذلك جنوباً لأن هذه المنطقة هي التي ستدور فيها المعارك ضد الحملة الحبشية الرومانية الانتقامية التي كان لا بد من مجيئها طبقاً لحسابات الملك وكبار أقياله وقادته العسكريين كما أن هذه النصوص تتحدث عن اختيار الملك لأحد كبار أقياله وهو (شراحئيل يقبل ذي يزن) وتعيينه قائداً

(20) يعيد كثير من المؤرخين المتخصصين ظاهرة هجرة اليمنيين إلى بلاد الحبشة إلى مراحل دخول أهل اليمن عهود الاستقرار الحضري السابقة لدخولهم العصر التاريخي أو إلى عصور اليمن التاريخية المبكرة التي لم تصبح معروفة وينظر في هذا (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) للدكتور جواد علي، فصل (العرب والحبشة) ج/3، صـ449 وما بعدها.

(21) أسار يثار: لقبان للملك، ورسمهما بحروف المسند، يجيز رسمهما بالحروف العربية بهذه الصيغة التي على وزن (افعل - بفتح فسكون ففتح) ويجيز رسمهما بصيغتي: أسئر يثئر بالفعل المزيد بالهمزة والمبنى للمجهول، على وزن يفعل - بضم فسكون فكسر - فيكون المعنى بهذا الرسم الأخير، هو الملك يوسف الذي اسئر اي ابقي - ليثئر قومه من عدوهم، والأشهر في نصوص المسند هو الألقاب الملكية التي تجعل افعالهم متعدية إلى الغير، سواء كان اللقب بصيغة الماضي، او المضارع مثل (يهنعم) و (يهرعش) اصلهما (ينعم) و (يرعش) اي ينعم على قومه وشعبه ويرعش الآخرين من الخصوم لهيبته.

لجيش كبير يقوم بإخضاع قبائل إقليم (نجران) وضمان هدوئها ثم التوجه شمالاً للمرابطة في مضيق (مأسل الجمح) لمواجهة أي مدد روماني يأتي لمناصرة الأحباش وذلك لكي يتفرغ الملك وأقياله وجيشه لتحصين (سلسلة المندب) استعداداً لمواجهة الجيش الحبشي المتوقع قدومه بتحريض وتجهيز من الرومان.

ولا شك أن ما تتصف به هذه النصوص الثلاثة، من «الواحدية» المبينة أعلاه، يجعل مادتها المعرفية التي تقدمها للدارسين، مادة محدودة في أحداث ثلاثة عشر شهراً - كما سيذكر النص الذي سنورد شرحه -، وهي الفترة الممتدة من شهر (ذي المذرأ) عام 632 بسني حمير، الموافق لشهر (يوليو) عام 517 للميلاد إلى شهر (ذي المذرأ) عام 633 بالتاريخ الحميري الموافق لشهر يوليو عام 518 ميلادية، وهي فترة قصيرة من تاريخ ثورة (يوسف ذي نواس) ومدة حكمه التي استمرت سبع سنوات من تاريخ تدوين هذه النصوص، أي إلى عام 640 حميري = 525 ميلادي، حسب تاريخ النص (سي/621) الذي دونه (سميفع أشوع) في (حصن الغراب) وذكر فيه وصول الحملة الحبشية ومقتل الملك.

أما النص الذي وقع عليه الاختيار، لإيراد شرحكه كاملاً من بين النصوص الثلاثة، فهو النص (جام/1028)، لسببين أولهما: لأنه آخر النصوص تدويناً كما سيتضح من شرحه والتعليق عليه، وثانيهما: لأنه أصحها وأكملها نسخاً.

وهو مؤلف من أثنى عشر سطراً، وهذا هو شرحه الملتزم بنصفه إلى أبعد حدود الالتزام، مع الالتزام بإيراده حسب تسطيره: -

1 - « ليباركن الإله، الذي له[ملك][22] السماء والأرض، الملك يوسف أسار يثأر ملك كل الشعوب، وليباركن الأقيال.

2 - لحيعت يرخم وسميفع أشوع وشرحبيل أشوع وشرحبيل أسعد، أبناء شرحبيل يكمل، وهم كبار أذواء [أمراء] الحلف يزأن وجدن - [والذين هم].

3 - وزراء سيدهم الملك يوسف أسار يثأر الذين آزروه يوم أن أحرق ودمر الكنيسة بظفار وقتل جميع الأحباش الذين كانوا في المدينة. ويوم صَعَّدَ الحرب وشب أوارها ضد الأشاعر والركب وفرسان.

4 - والمخاء، ويوم صَعَّدَ الحرب وعزز المرابطة على نجران، ويوم أن قام بتحصين سنسلة أو سلسلة [جبال] المندب، ويوم أن حشد جموع شعبه وعززهم بالجيش. ويوم أن أفلح منتصراً ومحرزاً.

5 - في هذه الحملات الحربية خمسمائة واثنى عشر ألفاً من القتلى[23] واحد عشر ألفاً من الأسرى وتسعين.

6 - ومئتي ألف من الغنائم إبلاً وبقراً وغنماً. ولقد سطر هذا المسند القيل شراحئيل يقبل ذو يزأن الذي قام بأعمال عسكرية ضد نجران ومنها المرابطة لحصارها وعزلها.

7 - ومعه قوات من بني ذي همدان هجراً وحضراً - (أهل المدن والقرى)، وأعرابهم - أي - (بدوهم)، ومعه أيضاً قوة ضاربة وصفوة جنود من الأيزون، ومعه أيضاً أعراب (بدو) - كل من قبائل كندة ومراد وسائر مذحج. أما إخوته الأقيال الآخرون فهم مرابطون مع الملك.

8 - في البحر حذراً من عودة متوقعة من قبل الأحباش كما أنهم هناك يقومون بتحصين سلسلة المندب بعد انجاز كل ما هو مذكور في هذا المسند من انتصارات وقتل وسبي وإحراز للغنائم وحصار لنجران في هذه الحرب التي شنوها.

9 - وآبوا منها بالنجاح والفلاح خلال ثلاثة عشر شهراً، وليباركن الرحمن أبناءهم شرحبيل يكمل وهعان أسار ابني لحيعة.

10 - ولحيعة يرخم بن سميفع ومرثد يمجمد بن شراحئيل أذواء يزأن. وكان تاريخه شهر ذي المذرأ

(22) ما جاء بين معوفين كهذين [ ] فهو إضافة للتوضيح.

(23) يدخل في هذا العدد، القتلى من الأحباش.

عام ثلاثة وثلاثين وستمائة.

11 - ووضعوا هذا المسند بحراسة السماء وأودعوه أمانة المقاتلين وقوتهم لحمايته من كل خسيس يغيره أو مخادع يتلفه أو يُزَوِّر وأنه - (هذا المسند) - بحماية الرحمن العلي (القدير).

12 - ليحفظه من كل مخادع يطمسه أو يشوهه وأنه - (هذا المسند) - لمحرر ومسطر ومقدم على اسم الرحمن. من تحرير وتدوين تميم[24] المؤمل للحظوة عند (   ) = رب هد = رب هود) وأنه ليتوسل بحق (   ) = م ح م د = محمد!).

إن في هذا النص المسندي، لمجالات واسعة، للتعليقات المتنوعة، وكذلك في نظيريه - ركمانز/ 507 و508 -، ولكن التعليق هنا، لن يكون إلا على ماله صلة بموضوع هذه الدراسة، وهو بالتحديد الوقوف على كلمة (المندب) التي ذكرت كاسم مكاني هام، في النصوص الثلاثة، لمعرفة ما كان لـ (المندب) من موقع مكاني وشمول جغرافي من خلال النصوص المسندية التي لا تتحدث هنا إلا عن الاسم البسيط - غير المركب - أي (المندب) بمفهومه الأصلي الواسع، لا عن (باب المندب).

والأمر الذي يحسن أن يظل واضحاً في أذهان القراء، هو أن الحديث لا يدور هنا إلا حول عموميات المفهوم الأصلي القديم للمندب، أما التفاصيل فميدانها واسع رحيب، لا يمكن الكتابة عنها إلا تحت عناوين متعددة يمكن أن يشملها هذا العنوان الطويل " المفهوم الجغرافي، والديموغرافي، والحضاري والتاريخي للمندب، في تاريخ اليمن القديم، وما كان للندب والاجتياز عبر منطقة (المندب) من النتائج التي أدت إلى نشوء مجال حضاري واحد شمل العدوتين: العدوة الآسيوية العربية اليمنية، والعدوة الإفريقية الحامية الحبشية" أو نحو ذلك.

أما عموميات هذا المفهوم فقد سبقت الإشارة إليها إجمالاً ومنها "المفهوم الجغرافي" الموسع للمنطقة التي أطلق عليها اسم (المندب) والغاية من العودة إلى ذكره هنا هو التنبيه إلى أن النصوص المسندية الثلاثة - ومنها النص المشروح أعلاه - تؤكد ما لـ (المندب) من مفهوم جغرافي واسع. تأكيداً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض، فمن الواضح أن الملك ومن معه من الأقيال. قد انطلقوا بجيشهم نحو المناطق التهامية التي تقع إلى جنوب وادي (رمع)، وكان هدفهم العسكري الأول. هو الوصول إلى (منطقة المندب) للمرابطة فيها وإعدادها للمعركة المتوقعة مع (الأحباش).

وقد تحدثت النصوص المسندية الثلاثة. عن التدرج المكاني للأحداث التي خاضوها. ابتداءا من (رمع)[25]، في أرض (الأشاعر) في شمال منطقة الأحداث. متجهين نحو الجنوب. فعموا أرض (الأشاعر) ومنها وادي زبيد ثم أرض (الركب - وهم من الأشاعر) وحاضرتها (حيس). ثم جبال (شمير) - مقبنة - وما لهم من الأرض السهلية ثم أرض (فرسان) إلى (المخا) وعند وصولهم إلى (المخا) فإنهم قد وصلوا إلى أهم موانئ اليمن على (البحر الأحمر) وهي في الوقت نفسه حاضرة منطقة المندب ومدينته الأولى. لأنهم استقروا فيها باعتبارها أهم ثغر مفتوح على (بحر المندب)، وأهم مدينة في (ساحل المندب) الممتد عنها جنوباً إلى مدخل (باب المندب) بطول نحو خمسة وسبعين كيلومتراً وباعتبارها مع (موزع) و (الشقاق)[26] أهم مدن هذا الجزء من جنوب تهامة. وما يليها جنوباً إلى نهاية السهل التهامي، وهي ديار (بني مجيد) التي تسمى أرضهم (أرض المندب). أما سلسلة الجبال التي تكتنف هذه المنطقة من جانبها الداخلي. فيكفي أن النصوص المسندية الثلاثة. قد سمتها (سنسلة - أو سلسلة (المندب)، ومن المعلوم أن المصطلح الجغرافي «سلسلة جبلية» يعني عدداً من الجبال المتتابعة بقممها المتوالية، وسفوحها المتواصلة كأنها حلقات مترابطة في سلسلة لها طولها، ومن ثم فلا بد أن يكون للسلسلة

(24) هذا اسم كاتب النص ومسطره بالمطرقة والأزميل على الصخر، وقد جاء اسمه كاملاً في النص (ريكمانز/ 507) وهو (تميم بن معدان ذو قسملة السبئي).

(25) رمع مذكور في واحد من النصوص المعنية وهو ريكمانز/ 507 سطر 8 [illegible] يعني أن العمق الحيوي للمنطقة المسماة بـ (المندب) يمتد [illegible] المعارك التي شنت لإعداد مضيق (المندب) للمواجهة [illegible]

(26) هي اليوم أنقاض مع أنها ظلت مزدهرة إلى العصور الإسلامية [illegible] محمد علي الأكوع رحمه الله - الصمة صـ72 . وهي عاصمة [illegible] عن الأمير الكبير يحيى بن أبي الغارات المجيدي [illegible]

الجبلية امتداد طولي على وجه الأرض، يكتنف مساحة متكافئة مع امتدادها، فتكون النتيجة هي أن، الجبال التي حشدت الجموع لتحصينها تحت إشراف الملك والأقيال، هي سلسلة الجبال الداخلية في هذا الجزء من سهول (تهامة) وهي أرض (بني مجيد) التي هي (أرض المندب)، ويليها ساحل (المندب) وفيه غير المخا مدينة المندب، ثم ما يلي ذلك من بحر يدخل ضمن التسمية ليقال بحر المندب.

ولي مع هذه السلسلة الجبلية التي ذكرتها النصوص الثلاثة، تجربة شخصية محدودة، حيث ألقيت عليها نظرة خلال زيارات قمت بها للمنطقة، في ستينيات القرن الماضي، ولكني قبل ذكر هذه التجربة، أعود إلى النصوص المسندية الثلاثة، لإيراد السياقات التي جاء فيها ذكر « سلسلة المندب» وذلك حسب رأينا في ترتيب تدوينها زمنياً.

وأولها هو (ريكمانز/508) المدون في شهر (ذي القيظ - يونيو حزيران عام 518م[27]) وهو يقول في سياق سرد الأحداث« وأما الملك فأرزى في المخا، أي استقر - مرابطاً ضد الحبشة ولتصنيع. أي تحصين - سلسلة المندب بحشوده ومعه أخوته الأقيال.. الخ».

وثانيها هو (ريكمانز 507) المؤرخ في شهر (ذي المذرا - يوليو - تموز) من العام نفسه، وهو يقول: « وما زال الملك والأقيال في المخا للمرابطة حذراً من الأحباش وليصنعوا سلسلة المندب... الخ».

وثالثها وهو الأخير تدويناً (جام 1028) المؤرخ في شهر ذي المذرا من العام نفسه، وفيه تكررت العبارة مرتين، حيث يقول/ سطر/4: « وليباركن الإله الملك لكل هذه الأعمال التي قام بها ومنها تصنيع - أي تحصين - سلسلة المندب واستنفاره لشعبه.. الخ. » ويقول في السطر/8: « ... وقد بقي الملك والأقيال في ربطهم على البحر (وهم أيضاً) يُصَنِّعُون سلسلة المندب.. الخ».

وهكذا نجد أن عبارة: « سلسلة المندب» قد تكررت أربع مرات في هذه النصوص، جاءت كلها مسبوقة بصيغة من صيغ مادة (ص ن ع) المرادف لمادة (ح ص ن) تصريفاً ودلالة[28]، فكما يقال: حَصَّنَ فلان المكان يحصنه تحصيناً، كان يقال: صنع فلان المكان يُصَنِّعُه تصنيعاً والمعنى واحد. وكل ذلك أثناء الحديث عما قام به الملك والأقيال والجيش وحشود الناس، من أعمال التحصين لـ« سلسلة» سلسلة» هي بكل تأكيد سلسلة جبلية، وهي بحسب النصوص« سلسلة المندب»، فلن تكون منطقياً إلا سلسلة الجبال الواقعة في الجانب الداخلي من هذه المنطقة، ابتداء من الجبال المقابلة لمدينة (المخا) والممتدة جنوباً إلى (المنهلي) بالقرب من (جبل الشيخ سعيد) المطل على المضيق - باب المندب -، وبديهي أنه لم يُخْتَر لبناء هذه التحصينات، إلا أماكن معينة من هذه السلسلة الجبلية الطويلة. أما الشيخ سعيد والمنهلي المطلان على المضيق - باب المندب - فلا علاقة لهما بهذا الأمر كما سيأتي.

ومن المفارقات أن ثلاثة النصوص المسندية المذكورة، قد أُسِيئَتْ قراءتها وأسيء فهمها منذ زمن قديم نسبياً، وبخاصة العبارات الأربع المذكورة فهؤلاء هم مدونو« الوثائق السريانية» المعاصرون لأحداث نجران، يقرأون هذه النصوص - أو يسمعون من يقرأها لهم ولكنهم يعيدون صيغ مادة (ص ن ع) المرادفة لمادة (ح ص ن) إلى الدلالة الشمالية وهي دلالتها على صناعة الأشياء وعملها كما أعادوا كلمة (سلسلة) إلى ما يصنع من السلاسل الحديدية، وأما كلمة (المندب) فهي عندهم - أيضاً - تعني (باب المندب) وليس منطقة (المندب) ومن ثم قالوا في وثيقة من وثائقهم المكتوبة بالسريانية: (أن الملك يوسف ذانواس، صنع سلسلة من الحديد أقفل بها المندب، أي باب المندب ليمنع الجيش الحبشي من العبور إلى بلاده - وتابعهم بعض المؤلفين العرب

(27) بالتاريخ الحميري، عام 633 - 115 = 518م.

(28) تنظر مادة (ص ن ع) في (المعجم اليمني صـ560 - صـ566).

كابن المجاور[29] - وهذا قول فاسد فساداً ظاهراً لا لاستحالة صنع سلسلة حديدية طولها لا يقل عن ألفين وخمسمائة متر فحسب، بل ولأن المعلوم عند جميع المؤرخين، أن هذه الحملة الحبشية (قدمت من عَدَوْلِي - مصوع اليوم) - ونزل معظمها في (المخا) ونزلت بقيتها في مرسى ساحلي يقع جنوب المخا أي (مدينة المندب) التي تقع على أنقاضها بلدة (ذوباب) الحالية، ولم تقدم من الجنوب من أرض الصومال - حتى تحتاج إلى المرور من المضيق. والمحدثون والمعاصرون ممن قرأوا النصوص المذكورة، لا يزال لدى بعضهم، شيء من سوء الفهم هذا، أما بعضهم الآخر فقد فهموا التصنيع بمعنى التحصين، ولكنهم يجعلون هذه التحصينات على الجانب اليمني المطل على (باب المندب) وفي المقدمة جبل (الشيخ سعيد) وهو قول فاسد أيضاً، أولاً لما هو معلوم عن مسار الحملة الحبشية الذي لا علاقة له بالممرات في غرب (ميون) أو شرقها، وثانياً لأن الاجتياز بالعرض عبر مضايق البحر الأحمر في أقصى جنوبه أمر بالغ الصعوبة، لأسباب كثيرة يعرفونها ويذكرونها فيوقعون أنفسهم في إشكال يطرحون حوله التساؤلات ثم لا يجدون لها جواباً، وثالثاً لأن جبل (الشيخ سعيد) جبل صخري بالغ الصعوبة لمن يجتاز المضايق ويحاول اقتحام الأراضي اليمنية عبره، فهو جبل ينبت من قعر البحر مباشرة، ويطل على المضيق بجوانب صخرية منسلخة زلاء، يعجز عن تسلقها أي كائن حي فكيف بالإنسان والجيوش الغازية، وكل هذا لأن حقيقة (المندب) كمنطقة بحرية، وساحلية، وسهلية، وجبلية واسعة، لم تصبح واضحة لكل من قرأنا لهم ممن كتبوا، وما زالوا يكتبون عن (المندب) أو عن (باب المندب) بما لكل منهما من موقع ومفهوم.

وأما تجربتي الشخصية في منطقة (موزع) وبعض ما يليها من الجبال فهي تجربة محدودة جداً. ففي الستينيات أنشئ في منطقة (موزع) مشروع زراعي تولى إدارته صديق وزميل دراسة. فعرض علينا - بعض الأصدقاء، وأنا وكنا في تعز - أن نقضي ما شئنا من إجازاتنا عنده في مقرات المشروع. وفي أول إجازة لم يفتني أن أزور بلدة (موزع) لما لها من ذكر في تاريخ اليمن القديم. فزرتها وشاهدت ما بقي من المعالم التي تدل على قدمها، وزرت سد موزع الذي يسمونه العقم وهو عقم فعلاً، لأنه جدار ضخم قوي البناء يندب الوادي من إحدى ضفتيه إلى الأخرى ويأتي السيل فيفيض من جانبيه لري مزارع مرتفعة عن السهل. ويستمر السيل بمعظمه في التدفق نحو الوادي في الأراضي السهلية.

ولما كنت قد قرأت أن للمندب ذكراً في نصوص المسند يتحدث عن تحصين الملك (يوسف أسار يثأر) لسلسلته الجبلية، وإن كنت لم أطلع بعد على النصوص نفسها.. فقد سألت الحاضرين من أبناء (موزع) عما قد يعرفونه من مواقع أثرية في جبال هذه المنطقة فقالوا ما معناه هذا الجانب من جبال (الوازعية) قليل السكان ولكن في بعض القمم الجبلية آثار حصون قديمة وفي الجوانب بعض الخرائب وأشار أحدهم إلى جبل منفرد بارز قائلاً: هذا جبل (عقار)[30] وفي رأسه آثار بناء قديم، ولكن المكان مهجور مقفر. ويقولون إن بعض الرواهش والطواهش[31] تأوي إليه. وفي اليوم التالي قام الرفاق بجولة نحو (المخا) وتوجهت نحو جبل (عقار) لا أحمل إلا ورقاً وأقلاماً وبندقية صيد لا أفارقها في مثل هذه الجولات. ولاحظت أنني كلما دنوت من قمة الجبل، كثرت النباتات والشجيرات

(29) ينظر (تاريخ المستبصر) ص95، وابن المجاور يذكر كثيراً من الحصون والتحصينات في منطقة المندب ولا يبعد أن منها تحصينات الملك يوسف أسار يثار. كما أنه تحدث بتفاصيل أكثر عما كان من الصراع بين (بني مجيد) أصحاب منطقة المندب الأصليين، وبين قبيلة (فرسان) الطارئة والساعية - ربما بتنسيق مع الأحباش - السيطرة على هذه المنطقة الهامة.

(30) لم أجد له ذكراً فيما لدي من الكتب المرجعية [illegible] ومعجم المقحفي. غير أنني قرأت في [illegible] (عقار - بالقاف) وأظنه تصحيف لـ (عفار - بالفاء) [illegible]

(31) الرواهش: الأفاعي والحيات. من رهش يرهش [illegible] جمع طاهش. ويقصدون بها الضباع والسباع [illegible] بصفة عامة.

وبعض الأشجار، وفي القمة التي أصبحت أجمة متشابكة بين أنقاض حصن قديم، لم أجد إلا ورلاً هو أكبر ورل رأيته - على الطبيعة - في حياتي، وأما الحصن فآثاره واضحة، وأحجاره كبيرة ومشذبة، ولكنه أنقاض متراكمة ولا تختلف أنقاضه عن بقايا أي حصن قديم نشاهده في القمم الجبلية هنا وهناك، وما أظنه من التحصينات التي بنيت في عهد (يوسف أسأر) وإن كان من حصون المنطقة التي قد تكون قائمة حتى زمنه، وبالتالي دخل في حساب التحصينات.

وفي زيارة أخرى لمنطقة (موزع) استفسرت عما هو معروف من المواقع الأثرية في الجبال إلى جهة الجنوب من بلدة (موزع)، فذكروا أول خرابة تقع إلى جنوب (موزع) في جبل (عزان) [32]، فتوجهنا نحوها، وبعد مسافة غير طويلة[33] شاهدنا ما يخال للناظر من السهل أنه أنقاض قرية خارية كانت تقع على كتف منبسط بشيء من الانحدار في هذا الجبل الذي يلامس أسفله السهل التهامي، فتركنا السيارة وصعدنا نحو تلك الخرابة، ولاحظنا - من معي وأنا - أن تلك الأنقاض ليست آثار قرية بأي حال من الأحوال، فما هي إلا عدد من الغرف المتجاورة كل غرفة مستقلة بذاتها وليست كل غرفة إلا أربعة جدران وباب، دون أي مرافق أخرى مما يكون في بيوت القرى، فلم يتبادر إلى ذهني إلا أنها مهاجع عسكرية مؤقتة تدخل ضمن الأعمال التي قام بها (يوسف أسأر يثأر) لتحصين سلسلة المندب، كما قرأت عنها في بعض المراجع، ولعل هذا هو ما تبادر إلى أذهان الحاضرين من أبناء المنطقة، فأخذ أحدهم يتحدث عن الحروب التي كانت تدور في هذه الانحاء، وكيف كان الأعداء يأتون من البحر فيستولون على جميع ما في البلاد من الإبل البحرية ويمتطونها ويحاربون من فوقها، ويقارعون الفرسان راكبي الخيل، وكان المحاربون من أهل الجبال، يقاتلونهم في هذه السلسلة الجبلية حتى لا ينفذوا إلى بلادهم... الخ.

وعلى كل حال فإن من يقوم باستكشاف هذه السلسلة من جبال (الوازعية) [34] من شمالها المقابل لـ (المخا) و (موزع) إلى جنوبها الموازي لنهاية الساحل اليمني على البحر الأحمر، يمكنه أن يثبت ما يتبادر إلى الأذهان حول مثل هذه الأنقاض. إذا هو وجد شمال (عزان) أو جنوبه، مواقع أخرى مشابهة لهذا الموقع.

أما خلاصة ما تقدم، فهي أن النصوص الثلاثة، تتحدث عن (منطقة المندب) لا عن (باب المندب)، وهي بذلك تعيد لـ (المندب) كمنطقة « مفهومه الأصلي»، أي أولاً: مفهومه الجغرافي باعتبار أنه منطقة جغرافية متكاملة، لها بحرها، ولها ساحلها، ولها سهلها ولها سلسلتها الجبلية التي تكتنفها. وثانياً: مفهومه اللغوي، إذ أن من ينظر إلى (المندب) بهذا المنظار الجغرافي الواسع، فإن من المنطق أن يعيد اشتقاق الاسم إلى (الندب) بدلالته اليمنية على الاجتياز والعبور. وثالثاً: مفهومه الديموغرافي القديم، فمن يستعيد لـ (المندب) مفهومه الجغرافي، ومفهومه اللغوي، لا بد أن يستعيد ما هو معلوم عما كان للحراك الديموغرافي اليمني المبكر، من اجتياز وعبور، انطلاقاً في البدايات المبكرة - من هذه المنطقة، ووصولاً إلى السواحل والأراضي الإفريقية المقابلة، وبخاصة في بلاد (الحبشة)، ورابعاً: مفهومه الحضري، حيث كان اليمنيون قد نقلوا مظاهر استقرارهم الحضري في بلادهم إلى العدوة الأخرى فأنشأوا فيها التشكيلات الحضرية المستقرة وهي تشكيلات نشأت تلقائياً بالتفاعل الإيجابي بين عناصر الأثنية اليمنية، وعناصر الأثنيات الوطنية

(32) في اليمن حصون وجبال كثيرة باسم (عزان) ذكر منها المقحفي في معجمه 23 اسما وأقرب ما يسمى (عزان) إلى هذا المكان. هو (عزان) الذي في جبل حبشي - ذخر قديماً - ولا أدري هل هو المراد أم لا.

(33) قدرناها فيما بعد بين أربعة إلى خمسة أو ستة/كم.

(34) هذه السلسلة هي من جبال منطقة (الوازعية) وهي من مناطق المعافر وكان للمعافر قديماً النفوذ على ما يليها من جنوب تهامه - أي منطقة المندب - بل وكان ملوك حمير يفوضون كبار أقيال المعافر فيما لليمن من نفوذ في السواحل المقابلة.

الإفريقية[35]، وكان هذا التفاعل محكوماً أن يتجاوز درجات الاستعانة والتعاون، ليبلغ درجة الدمج والاندماج، ومن ثم فإن تلك التشكيلات الحضرية المستقرة هي وحدات اجتماعية متآلفة لها عرضها المادي، وهو عناصرها البشرية « المولدة» التي أطلق عليها اسم « الحبشة» أو « الأحبوش» أو « الأحباش» بحكم ما لمادة (ح ب ش) من دلالات على: الجمع، والتأليف، والخلط.. الخ، ولها أيضاً جوهرها المعنوي وهو واقعها الحضري بما للحياة الحضرية من شروط، طبقاً لواقع اليمن الحضري الذي جاءت منه عناصر هذا الواقع الحضري الناشئ في أرض « الحبشة»

خامساً: مفهوم المندب الحضاري والتاريخي، حيث إن كبار المؤرخين والدارسين المتخصصين، في الشرق والغرب، يعلمون حق العلم، أن التشكيلات الحضرية الأولى، بعنصريها اليمني والمولَّد، وبمحتوياتها الحضرية ذات المنابع والأصول اليمنية، ما لبثت أن كثرت، وتوسعت وتطورت وتشابكت مصالحها الحياتية وعلاقاتها الاجتماعية لتكوِّنَ واقعاً اجتماعياً مترابطاً ومتعاوناً بل ومتكافلاً تحكمه قوانينه وأعرافه وتقاليده ومن ثم أصبح هنالك واقع حضري بل وحضاري متطور، ومؤهل لأن تتسم على قمته « الدولة» وبحكم قوانين الحياة، وسنن التطور، ظهرت على قمة هذا المجتمع (مملكة الأكسوم والحبشة وعَدَوْلَى)، وكلمة (عدولي) هي اسم الميناء الرئيس لهذه المملكة، وربما كان يشمل معظم سواحل هذه المملكة - أي سواحل إرتريا - وإن كان أصله اسماً للمدينة المرفأ.

ورسمه بحروف المسند الحبشية السبئية أو المطورة لا يبين كيفية نطقه، ورسمه في المصادر الكلاسيكية الأجنبية هو (Adulis= أدوليس، عدوليس).

أما كتب التراث العربي فقد قُدِّر لهذا الاسم الاختفاء فاختفى ذكره في كتب التاريخ المرجعية - على مبلغ ما نعلم - وهي الأحق بذكره. ولكن هذه الصيغة الاسمية بقيت في كتب الأدب ثم في أمهات المعجمات اللغوية فكتب البلدان، وذلك بفضل بيت من الشعر لطرفة بن العبد، فقد شبه سفن الصحراء وهي جمال الضعن الذي رحلت فيه حبيبته، بسفن البحر، حيث يقول:

كأن حدوج (المالكية) غدوةً
خلايا سَفِينٍ بالنواصف من (دد)
(عَدَوْليَّةٌ) أو من سَفِيْن (ابن يامنٍ)
يَجُوْزُ بها الملاح طوراً ويهتدي

المالكية: حبيبته خولة: ودد: اسم موضع. أما السفن: فهي منسوبة إلى (عَدَوْلَى) وإلى ابن يامن ويجمع شراح شعر طرفة ومن أخذ عنهم من اللغويين والبلدانيين على أن (عَدَوْلي): قرية بفتحتين في البحرين. وأن (ابن يامن): ملاح من هجر بالبحرين والذي نراه أن طرفه لم ينسب السفن إلا إلى ذلك الميناء الأكسومي الذي كان لا يزال معروفاً في زمنه - وهو قديم من شعراء القرن 6م كما نسبها إلى (ابن اليمن) واختار صيغة (يامن) ليستقيم له الوزن. والنسبة إلى اليمن لها صيغ متعددة ومنها هذه الصيغة. ولولا ضيق المجال لبينا ذلك. أما المهم فهو أن كتب التراث العربي تجمع أيضاً على ضبط (عدولى) بفتحتين فسكون ففتحة على اللام وبعدها ألف مقصورة.

ويقع هذا الميناء بإزاء جزر دهلك في موقع أو أكناف (مصوع) الحالية. التي كانت بمثابة امتداد الاحتياز والعبور اليمني من العدوة الآسيوية العربية إلى العدوة الإفريقية الحامية.

وبهذا وذاك، كانت الحضارة اليمنية. هي الحضارة الوحيدة التي اقتحمت تلك البلاد من "أفريقية جنوب الصحراء". فأصبحت حضارة بلاد "الأكسوم

(35) لا نستعمل هنا عبارة « السكان المحليين» التي اشاعها المكتشفون والمؤلفون والكتاب الغربيون الذي مهدوا للنزعات الاستعمارية، ولا يزالون يتبنون السياسات الإمبريالية. حيث ان ما نشا من ترابط حضاري وتاريخي، بين اليمن و (الحبشة) في التاريخ القديم، قد تم بلا غزو ولا احتلال بقوة الجيوش، ولم يتغير هذا المسار إلا بعد ما حدث فيما بعد من تدخلات للإمبراطوريات التوسعية، من البيزنطيين خاصة، ومن الفرس ايضاً.

والحبشة وعدولى والبجة" تعد ضمن حضارات " المشرق العربي القديم" التي تتدرج تحت مصطلح " الحضارات السامية"، وكانت منطقة (المندب) هي الجسر الرئيسي الأول الذي عبرت منه الحضارة السامية العربية اليمنية إلى تلك البلاد الواسعة التي تبلغ مساحتها أكثر من مليون كم2، والتي أصبح لها تاريخ قديم وحضارة قديمة، دون أي بلد آخر من بلدان (افريقية جنوب الصحراء).

فهذه المفاهيم الجزئية الخمسة، هي التي يتكون منها ما سميناه " المفهوم الأصلي القديم للمندب، بمعناه الكلي.

ومنذ نشوء المجتمع الحضري ثم الحضاري الذي تربعت على قمته دولة (الأكسوم والحبشة)، فإنه يمكن لأي مؤرخ مختص أو باحث مهتم أن يقول: إن مجالاً حضارياً واحداً قد ظهر على خريطة حضارات عالم الشرق القديم، وهو مجال حضاري واحد يضم (اليمن) و (الحبشة)، ولا غرو في أن يكون هذا القول مدعاة للعجب والاستغراب عند بعض، أو مثيراً للتأمل والإعجاب عند آخرين، ولكنه يظل قولاً معبراً عن حقيقة تاريخية مستقرة في تاريخ الحضارات" السامية" القديمة، وحضارات المشرق العربي القديم، ولم تظلم هذه الحقيقة إلا في المحيط المعرفي العربي واليمني، لأن أحداً من المؤرخين أو الباحثين، لم يعطها ما هي جديرة به من الاهتمام حتى اليوم.

أما كبار الدارسين من المستشرقين وغيرهم، فإن هذه الحقيقة واضحة في أذهانهم كل الوضوح، والشواهد على ذلك كثيرة في أبحاثهم ومؤلفاتهم.

وليس لدي أو هام تحول دون القول إن كثيراً من الدارسين اليمنيين، أقدر على التوسع في هذا المجال، وإيراد الشواهد الكافية المترجمة من كتب المتخصصين الأجانب وأبحاثهم كما أن ضيق المجال هنا يقتضي الاكتفاء بالقول أن كثيراً من المستشرقين يتحدثون عن هجرات اليمنيين المبكرة إلى بلاد الحبشة ويعيدون بداياتها إلى الحقب الحضرية السابقة لدخول اليمن العصور التاريخية الحضارية وعن استمرار ذلك في مختلف عصور تاريخ اليمن القديم، ويتحدثون أيضاً عن المجال الحضاري الواحد الذي ربط بين العدوتين بفضل هذه الهجرات وما نشأ عنها من التفاعل الإيجابي لقرون طويلة من الزمن، وهم يقولون أيضاً إن أول محراث شق خطاً في أرض الحبشة كان محراثاً يمنياً وإن أول حجر وضع على حجر للبناء كان على الطراز اليمني، وإن أول كلمة خطت على حجر في أرض الحبشة كانت مدونة بالحروف اليمنية السبئية المعروفة بخط المسند[36]، ويقولون غير ذلك من الأولويات في مختلف مجالات الحضارة والتطور، بل إن منهم من يقول: إن حضارة مملكة (الأكسوم والحبشة وعدولى والبجاة.. الخ) لم تبن إلا بأيد يمنية، ورغم اعتزازنا كيمنيين بالدور الرئيس لأسلافنا في ذلك إلا أننا نؤمن بما جاء في (الموسوعة العربية) السابقة الذكر[37]، حيث تقول: « وكان الباحثون، حتى عهد قريب، يرون أن حضارة هذه الحقبة - الأكسومية - المبكرة، من صنع المهاجرين، الذين عبروا البحر الأحمر وحدهم غير أن الرأي السائد الآن يذهب إلى مشاركة السكان المحليين في ذلك.. الخ» بل إننا نفضل ألاَّ نقول: « مشاركة السكان المحليين في ذلك» لأن مصطلح» السكان المحليين « نُحِتَ وشُكِّل على أيدي ذوي النزعات الاستعمارية المتعالية، وقد تردد كثيراً في ظل الاستعمار وكتابات المستعمرين وخير من ذلك الحديث عن التفاعل الإيجابي البناء بين الاثنيتين.. السامية العربية اليمنية والحامية الإفريقية.. ذلك التفاعل الذي تولدت عنه الأثنية الحبشية بما لها من صفات ولكن حضارتها القديمة كانت يمنية سامية

(36) من المفارقات أن الأحباش لا يزالون يكتبون بالخط المطور من خط المسند حتى اليوم بينما لم يعد يعرفه في اليمن إلا الدارسون.
(37) هي - كما سبق - آخر الموسوعات العربية ظهوراً، وقد صدرت في قلب العروبة (دمشق) وآخر مجلداتها الـ25 صدر بتاريخ/ /، وينظر في النص المقتطف وما قبله وما بعده المجلد الأول/ مادة إثيوبيا/ عنوان فرعي التاريخ القديم/ صـ358.

لا تزال تدرس عالمياً في الأقسام الجامعية والمعاهد المتخصصة ضمن ما يعرف بـ (الحضارات السامية)، كما أن شعوبها تدرج ضمن الشعوب السامية حتى اليوم وكذلك لغتها القديمة وخطها[38].

وعلاوة على ما تقدم، نكتفي هنا بإيراد نص قصير مترجم عن كتاب مشهور هو كتاب (إفريقية: سيرة قارة) [39] لمؤلفه المتخصص في الدراسات القديمة (جون ريدر) [40]، وترجمة النص كما يلي: « إن النقوش القديمة التي عثر عليها في الهضبة الحبشية الشمالية، والتي تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، هي بدون شك نقوش سبئية، خطاً ولغةً.. شكلاً ومحتوى، وقد تمت كتابتها بالطريقة الأقدم وهي طريق المحراث حيث يقرأ النقش من اليمين إلى اليسار، ثم من اليسار إلى اليمين بالتناوب، وإلى جانب لغتها السبئية استخدمت المصطلحات الدينية السبئية التقليدية... الخ»[41].

إن هذا النص الصغير بمفرداته القليلة، له مخرجاته الكبيرة والكثيرة ولو لم يكن منها إلا دلالته الصريحة على أن الوحدات الحضرية التي أنتجها التفاعل الإيجابي بين جموع الوافدين وجموع المواطنين الأصليين كان قد تشكل منها في القرن السابع قبل الميلاد، مجتمعات على درجة كبيرة من التطور الحضري والحضاري، فقد صار لها منشآتها العمرانية من دينية ومدنية التي تدون على حجارتها نصوصها بما لها من مضامين دينية وحياتية وكلها على النمط السبئي المذكور في النص بل وأصبح لها المجتمع المركزي الذي يمثلها، وذلك في القرن السابع قبل الميلاد، وقبل ظهور الدولة - مملكة الأكسوم والحبشة - بقرنين لأن ظهورها كان في القرن الخامس ق.م. وهذا أمر له أهمية كبيرة حتى لتاريخ اليمنيين في أرضهم فيما يخص العمق الزمني لدخولهم العصور التاريخية.

ولا شك أن مجتمعاً كهذا، لا بد أن يكون قد مر منذ القرن السابع وما قبله بمراحل متدرجة من التطور، منتقلاً من مرحلة الاستقرار الحضري المتمثل بالتشكيلات الاجتماعية المتعددة إلى مرحلة اندماج هذه التشكيلات في وحدات اجتماعية أكبر وأكثر تعاوناً فيما بينها ثم فيما بين الوحدات الاجتماعية الأخرى لتشكل كيانات اجتماعية لها أعرافها وتقاليدها في التعاون وتبادل المصالح الحياتية.

ولا شك أيضاً أن القرن السادس قبل الميلاد قد شهد استقطاباً من الكيان الاجتماعي الأقدر للكيانات الأخرى المحيطة به، ليتشكل من ذلك المجتمع الأكبر والأكثر قوة وقدرة والمؤهل لان تتسنم على قمته « الدولة» بما لها من سلطات تحافظ بها على مبادئ التكافل والتضامن بين أبناء المجتمع وتتجاوز القدرة الاستقطابية إلى امتلاك الشرعية التوحيدية العامة على أرجاء الساحة الطبيعية للوطن الذي تنتمي إليه.

ولقد كان المجتمع الأكسومي - الحبشي، بين سائر الأثنيات الأخرى حوله، هو المجتمع الذي أهلته قوانين الحياة، وسنن التطور للاضطلاع بهذه المهمة الحياتية. فلم يكد يحل القرن الخامس قبل الميلاد حتى تربعت على قمته (مملكة الأكسوم والحبشة) ثم (مملكة الأكسوم والحبشة وعدولي) إلى غير ذلك من الأسماء والألقاب التي كان يتخذها ملوكها طبقاً لتوسع الدولة أرضاً وبشراً أو تبعاً لما يرون أن لهم من الحقوق.

وهذا التدرج التطوري، ليس مخرجة من مخرجات النص أعلاه فحسب، بل هو حقيقة ثابتة من حقائق التاريخ والحياة الإنسانية، والدارسون المتخصصون يؤكدون أن ميلاد (مملكة الأكسوم) كان في القرن

(38) من المفارقات أن الأحباش لا يزالون إلى اليوم يكتبون بخط هو في الأصل خط المسند اليمني وذلك بعد ان عدلوا زواياه إلى منحنيات، وبعد ان اضافوا إليه حركات الضبط والتشكيل وحروف اللين الثلاثة. اما في اليمن فإن الكتابة بالخط العربي الشمالي، قد حلت محل الكتابة اليمنية القديمة.

(39) العنوان الأصلي للكتاب هو:

.AFRICA A BIOGRAPHY OF THE CONTINENT

(40) المؤلف (JOHN READER.)

(41) ويراجع ما سبق نقلاً عن (الموسوعات العربية صـ7).

الخامس قبل الميلاد، أو أن هذا القرن لم يحل، إلا وقد أصبحت هذه المملكة حقيقة قائمة في بلاد الحبشة، وها هو النص المستشهد به، يعود بنصوص مسندية مكتوبة هناك إلى القرن 7ق.م أي إلى ما قبل قيام الدولة بقرنين من الزمن، وهذا يعني أن الاستقرار الحضري للجماعات ذات الأصول اليمنية أو للكيانات الاجتماعية المولدة - أي الحبشية - كان قد بدأ قبل ذلك ببضعة قرون، وأن موجة جديدة قدمت من اليمن في العصر السبئي الأول - عصر المكربين - وبين أفرادها من يجيدون تدوين النصوص، فلم يحل القرن السابع قبل الميلاد إلا وقد أصبح للكيانات الحضرية بل والمتحضرة في بلاد الحبشة، منشآتها التي تدون على حجارتها النصوص المسندية طبقاً لنصوص المسند السبئية في الأراضي اليمنية، كما تقدم.

ومن القرن السابع حتى الخامس قبل الميلاد، استمرت الكيانات الاجتماعية في التطور إلى الأمام، حتى ظهر المجتمع الموحده بما له من شروط وتشكلت قمته في أراضي (الأكسوم)، وتركزت قواه القيادية من كبار القوم في حاضرة هذا الإقليم الواقع في الشمال والمسماة مدينة (الأكسوم) أيضاً، وتسنمت الدولة قمة هذا المجتمع، متخذة هذه المدينة عاصمة لها، خلال عصور التاريخ القديم لتلك البلاد الطويلة العريضة - إثيوبيا وارتيريا، وأجزاء من سواحل السودان أيضاً وباسم العاصمة تسمت الدولة.

وظهور (مملكة الأكسوم والحبشة وعدولى والبجاة... الخ) بمختلف الصيغ التي تذكر بها - موضوع تاريخي للكتابة عنه مجالاتها الواسعة، ولكن ربط التطور الحضري والحضاري لتلك البلاد، باليمن وبالحضارة اليمنية القديمة، أمر لا يختلف فيه اثنان من كبار العلماء المتخصصين في الغرب والشرق.

وحول تحديد زمن ظهور (مملكة الأكسوم) التي لم يأت القرن الخامس قبل الميلاد إلا وقد أصبحت حقيقة واقعة، لا بد أن تكون قد تبادرت إلى أذهان المؤرخين، تساؤلات كثيرة عن الظروف العملية لنشأتها، والعوامل المباشرة لقيامها، ومن الطبيعي أن يتناول المتخصصون هذا الموضوع بالدراسات المفصلة، ولهذا يمكن الاكتفاء هنا بالتأكيد على عامل نرى أنه كان له دور حاسم في هذه القضية، إذا نحن نظرنا إليها نظرة عامة ضمن المجال الحضاري العام، الذي يشمل العدوتين اليمنية والحبشية، وهي نظرة موضوعية ومنطقية لا بد منها لكل من يتناول القضايا الرئيسة التي شهدها هذا المجال الحضاري الواحد، لأن الظروف والعوامل التي كانت تؤدي إلى بروز هذه القضية أو تلك، هي عوامل مشتركة بين العدوتين في مثل هذه الأمور الهامة وفي مثل هذه الحالة يمكن القول: لقد علمنا أن الواقع الاجتماعي في العدوة الحبشية قد شهد في القرن السادس قبل الميلاد، مزيداً من التطور نحو قيام المجتمع المؤهل لميلاد الدولة، كما أننا نعلم أن الواقع السياسي في اليمن شهد في هذ القرن أحداثاً توحيدية هامة قادتها دولة اليمن المحورية بما لها من شرعية عامة على عموم الساحة اليمنية وهي (دولة سبأ)، في عهد المكرب (يثع أمر بيِّن) ثم في عهد خلفه المكرب - الذي أصبح ملكاً - (كريئيل وتاربن ذمار علي)، اللذين اعتبرا (مملكة أوسان) منتهكة ما لسبأ من شرعية سياسية ودينية، فشنا عليها الحرب، وفي عهد الثاني تم القضاء على (أوسان) ككيان سياسي له مقوماته وضمت أهم أراضيها إلى أملاك (سبأ).

ونرجح أن حرباً كبيرة كهذه، قد أدت إلى حركة نزوح واسعة ذات عناصر متميزة، حيث شملت أعداداً من أمراء الأسر الأوسانية الحاكمة، وأعداداً من الأقيال وكبار القوم وربما أعداداً أكبر من أنصارهم ورجالهم المحاربين، ونرى أن هذه الجموع بحكم موقع

أراضي (مملكة أوسان).[42] وامتداد نفوذها إلى منطقة (المعافر) وجنوب (تهامة - منطقة المندب) وخليج عدن قد اختارت النزوح إلى سواحل (أوسان)[43] في الجانب الإفريقي ثم اجتذبتهم التفاعلات الاجتماعية، إلى قلب المجتمع الجديد أي إلى الشمال الهضبة الحبشية حيث تقع منطقة (الأكسوم) وحاضرتهم المسماة (مدينة الأكسوم)، ليصبحوا فيها قوة فعالة من القوى التي أنشأت وحكمت (المملكة الأكسومية الحبشية) كمركز كبير وفعال من مراكز القوى القائمة في هذا المجال الحضاري الشامل، بما له من شرعية سيادية خاصة، وصفات ذاتية ومقومات، وبما له أيضاً من مطالب شرعية مغتصبة في العدوة الأخرى التي أخرجه منها خصومه السياسيون وهم في نظره غاصبون لحقوقه هناك بالقوة، وعلى هذا النحو نشأت المملكة الأكسومية الحبشية تشدها إلى اليمن أقوى الأواصر بما فيها علاقة التنافس مع القوى اليمنية لامتلاك الشرعية أو استعادتها.

إن الآراء السابقة حول التداخل الحضاري القديم بين (اليمن) و (الحبشة)، ليست غامضة ولا بعيدة التناول، بالنسبة للدارسين المختصين، والمهتمين المؤهلين، بل هي بلا شك حاضرة في أذهانهم على الدوام ولديهم على ذلك من الأدلة والبراهين العلمية، ما هو أكثر بكثير مما يمكن إيراده في هذه الدراسة، ولم نورد ما أوردناه هنا وبهذا الاختصار الذي قد يخل بقوتها الإقناعية لغير المتابع، إلا تذكيراً للدارسين والمهتمين - اليمنيين خاصة - بما لهذا الموضوع من الأهمية البالغة الجديرة بأن يمنحوها من جهودهم ما هي خليقة به، ولكي يقولوا لمن لا يروق لهم تاريخ اليمن الحضاري، إلا من خلال الميثولوجيا وأساطير الأولين وأخبار الإخباريين عن احتلال التبت وفتح الصين: إن لتاريخ اليمن ما يفاخر به دون خيال جامح ولا شطحات رعناء، وإن امتداد ظلال الحضارة اليمنية عبر البحر الأحمر، إلى العدوة الأخرى الواقعة في • إفريقيا جنوب الصحراء• لتشهد تلك الأرض ذلك التفاعل الإنساني البناء بين الأثنيات والأعراق. وليتولد عنه المجتمع الحبشي الحضري المتطور. ولتقوم على تلك الربوع (الحامية) حضارة عربية يمنية (سامية) من أهم حضارات العالم القديم.. هو في الواقع حدث تاريخي يعد من المفاخر الإنسانية. وخاصة حين نعلم أن كل ذلك قد حدث بلا غزو ولا احتلال. ودون حرب ولا قتال، ودون جيوش جرارة ولا قوة عسكرية قاهرة. وبذلك كانت الحضارة اليمنية هي الحضارة الوحيدة والأولى التي أشعت أنوارها في ظلام ذلك الجزء من العالم، متقدمة وسابقة لكل حضارات العالم القديم بما في ذلك الإمبراطوريات العظمى من يونانية ورومانية وفارسية. ولا شك أن هذا لما يبعث على الفخر والاعتزاز، لا لليمنيين فحسب. بل والأحباش أيضاً وهم بهذا الفخر أجدر وأحرى لأن تجربتهم الحضارية هي الرد الحاسم على كل التخرصات العنصرية التي افتراها الاستعماريون والمنظرون للاستعمار. تلك التخرصات المتعلقة بالإنسان الإفريقي في بلدان • إفريقية جنوب الصحراء• فإذا كان الإنسان الإفريقي قد تحضر اليوم. ويكذب مراعمهم. فإن دخوله في عالم الحضارات القديمة قبل كثير من الأمم الاوروبية. أقوى في الرد على كل المفتريات.

(42) وسمت (أوسان) دائرة نفوذها، حتى لقد بسطت يدها على بلاد (المعافر) ومن ضمنها جنوب (تهامة) وفيها (المخا) فمسوا المصالح والشرعية السبئية في الصميم، ولعل الأوسانيين أيضاً لم يبدوا الاحترام اللازم للإله (المقه)، فاتخذ (السبئيون) هذه الإساءة الأخيرة المحتملة طبقاً لنص (النصر) حجة أولى لشن الحرب. لأن الشعارات الدينية ادعى لاستفزاز العواطف واستثارة الحماس، وتبرير ما تسببه الحروب من ويلات. وهكذا لا يزال الدين يستغل حتى في عالم اليوم المتقدم.

(43) تذكر المصادر الكلاسيكية الأجنبية ان جزءاً من السواحل الإفريقية يسمى في تلك الأزمنة القديمة (ساحل أوسان). ولعل (الأوسانيين) كان قد اصبح لهم نفوذ في هذا الساحل منذ أن توسع سلطانهم حتى شمل جنوب تهامه ومنطقة (المندب). أو لعله سمي باسمهم حينما نزلوا فيه بهجرتهم الكبيرة المذكورة. وينظر في هذا كتاب (الطواف) ترجمة الأستاذ حسين علي الحبيشي والقاضي نجيب الشميري صد50.

لهجات الجزيرة العربية كما يصفها الهمداني

أ. د. حميد العواضي
أستاذ اللسانيات والترجمة المشارك
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صنعاء

"... ولو تصدى باحث لغوي لدراسة كتب الهمداني من الجانب اللغوي لوجد فيها ذخيرة طيبة."

حَمَد الجاسر

مقدمة

لقد قدّم الهَمْدَاني للإنسانيةِ مساهماتٍ هامةً في التّعريفِ بالجزيرة العربية ووصْفِها وتفصيل تاريخ اليمن فيها بوجه خاص. وتميّزت مساهماتُه في اتساع نطاق اختصاصها العلمي فقد تناول قضايا الجغرافيا، والأنساب، والتاريخ، والفلك، والعلوم البحتة، والشعر، واللغة وغيرها. وإذا كنّا ما نزال نبحث عن أهمّ مشاركاته المفقودة، فإن منها مساهمته بشأن لغة اليمن القديمة وهو الجزء التاسع من كتاب الإكليل الخاص بـ (أمثال حمير وحكمها باللسان الحميري وحروف المسند).

كما أن له مساهمة في اللغة عامة حيث يَذْكُرُ أنه قد بَيَّـنَ «عِلَلَ اختِلاَفِ الكَلَامِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الأَرْضِ فِي كِتَابِ (سَرايرِ الحِكْمَة)، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْرِفَ ذَلِكَ نَظَرَهُ فِي ذَلِكَ الكِتَابِ» (الإكليل 193/2). وكتاب «سرائر الحكمة» الذي يشير إليه الهمداني هنا هو أيضا من الكتب التي لم نقف منها سوى على الرسالة العاشرة.

وللهمْداني في اللغة شذرات أُخَر في ما وقع في أيدينا من أجزاء كتابه المحقق (الإكليل). وقد أسهم بعض الباحثين في إبراز مساهماته اللغوية في هذا الباب وإن لم يُفَصِّل بعضهم تفصيلا كافيا (انظر الشامي 1965؛ فك 1980؛ Al – Selwi 1987؛ الصلوي 1990؛ Robin 1991).

وللهمداني بالأخص نص مميز في كتابه (صفة جزيرة العرب) يقدم وصفا لجغرافيا اللغات، أو اللهجات كما صرنا نسميها اليوم. وهي اللهجات التي كانت سائدة على أيامه في الجزيرة العربية. وسوف نحاول في هذا البحث ضبط هذا النص وتحليله مع الاستعانة بما جاء من آرائه اللّغوية في مواضع أخرى. والنص الذي بين أيدينا نص مشهور لكن دراسته دراسة مستفيضة لما تُنجز على الوجه العلمي المطلوب. ولا يَعْدُو بَحْثُنا هذا كَوْنُه مُسَاهَمَةً جُزْئِية في كشف مضمون هذا النص المميز. لا بد أن يُثْرَى بدراسات تفصيلية أخرى. وربما استطاع الباحثون دراسة واقع اللهجات اليوم قياسا بما تركه الهمداني في وصف جغرافيتها في هذا النص.

1. أهداف البحث

يهدف البحث إلى تحقيق النص تحقيقا علميا بإخراجه مضبوطا لغةً وأعلاماً، ثم تحليله للتّعرف على واقع اللغات في جزيرة العرب

كما يصفها لسان اليمن أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني (280 - 360هـ/ 893 - 971م) ، والكشف عن خصائص طريقته في وصفها، وبيان جغرافيتها بحيث يمكن إضاءة ما أَشْكَلَ من المواقف حول لُغة اليمن وعلاقتها بالفصحى. كما يهدف البحث إلى التعريج على مواضع الاختلاف بين ما جاء عند الهمداني وما ورد في كتب التراث حول وصف اللهجات أو تلقيب بعض ظواهرها. كما يهدف إلى إسقاط الوصف على خرائط تقرِّب المادة إلى الأفهام وتشرع لدراسة جغرافية تاريخية أوسع وأدق.

2. دراسات سابقة

أشرنا في مطلع البحث أن جملة من الدراسات قد أجريت بشأن إسهام الهمداني في اللغة، وبعض هذه الدراسات وقفت على هذا النص بالذات منها -حسب الترتيب التاريخي (فك 1980؛ رابين 1986؛ Robin 1991). ويلاحظ أن جل من درس النص دراسة مفصلة هم المستشرقون، وهو أمر يشكرون عليه ونلام نحن على عدم الاهتمام به.

وقد جعل (فِك) نص الهمداني مصدرا لمعرفة واقع اللغة العربية في القرن العاشر الميلادي، كما أوّل بعض إشاراته تأويلا موفقا. في حين قدمت دراسة (رابين 1986) خرائط أبرزت جليا الوضع اللغوي لليمن في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ولكنها لم تخل من الخطأ في تحديد بعض المواقع، ولم تسلم ترجمتها من تصحيف الأسماء بسبب نقل الحروف transliteration بين اللغة المصدر (الإنجليزية) واللغة لهدف (العربية). انظر الشكل رقم (2).

ويعد إسهام (كرستيان روبان) Robin 1991 في التعريف بهذا النص باللغة الفرنسية وترجمته إليها والخريطة التي أضافها أقرب إلى رسم ملامح النص، كما هو مبين في الشكل رقم (1). وقد جعلنا إنجازه أساسا لما يمكن الزياة عليه.

وما يضيفه بحثنا هذا إلى كل ما سبق هو ضبط النص ضبطا واضحا يحقق فهمه ويحدد مواضع أجزائه. كما حللناه تحليلا جديدا وقسمناه تقسيما منهجيا استفاد ممن سبق وأضاف إليه. ثم وضعنه خريطتين أقرب ما تكونان إلى النص وتفاصيله مما سبقهما. على أننا نعتبر أن هذه الدراسة هي للشق اللغوي من النص أما الشق الجغرافي فإنه سيتم في مرحلة أخرى تحقيق الأسماء وتفاصيلها. ولا ندعي لهذا العمل الكمال والتمام ولكن الشمول ومحاولة التعمق في تفاصيل النص وسبر أغواره وصولا إلى فهم أوضح لمكوناته في وصف اللغات في تلك الفترة.

3. منهجية البحث

نعتمد في منهجية هذا البحث على التحليل المصطلحي للمفاهيم التي استخدمها الهمْداني مقارنةً بما يُستعمل في مثل هذه الحالة دون أن نقصد بذلك الإشارة إلى الوعي القديم بها لديه، بقدر ما نريد الاستفادة المنهجية التي تساعدنا على تقسيم أنواع إشاراته واستعمال مكتسبات ما صار يعرف اليوم بعلم اللهجات dialectologie. ولا مَنْدُوحة من بيان أن علم اللهجات يركز على ما يسمى بالخاصية اللهجية dialectalisme وهي سمة (كلمة، عبارة، أسلوب) مَرَدُّها لهجة معينة ليست في اللغة المشتركة» Dubois 2001 : 143. وهو ما سوف نحاول استقصاءه لدى الهمداني. كما نعتمد على دراسة جغرافية الأماكن التي أشار إليها والتعرف على تطور تسمياتها ونطاقاتها اللهجية. ثم نسقط ذلك على الخرائط التي أعدت لهذا الغرض. ونختم البحث ببعض الملاحظات.

4. تقديم النص

نُشِر هذا النص ضمن كتاب (صفة جزيرة العرب)، وقد اعتمدنا تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع، طبعة مركز الدراسات والبحوث اليمني. وهي طبعة أُصيبت بعيب يخص هذا النص من حيث أنها وضعت شطرا منه في صفحة (ص248) ثم قطعت استمرار الكلام فيه بصفحة (ص249). ثم استأنفت النص في الصفحة التالية (ص250). ولا نعلم بالدقة مدى الأخطاء الشبيهة أو الأكثر حضورا و

الأقل على نصوص الهمداني مما اعتور هذه الطبعة. لذلك فالدعوة ملحة للمراجعة والنظر في كل ما نشر من تراثه إلى الآن. دون نكران للجهود التي بُذلت بل بالعرفان لها بسبق الفضل وجميل العمل.

5. نص الهمداني في وصف لغات الجزيرة العربية

«**لغات أهل هذه الجزيرة**: أَهْلُ (الشِّحْر) و(الأَسْعَاء) ليسوا بفصحاء. (مَهْرَةُ) غُتْمٌ يُشَاكِلُون العَجَم. (حَضْرَمَوْت) لَيْسُوا بِفُصَحَاء، وَرُبَّمَا كَانَ فِيهِم الفَصِيحُ، وَأَفْصَحُهم (كِنْدَة)، و(هَمْدَان) وبعض (الصَّدِف). (سَرْو مَذْحِج)، و(مَارِبُ)، و(بَيْحَانُ)، و(حَرِيبُ) فُصَحَاءُ، وَرَدِيُّ اللُّغَةِ مِنْهُم قَلِيلٌ. (سَرْو حِمْيَر)، و(جَعْدَةُ) لَيْسُوا بِفُصَحَاء، وفي كَلامِهم شَيْءٌ من التَّحْمِيرِ وَيَجُرُّونَ فِي كَلامِهِم وَيَحْذِفُون، فيقولون: «يَا بْنَ مَعَمْ» في «يَا بْنَ العَمّ» و«سَمَعْ» في «اِسْمَعْ». (لَحْجُ)، و(أَبْيَنُ)، وَ(دَثِينَةُ) أَفْصَحُ، و(العَامِرِيُّون) من (كِنْدَةَ)، و(الأَوْدِيُون) أَفْصَحُهم. (عَدَنُ) لُغَتُهُم مُوَلَّدَةٌ، رَدِيَّةٌ، وَفِي بَعْضِهِمْ نُوكٌ وَحَمَاقَةٌ إلاّ مَنْ تَأَدَّب. (بَنُو مَجِيد) و(بَنُو وَاقِد) و(الأَشْعَر) لابأس بِلُغَتِهم. سَافلة (المَعَافِر) غُتْمٌ وعَالِيَتُها أَمْثَلُ. و(السَّكَاسِك) وَسَطٌ، بلاد (الكَلاع) نجدِيُّهُ مَثِيلٌ، مع عُسْرَةٍ من اللِّسَان الحِمْيَرِي، سُرَاتُهُم فِيها تَعَقُّدٌ. (سَخْلان)، و(جَيْشَان)، و(وَرَخ)، و(حَضِر)، و(الصُّهَيْب)، و(بَدْر) قَرِيبٌ مِنْ لُغَةِ سَرْوِ حِمْيَر. و(يَحْصُب)، و(رُعَيْن)، أفصح من (جُبْلان). و(جُبْلان) في لغتهم تَعَقُّدٌ. وحَقْلُ (قَتَاب) فإلى (ذَمَار) الحِمْيَرِيَّة القُحَّة المُتَعَقِّدة. سُرَاة (مَذْحِج) مِثْل (رَدْمَان)، و(قَرَن) وَنجدُها مثل (رَدَاع)، و(إسْبيل)، و(كَوْمَان)، و(الحدَا)، و(قَائِفَة)، و(دِقْرَار) فُصَحَاء. (خَوْلانُ العَالِيَةُ) قَرِيبٌ مِنْ ذَلك. (سَحْمَر)، و(قَرَد)، و(الحَبْلَة)، و(مَلَح)، و(لحج)، و(خَمَض)، و(عُنَمَة)، و(وَتِيح)، و(سُمَح)، و(آنس)، و(الهَان) وَسَطٌ، وإلى اللُّكْنَة أَقْرَب. (حَرَاز)، و(الأَخْرُوج)، و(شَمّ) و(مَاظِخ)، و(الأَخْبُوب)، و(الجَحَادب). و(شَرَف أَقْيَان)، و(الطَّرَف)، و(وَاضِع)، و(المَغْلَل) خَلِيطِيٌّ مُتَوسِّط بَيْن الفَصَاحَة واللُّكْنَة، وَبَيْنَهَا مَا هُو أَدْخَلُ فِي الحِمْيَرِيَّة المتعقِّدة، لاَسِيَّمَا (الحَضُورِيَّة) مِنْ هَذِه القَبَائِل. بَلَدُ (الأَشْعَر)، وَبَلَدُ (عَكّ)، و(حَكَمِ بن سَعْد) مِنْ بَطْنِ (تِهَامَة) وحِوَازِها لابَأْس بِلُغَتِهم إلاّ مَنْ سَكَن مِنْهُم القُرَى. (هَمْدَانُ) من كَان في سُرَاتِها مِنْ (حَاشِد) خَلِيطِيٌّ مِنْ فَصِيح مِثْل (عُذَر)، و(هَنُوم)، و(حَجُور)، وغُتْم مِثْل بَعْض (قُدَم) وَبَعْض (الجَبْر). نجدِيُّ بَلَد (همدان البَوْن) مِنْهُ (المَشْرِق) و(الخَشَب) عَرَبِيٌّ يُخَلِّطُ حِمْيَرِيَّةً، ظَاهِرُ (هَمْدَان) النَّجْدِيُّ مِنْ فَصِيح ودُونَ ذَلك. (خَيْوَان) فُصَحَاءُ، وفيهم حِمْيَرِيَّةٌ كَثِيرَةٌ إلَى (صَعْدَة). وبَلَدُ (سُفْيَان بن أَرْحَب) فُصَحَاء إلاّ فِي مِثْل قَوْلِهم: «أَمْ رَجُل» و«قَيْدبعيراك» و«رأيت أخْوَاك» وَيُشْرِكُهم في إبْدَال المِيم مِنَ اللام فِي «الرَّجُل» وَ«البَعِير» وَمَا أَشْبَهَهُ (الأَشْعَرُ) و(عَكٌّ) وبَعْضُ (حكَم) مِنْ أَهْل (تِهَامَة). و(عُذَرُ مَطِرَة) و(نِهْمُ) و(مُرْهِبَةُ) و(ذِيبَان) وَسَكَنُ (الرَّحَبَة) من (بَلْحَارث) فُصَحَاءُ، (ضَيَاف) بـ(الجَوْف) الأَعْلَى دُونَ ذَلك. (خِرْفَان) و(أَثَافت) لا بَأْسَ بِفَصَاحَتِهم. سَكَنُ (الجَوْف) فُصَحَاء إلاّ مَنْ خَلَطَهم مِنْ جِيرَة لهم تِهَامِيِّين. قَابِلُ (نِهْم) الشِّمَالي، و(نَعْمَان مُرْهِبَة)، فَظَاهِرُ (بَنِي عَلْيَان)، وظَاهِرُ (سُفْيَان)، و(شَاكِر) فُصَحَاءُ. بَلَدُ (وَادِعَةَ): (بنو حَرْب) أَهْلُ إمَالَةٍ في جَمِيع كَلامِهم، و(بَنُو سَعْد) أَفْصَح. من (ذَمَار) إلى (صَنْعَاءَ) مُتَوسِّطٌ، وهو بلد (ذِي جُرَة). صنعاءُ في أَهْلِهَا بَقَايَا من العَرَبِيَّة المَحْضَة وَنُبَذٌ مِنْ كَلام حِمْيَر. ومَدِينَةُ (صَنْعَاءَ) مُخْتَلِفَةُ اللُّغَاتِ واللَّهَجَات، لِكُلِّ بُقْعَةٍ مِنْهُم لُغَةٌ، ومَنْ يُصَاقِب (شُعُوب) يُخَالِفُ الجَمِيع. (شِبَام أَقْيَان)، و(المَصَانِع)، و(تُخْلَى) حميرية محضة. (خَوْلان صَعْدَة) نَجِدُها فُصَحَاء وأَهْلُ قدها وغَوْرها غُتْمٌ. ثم الفَصَاحَةُ مِن العَرْض في (وَادِعَة)، فـ(جَنْب)، فـ(يَام)، فـ(زُبَيْد)، فـ(بَنِي الحَارث)، فما اتصل ببلد (شَاكِر) من (نَجْرَان) إلى أَرْض (يَام)، فَأَرْض (سِنْحَان)، فَأَرْض (نَهد) و(بني أُسَامَة)، فـ(عَنْز)، فـ(خَثْعَم) فـ(هِلال)، فـ(عامر بن رَبِيعة)، فَسُرَاة (الحِجْر)، فـ(دَوْس)، فـ(غَامِد)، فـ(شُكْر)، فـ(فهم) فـ(ثَقِيف)، فـ(بَجِيلَة)، فـ(بَنُو عَلي)، على أن أَسَافِلَ سَرَوَات هذه القبائل ما بين سُرَاةِ (خَوْلان) و(الطائف) دون أعاليها في الفصاحة. وأما (العروض) ففيها الفصاحة ماخلا قراها، وكذلك

(الحِجَاز) فـ (نِجْد) السُّـفْلى فإلى (الشَّـامِ) وإلى دِيَار (مُضَر) ودِيَـار (رَبِيعَة) فيها الفَصَاحَـة إلاَّ في قُرَاها. فهذه لُغَاتُ الجزيرةِ عَلَى الجُمْلَةِ دُونَ التَّبْعِيضِ والتَّفَنُنِ. » (الهمداني، الصفة، تح. الأكوع: 248، 250).

6. تحليل النص

يصف النص اللغات أو اللهجات في الجزيرة العربية إبّان حياة الهمداني أي فـي النصف الأخير من القرن الثالث الهجري/التاسـع الميـلادي والنصف الأول من الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كما سمعها الهمداني، أو كمـا قـدّر سـماع بعضهـا. فالحديث هنـا يبدو أنه يخص لغة الكلام أي ما كان موضع تداول شـفوي أكثر منـه كتابي، وهو وصف للغة في لحظة تاريخية محددة أي وصف آني diachronique لها في تلك الفترة، إذا ما أجزنا لأنفسـنا استخدام المصطلح المستخدم اليوم في وصف هذه اللغات. وقد دمج الهمداني المكان بالإنسان فتارة يذكر المواضع وتارة يذكر أهل تلك المواضع، لكنة قدّم هذا الوصـف وفق منهج تتبعي منطلقا من أقصى جنوب الجزيرة، كمنطقة طَرَفية، إلى أقصى شـمالها. وهو ما يلبـي منهجيا ما ترمي إليه دراسـات اللهجات كاختصـاص علمي مقصـده «وضع خرائـط الموجات اللغويـة ممـا يُظهر مناطـق مركزية فيهـا تجديد عام ومناطـق طرفية احتفظت بما هو قديم بائد» Debois 145 : 2001. وقد تنوّعـت مصطلحات الوصف تارة، وتكـررت تارة أخرى بحسـب المكان الـذي كان الناظمَ الأساسـيّ في سـردها. ولذلـك سَـنُعِيد توزيع النص بناء علـى تجميع لأربعـة مصطلحاتٍ أساسـيةٍ نراها تُشكِّل لُحْمَة النّص وسُدَاه وهي: **الفصاحة بدرجاتها، والخليط بأنواعه، والتحمير بفروقه، وسمات لهجية مشهورة مثل الإمالـة والتوليد والغتمة، وقضية أداة التعريـف**. وقـد سـلك بعـض الباحثين التقسـيم إلى خمـس فئات هي «العربية الفصحى؛ والعربية الرديئة؛ والعربية الخليطة بالحميرية؛ واللغة الحميرية؛ وأخيرا غيـر الفصيـح». (Robin1991، 105). وتقسـيمنا لا يختلف كثيرا عما اكتسـب علميا في هذا الباب إلا أنه يفصل ما جاء عرضا أو موجزا.

ونؤكـد مجـددا أن النـص ينطـوي علـى مكونـين مترابطـين: مُكَوّن لغـوي تمثل في المصطلحـات التي اسـتعملها الهمداني ليصف بها للغـات والناطقين بها من ناحية: (فصيح، قريب من الفصيح، خليط، تحمير، ردي... إلـخ)، ومُكَـوِّن جغرافي في الأماكـن والقبائل التـي يذكرهـا في النـص كجمهور ناطـق تنطبق عليه المصطلحـات التي يصف بهـا هذا المكـوّن (ابتداء من الشِّحْر ومرورا بجبال اليمن الوسطى وسـهولها وصولا إلى نجد والحجاز فإلى حدود الشـام وجنوب العراق). والعلاقة بين المكونين وشـيجة ولأسـباب ترتبط بحدود هـذا البحـث فسـوف نكتفـي بالتركيـز علـى المكون المصطلحي من حيـث تفصيل مقاصده وتدقيق معانيه لفهـم حالة اللغـات العربية فـي تلك الفتـرة. على أن تفاصيـل المكون الجغرافي سـوف تظهر هنا من خلال الخرائط المرفقة. ولكن دراسة تفصيلية لهذا الجانب، وبالأخـص تخريـج المواقع المذكورة وتحديـد نطاقاتها القديمة وما آلت إليه حديثا سوف تتم لاحقا.

5. 1. الفصاحة

أثبـت الهمدانـي الفصاحـة لطائفـة عـن القبائل والأماكـن. لكنـه جعـل هـذه الفصاحة علـى دراجات فاسـتعمل عبـارات مـن قبيـل: «العربيـة المحضـة»، ثـم «أفصحهـم» و«فصيـح» و«فصحـاء» و«لابـأس بفصاحتهم»، و«قريب من الفصاحة» و«أقل فصاحة» و«دون الفصاحة» وصولا إلى من «ليسوا فصحاء». ولا شـك أن هذا التنويع ليس أسـلوبيا وإنما يَنُمُّ عن درجة من درجات اسـتخدام اللّغة قدّرهـا الهمداني تقديرا. وهو مـا يجعل مهمة التحليل صعبة لعـدم القدرة على إسـناد مؤشر صوتي أو صرفي أو نحوي أو معجمي أو دلالي لمعرفة التفاضل بين هذه الدرجات. حيث لم ترد في النص إلا قلة قليلة من الأمثلة الدالة على شكل من أشكال المؤشرات المطلوبة. ونستعرض إسناد الفصاحة بدرجاتها على النحو التالي:

يمكن أن نجعل في رأسها «**العربية المحضة**» و نتي

يـرى الهمدانـي أن نبـذا منها فـي بلـد (ذي جرة) من مخـلاف صنعاء مع نبذ من كلام حمير. على أنه يعتبر أن مدينة صنعاء متعددة اللغات: « لكل بقعة منها لغة». وهو ما يجعلها توصف بالفصاحة والخليط والتحمير. وهـذا دليـل على تأصل المدنية والتّحضّر في مدينة صنعاء كمدينة جامعة cosmopolite منذ تلك الفترة.

ثم يستعمل صيغة التفضيل «**أفصحهم**» ويجعل ذلك في (كندة)، و(همـدان)، وبعض (الصّـدف)، وفي (لَحْج) و(أَبْيَـن) و(دثينـة)، وفـي (العامريين) من (كنـدة)، وفي (الأوديـين) و(يَحْصب) و(رُعَيْـن) و(سُـراه مَذْحِج) مثل: (ردمـان) و(قـرن) وفـي نِجْدِها مثـل (رداع) و(إسـبيل) و(كومـان) و(الحـدا) و(قائفـة) و(دقـرار)، و(مـارب) و(بيحـان)، و(بنو سـعد). والواقع أن وصـف «أفصحهم» قد لا تكون درجة في التعبير وإنما لفظة عامة تسـتخدم، إن اسـتوجب الأمر، مع كل التناغمان والدرجات اللهجوية سواء ما كان فيها فصيح أو معقّد، وذلك لوصف مجموعة من أهـل تلك الدرجة - وإن كان فـي لغتهم تعقد - بأنهم أفصح من بقية أصحـاب تلك الدرجة في النطاق المكاني المحدد الذي يتم الحديث عنه.

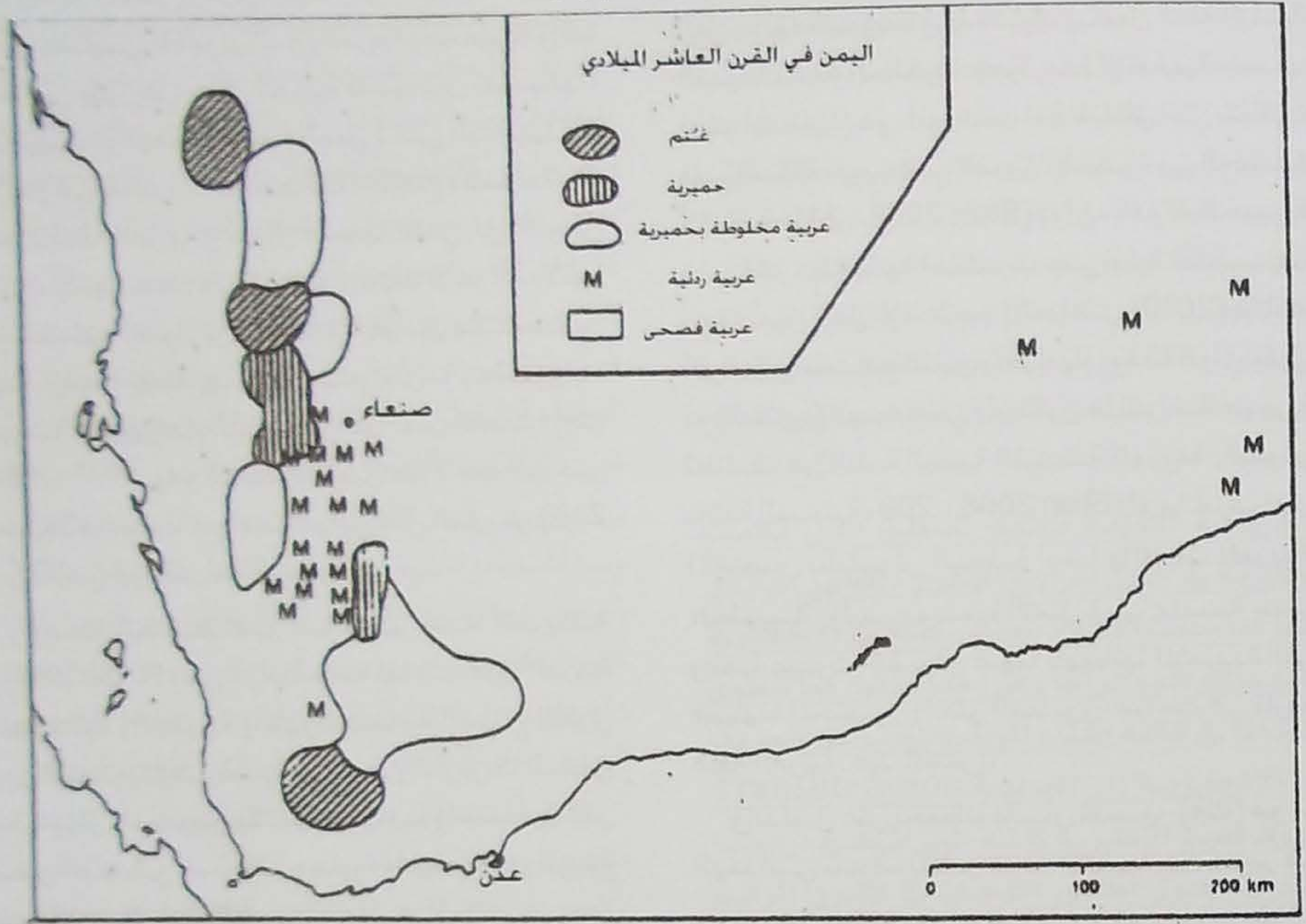
ثـم يسـتعمل «**فصيـح وفصحـاء**» ويجعـل ذلك في (حريـب) ويؤكد أن «ردي اللّغة فيهـم قليل» كما يصف بالفصاحة والفصيح كل من: ظاهـر (همدان) النجدي، و(خيوان)، و(سفيان بن أرحب)، و(عذر مطرة)، و(نهم)، و(مرهبة)، و(ذيبان)، وسـكن (الرحبة) من (بلحارث)، و(الجـوف)، وقابل (نهم) الشـمالي، و(نعمان مرهبة)، وظاهـر (بني عليـان)، وظاهر (سـفيان)، و(شـاكر)، ونجد (خولان صعدة)، و(وادعة)، فـ (جَنْب)، فـ (يَام)، فـ (زُبَيْـد)، فـ (بَنِي الحَارث)، فما اتصل ببلد (شـاكر) من (نَجْرَان) إلى أَرْضِ (يَام)، فَأَرْضِ (سَنْحَان)، فَأَرْضِ (نهد) و(بني أسـامة)، فـ (عنز)، فـ (خثعم) فـ (هـلال)، فـ (عامر بن ربيعة)، فسـراة (الحجر)، فـ (دَوْس)، فـ (غَامِد)، فـ (شـكر)، فـ (فهم) فـ (ثَقِيـف)، فـ (بَجِيلة)، فـ (بَنُو عَلـي)...«وأمـا اللهجات التي يتكلـم بها خارج اليمـن، يكتفي الهمداني بملاحظة عامة» (فك 1980: 166) حيث يشـير أن أن (العروض) فيها الفصاحة ما خـلا قراها، وكذلـك (الحجاز)، و(نجد) السـفلى إلى (الشـام) وإلى ديار (مضر) و(ربيعة) فيها الفصاحة إلا في قراها.

ثم يستعمل الهمداني وصف «**قريب من الفصاحة**» ويجعـل ذلـك في (خـولان) العالية ويسـميها مخلاف (خـولان بن عمـرو)، وهي التي نسـميها اليوم (خولان الطيال)، وهي التي حددها بشرقي (صنعاء) بينها وبين (مارب) (الصفة: 214). ثم يرى أن أسافل خولان حتى الطائف «**أقل فصاحة**». وخولان الأخيرة هذه هي التي يسميها (خولان الشـام) أو (خولان قضاعة): «ومدينة خولان العظمى (صعدة) » (الصفة 224).

وهـذه الدرجات مجتمعة مـن العربية المحضة إلى الفصيـح فالأقل فصاحة تبين عنهـا الخريطة المرفقة دون تمييز لدرجاتها. انطر الشكل ((Robin1991.

ولكـن لا بـد مـن ملاحظـة فسيفسـاء الفصاحة تـكاد تعـم اليمن من جبال السـراة وتمتد حتى الشـام وجنوب العراق، مما يوحي بتقارب لَهْجِي لهذا النطاق الجغرافي. والإشكال المثار حول الفصاحة ما زال قائما إلى يومنا هذا، ونرجح أن الهمداني يُعِّد فصيحا كل ما كان قريبا من اللغة التي تعلمها ويتكلمها مع تركيز على مخارج الجانب النطقي والنحوي أكثر منه على المعجم. وإن كان البعـض يـرى أن الهمداني يضع الفصاحة في مقابـل الغتمـة وبينهما يقع الخليط الآتـي ذكره. لكننا نميـل إلـى وعـي الهمداني بوجود مؤشـر جامـع للغة السـائدة إبّـان عهده هـي اللغة الفصحـى بمخارجها الصوتيـة المتعارف عليها ونحوها الـذي اكتمل تقعيده أكثر منه بمعجمها مـن الكلمات. ويذهب (يوهان فك) إلى أن الهمداني "لم يكن يرى فقط أن لغة الكتابة هي القـدوة والمثال، بل كان يرى فوق ذلـك أنها تصور للغة الأصليـة الخالصة البعيدة عن التغيير والتبديل، والتي تفرعـت منها تدريجيا الألسـنة واللهجات التي كانت سـائدة في عصره [ووصفت] بالفسـاد والتحريف." (فـك 1980: 161، 162). وهو رأي لا يجانب الصواب بل ينسـجم مع ما اسـتتب عليه وضع اللغة العربية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

شكل رقم (١)



لغات اليمن في القران العاشر الميلادي / الرابع الهجري حسب الهمداني
المصدر: Robin 1991:83

2.5. الخليط

خليط من الفصاحة والتحمير حينا، أومتوسط بين الفصاحة واللكنة حينا آخر، ويضع الهمداني مناطق من بين (ذَمَار) و(صنعاء) مثل (ذي جرة) ضمن هذا الخليط الذي يجمع العربية المحضة ونبذ من لغة حمير. كما يجعل مدينة صنعاء نَسِيجَ وَحْده من حيث تَعَدّدُ واختلاف لهجاتها فـ«لكل بقعة منها لغة. كما سبقت الإشارة. كما يعد من **الخليط** لغة أهل (حراز)، و(الاخروج)، و(وشم) و(ماظخ)، و(الأحبوب)، و(الجحادب)، و(شرف أقيان)، و(الطرف)، و(واضع)، و(المعلل)، و(همدان)، و(حاشد)، و(عذر)، و(هنوم)، و(حجور)، ونجدي بلد (همدان)، و(البون)، و(المشرق)، و(الخشب). ومن الخليط من يجمعون بين الفصاحة ولغة حمير ولكن مع تحديد في الدرجة: فالهمداني يصف سكان (خيوان) حتى (صعده) بأنهم «**فصحاء فيهم حميرية كثيرة**». كما يستعمل في هذا الخليط **التوسط بين اللَكنة والفصاحة**. ولكن إلى اللكنة أقرب في (سَحَمَّر)، و(قرد)، و(الحبلة)، و(ملح)، و(لاحج)، و(حمض)، و(عتمة)، و(وتيح)، و(سمح)، و(آنس)، و(ألهان). نعد من الخليط ما جاء في وصف لغتهم «لابأس في لغتهم أو لا بأس في فصاحتهم» مثل (بنو مجيد)، و(بنو واقد)، و(الأشعر)، و(عك)، و(حكم بن سعد)، و(خرفان) و(أثافت). كما وضعنا في هذا الجزء من وصفت لغتهم بأنها **دون الفصاحة** كما في (ضياف الجوف)، كما هو الأمر أيضا في قرى (العروض)، وقرى (الحجاز)، وقرى (نجد) السفلى إلى (الشام)

وقرى ديار (مضر) وقرى (ربيعة). وهنا يجب التنبية أن الخليط ليس بالضرورة بين العربية والحميرية وإنما يمكن أن يكون في نطاق العربية نفسها بين «فصيحها» و«رديها». والهمداني يقدم الصورة التي آلت إليها لغة البدو في عصره إذ لم تعد لغة احتجاج وفصاحة بعد تقعيد اللغة العربية واكتمال نضجها الفني. بل أكثر من هذا سيشهد عصره بداية تتبع أغلاط الأعراب «لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ولا قوانين يستعصمون بها، وإنما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به، فربما استهواهم الشيء فزاغوا عن القصد» (فك 1980 : 167). وهو ما سوف يعبر عنه لاحقا ابن جني (ت393هـ) متفقا مع أستاذه ابي علي الفارسي (288 – 337هـ) في نقد لغة البدو والأعراب.

وهذا الخليط هو ما تعبر عنه الخريطة ((Robin1991 وهي مرحلة هامة تداخلت فيها العربية الشمالية والجنوبية وأظهرت ساحة الصراع اللغوي بين اللهجتين. وهي قضية لم تنل من الدرس ما تستحق وما يزال الغموض يكتنفها تاريخيا واجتماعيا، لكن نص الهمداني هذا يقدّم صورة واضحة عن الوضع في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي في حين يرى البعض أن هذا الصراع أقدم بكثير (راجع: وافي، عبدالواحد 1972 : 76 وما بعدها).

5. 3. اللغة الحميرية

وقد أعددنا من لم تنطبق عليهم الفصاحة أو التوسط أو من وصفهم من غير الفصحاء كما جاء في وصفه للغة أهل (الشُحْر)، و(الأسعاء)، و(حضرموت)، و(سرو حمير) و(جعدة)، وقريب منهم (سخلان)، و(جيشان) و(ورخ) و(خضر) و(الصُهَيْب) و(بَذَر) ممن عدهم غير فصحاء أو فيهم تحمير.

أما الحميرية القُحّة المتعقدّة فيضعها الهمداني في حقل (قتاب) إلى (ذمار)، أي قاع الحقل حاليا فيه قرية (قتاب) التي صارت تُعْرَف الآن بـ (كِتَاب). ويفسر (فك 1980 : 161) هذه التعقد بأن هذه المنطقة كانت «المحيطة بظفار عاصمة دولة حمير القديمة». وهذا التفسير مثير للجدل ذلك أن الهمداني وكافة اللغويين العرب القدماء، وبعض المحدثين، يسمون اللغة اليمنية القديمة باللغة الحميرية، ومرد هذه التسمية حسب (بيتر اشتاين) هو «أنها كانت لغة المناطق التي شكلت قلب مملكة حمير في القرون الأخيرة من الحضارة القديمة» (Stein 2008 : 211) (وأن» الدولة الحميرية هي آخر دولة يمنية استمرت حتى نهاية حكم سيف بن ذي يزن قُبَيل الإسلام، « (العواضي: 2010) فكانت أقرب إلى مسامع الناس وأفهامهم. وهذا الرأي يقول به (شتاين) فهو ينفي «أن تكون هناك لغة حميرية تختلف عن اللغة اليمنية القديمة المعروفة بالنقوش باللغة السبئية» (Stein 2008 : 209) أو ما عُرِف لدى المختصين بالنقوش اليمنية أيضا **باللغات العربية الجنوبية**. وليس موضعها الأمثل قرب عاصمة حمير وإنما عبرت النقوش عنها بلهجاتها المتعددة التي فصلها المختصون (انظر الصلوي: مباحث في تاريخ اللغة العربية، قيد النشر).

والدليل على تحفظنا بشأن تفسير (فك) هو أن الهمداني سوف يذكر هذا التعقيد والتحمير في مواضع متنوعة من اليمن بعيدا عن محيط عاصمة الدولة الحميرية حيث يضع هذا التعقيد في سراة (السكاسك)، وفي وسط (الكلاع)، وفي (جبلان). ثم يضع ما هو أدخل إلى الحميرية المتعقدة في أهل (حراز)، و(الاخروج)، و(وشم)، و(ماظخ)، و(الأحبوب)، و(الجحادب)، و(شرف أقيان)، و(الطرف)، و(واضع)، و(المعلل)، ممن سبق أن جعل لغتهم خليطا من الفصاحة والتحمير، لكنة يؤكد أن لغتهم إلى الحميرية أقرب. ومن هنا يمكن التأكيد على أن الحميرية المقصودة هي السبئية عند المخصين بالنقوش من ناحية والتأكيد على ما سبق ذكره حول التداخل بين اللغة العربية الجنوبية والعربية الشمالية بشكل فسيفسائي من ناحية الانتشار الجغرافي وبدرجات مختلفة من حيث الشيوع الاجتماعي.

ويحسن بنا أن نعيد من جديد تأكيد فكرة أن الحالات الثلاث: الفصاحة، والخلط، والحميرية هي

وصف لمرحلة أخذت فيها العربية الشمالية المقعدة، كتابة وقواعد، تطغى على العربية الجنوبية في صراع بدأ من فترة طويلة في اتجاه غلبة العربية الشمالية التي قوَّى الإسلام منها. وترجع بعض المصادر هذا الصراع إلى مل قبل الإسلام (وافي 1972: 79). وقضية العلاقة بين اللهجتين العربيتين الشمالية والجنوبية لمَّا تدرس درسا مدققا -كما سبقت الإشارة - مما يعنى أن فراغا بحثيا يجب ملؤه ونص الهمداني هذا يعد معلما في طريق التحول اللغوي بين اللهجتين في مرحلة من مراحل الصراع تقع في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

والخريطة التالية تحدد المناطق التي تكلمت الحميرية في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي لكنها كما سبقت الإشارة تحتوي جملة من الأخطاء في تحديد المواقع وإنزالها وفق إحداثياتها، كما تحتوي أخطاء في كتابة اسماء المواقع بسبب نقل الحروف من الإنجليزية إلى العربية Transliteration وسوف نعيد النظر في كافة الخزائط في دراستنا القادمة حول أطلس اللهجات في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

5. 4. سمات لهجية محددة

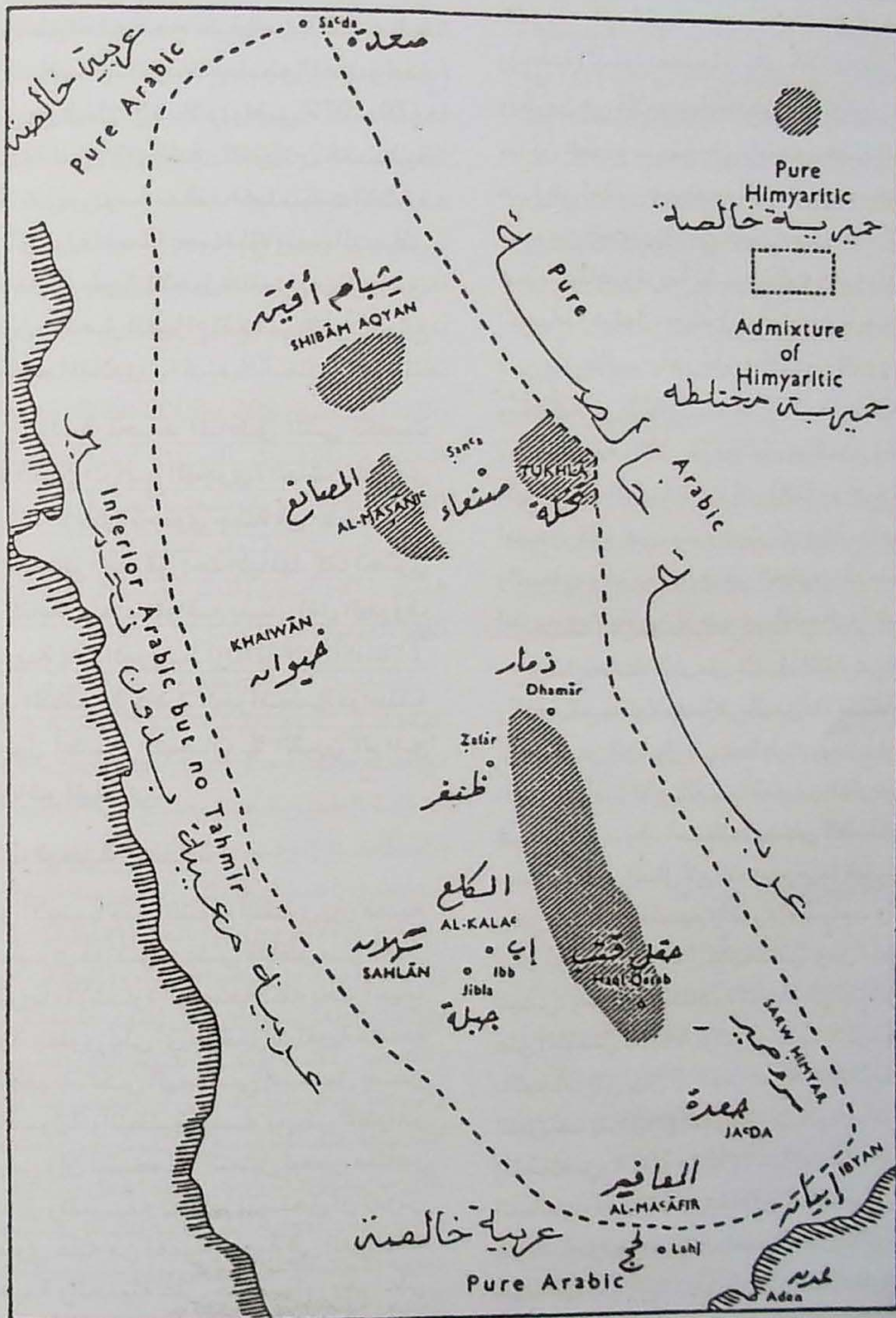
كما سبق الإيضاح بإن التنويع اللغوي بين فصيح وخليط وحميري قد توزع على مناطق من اليمن والجزيرة مقرونا بالإشارة الواضحة لكنه يخلو أحياناً من المثال، ولا ينطوي على أي مؤشرات لغوية محددة صوتية أو نطقية. لكن الهمداني استعمل بعض المؤشرات الصوتية والنطقية لوسم بعض الظواهر في عصره وهي وإن استعملت التمثيل لبعض مظاهر التنويع السابق وتقسيمه إلا أنها تستحق أن تدرس لذاتها لما تنطوي عليه من أهمية خاصة في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة على حد سواء. وهي على أنواع كما يلي:

5. 4. 1. أداة التعريف

رصد الهمداني خاصية يمنية في استعمال أداة التعريف «أل» التي تصبح «أم» وأشار أن « (سَرْو حمْير)، و(جعْدَة) لَيْسُوا بِفُصَحَاء. وفي كلامهم شَيْءٌ من التَّحْمير وَيَجُرُّونَ فِي كَلامِهِم وَيَحْذِفُون. فيقولون: «**يا بْن مْعم**» في «**يَا بْنَ الْعَم**»، و«سمَعْ» في «اِسْمَع». فهذه الظاهرة سجلت هنا في لغة من وصفهم بأنهم غير فصحاء وفي كلامهم شيء من الحميرية. في نفس النص نجد الهمداني يجعل هذه الظاهرة، بما يشبه تأكيد رأيه. أنها خروج عن الفصاحة فيقول: «وبَلَدُ (سُفيَان بن أرْحَب) فُصَحَاء إلا فِي مِثْلِ قَوْلِهِم: «**أمْ رَجُل**» و«قيّدبعيراك» و«رأيت أخوَاك» وَيُشْرِكُهم في إبْدَالِ الميم مِنَ اللام فِي «**الرَّجُل**» وَ«البَعِير» وَمَا أشْبَهَهُ (الأشْعَرُ) و(عَكّ) وبَعْضُ (حَكَم) مِنْ أهْلِ (تِهَامَة) ». والإشارة هنا إلى ثلاثة مواضع في اليمن على امتداد كبير هي سروحمير أي (يافع) بجزأيها العلوي والسفلي، وجزء من أبين في الجنوب. ثم منطقة تهامة في الغرب، وسفيان بن أرحب في الشمال والشمال الشرقي.

وقد تحدث كثير من علماء اللغة عن هذه الظاهرة وأكدوا نسبة تواترها في اليمن بالاستناد إلى الحديث المشهور عن الرسول في مخاطبته بعض أهل اليمن وقوله «لَيْسَ مِن أمْبِرِّ أمْصِيَامُ فِي أمْسَفَر: ليس من البر الصيام في السفر». وقد أسماها بعض العلماء بـ«طمطانية حمير.» وهي إبدال لام التعريف ميما فيقولون في السّهم والبر والصّيام: امْسهم وأمْبر وأمْصيام». واختلف العلماء بين من يقول بالإبدال كالهمداني. ومن المحدثين إبراهيم أنيس، ومن يرى الظاهرة أصيلة في لغة اليمن مثل جواد علي (المفصل 441/8) وشوقي ضيف. بل ذهب المختصون باللهجات إلى بيان أن لليمن مع أداة التعريف ثلاث صيغ. التعريف بـ«أل»: والتعريف بـ«أم»: والتعريف بـ«أن». (المخلافي، 2004: 124) [...]. ويرجع الدكتور إبراهيم الصلوي «أن أداة التعريف (أن) استخدمها اليمنيون في فترة متأخرة من استخدامهم لـ (هـن) أي في فترة كانت فيها الهاء قد أبدلت من الهمزة» (الصلوي 1990: 85) ويؤيد ذلك كرستيان روبان: (Robin 1991. 102 - 103).

شكل رقم (٢)



المناطق التي تكلمت الحميرية في عصر الهمداني

المصدر: رابين 1986: 92

والمعنى هنا أن التعريف بـ«أم» كان قبل ذلك هو (هـ مْ) ثم أبدلت الهاء من الهمزة للجوار الصوتي بينهما وقرب مخارج نطقهما كما يرى ذلك هنا الدكتور إبراهيم الصلوي. والواقع أن إبدال لام التعريف» قد نسب في «شواهد العيني» إلى اليمن، وكذلك صاحب «لسان العرب»، وابن مالك، وابن يعيش» (السامرائي 1994 : 83). وهذا النسب جاء على الجملة والإطلاق، أما الهمداني هنا فقد حدد هذه المواضع في اليمن وهو أسهام دقيق وهام في التعريف بالظاهرة مُنَزَّلة في المكان. والظاهرة تنسب أيضا «إلى (طيء) كما جاء في «شرح الأشموني» وفي «مغني اللبيب»، وفي «الهمع»، وفي «شرح الشافية». كما عزيت إلى (دوس) وقد عزاها ثعلب إلى (الأزد). » (السامرائي 1994 : 83). مما يعني فشو هذه الظاهرة في أرجاء من الجزيرة ولكن هناك إجماعا على تَحَدُّرِها عن أصل يمني. وهي في هذا العصر في «بعض جهات حاشد وأرحب وبني حُشَيْش وبعض همدان وسحار من صعدة، وبالأخص في قرية الطلح وفي معظم مناطق تهامة» (شرف الدين 1970 : 64). وتكاد تكون هذه المواضع - مع شيء من التغيير - هي التي أشار إليها الهمداني في شمال صنعاء وغربها إضافة إلى إشارته إليها في سرو حمير وجعده كما أسلفنا. كما هي اليوم في البيضاء وبعض أبين وبعض شبوة وغيرها فهي تحيط بالهضبة الوسطى لليمن من غربها وشمالها وشرقها. والأمر يستحق بحثا وتقص يضئ هذا الجانب من إشارة الهمداني وتطور اللهجة حتى الآن.

أما مصطلح «الطمطانية» الذي درج عليه اللغويون القدامى وتبعهم عليه المحدثون في وصف هذه الظاهرة بالذات، فإننا نميل إلى عدم الأخذ به لعدم توفر السمات التقريبية فيه لوصف الظاهرة. وربما يجدر أن نبحث عن مصطلح أقرب دلالة على وصف الظاهرة منه على الحكم عليها. وأوضح مصطلح وإن بدا غريبا هو» الأَمْأَمَة» مثلا. والظاهرة ما زالت بحاجة إلى دراسة معمقة بما صارت عليه اليوم في المناطق التي أشار إليها الهمداني وذكرتها مصادر اللغة.

5. 4. 2. حذف همزة وصل فعل الأمر

يقول الهمداني: » (سَرْو حِمْير). و(جَعْدَة) لَيْسُوا بِفُصَحَاء، وفي كلامهم شَيْءٌ من التَّحْمِير وَيَجُرُّونَ في كلامِهِم وَيَحْذِفُون، فيقولون: «يَابْنَ مَعَمْ» في «يَابْنَ العَمْ» و«سِمِعْ» في «اِسْمَعْ» « ويهمنا هنا المثال الخاص بـ«سمع» أي حذف همزة الوصل لفعل الأمر. وكما ينقل جواد علي عن الهمداني في الإكليل قوله إن «حمير تطرح مثل هذه الألف في كلامها، فتقول: إذا أرادت أن تقول للرجل اسمع واذهب سِمع وذِهب، وغِضب في أغضب وشِرب في اِشْرب» (جواد علي 528/8) والظاهرة مستمرة حتى يومنا هذا، ليس فقط في المنطقة التي وردت في نص الهمداني موضع هذه الدراسة وإنما في أرجاء كبيرة من اليمن وهو ما يصدق عليه التعميم الذي نقله جواد علي. يبدو أن هذه الظاهرة معروفة أيضا في كتابة لغة النقوش اليمنية القديمة كما أفادني الدكتور إبراهيم الصلوي.

والمقام ليس للمقارنة أو للموازنة لكن مع ذلك يحسن أن نورد هنا ما درجت عليه بعض العرب بشأن همزة فعل الأمر فلهم في فيه نهجان:

«(أ) ترك الهمز: وهو نهج الحجازيين. فكانوا يقولون: رَ ذلك للمفرد، ورَيْ للمفردة، وريَا للمثنى بنوعيه وَرَوْا لجمع الذكور، ورَيْنَ لجمع الإناث.

(ب) تحقيق الهمزة: وكان نهج بني تميم، فكانوا يقولون مثلا: أرا، وأرْأَيا. » (عبد الباقي 2006 : 309).

ولعل التقارب الجغرافي والتواصل الديمغرافي بين الحجاز واليمن قد وحّد الطريقة المتبعة إزاء هذه القضية. على أن دراسة مصدر الاستعمال الأصلي يخرج عن نطاق هذا البحث.

5. 4. 3. الإمالة

أفاض اللغويون في الحديث عن الإمالة وأنواعها وأقسامها ومؤدى ما توصلوا إليه أنها «لا تخرج عن واحدة من أربعة [تعريفات]: 1 - أن تنحو بالألف نحو

الياء. 2 - أن يُنْحى بالفتحة نحو الكسرة. 3 - [...] أن ينحى بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء [معا]. 4 - [...]حين يكون [النحو] بالألف نحو الياء يلزم أن ينحى بالفتحة قبلها نحو الكسرة» (عبد الباقي 2006: 270، 271). ويهمنا أن نبقى في حدود ما أشار إليه الهمداني من أن «**بلد (وَادِعَة)؛ (بنو حرب) أهل إمَالَة في جميع كلامهم...**» ولا نظن الهمداني في هذه الإشارة يقصد غير النحو بالإلف أو الفتحة نحو الياء أو الكسرة. والأمر يحتاج إلى تحقق ميداني، وأن كانت مناطق واسعة في (المحويت) إلى أيامنا تميل بالفتحة القصيرة إلى الياء أو الكسرة الطويلة فتقول في «مَنْ هو: مِينُوه». وتقول في«ما هو: مِيهو» وفي «مَالك: مِيلَك مِي» وهذا ربما يكون نوع من الإمالة التي قصدها الهمداني. وأن كان من الناحية الجغرافية لا يطابق المكان المشار إليه بالتحديد. حيث أن (وادعة) «قد توزعت داخل اليمن في محلات مختلفة، أشهرها ثلاث قبائل: وادعة حاشد، ووادعة الشام في شرقي صعدة، ووادعة همدان صنعاء» (المقحفي 2002: 1844). ووادعة عند الهمداني هي تكوين أسري موزع في المكان لا يخلو من غموض التحديد: «وادعة بن عمرو بن عامر بن ناشح بن داقع بن مالك بن جشم بن حاشد» (الصفة: 221)، ووادعة بن رميض في حوث (الصفة: 160) وبنو حرب بن وادعة وكلها تقع مُصَالية لحوث جنوب صعدة (الصفة 116). أما بنو حيف بن وادعة ففي وادي نجران (الصفة: 162) ومنها بلد وادعة النجدية في أعلى وادي نجران (الصفة: 225).

ويمكن بناء على هذه الإشارات أن نجعل الناطقين بالإمالة في سراة الشمال الغربي لصنعاء وصولا إلى جنوب صعدة. ويمكن الاستفادة من بعض الإشارات المعاصرة عن الإمالة لتحديد الحركة الديمغرافية للمستعلمين لها حتى أيامنا. حيث تذكر بعض المراجع أن الإمالة بالفتحة نحو الكسرة على نوعين:

1 - «إمالة ما قبل ها التأنيث وتعم جميع الحروف ما عدا حروف الحلق وهي: الهمزة، العين، الحاء، الخاء، الهاء، الغين. فلا تمال بل تبقى على فتحها وذلك في لهجة صنعاء مثل: جمعَة، شمعَة، فرحَة، لحوحَة [...]. أما القبائل المجاورة لصنعاء فلا يستثنون في الإمالة شيئا حتى حروف الحلق كما في: شمعِة، فرحِة، قُرعِه. [...]»

2 - إمالة ما قبل الألف الممدودة والمقصورة وتعم جميع الأصوات ما عدا أصوات الحلق فلا تمال مثل: جرعاء، رحا، بطحاء، إلا في لهجة القبائل المجاورة لصنعاء فتمال حتى حروف الحلق مثل: جرعِا، رحِا، يسِعى، يرعِى. » (شرف الدين 1970: 51، 52) كما يكسرون في صنعاء نون ضمير الاتصال كما في «عندنِا وبعدنِا وأنِا».

وفائدة ما ذكرنا هنا هو من ناحية تأكيد شيوع الإمالة في بعض المناطق وخاصة التي أشار إليها الهمداني. أما ذِكر صنعاء هنا فمفيد من حيث أن الهمداني جعل لهجاتها متنوعة ولعل الإمالة هي أحدى سمات هذا التنوع. ولا يمكن أن تكون اللهجة المعاصرة مُنْبَتَّةٌ عن ماضٍ يخالفها كليا.

ويمكن أن نضع في الإمالة ما أشار إليه الهمداني من أن « (سَرْو حِمْيَر)، و(جِعْدَة) لَيْسُوا بِفُصَحَاء، وفي كلامهم شَيْءٌ من التَّحْمِيرِ **وَيَجُرُّونَ فِي كَلامِهِم وَيَحْذِفُون...** » والإشكال الذي نواجهه في فهم هذه العبارة هو تأويل معنى «الجر». فمن المؤكد أنه لا يُقصد به الوظيفة النحوية المعروفة، ولكن شيئا قريبا من ذلك في متن الكلمة. لكن هل «الجر» هو الإمالة بالألف نحو الكسر في الأداء النطقي بحركة طويلة أو قصيرة؟ أم هو في إطالة الصوائت إطالة ملفتة كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين؟ لم تُدْرَس لهجة هذا الجزء من اليمن، أو على الأقل لم نقف حتى الآن على ما يفيد في هذا الاتجاه. ولكن في لهجة ليست بعيدة جغرافيا عن سرو حمير هي لهجة (خُبان) يحدث فيها اليوم نوع من إطالة بعض مقاطع وسط الكلمة أو آخرها مما ليس في الفصحى مثل «ثخينة [ث اخ ي ي ن اهـ]: سميكة" أو "أُفيه[أوف ي ي هـ هـ]: أُفِ" حيث يطول نبر الحركة طولا ملفتا. اي أن هذا نوع من الجر في الكلام يعنى إطالة مقاطعه. كما يحدث فيها

نوع من الحذف للهمزة خاصة إذا توسطت الكلمة مثل: "ياخي: يا أخي"؛ "بيـر: بئر، ذيب: ذئب": "خايف: خائف، صايم: صائم" (الشماري 2004: 71).

علـى أن هنـاك من يـرى أن "الجر" هـو التعقيد الذي وُصِفَت به لغة سـرو حمير: "والجر بصفة عامة ناتج عن عدم وجود لسنة نبرية stress accent وهذه الظاهرة يظن أنها كانت مميزة لجميع اللهجات العربية الغربية [...] وفي اعتقادنـا أن العربية الجنوبية كانت تحتوي على نوع من «الجر» أكثر ظهورا، نتج عن وجوده ظهور المقاطـع ذات القمة المزدوجة [...] وهذه الصفة كانت ملحوظة في الحميرية لـدى اليمانيين من أمثال الهمدانـي.» (رابـين1986: 97). والمعنـى واحـد، أي إطالة الحركة القصيرة، وليس في هذا تعقد وإنما هي سمة نطقية.

وقد التبس على كثير المثل الـذي يذكره الهمداني فـي قوله «قيّد بعيـراك» و«رأيت أخـوَاك» فذهب بهم الظـن أن إشـارته نحويـة تتعلق بالتثنية وعـدم إعمال الحالة الإعرابية فيها. والواقع أن «البعير» و«الأخ» هنا هما في حالة إفراد. والهمداني يقصد أن نطقهما على ذلـك النحو هو مثال لإطالـة الحركة من حركة قصيرة إلى حركة طويلة أي «جرها» بعبارته. ومازال الناس في هذه المناطق يقولون: «يامحماد» في: «يامحمد».

كمـا أن الهمداني ذكر الحذف في مقام آخر يخص الكتابـة لا الـكلام، حيث جـاء في الجزء العاشـر من الإكليل قوله: «كذلك يكتبون بحذف الألف إذا وقعت في وسط الحروف، وقَفَاهُم المسلمون في كتابة المصاحف، فطرحوا ألف الرحمن، وألف الإنسن، وألف السموات، وكذلـك علهن منقوص من علهـان، ونهفن منقوص من نهفـان، وهمدن مـن همـدان، وبنين من بنيـان. وهذا مـا تؤديه أحرف الكتـاب [...] وكذلـك يحذفون الواو الساكنة من وسط الحروف مثل مبعوث والياء الساكنة مثـل شـمليل والألف السـاكنة هـلال وبـلال وأميال» (الهمداني، الإكليل 10/29). ومن نتائج الحذف المشار إليه انحراف النطق إلى الإمالة كما هو الحال في بعض لهجات الشـام والمغـرب العربي. أمـا النطق في اليمن فإن الأغلب أن لا يتأثر بهذا الحذف. أي أن الحذف لا يغير في نطق الحركة فـ (الرّحمن) تكتب بلا ألف لكنها تُنطق [أرْرَحْمَاان] وليس [أرْرَحْم ى ى ن].

كمـا يرد نص آخـر حول نفس الموضـوع في الجزء الثامـن مـن الإكليل حيـث يقـول الهمدانـي: «وكانوا يطرحون الألف إذا كانت بوسط الحرف مثل (همدان) وألـف (رئـام)، فيكتبون (رئـم) و(همـدن) وكذلك تبع كتـاب كتب المصاحـف فـي رسـم الحروف فـي مثل الرحمن وألف إنسان ويثبتون ضمن آخر الحروف واوا: «عليهمـو»... » (الهمداني. الإكليل 8/154). وفي هذه الأسـماء تنطق الألف المحذوفة كتابـة بحركة الحرف الذي قبلهـا. وقوله «ويثبتون ضمن آخر الحروف واوا: «عليهمو»...». يشير إلى هذه الإطالة التي تلحق بعض الألفـاظ إلى يومنا حيث يقال فـي لهجة صنعاء: كيف أنْتُـو[ان ت وو]: كيـف أنتم، ولعل هـذا النص هو الذي يفسـر معنى الجر عند الهمداني بمعنى إطالة الحركة وليس الكسر.

5. 4. 4. الغتمة

«الغُتْمَـةُ بالضَّـمِّ: العُجْمَـة فـي المنطـق. والأغْتَمُ. الأَعْجَمُ وهو من لا يُفْصِح شيئا. ج: غُتْمٌ. بالضم. ورجل غُتْمِي بالضم: لا يُفْصِح شيئا. وجمعه أغْتَام (وعنه لَبَنٌ غُتْمِي أي ثخين لا صوت لِصَبِّه» (تاج العروس33/165) وقـد وصـف الهَمْداني بهـذه اللفظ أربـع مناطق في اليمن يقول مهرة «غتم يشاكلون العجم [..] و مسافلة (المَعَافِـر) غُتْم وعَالِيَتُهـا أَمْثَلُ» [...] «وغتم مثل بعض (قُدَم) وبعض (الجبر) [...]» «(خَوْلان صَعْدَة) نَجْدُها فُصَحَـاء وأَهْـلُ قدّها وغورها غُتْـم.» ورغم أن الغُتْمَة لم تشـع في تلقيب اللهجات عند العـرب وانفرد بها - كمـا يبدو - الهمدانـي فإن أقرب ما يمكن تلقيبه به هو «الغمغمة» أي عدم الإفصاح أو كما يفسرها الأكوع «عدم القدرة بالكلام لعلّة في اللسان» (الإكليل 2/193 الهامـش 5). أو جعل الغتمة نوعا مـن اللكنة التي ترد عنـد الهمداني إتباعا لها حيـث يذكرهـا الهمداني في كتـاب آخر هو (الإكليـل) ويجعل لهـا موضعـا آخر في

اليمن يحدده في «حِمْيَر بن الغَوْث، وَهُو حِمْيَر الأَدْنَى، ومَنْزِلُهم بِاليَمَن بِمَوْضِع يُقَالُ لَه (حِمْيَر) مِن غَرْبِيّ صَنْعَاء، وَهُم أَهْلُ غُتْمَة وَلُكْنَة فِي الكَلام الحِمْيَرِي. وَلِذَلِكَ يَقُولُ أَهْلُ صَنْعَاءَ إِذَا رَأَوا غُتْما مِنْ أَغْتَام بَادِيَةِ صَنْعَاء: «هُو حِمْيَري» يُرِيدُونَ مِنْ حِمْيَرَ بن الغَوْث، لَا إنهُم يُرِيدُونَ حِمْيَرَ الأَكْبَر، وَلَا حِمْيَرَ سَبأ الأَصْغَر، وَهُم يَعْلَمُون أَنَّ فِيهِم الفَصَاحَةَ وَالشِّعْرَ، وإلى حِمْيَر بن الغَوث تُنْسَب أَكْثَرَ هَذِه اللُّغَة الحِمْيَرِيَّة.» (الهمداني، الإكليل 193/2). وقد بين القاضي (محمد الأكوع) أن المقصود بذلك هم أهل (حَضُور) ذاكرا أن أهل صنعاء إلى أيامه كانوا يقولون: «مِنْ (حَضُور) وزاد جَعْلَلُوه» و(جَعْلَل) قرية في أعلى (حَضُور) ويقصدون السخرية والتندر بطريقة كلام أهل تلك المنطقة. (انظر الأكليل 193/2 الهامش 5).

على أن (جواد علي) يستخدم مصطلح «اللخلخانية» - مأخوذا عن الثعالبي في فقة اللغة - بوصفه عجمة في المنطق «وهو العجز عن إرداف الكلام بعضه ببعض[...] ويعرض ذلك في لغة أعراب الشُّحْر وعُمَان» (جواد علي 441/8) أي في النطاق الذي وصفه الهمداني بالغتمة في مطلع نصه هذا (مهرة). والقضية لا يمكن الحسم بها بهذه العجلة، فـ«الغتمة» و«اللخلخانية» بمعنى التكلم بغير الفصيح وهما ليستا مما درجت على استخدامه الدراسات اللهجية القديمة ولا المعاصرة خاصة. والواقع أن الغتمة على دراجات عند الهمداني فهي في (مهرة) تشاكل لغة العجم، وهي في غرب صنعاء شكل من أشكال اللّكنة، وهي دون وصف أو تحديد في (المعافر) و(خولان صعدة) و(قدم) و(الجبر). مما يدل أنها سمة نطقية تتحدد بمدى مطابقتها للأصوات العربية المقعدة.

ولكن الغتمة هي المقابل للفصاحة أي الاقتراب والمطابقة للقواعد النحوية ومن هنا فسر بعض الباحثين أن الهمداني «لا يفترض أن اللهجتين: المهرية والشحرية، أساسا من لغة أخرى، تبتعد عن عربية الشمال إلى حد يتعذر معه التفاهم، بل يصور سكان الشحر والاسعاء على أنهم قوم لا ينطقون نطقا فصيحا» (فك 1980: 162). ونحن نتفق مع هذا التفسير ونضيف إن تلك المنطقة لها عربية خاصة لما تدرس درسا علميا ممحصا ودقيقا. ولا يسمح لنا المقام بالتوقف مطولا عند هذه القضية.

قارن تحديد مواضع الغتمة وتوزيعها على مناطق اليمن في الشكلين (1) و(3).

5. 4. 5. التوليد

يصف الهمداني لغة عدن فيقول: «(عَدَنٌ) لُغَتُهُم مُوَلَّدَةٌ، رَدِيَّةٌ، وَفِي بَعْضِهِمُ نَوكٌ وَحَمَاقَةٌ إِلاَّ مَنْ تَأَدَّب» وهذا الوصف ينطوي على تعميم واستثناء: جاء التعميم في ثلاثة مصطلحات هي التوليد والرداءة والنَّوَك، واستثنى من ذلك من تأدب. والاستنتاج الأول بناء على التقسيم الذي قدمنا آنفا هو أن لغة عدن **خليط** من الفصيح وغير الفصيح، مع الفارق أن غير الفصيح هنا ليس حميرية فقط كما جاء في شرحنا لمن وصف لغتهم بالخليط وإنما التوليد أيضا الذي توصف به العربية ربما يشير به إلى تأثر لغة أهل عدن باللغات الأعجمية. وهو المأخذ الذي أشار إليه القدامى بشأن لغات أهل اليمن من تأثرها بالهند والحبشة. وهذا التفسير يدقق ما أورده (حاييم رابين) في قوله: «سمع المقدسي في عدن كلمة «رجلينه»/ري ج ل اي ن وهـ/ بدلا من «رجليه» و«يدينه»/ ي اداي نو هـ/ بدلا من يديه، أي مع الاحتفاظ بنون المثنى عند الإضافة [...] ويقول المقدسي بأن لهجة عدن مولدة وقد يعني أن متكلميها قد تحولوا من وقت قريب عن عربيتهم الجنوبية إلى عربية الشمال.» (رابين 1986: 74).

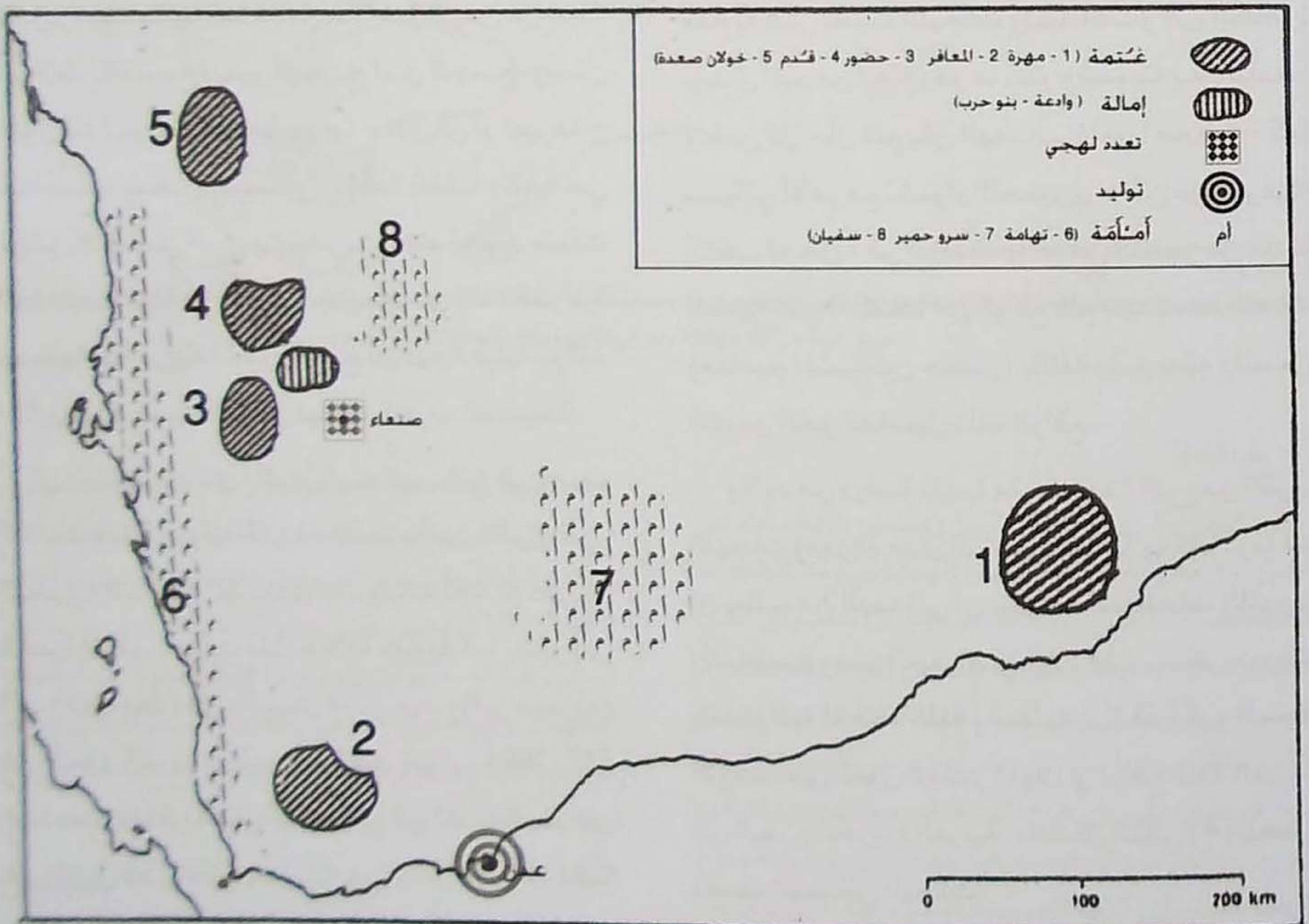
أما الرداءة فإنها مفهوم غامض وغير دقيق في وصف اللغة وإن درج على ذلك قدامى اللغويين العرب. أما «النُّوكُ: بالضم والفتح: [فهو] الحمق [...] الأَنْوَكُ: العاجز الجاهل، وأيضا العييُّ في كلامه» (تاج العروس 377/27، لسان العرب 501/10). وبالتالي فإننا نميل إلى تفسير النوك هنا بأنه نوع من «اللكنة» أو شكل من «العجعجة» وهو وصف لطريقة الحديث والأداء القولي المخلوط بنغمة وطريقة خاصة، لعلها كانت تعرف بها

عدن، وربما ما تزال بعض سماتها قائمة إلى يومنا هذا. ويمكن الكشف عنها من خلال دراسة صواتية ونطقية موازنة مع بقية لهجات اليمن. إما إتباع النّوك بالحماقة فلا وجه لتفسيرها سوى أن نرجح أن المعنى الذي يريده الهمداني أن الحمق كما تذكر المعاجم هو «وضع الشيء في غير موضعه مع العلم بقبحه» والحماقة «فيه لف ونشر غير مرتب» (تاج العروس ج25: 199) وبالتالي يمكن تفسير هذا النعت في وصف اللهجة أن شيئا من التصرف بالنطق أو التركيب للكلمات والجمل على غير ما صار مُقَعّدا في اللغة كما عرفها الهمداني.

6. ملاحظات عامة

لا تحرج صعوبة تحديد موقف الهمداني من اللغة عن الصعوبات التي أشار إليها الباحثون في دارسة اللهجات من حيث أن تناول هذه الظاهرة وقع في مؤلفات كثيرة متنوعة لغوية وغير لغوية مما يجعل العثور على المبتغى صعب المنال (انظر عبدالتواب 1994: 74). فالهمداني بموسوعيته قد بثّ ملاحظاته في أجزاء كثيرة من أعماله؛ لذلك لا بد من إعادة قراءتها بتَأنٍ وتُؤَدَة حتى يمكن التعرف على جُلّ ما ذكره مما أمكن الوقوف عليه. أما ما ضاع فقضية أخرى.

شكل رقم (٣)



بعض سمات اليمن اللهجية عند الهمداني

كما نلاحظ أن الهمداني قد استخدام مصطلحات غير واضحة وغير دقيقة في وصف سمات اللهجات العربية في تلك الفترة وهذه الظاهرة ليست فقط عنده بل إن المختصين المعاصرين يرمون بهذه التهمة جل اللغويين القدامى (عبد التواب 1994 : 75) كما يرمون بعضهم أَنْ كَوْنَهم عَدّوا - دون دليل علمي مقنع - لغة قريش أفصح اللغات، وهو الأمر الذي «جعلهم يخلعون على الأخرى أوصافا مثل: لغة فصيحة، أوقبيحة، أورديئة، أو ضعيفة، أو شاذة، وغير ذلك» (عبد التواب 1994 : 75) وهو ما لم يقع به الهمداني في هذا النص، إذ تميز موقفه في أنه تعامل مع القبائل في وسط الجزيزة وشمالها كما تعامل مع أهل اليمن من حيث اختلاط «الفصيح» بغير الفصيح لدى الجميع. ويمكن القول إنه لم يُعَظِّم لهجة بعينها - لقريش أو لغيرها - لكنه ضمنا يجعل الفصحى المقعّدة نطقاً وكتابةً هي المؤشر الأساسي الذي بالقياس إليه يتم تحديد سمات اللغة المستعملة في أنحاء الجزيرة. أي اللغة القرآنية بوصفها لغة عربية أشمل وأوسع من لهجة قبلية لم تُعَدّ - تاريخيا وعلميا - ضمن لهجات العرب الفصيحة.

إن التلقيب الذي أشار إليه الهمداني في وصف اللغات هنا هو تقليد كان قد استتب منذ القرن الأول الهجري/السابع الميلادي فالروايات تُجْمِع على أن ظاهرة التلقيب بدأت منذ خلافة معاوية كما يشير إلى ذلك (الجاحظ) في «البيان والتبيين»، و(ابن عبدربه) في «العقد الفريد» وغيرهما (عبد التواب 1994 : 117 وما بعدها) لكن امتاز الهمداني في قدرته كجغرافي على تنزيل هذا التلقيب منزلته في المكان، تنزيلا مدققا مما جعله يتجاوز بكثير الروايات الغامضة التي عادة ما تذكر الظاهرة اللغوية ولا تسندها إلى مصدرها وتكتفي بعبارة غامضة من نوع: «لغة».

ونص الهمداني لم يقف على كل ما أسند إلى أهل اليمن من السمات اللهجية التي وردت في كتب التراث مثل «الاستنطاء» أي جعل العين الساكنة نونا إذا جاورها طاء. ولم يستخدم مصطلح «الشنشنة» أي جعل الكاف شينا مطلقا وهي من الظواهر التي نسبت إلى أهل اليمن. كما لم يستخدم مصطلح «الوتم» أي قلب السين تاءً مما نسبه القدامى إلى أهل اليمن. كما أنه لم يستخدم مصطلح «الطمطمانية» لتي أوردتها الكتب القديمة منسوبة إلى اليمن فيما دار في مجلس معاوية في تلقيب اللهجات ولكنه أشار إلى الظاهرة بإبدال الميم من اللام وهو ما نقترح تسميته بـ«الأَمْأَمة». وعلى كل حال فلم يكن الهمداني لغويا محضا - كما سيأتي الأمر مع نشوان الحميري - لكن موسوعيته أتاحت له حرية في الوصف ودقه في التعبير عن مادته العلمية التي استقاها من الواقع فلم تقيده مصطلحات ومفاهيم المشتغلين حصرا باللغة ولم يعقه ذلك من التلمس الحر لتفاصيل ذلك الواقع.

ولا بد من دراسة نقدية مقارنه لهذا النوع من تلقيب اللهجات ومعرفة مدى انتشاره زمانا ومكانا. وما لنا أن نطلب من الهمداني أن يتقيد بمصطلحات اللغويين وألفاظهم وهو الجغرافي أولا. فقد سخر معرفته بالجغرافيا لخدمة اللغة وحسبه ما قدم فهو الحجة الأوحد على القرن العاشر الميلادي لواقع اللغة العربية في اليمن والجزيرة العربية. والشكل التالي (4) يلخص وصف الهمداني للهجات.

شكل رقم (٢)

توزيع الهمداني للهجات اليمن في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري

7 - خاتمة

وهكذا نكون قد تناولنا وصف اللهجات في الجزيرة العربية كما عرضها الهمداني وقد اتضحت المصطلحات التي استخدمها وبان السياق الذي يتحدث عنه بحيث يمكن الاطمئنان إلى أن الوصف لا يخص مرحلة تحول بين لغةٍ أُم ولهجاتٍ فرعية ترغب بالاستقلال عنها. بل في وضعٍ ينم عن الصراع المرير بين فرعين لغويين: فرع اللغة العربية الجنوبية وهي التي درج العرب على تسميتها بلغة حمير وهي تصارع فرعاً آخر أي اللغة العربية الشمالية التي توصف بأنها «فصيحة» وهي في طريقها للاستتباب والغلبة بعد ضبط قواعدها حتى «صارت العربية الفصحى، في أوائل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، لغة للكتابة قطعت جميع أشواط نموها وتكوينها» (فك 1980: 160). وهي في هذه الحالة لم تعد شمالية أو شرقية أو غربية، وإنما جِماع لكل مفردات مُختلف الجهات. ولها معيار صرفي ونحوي اشترك في وضع قواعده علماء عرب وعجم. والصراع هنا هو صراع بين الفصحى القعدة وبقية اللهجات العربية الشمالية والجنوبية عامة.

ويمكن في الأخير أن نقارن ما جاء عند الهمداني بما توصل إليه المحدثون في تقسيم اللهجات -

دون أن نسقط في ما يسمي بالإسقاط التاريخي anachronisme - وإنما نحاول تقريب الفهم بين ماضي النظر وحاضرة حول اللهجات. وقد قسم المحدثون النظر في اللهجات إلى أربع فئات:

1 - ما يتصل بالجانب الصوتي نحو التلتة، العجعجة، الكسكسة... إلخ

2 - ما يتصل بالجغرافيا اللغوية نحو: أهل الحاضرة، أهل البادية، أهل السواد... إلخ.

3 - ما يتصل بعيوب النطق نحو: اللثغة، الفأفأة، اللّكْنة... إلخ.

4 - ما يتصل بالأحكام التي أطلقها القدماء على الظواهر اللغوية للهجات نحو: لغة رديئة لغة جيدة، لغة عالية، لغة فصيحة... إلخ (راجع مناقشات مجمع اللغة العربية في القاهرة 8 مارس 1975 في: عبدالسميع: 2006: 205، 206)

فالنوع الأول والثالث ورد عند الهمداني بمصطلحات أخرى هي الغتمة، واللكنة، والتعقد، والنوك، أما النوع الثاني فقسمه بين القرى والحضر والأودية والسروات والأغوار والنجود، والرابع يكاد يكون بنفس المصطلحات المستخدمة لدى المجمعيين المعاصرين.

وهكذا تبرز ميزة الهمداني في باب اللغة، باعتباره شاهد عصره على واقعها وقدرته على رسم «أطلس» لها متتبعا موجات تحولاتها في تفاصيل جغرافية دقيقة. وما ذكرناه في هذا البحث لمّا يأتي على كل التفاصيل الممكن استخراجها من النص، فمازال هنا مكان للمقارنة والموازنة بما صارت إليه اللهجات اليوم. فيمكن أن تصبح مساهمة الهمداني قاعدة أساسية للتعرف على التحولات اللهجية في اليمن. وهي مهمة سيقوم بها الباحثون الشباب متسلحين بمناهج الدراسات الحديثة في الاستقصاء والتسجيل والتحليل والاستنتاج.

المصادر والمراجع

يشكر الباحث الأساتذة: الدكتور إبراهيم الصلوي، أستاذ اللغات السامية، والدكتور نزار عبداللطيف الحديثي، أستاذ التاريخ، والدكتور محمد السلامي، أستاذ الآثار، وجميعهم في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صنعاء على تفضلهم بقراءة مسودة هذا البحث وإبداء الآراء والتعليقات التي أفدت منها على الصعيد الشخصي والعلمي.

المصادر

1. الهمداني، الحسن بن أحمد: **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط3/1983، ص512.

2. الهمداني، الحسن بن أحمد: **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، 1974، ص583.

3. الهمداني، الحسن بن أحمد: **صفة جزيرة العرب**، تحقيق داود هنريلد موللر، ليدن 1884، مجلدان.

4. الهمداني، الحسن بن أحمد: **الإكليل**، الجزء الثاني، تحقيق محمد بن علي الأكوع، منشورات وزارة الثقافة، صنعاء، 2004، ص472.

5. الهمداني، الحسن بن أحمد: **الإكليل**، الجزء الثامن، تحقيق محمد بن علي الأكوع، منشورات وزارة الثقافة، صنعاء، 2004، 271ص.

6. الهمداني، الحسن بن أحمد: **الإكليل**، الجزء العاشر، تحقيق محمد بن علي الأكوع، منشورات وزارة الثقافة، صنعاء، 2004، ص274.

المراجع

1. ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، ط3/1994،

2. الحجري، محمد بن أحمد، 1984: **مجموع بلدان اليمن وقبائلها**، تحقيق إسماعيل الأكوع، منشورات وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، مجلدان، ص807.

3. رابين، حاييم، 1986: **اللهجات العربية الغربية القديمة**، ترجمة عبدالرحمن أيوب، الكويت، مطبوعات جامعة الكويت، ص412.

4. الزبيدي، محمد المرتضى، **تاج العروس**، ج 25، تحقيق مصطفى حجازي، الكويت، وزارة الإعلام، 1989.

5. الزبيدي، محمد المرتضى، تاج العروس، ج 27، تحقيق مصطفى حجازي، الكويت، وزارة الإعلام، 1993.

6. الزبيدي، محمد المرتضى، تاج العروس، ج 33، تحقيق إبراهيم الترزي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط1/2000م

7. السامرائي، إبراهيم، 1994: في اللهجات العربية القديمة، بيروت، دار الحداثة، ص193.

8. الشامي، أحمد محمد 1965: قصة الأدب في اليمن، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ص488.

9. شرف الدين، أحمد حسين، 1970: لهجات اليمن قديما وحديثا، القاهرة، مطبعة الجيلاوي، ص99.

10. الشماري، محمد ضيف الله، 2004: لهجة خُبان دراسة لغوية، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة القاهرة، ص321.

11. عبدالباقي، ضاحي 2006: لغة تميم، دراسة تاريخية وصفيه، القاهرة، مجمع اللغة العربية، مؤسسة روز اليوسف، ص663.

12. عبدالتواب، رمضان1994: فصول في فقه العربية، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط3، ص456.

13. عبدالسميع، ثروت 2004: اللهجات العربية بحوث ودراسات، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ص634

14. الصلوي، إبراهيم 1990: مساند حميرية في مصادر التراث العربي، مجلة الإكليل، ع21، 21، س8، صنعاء، وزارة الثقافة، ص80 - 92.

15. الصلوي، إبراهيم 2010: مباحث في تاريخ اللغة العربية، جامعة صنعاء. (قيد النشر)

16. العواضي، حميد 2010، الألفاظ اليمانية وبناء المعجم التاريخي العربي، بحث قدم إلى ندوة، المعجم التاريخي للغة العربية، قضاياه النظرية والمنهجية والتطبيقية.. فاس، المغرب، ابريل 2010. قيد النشر.

17. فك، يوهان 1980: العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة: رمضان عبدالتواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، ص231.

18. المخلافي، علي 2004: المنسوب إلى لهجات اليمن في كتب التراث العربي، وزارة الثقافة، صنعاء، ص222.

19. المقحفي، إبراهيم بن أحمد، 2002، معجم البلدان والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات، مجلدين، ص1943.

20. وافي، عبدالواحد 1972: فقه اللغة، القاهرة، دار نهضة مصر، ط7، ص328.

21. Al - Selw. Ibrahim. 1987 : Jemenitische Wörter in den Werken von al - Hamdàni und Našwàn und ihre parallen in den semitischen sprachen. Berlin. 232p.

22. DUBOIS. Jean et All. 2001: Dictionnaire de linguistique. Larousse. Paris. 514p.

23. ROBIN. christian. 1991. les langues de la Péninsule Arabique. in L'Arabie antique de Karib'îl à Mahomet. Edisud. p. 89 - 111.

24. STEIN. Peter 2008 The "Himyaritic" language in Pre - Islamic Yemen. A critical Re - evaluation. In SemClis. p. 203 - 212.

النقود اليمنية المتداولة في عصر الهمداني*

القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين

أ. د. علي سعيد سيف

لما كانت النقود تمثل سلطة الدولة الشرعية فقد كان من الطبيعي أن يكون لخصائصها وسماتها الفنية تأثير على نظرة الشعوب إلى سلطة الحكم ومدى هيبتها، و ذات صلة وثيقة بالنظم والاتجاهات السياسية والاجتماعية وهي أيضاً سجل للألقاب والنعوت ودور الضرب التي تلقي الضوء على كثير من الأحداث السياسية، فهي تثبت أو تنفي تبعية السلاطين والولاة للخلافة.

كما أنها وثائق رسمية ليس من السهل الطعن في قيمتها، إلى جانب أنها تلقي الضوء على الأحوال الاقتصادية التي تمر بها البلاد التي تسك فيها، فقد تأثرت أوزانها وعيارها بتلك الحالة، فضلاً عن أنها تتبع تطور الخط العربي منذ نشأته.

وقد اعتمدت هذه الخصائص والسمات الفنية على كفاءة وقدرة القائمين على دور السك ومهارة العامين فيها.

وبما أن عصر الهمداني تجاذبته أكثر من قوة سياسية في اليمن توزعت مناطقها بين القوة الزيادية والقوة اليعفرية والقوة الزيدية، فقد عكست النقود مدى قوة وهيبة السلطة الحاكمة لتلك المناطق ومدى سيطرتها على العاصمة صنعاء وانتشارها في المناطق المختلفة من اليمن، وتأثيرها على الوضع الاقتصادي في اليمن.

وليس من شك لدى الباحثين في أن نقش السكة يتطلب درجة كبيرة من المهارة مهما بدا عمل النقاش هينا، فيجب أن لا يخفى علينا ما يتطلبه هذا العمل من مهارة ومراس ومران لا يمكن أن يظهر إلا في ل رعاية سخية ثابتة وأوضاع سياسية مستقرة، وفي مدينة صنعاء فقد سك اليعفريون والزيدون في دار ضرب واحدة.

ويتعرض هذا البحث لمعرفة دار ضرب مدينة صنعاء من خلال العيار والنقوش والمادة، وذلك من خلال ما أورده الهمداني في كتابه الجوهرتين، وأنواع النقود اليمنية المتداولة في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، وهي

- النقود العباسية
- السكة الزيادية
- السكة اليعفرية
- السكة الزيدية

* ملخص بحث ألقي في ندوة الهمداني التي انعقدت في رحاب كلية الآداب جامعة صنعاء في الفترة ما بين 19 20/ ابريل 2010م بجامعة صنعاء.

وذلك في محاولة لتتبع أنواعها وما ورد عليها من نقوش تسجيلية، وربط ذلك بالأوضاع السياسة والاقتصادية التي سادت هذا العصر

وذلك من خلال محورين:

الأول: مضمون الكتابات التسجيلية.

الثاني: مدلولاتها التاريخية وربطها بالوضع السياسي والاقتصادي.

وخاتمة تتضمن أهم النتائج، ثم الصور والأشكال التوضيحية وقائمة بالمصادر والمراجع

المقدمة:

كان اليمن في القرنين الثالث والرابع الهجريين يعيش حالة تأثر وتأثير بحكم كونه إحدى شرائح المجتمع الإسلامي، فما يوجد في عواصم الأمصار الكبيرة له صدى في الأمصار البعيدة مثل اليمن، ولما جاء العصر العباسي الثاني وحكمهم للأمة الإسلامية، كان المجتمع الإسلامي تسير فيه كثير من التيارات السياسية، فتظهر مجموعات وتختفي مجموعات، واليمن واحد من هذه الأمصار، فقد كان يعج بها كثير من الأفكار والمذاهب والثقافات الغريبة عليه، وهذه الأفكار والرؤى لم تنشأ منه وإنما كان يتولد فيه صدى لما يحدث في ألأقاليم الإسلامية الأخرى، وفي هذا الموضوع سنحاول التركيز على الكيانات السياسية التي سكت نقود، وقبل الخوض في تلك الكيانات لا بدن نشير بأن اليمن تجاذبته كثير من القوى السياسية والمذهبية التي كان لها تأثير وأضح على مجريات الأحداث السياسية في اليمن، وأهم هذه التيارات هو التيار الشيعي العلوي، وهذا التيار يعرفه الباحثون بأنه أكثر الحركات التي وقفت ضد الخلافة الأموية ثم العباسية، وقد اختفى مصطلح العلوي وحل محله المصطلح الشيعي [1]، هذا ولم يستخدم العباسيون عند ثورتهم على الأمويين مصطلح الشيعة، وفي هذا نجد أنه ظهر تياران شيعيان أحداهما أثنى عشري والآخر إسماعيلي إمامي. ولحق اليمن كغيره من أمصار الإسلام من شيوع الفكر الشيعي في القرنين الثالث والرابع، وسموها المؤرخين (القرامطة والزيدية)، والشيعة الإسماعيلية مع تأثيرها الكبير على مجريات الأحداث السياسية لم تترك لنا نقود سكتها في اليمن لتحمل مضامين تشيعها. وهناك القوى السياسية القبلية والتي ظهرت إما على شكل تمردات على الدولة العباسية أو أمراء أوكلت إليهم الدولة العباسية الأمر. ومنها بني يعفر الحوالين وبني زياد.

وهذه الكيانات السياسية هي:

الدولة الزيدية:

كان القيام الفعلي لدولة الأئمة الزيدية عند المجيء الثاني للإمام الهادي إلى الحق يحي ابن الحسين سنة 284هـ/ 897م اثر قيام قبائل من خولان بدعوته للخروج إليهم ووعدوه بالنصر والطاعة فأجابهم إلى ذلك [2]، وقد اتخذ من مدينة صعدة مقرا لدعوته مستعينا بقبائل نجران وهمدان التي آزرته [3] وقد أعلن من أول وهلة إسقاطه النظري والفعلي للوجود العباسي وإعطاء نفسه الحق في تولي الخلافة أو الإمامة [4] وهذا ما أيدته النقود التي سكها. وفي غضون عامين استطاع أن يسيطر على كثير من المناطق اليمنية. حتى وصل إلى مدينة صنعاء في سنة 288هـ/ 897م وسك فيها الدينار والدرهم [5]. كما أن الإمام الهادي عمل على إنشاء دولة قوية لها مقومات الدولة. وذلك بإقامة نظام القضاء وتعيين الولاة والعمال في المناطق المنضمة إليه وإقامة نظام مالي محدد. وتنظيم المصروفات والإيرادات [6]، وقد تعاقب الأئمة في الحكم واستمرت

---

(1) الشجاع، عبدالرحمن، التيارات السياسية والفكرية في اليمن من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الكتاب الخامس ج 2 السعودية 2006 م ص 356

(2) ابن الحسين، يحيى ت 1100هـ، أنباء الزمن في أخبار اليمن، صححه محمد عبدالله ماضي برلين 1936م ص 6. الشجاع، المرجع نفسه ص 364

(3) ابن الحسين، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ج 1 1978م ص 178

(4) الشجاع، التيارات ص 364

(5) ابن عبدالمجيد، تاج الدين عبد الباقي ت 744هـ/ [illegible] بهجة الزمن في [illegible] تحقيق مصطفى حجازي، القاهرة [illegible] ص [illegible]

(6) الشجاع، التيارات ص 364

حتى عام 1382هـ/ 1962م، وذلك ما بين خفض ورفع فأحيانا يمتد من الشمال إلى الجنوب وأحيانا ينحصر في المناطق الشمالية وأحيانا يحكم اثنان منهم وأحيانا تبقى بدون إمام[7]

الدولة الزيادية 204 - 412هـ/ 819 - 1021م):

قامت دولة بني زياد على اثر خروج قبائل الأشاعر وعك في تهامة عن طاعة الخلافة العباسية[8] في عهد الخليفة المأمون، الذي بعث محمد ابن زياد واليا على اليمن سنة 203هـ/ 818م على رأس جيش استطاع أن يعيد السيطرة للخلافة العباسية على اليمن، واختط مدينة زبيد سنة 204هـ/ 819م واتخذها مقرا له[9] واستمر دعم الخلافة لابن زياد حتى تمكن من بسط سيطرته على جبال اليمن وتهامة[10] ونتيجة لضعف الخلافة العباسية تحولت تبعية الزياديين لهم اسميا فقط متمثلة بالدعاء لهم في الخطبة ونقش أسمائهم على السكة[11] وكان من أبرز مظاهر خروج الزياديين عن سلطة العباسين ما مثله الأمير إسحاق بن إبراهيم 291 - 371هـ/ 903 - 981م الذي تشبه بالملوك فركب المظلة ونقش اسمه على السكة[12]، وعلى الرغم من ذلك كله إلا أن بنو زياد طوال سني حكمهم موالين للخلافة العباسية يحكمون باسمهم ويدينون بالولاء والطاعة لهم[13].

دولة بني يعفر:

تنسب هذه الدولة إلى يعفر بن عبدالرحمن بن كريب بن الوضاح بن إبراهيم بن مانع من آل ذي حوال الأصفر، والذي بدأ يلمع اسمه كشخصية قبلية مرهوبة الجانب سنة 214هـ/ 829م يسعى لإيجاد موطن قدم له بين القبائل تساوره رغبة في الزعامة[14]، وقد تهيأت له الظروف لأن يعلم به الخليفة العباسي، ومدى ما يتمتع به من سلطة ونفوذ، حتى رغب أن يولي واحدا من أهل اليمن يحل مشاكلها ويضمن ولاء اليمن للخلافة العباسية، لذلك عهد الخليفة المعتمد على الله للأمير محمد بن يعفر بن عبدالرحيم سنة 257هـ بحكم صنعاء ومخاليفها، واكتسب حكم هذا الأمير الصفة الشرعية بعد أن أرسل له الخليفة العقد، وحكم هذا الأمير صنعاء والجند وحضرموت وأقام الخطبة للخليفة العباسي وللأمير الزيادي[15]، واستمر الحكم في عقبه بين رفع وخفض ومد وجزر مع الدويلات الأخرى كالزيدية والإسماعيلية وغيرها حتى انتهت هذه الدولة في سنة 400هـ تقريبا.

النقود اليمنية المتداولة في عصر الهمداني:

كان في اليمن أثناء حياة الهمداني تنوع كبير في النقد المتداول في اليمن ينتمي إلى عدد من الدويلات التي كانت تحكم اليمن، وقد جاءت هذه النقود على النحو التالي:

أولا: النقود العباسية المتداولة:

بسط العباسيون سيطرتهم على اليمن بعد سقوط الخلافة الأموية، وأصبحت اليمن جزء من الدولة العباسية يتولى شؤونها أمير معين من قبل الخليفة العباسي، وأثناء هذه السيطرة تعامل اليمنيون بالنقود التي تفد إليها من بغداد، ولم تسك في اليمن نقود إلا في سنة 157هـ وكان نوعه فلس ثم استمرت النقود تضرب في دار السك اليمنية، فقد أنشأ محمد بن جعفر البرمكي دار سك في مدينة صنعاء، وقد جاء النقود العباسية في عصر الهمداني على النحو التالي:

دينار عباسي ضرب صنعاء سنة 231هـ يحمل اسم الخليفة الواثق بالله (227 - 232هـ) جاءت نصوصه

(7) شلبي، أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج 7 القاهرة 1966م ص 335

(8) عمارة، نجم الدين عمارة بن علي، تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد تحقيق محمد بن علي الأكوع القاهرة 1976م ص 24

(9) عمارة، نفس المصدر، ص 45. ابن عبدالمجيد المصدر السابق ص 25 ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي ت 944هـ/ 1537م، بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق عبدالله الحبشي صنعا ص 35

(10) ابن عبدالمجيد، المصدر السابق ص 26

(11) عمارة المصدر السابق ص 50. ابن الديبع، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون ج 1 تحقيق محمد بن علي الأكوع بدون ص 147

(12) ابن عبدالمجيد، المصدر السابق ص 28، ابن الديبع بغية ص 40

(13) الفقي، عصام الدين عبدالرؤف، اليمن في ظل الإسلام بيروت 1982م ص 90

(14) الشجاع، تاريخ اليمن في الإسلام دار الفكر صنعاء 1997م ص 172

(15) الفقي، عصام الدين عبدالرؤف، اليمن في ظل الإسلام، دار الفكر العربي 1982م ص 98

على النحو التالي:

الوجه: المركز

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

الهامش الداخلي: بسم لله ضرب هذا الدينار بصنعاء سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

الهامش الخارجي: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

الظهر: المركز

لله

محمد

رسول

الله

الواثق بالله

الهامش لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله [16]. لوحة 1، كما وجد دينار عباسي أخر ضرب صنعاء سنة 270هـ يحمل اسم الخليفة أبو العباس أحمد المعتمد على الله) (256 - 279هـ) وسجل على وجهه اسم أخيه الموفق بالله وذو الوزارتين[17]

- دينار أخر ضرب صنعاء سنة 277هـ يحمل اسم الخليفة أبو العباس أحمد المعتمد على الله، جاءت نصوصه على النحو التالي:

الوجه: المركز

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

الموفق بالله

الهامش الداخلي: بسم لله ضرب هذا الدينار بصنعاء سنة سبع وسبعين وميتين.

الهامش الخارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

الظهر: المركز

لله

(16) في اليمن عبر العصور، البنك المركزي اليمني طبعة ثانية 2008م ص 69

(17) خليفة، ربيع حامد، طراز النقود اليمنية في العصرين الأموي والعباسي، مجلة التاريخ والمستقبل م2 ع 2 س 1992م جامعة المنيا جنوب الوادي مصر ص 50 - 51

محمد

رسول الله

المعتمد على الله

أحمد الموفق بالله

الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله[18] لوحة 2

- دينار عباسي ضرب صنعاء سنة 283هـ يحمل اسم الخليفة المعتضد بالله (279 - 289هـ) جاءت نصوصه على النحو التالي:

الوجه: المركز

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

الهامش الداخلي: بسم لله ضرب هذا الدينار بصنعاء سنة ثلاث وثمانين ومايتين.

الهامش الخارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

الظهر: المركز

لله

محمد

رسول

لله

المعتضد بالله

الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على لدين كله [19] لوحة 3 ودينار عباسي أخر ضرب صنعاء سنة 285هـ يحمل اسم الخليفة أحمد المعتضد بالله 279 - 289هـ[20] *

- دينار عباسي ضرب صنعاء سنة 292هـ يحمل اسم الخليفة المكتفي بالله جاءت نصوصه على النحو التالي:

الوجه: المركز

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

(18). مرجع سابق ص 70

(19) خليفة، نفس المرجع ص 52 53، . مرجع سابق ص 70

(20). مرجع سابق. ص 71.

* لقد ورد في كتاب قراءة الوجه ظهرا والظهر وجها وهذا غير منسجم مع ما سبق من قراءة للنقود التي وردت في متنه

الهامش الداخلي: بسم لله ضرب هذا الدينار بصنعاء اثنتين وتسعين ومائتين.

الهامش الخارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

الظهر: المركز

لله

محمد

رسول الله

المكتفي بالله

الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون[21] لوحة 4

- دينار عباسي ضرب صنعاء سنة 300هـ يحمل اسم الخليفة المقتدر بالله (295 - 320هـ) جاءت نصوصه على النحو التالي:

الوجه: المركز

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

الهامش الداخلي: بسم لله ضرب هذا الدينار بصنعاء سنة ثلثمائة.

الهامش الخارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

الظهر: المركز

لله

محمد

رسول الله

المقتدر بالله [22]

الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، لوحة5.

- و دينار عباسي ضرب عدن سنة 306هـ يحمل اسم الخليفة المقتدر بالله [23]، ووجد نصف دينار عباسي للخليفة (أبو منصور محمد القاهر بالله) (320 - 322هـ)ضرب بصنعاء سنة (321هـ) [24]، كما وجد دينار عباسي ضرب بصنعاء سنة 323هـ يحمل اسم الخليفة الراضي بالله [25]، ودينار ضرب بيش سنة 331هـ يحمل اسم الخليفة المتقي بالله[26] ووجد للخليفة المطيع لله دنانير ضربت في كل من بيشه سنة (337هـ و سردد سنة [27]و عشر سنة (344هـ).[28]

ثانيا: طراز النقود الزيادية:

يمكن أن نقسم طراز نقود الزياديين إلى قسمين. قسم يحمل أسماء أمراء بني زياد والقسم الأخر يحمل أسماء أمراء بني طرف.

أ- أولا نقود الدولة الزيادية:

من خلال ما تم نشره من نقود الدولة الزيادية لم يتم العثور إلا على نقود تحمل اسم الأمير إسحاق بن إبراهيم الأمير الرابع في تسلسل أمراء هذه الدولة، وهي جميعها دنانير جاءت على النحو التالي:

- دينار ضرب زبيد سنة (346هـ) يحمل اسم الخليفة العباسي المطيع لله واسم الأمير إسحاق بن إبراهيم (291 - 371هـ) جاءت نصوصه على النحو التالي:

الوجه: المركز

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

الهامش الداخلي: بسم الله ضرب هذا الدينر بزبيد سنة ست وأربعين وثلثمائة

الهامش الخارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

الظهر: المركز

لله

محمد

رسول لله

المطيع لله

أسحق بن إبراهيم

الهامش: وقل جاء الحق وزهق البطل إن الباطل كان

(21). مرجع سابق ص 72. إضافة إلى ذلك وجد درهم ضرب صنعاء سنة 291 هـ يحمل نفس النصوص عدى التاريخ

(22). مرجع سابق، ص 73

(23). مرجع سابق، ص 74

(24) خليفة، المرجع السابق، ص 53 54

(25). مرجع سابق، ص 74

(26). مرجع سابق، ص 75

(27). مرجع سابق، ص 75

(28) الشميري فؤاد عبدالغني، تاريخ اليمن سياسيا وإعلاميا من خلال العربية الإسلامية، وزارة الثقافة اليمنية صنعاء 2004م ص 52

زهوقاً وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة..... [29]

لوحة 6،

- ودينار ضرب صنعاء سنة (335هـ) يحمل اسم الخليفة العباسي المستكفي بالله والأمير إسحاق بن إبراهيم [30]، ودينار ضرب ذمار سنة (337هـ) يحمل اسم الخليفة العباسي المستكفي بالله واسم الأمير إسحاق بن إبراهيم [31]

ب- نقودا تحمل أسماء أمراء المخلاف السليماني:

سك أمراء المخلاف السليماني نقودا تحمل أسماء أمرائه وهم الأمير أبو علي محمد بن القاسم، والأمير أبو يعفر السمو بن محمد، و الأمير محمد المعمر بن محمد، والأمير سليمان بن طرف والأمير الفرج الطرفي و قد جاءت على نوعين، النوع الأول يحمل أسماء أمراء بني القاسم والأخر يحمل أسماء أمراء بني طرف وجاءت على النحو التالي:

النوع الأول:

نقودا تحمل أسماء أمراء بني القاسم وهي:

أ- الأمير أبو علي محمد بن القاسم:

- دينار ضرب عثر سنة (351 هـ) يحمل اسم الأمير أبو علي محمد بن القاسم والذي ربما أنه ينتمي إلى ولد القاسم بن طرف صاحب عثر في نهاية القرن الثاني الهجري، إلى جانب أنه ورد ذكره في محاولات والي مكة التصدي لعلي بن الفضل حينما احتل زبيد وهدد جميع التهائم بطغيانه وجبروته، وأن محمدا هذا قد خلف أباه في حكم إمارة عثر، [32] وجاءت نصوصه على النحو التالي:

الوجه: مركز: لا إله إلا الله

محمد رسول الله

المطيع لله

هامش بسم الله ضرب هذا الدينار بعثر سنة واحد وخمسين و ثلثمائة.

الظهر: مركز: أمر به الأمير

أبو علي محمد

أبن القسم

هامش: قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء [33] لوحه 7.

- ودينار ضرب عدن سنة (357 هـ) يحمل اسم الأمير أبو علي محمد بن القاسم [34]

ب - الأمير أبو يعفر السمو بن محمد:

بعد وفاة الأمير محمد بن القاسم خلفه أخوه أبو يعفر، وهو ثاني ولد لمحمد بن القاسم بن علي بن طرف يحكم مخلاف عثر بين سنتي 373 - 374هـ/ 983 - 985م ومن نقود أبي يعفر ديناران ضرب عثر سنتي 373هـ، 374هـ.

ج - الأمير أبو محمد المعمر بن محمد:

هو الابن الثالث للأمير محمد بن القاسم وتولي حكم مخلف عثر بعد أخيه أبي يعفر ولم يرد ذكره في المصادر التاريخية، ومن نقوده دينار ضرب عثر سنة 379هـ [35]. ويبدو أن هذا الأمير وصل إلى سدة الحكم قبل سنة 379هـ بناء على ما ورد على مسكوكته المضروبة في سنة 379 هـ لأن هذا الدينار آخر نقد سك له [36]

النوع الثاني:

نقودا تحمل أسماء أمراء بني طرف وهي:

1 - دينار ضرب عثر سنة (393 هـ) يحمل اسم الأمير الفرج الطرفي الذي حكم مخلاف عثر بين سنتي 380 - 392هـ 990 - 1002م والذي يبدو أنه لا ينتسب إلى بني القاسم بن طرف. وربما أنه كان مولى لبني طرف وصل إلى حكم عثر بالتغلب أو بالوصاية على قاصر غمطه حقه في تسجيل اسمه على السكة [37] وبحكمه كان انقراض أسرة القاسم

(29) خليفة، المرجع السابق، 60 61. ، مرجع سابق، ص 79، ووجد دينار ضرب سنة 359 هـ يحمل نفس النصوص الكتابية، الشميري، المرجع السابق ص 47

(30) الشميري، المرجع السابق ص 48

(31) الشميري، المرجع السابق ص 49

(32) الزيلعي أحمد بن عمر، مخلاف عثر في القرنين الثالث والرابع الهجريين، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الخامس ج 1 الرياض، 1426هـ ص 198

(33) يوسف، فرج لله، الآيات القرآنية على النقود الإسلامية، الرياض 2003م، ص 83، 84.

(34) الشميري، المرجع السابق ص 54

(35) الشميري المرجع السابق ص 54

(36) الزيلعي، المرجع السابق ص 199

(37) الزيلعي المرجع السابق ص نفس الصفحة

بن طرف وجاءت نصوصه على النحو التالي:

الوجه: مركز: لا إله إلا لله

محمد رسول الله

الطائع لله

هامش: بسم الله ضرب هذا الدينار بعثر سنة إحدى

وثمنين وثلثمائة

الظهر: مركز: أمر به الأمير

الفرج

الطريف

هامش: قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان

زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء.[38] لوحة رقم 8

2 - دينار ضرب عثر سنة (393 هـ) يحمل اسم الأمير سليمان بن طرف 373 393 هـ الذي وحد مخلاف عثر وحكم تحت مسمى المخلاف السليماني وفقا لما هو متعارف عليه بين أوساط المؤرخين [39] وجاءت نصوص ديناره على النحو التالي:

الوجه: مركز: لا إله إلا الله

محمد رسول الله

القادر بالله

الهامش: بسم الله ضرب هذا الدينار بعثر سنة ثلث

وتسعين وثلثمية.

الظهر: مركز: أمر به الأمير

سليمان

بن طرف

الهامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان

زهوقا ونزل من القرآن ما هو شفاء للناس[40] لوحة9.

ثالثا: طراز النقود الزيدية:

سك الأئمة الزيدية نقودا (دنانير ودراهم) حملت أسمائهم وأماكن الضرب والعبارات التي مثلت شعاراتهم إلى جانب ألقابهم، في فترة البحث منها:

نقود الإمام الهادي إلى الحق يحي بن الحسين

- دينار باسم الإمام الهادي ضرب صنعاء سنة 288 هـ

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول لله

هامش داخلي: بسم الله ضرب هذا الدينار بصنعاء

سنة ثمان وثمانين ومائتين.

هامش خارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ

يفرح المؤمنون بنصر الله

الظهر: مركز: الهادي إلى

الحق أمير

المؤمنين بن

رسول الله

هامش: قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان

زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء [41] لوحة 10،

- كما وجد دينار ضرب صعدة سنة 296 هـ[42]. لوحه 11، وأخر ضرب سنة 298هـ [43] لوحة 16، ويحتفظ متحف صنعاء الوطني بدينار ضرب بصعدة سنة (393هـ) [44]

إلى جانب أنه وجد دينار ضرب صنعاء سجل في مركز الظهر سورة الإخلاص و جاءت نصوصه على النحو التالي:

الوجه: مركز: لا إله إلا الله

محمد رسول الله

الهادي إلى الحق

أمير المؤمنين

(38) يوسف، الأبيات ص 84 - 86، ونشر في كتاب اليمنية دينار يحمل نفس النصوص عدا التاريخ الذي سجل سنة 283هـ

(39) الزيلعي المرجع السابق ص 200 ويرى أن تاريخ حكمه لا يستند إلى أدلة مقبولة وإنما بني على آراء كانت معقولة ومقبولة في وقتها وأن توحيد سليمان للمخلاف جاء متأخرا

(40) الشميري، المرجع السابق ص 53

(41) يوسف، فرج الله، نقود الخارجين على الخلافة العباسية في الجزيرة العربية منذ القيام حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الكتاب الخامس، جامعة الملك سعود 2006م، ص 492 493، الشميري، المرجع السابق ص 61

(42) يوسف، محاولات بني الرس، ص 395، إلى جانب ذلك ورد على مسكوكة أخرى ضرب صعده سنة 296هـ اختلفت مأثورات هامش الظهر حيث استبدل الآية: قل جاء الحق: بالآية: محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . يوسف/ نقود الخارجين، 494

(43) يوسف، نقود الخارجين، ص 494 - 495، ، محاولات بني الرس ص 397، 398، وفي هذا نجد أن هامش الوجه أصبح واحدا واقتصرت عبارته على البسملة ومكان الضرب والسنة، وفي هامش الوجه جاءت الآيه : وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء، يوسف، محاولات، ص 497

(44). خليفة، المرجع السابق، ص 56 - 57

هامش: بسم الله ضرب هذا الدينار بصنعاء سنة
ثمان وتسعين ومئتين
الظهر: مركز: قل هو الله أحد
الله الصمد لم يلد
ولم يولد ولم يكن
له كفوا أحد
هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا
وننزل من القرآن ما هو شفاء.[45]

- كما ضرب الهادي سلسلة من الدراهم في صعدة
الوجه: مركز: لا إله إلا
الله وحده
لا شريك له
محمد رسول الله
هامش: بسم الله ضرب هذا الدرهم بصعدة
الظهر: مركز: الهادي إ
لى الحق أمير
المؤمنين
هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان
زهوقا[46] لوحة 13 شكل 1

نقود الإمام الراضي بالله محمد بن يحيى

- درهم باسم الإمام الراضي بالله (المرتضى) بن الإمام الهادي جاءت نصوصه على النحو التالي:
الوجه: مركز: لا إله إلا الله
محمد رسول الله
الراضي بالله
أمير المؤمنين
هامش: بسم الله ضرب هذا الدينار بصعدة
سنة.........
الظهر: مركز: قل هو الله أحد
الله الصمد لم يلد
ولم يولد ولم يكن
له كفوا أحد
هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا
وننزل من القرآن ما هو شفاء[47] لوحة 14

- كما سك الإمام الراضي بالله نقود سدس درهم
الوجه: مركز: لا إله إلا
الله وحده
لا شريك له
محمد رسول الله
هامش: بسم الله ضرب هذا الدينار بصعدة
الظهر: مركز: الراضي
بالله أمير
المؤمنين
هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا
وننزل من القرآن ما هو شفاء[48] لوحة 15 شكل 2

نقود الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحيى:

- دينار باسم الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الإمام الهادي جاءت نصوصه على النحو التالي:
الوجه: مركز: لا إله إلا
الله وحده
لا شريك له
محمد رسول الله
هامش: بسم الله ضرب هذا الدينار بصعدة
الظهر: مركز: الناصر لد
ين الله أمير
المؤمنين
هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان
زهوقا[49] لوحة 16

نقود الداعي الى الحق يوسف بن يحيى بن الناصر لدين الله

- دينار باسم الداعي إلى الحق يوسف بن يحي بن الناصر جاءت نصوصه على النحو التالي:
الوجه: مركز: لا إله إلا
الله وحده
لا شريك له
هامش داخلي: بسم الله ضرب هذا الدينار بصنعاء
سنة سبعين وثلثمائة
هامش خارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ
يفرح المؤمنون بنصر الله
الظهر: مركز: الداعي إلى

(45) يوسف، نقود الخارجين، ص 498. الشميري، المرجع السابق ص. 54
(46) يوسف نقود الخارجين، 497
(47) يوسف، نقود الخارجين، ص 499، الشميري، المرجع السابق ص. 66
(48) يوسف، نقود الخارجين، ص 499 - 500
(49) يوسف، نقود الخارجين، ص 500، الشميري، المرجع نفسه ص 66

الحق أمير

المؤمنين يوسف

ابن رسول الله

هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا

وتنزل من القرآن ما هو شفاء[50] شكل 3

نقود الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني:

- دينار باسم الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني جاءت نصوصه على النحو التالي:

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

هامش داخلي: بسم الله ضرب هذا الدينار بصنعاء

سنة تسع وثمانين (وثلث مائة)

هامش خارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ

يفرح المؤمنون بنصر الله

الظهر: مركز: الله

المنصور بالله

أمير المؤ

منين القسم

ابن رسول الله

هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا

وتنزل من القرآن ما هو شفاء[51] لوحة 17

- وضرب المنصور بالله الدرهم في صعدة ومنها سدس ودرهم

الوجه: مركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

هامش: بسم الله ضرب هذا الدينار بصعدة

الظهر: مركز: المنصور

بالله أمير

المؤمنين

هامش: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان

زهوقا[52]

رابعا: طراز النقود اليعفرية:

أشار الهمداني في كتابه الجوهرتين إلى نقود بني يعفر، عند حديثه عن إحماء الدنانير حتى لا تنقص[53]، كما أورد الوصابي في كتابه الاعتبار عند حديثه عن مقدار ما أنفقه بني يعفر على بناء الجامع الكبير بصنعاء، من دنانير عرفت بالأسعدي[54]، نسبة إلى الأمير أسعد بن يعفر، مما يدل على أن اليعفريين سكوا نقود إلا أنه لم يصلنا منها نماذج كثيرة ومتنوعة تدل على ما أنفقه بني يعفر من أموال، وورد دينار في كتاب جاءت نصوصه كالتالي:

الوجه: المركز

الله

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

الأمير

الهامش: غير واضح

الظهر: المركز

أسعد

.... لوحة 18

الدراسة التحليلية:

يعد عصر الهمداني من العصور التي تعددت فيها النقود اليمنية المتداولة بسبب تعدد الدويلات الحاكمة في اليمن، ومنها النقود العباسية و الزيادية، والزيدية، واليعفرية، وهذه النقود لا تختلف في شكلها العام عن النقود الإسلامية المبكرة وخاصة منها العباسية، والذي نقش فيها على مركز الوجه عبارة التوحيد، (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وفي مركز الظهر الرسالة المحمدية، (محمد رسول الله)[55].

والنقود اليمنية قد نهجت في شكلها العام نهج النقود العباسية، وسايرت التغيير الذي حدث في كتابة

(50) يوسف، نقود الخارجين، 501، الشميري، المرجع السابق، ص 70، يوسف، محاولات بني الرس، ص 399 - 400

(51) يوسف، نقود الخارجين، 502 - 503، يوسف، محاولات بني الرس، ص 401

(52) يوسف، نقود الخارجين، ص 503

(53) الهمداني، ابي الحسن بن احمد، الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء (الذهب والفضة) تحقيق محمد محمد الشعيبي، 1982 م صنعاء،

(54) الوصابي، عبدالرحمن بن محمد ت 782هـ، تاريخ وصاب الاعتبار في التواريخ الآثار، تحقيق، عبدالله الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 1979م

(55) الهمداني، المصدر السابق ص 131، 132

الدنانير العباسية المضروبة في عهد الخليفة المأمون، فظهرت الآية القرآنية « لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» وسجل على هامش أخر مكان وتاريخ الضرب.

وقد سجل على الدينار المضروب في صنعاء سنة 231هـ أسفل مركز الظهر اسم الخليفة الواثق بالله هارون بن المعتصم (227 - 322هـ)، وعلى دينار أخر ضرب بصنعاء سنة 270هـ نقش عليه أسفل كتابات مركز الوجه الموفق بالله، وأسفل كتابات مركز الظهر اسم الخليفة المعتمد على الله (256 - 279هـ)، والموفق والمعتمد كانا كشريكين في الحكم للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بإمرة أمير المؤمنين، وللموفق الأمر والنهي وقيادة الجند ومحاربة الأعداء وغيرها من أمور الخلافة [56]، كما سجل على هذا الدينار لقب (ذو الوزارتين) وذلك أسف اسم الخليفة المعتمد، وهو الوزير صاعد بن مخلد الذي وزر للخليفة المعتمد والموفق.

ووجد على دينار أخر ضرب صنعاء سنة 277هـ أسفل مركز الظهر « أحمد الموفق » بعد اسم الخليفة المعتمد على الله، وهو ابن أخو الخليفة المعتمد شريكه في الكم، وقد استمد قوته من نفوذ أبيه الواسع أثناء مشاركته في الحكم، والذي استطاع خلال مشاركته في الحكم أن يعين ابنه أحمد لولاية العهد، وورد اسمه هنا كدور إعلامي بأن ولي العهد القادم هو أحمد بن الموفق.

أما الدينار المضروب في سنة 283هـ بصنعاء فقد نقش عليه في أسفل مركز الظهر اسم الخليفة المعتضد بالله، (279 - 289هـ) وكذلك نقش اسمه على دينار ضرب سنة 285هـ وقد تولى الخلافة بعد عمه المعتمد، ونقش على دينار ضرب 292هـ بصنعاء اسم الخليفة المكتفي بالله، وعلى دينار أخر ضرب صنعاء سنة 300هـ اسم الخليفة المقتدر بالله، وكذلك ورد اسمه على دينار ضرب عدن سنة 306هـ، وضرب الخليفة أبو منصور القاهر بالله بصنعاء نصف دينار سنة 321هـ ونقش عليه اسمه، وسجل اسم الراضي بالله على دنانير ضرب صنعاء سنة 323هـ، أما الخليفة المتقي لله فقد سك نقود نقش عليه اسمه في مدينة بيش سنة 331هـ، وأما الخليفة المطيع لله فقد سك نقوده في كل من بيشه سنة 337هـ وسردد سنة 341هـ وعثر سنة 344هـ.

ومن خلال ما ورد على هذه النقود من عبارات تدل على مدى تشابهها مع نقود الخلافة العباسية. كما أن كتابة مكان الضرب مدينة صنعاء يدل على محاولة الخلافة العباسية السيطرة عليها وعدم التفريط بها باعتبارها عاصمة الإقليم. رغم محاولات الأئمة الزيدية وأمراء بني يعفر الحاكمين باسم العباسيين. وكذلك سيطرة علي ابن الفضل عليها لفترة معينة وأمراء بني زياد، السيطرة عليها وسك نقود فيها تؤيد أحقيتهم لها. لذا جاءت نقود الخلفاء العباسيين منذ سنة 231هـ وحتى 322هـ. وخلال هذه الفترة فقد سك الإمام الهادي إلى الحق نقود فيها منها سنة 288هـ، 296هـ 298هـ مما يدل على أن صنعاء كانت محل أنظار الجميع ليتولى حكمها واتخاذها عاصمة له، وهذا ما أيدته النقود.

نقود الدولة الزيادية:

رغم إشارة المؤرخين إلى أن دولة بني زياد قد ظهرت في سنة 204هـ وذلك عند قدوم محمد بن زياد واليا عليها من قبل الخليفة المأمون. واتخاذه مدينة زبيد عاصمة له، إلا أننا لم نجد ما يؤيد ذلك من خلال النقود حيث لم تصلنا نقود تحمل أسماء الأمراء الثلاثة الأول لدولة بني زياد، ويعد الأمير أبو الجيش إسحاق الأمير الرابع أول من سك نقوده تحمل اسمه. وقدت جاءت طراز سكته مشابهة لطراز السكة العباسية فقد نقش في مركز الوجه عبارة التوحيد، وفي هامشه الداخلي نقش عليه « بسم الله ضرب هذا الدينر بزبيد سنة ست وأربعين وثلثمائة، وفي الهامش الخارجي قوله تعالى « لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ». أما مركز الظهر فقد نقش فيه «لله محمد رسول الله واسم الخليفة المطيع لله ثم اسم الأمير إسحاق بن إبراهيم في أسفل مركز الظهر، وسجل في الهامش قول الحق تبارك وتعالى « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان

(56) ابراهيم، حسن، تاريخ الإسلام، القاهرة بدون سنة طبع ج 3 ص 23

زهوقـا وننزل من القرآن ما هو شـفاء ورحمة للمؤمنين» وبهذا فقد اتبع الأمير إسحاق طراز نقود الخليفة المطيع للـه التي ضربت في كل من بيش وعثر واتفق مع ما ضرب في كل من صنعاء وعدن وعثر.

إضافة إلى ذلك فقد سك الأمير إسحاق في مدينة صنعاء سـنة 335هـ نقـش على وجه المسكوكة عبارة التوحيـد، ووجـد لوجهها هامشـين الخارجـي جاءت عبارته»... الدينار بصنعاء سنة خمس وثلثين وثلثمائة، أما ظهر المسكوكة فقد نقش على مركزها «الرسـالة المحمدية واسم الخليفة العباسي المستكفي بالله واسم الأمير إسـحاق بن إبراهيم أسـفل مركز الظهر ووجد على ظهرها هامشـين نقش علـى الداخلي منهما «لله الأمـر مـن قبل ومـن بعد ويومئـذ يفرح المؤمـن - ..» وعلى الخارجي« مما أمر به الأمير«، وبهذا تكون هذه المسكوكة مغايرة للنقود المضروبة سابقا، حيث وجد لها هامشين في كل من الوجه والظهر.

وضـرب الأمير إسـحاق للنقود في مدينـة صنعاء تعبير عن سـيطرته على هذه المدينة التي أرادت جميع القوى السياسـية السـيطرة عليها، ومن ثـم كل القوى سكت نقودا فيها، حتى وإن لم تبق فيها إلا فترة يسيرة، وذلـك من أجـل التأكيد على السـيطرة وإعلام الناس بالسـيطرة عليها، كما سـك هذا الأميـر نقود بمدينة ذمار سـنة 337هـ جاءت عباراتها مشابهة لما ورد على المسكوكة السابقة.

نقود المخلاف السليماني:

تعاقـب علـى المخـلاف السـليماني أمراء نقشـت أسماؤهم على النقود التي سكوها وهم

1 - أمراء بني القاسم.

تشـابهت نقودهـم مـن حيـث مضمـون العبارات المنقوشـة عليهـا، فقد نقـش على مركز الوجـه عبارة التوحيـد والرسـالة المحمدية واسـم الخليفة لا إله إلا الله محمد رسول المطيع لله أما الهامش

فقـد نقش عليـه مكان وتاريـخ الضرب بسـم الله ضرب هذا الدينار بعثر سنة واحد وخمسين و ثلثمائة، وأمـا الظهر فقد نقـش في المركز« أمر بـه الأمير أبو علي محمد أبن القسـم، أو الأمير أبو يعفر السـمو بن محمد، أو الأمير أبو محمد المعمر بن محمد

2 - أمراء بني طرف:

وتعـد نقودهـم تقليـدا لنقود أمـراء بني القاسـم واختلفت عنها في اسـم الخليفة واسـم الأمير وسـنة الضرب، فقد ورد عليها اسـم الخليفة العباسي الطائع لله منقوشـا على مركز الوجه، وفي الهامش نقش بسم اللـه ضرب هذا الدينار بعثر سـنة 381 هـ، أما الظهر فقـد نقش فـي المركز« أمر به الأميـر الفرج الطرفي، والهامـش الآية القرآنية« وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطـل كان زهوقـا وننزل من القرآن ما هو شـفاء ورحمة للمؤمنين.

فضـلا عن ذلك فقد وجد دينار يحمل اسـم الأمير سليمان بن طرف ضرب عثر سنة 393هـ.

نقود الدولة الزيدية:

سـك الإمام الهادي إلى الحق يحي بن الحسـين نقود يعود أقدمها إلى سـنة 288هـ ضرب مدينة صنعاء، وفي هذا دلالة على استيلاء الإمام الهادي على مدينة صنعاء، وهي السـنة التي عـاد فيها إلى صنعاء، فـي المحرم منها وذلك بمسـاعدة أحد أعيانها وهو أبو العتاهية بن الروية المذحجـي، « ثـم إن أبـا العتاهيـة بـن الرويـة المذحجي اسـتدعى الهادي إلى الحق يحي بن الحسـين بن القاسم مـن صعدة إلـى صنعـاء فدخلها فـي المحرم سـنة ثمان وثمانين ومائتين فدعا لنفسه فبايعه الناس وضرب اسمه على الدينـار والدرهم وكتـب الطراز* ووجـه عماله إلى المخاليف فقبضوا الأعشار»[57].

وولى الهـادي على صنعاء أخـاه عبدالله، ثم ابن عمه علي بن سليمان، لكن أهل صنعاء تمكنوا من طرده وإخراج

(57) الطراز هو ما يسـجل من كتابات على المنسـوجات يذكر فيها اسم من صنع في عهده والمدينة التي تم فيها الصنع

العلوي، علي بن محمد، سـيرة الهادي الحق يحي بن الحسين، ص 18، الراشد، سعد بـن عبدالعزيز، دنانير عباسـية نادرة ضرب صنعـاء، محفوظة في متحف الآثار جامعة الملك سـعود، مجلة جامعة الملك سعود م 3 1991م ص 569، يوسف، نقود الخارجين، ص 493

عامل الخليفة العباسي وخطب للخليفة العباسي المعتضد بالله، لكن الهادي ما لبث أن عاد إلى صنعاء واستردها في رجب من نفس العام وبسط سيطرته عليها[58].

وقد أراد الهادي بنقش مكان الضرب على نقوده مدينة صنعاء ليؤكد أن هذه المدينة عاصمة اليمن أصبحت تحت سيطرته، ولكي يوحي للناس بأن اليمن أضحت تحت سيطرته بسقوط العاصمة صنعاء، لذا كانت أول مدينة يسك فيها الإمام الهادي نقوده، وقد نقش الهادي على نقوده المضروبة في صنعاء سنة 288هـ ففي مركز الوجه جاءت عبارة التوحيد « لا إله إلا الله وحده لا شريك له »، والرسالة المحمدية « محمد رسول الله » أما الهامش فقد سجل على الداخلي منهما مكان وتاريخ الضرب، وفي الخارجي سجل قوله تعالى « لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » [59]، وهذا الطراز بالنسبة لاتخاذ هامشين بداء به الخليفة المأمون إضافة إلى تسجيل الآيتين 4، 5 من سورة الروم وذلك على دراهمه المضروبة في بغداد[60].

أما بالنسبة لظهر المسكوكة فقد سجل في مركزه ألقاب الهادي إلى الحق أمير المؤمنين بن رسول الله، ومن خلال هذه العبارة يتضح لنا أن الإمام الهادي لم يكتف بالخروج عن الخلافة العباسية فحسب بل وتأسيس دولة مستقلة عنها، وهو بهذا يعد أول من أسس خلافة إسلامية تنافس الخلافة العباسية، وسبق بذلك الفاطميين الذين أعلنوا قيام خلافتهم سنة 296هـ/ 909م [61]، إلى جانب ذلك ظهر لقب الهادي إلى الحق وهو يذكرنا بلقب السن بن زيد العلوي وهو الداعي إلى الحق، وهما لا يختلفان كثيرا في الدلالة [62]، وهذا اللقب جاء مقرونا بلقب أمير المؤمنين على النقود منذ سنة 288هـ/901م، ليوضح بذلك قصب سبق الهادي في إعلان خلافة إسلامية مناهضة لخلافة العباسيين، وإضافة إلى لقب أمير المؤمنين سجل الهادي على نقوده لقب جديد وهو بن رسول الله ليشير بذلك إلا أنه من أحفاد الرسول عليه الصلاة والسلام وأنه من هذا البيت الأحق بالخلافة وهذا اللقب يعطينا نفس المعنى الذي قصده الحسن بن زيد العلوي عندما سجل على نقوده الآية 23من سورة الشورى « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » وأيضا الآية 23 من سورة الأحزاب « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وهو الأمر الذي يوضح اتفاق العلويين في المشرق والمغرب على إبراز قضيتهم ضد أعدائهم العباسيين باستخدام نفس الشعارات التي تؤكد ذلك [63]. وفي هذا نجد أن الهادي قد اختصر لقبه موصله بذلك إلى رسول الله وهو ما حدث قبل ذلك من قبل. فعندما عين الخليفة المأمون علي الرضا في ولاية العهد نقش اسمه على الدراهم على النحو التالي « علي بن موسى بن علي بن أبي طالب » مختصرا النسب الذي يربطه بالإمام علي[64].

هذا ونجد أن الإمام الهادي إلى الحق قد نقش على هامش ظهر المسكوكة الآية القرآنية « قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء » [65]، وهذه الآية اتخذت شعار رفعه العلويين على مسكوكاتهم لتعبر عن سخط العلويين على العباسيين الذين استثمروا مكانة العلويين لدى الناس أثناء ثورة العباسيين على الأمويين. ثم إنهم استأثروا بالخلافة وتنكروا للعلويين وأبعدوهم عن الحكم. لذلك أعد محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم خروجهما ضد الخلافة العباسية، وكان أول ظهور لهذه الآية على نقود إبراهيم بن عبدالله بن الحسن على دراهمه المضروبة في البصرة سنة 145هـ. كما أننا نجد أن هذه الآية قد نقشت على نقود مؤسس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى إدريس بن عبدالله بن الحسن سنة 172هـ ثم على نقود ابنه وأخيه. [66].

وبعد أن دخل مدينة صنعاء علي بن الفضل سنة

(58) أحمد، حسن خضيري، قيام الدولة الزيدية في اليمن، القاهرة 1996م ص 89
(59) سورة الروم، آية 4، 5
(60) رمضان، عاطف منصور، الإسلامية واهميتها في دراسة التاريخ ولآثار والحضارة الإسلامية، القاهرة، 2008م ص 72
(61) يوسف، محاولات، ص 293، نقود الخارجين، ص 495
(62) رمضان، المرجع السابق ص 317

(63) رمضان، المرجع السابق، ص 317
(64) المش، محمد ابو الفرج، العربية الإسلامية المحفوظة في متحف قطر الوطني الدوحة 1984م ص 448
(65) سورة الإسراء، آية 81 ،82
(66) يوسف، محاولات، ص 394

293هـ وخضعت له حتى سنة 297هـ لم يسك الإمام الهادي أي نقود خلال هذه الفترة حتى تمكن محمد بن علي العباسي أحد قادة الإمام الهادي من طرد أتباع علي بن الفضل من صنعاء حينها سك الهادي نقوده التي تميزت بأن نقش في مركز الوجه عبارة التوحيد والرسالة المحمدية واسم الهادي ولقبه أمير المؤمنين، وفي مركز الظهر نقش سورة الإخلاص وذلك لكي يعبر عن بقاء صنعاء ضمن حدود دولته وحتى نهاية حكمه، لذا جاءت سنة ضرب هذا الدينار 298هـ أي السنة التي توفي فيها الإمام الهادي، إلى جانب ذلك فقد سك الهادي نقود فضية جاءت نصوصه تتشابه مع نصوص الدنانير سواء المضربة في صنعاء أو صعدة.

أما مدينة صعدة التي تعد العاصمة الفعلية لدولة الإمام الهادي، فنجد أنه لم يبدأ فيها سك النقود إلا في عام 293هـ أي بعد خمس سنوات من سكه نقود في مدينة صنعاء، وقد جاءت مأثورات النقود التي ضربت في صعدة تتشابه مع مأثورات نقود مدينة صنعاء، إلى جانب أن الهادي أراد بسيطرته على المناطق ما بين صنعاء وصعدة لتكون مناجم التعدين (منجم الرضراض) ضمن حدود مملكته.

وبعد وفاة الهادي إلى الحق يحي بن الحسين سنة 298هـ 911م خلفه ابنه الراضي بالله (المرتضى) محمد بن يحي، الذي بويع له بعد وفاة أبيه (67) ولكنه لم يستمر في الحكم بسبب عدم تمسك أهل مدينة صعدة بالتعاليم الإسلامية، وقد تضاربت الآراء حول تاريخ تنازله، فمنهم من راء أنه تنازل سنة 300 وآخرون 301هـ (68) ولم يرد على النقود التي وصلتنا تاريخ سك بسبب التلف الذي تعرضت له، وهذه النقود سكت في مدينة صعدة، كما أنه قد سك مشتقات الدرهم كالسدس.

أما عن مأثورات هذه النقود فقد تشابهت مع نقود أبيه المتأخرة حيث نقشت اسمه على وجه المسكوكة وسورة الإخلاص على الظهر، كما أنه سجل لقب محمد بن يحي بالراضي بالله وليس كما ورد عند المؤرخين باسم المرتضى (69) وبذلك يكون لقبه الصحيح الراضي بالله لأن النقود تعد وثائق تاريخية هامة لا تصحف أو تغير.

وأما ما يخص الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الحسين فقد كان يعيش في مكة المكرمة وظلت دولة الأئمة الزيدية بدون إمام حتى قدم الناصر فبايعه أخوه وعامة الناس واستمر في الحكم من سنة 301 - 322هـ، وقد سك نقود جاءت كلها فضية، ضربت بمدينة صنعاء، وهي تتشابه مع نقود أبيه حيث سجل على الوجه عبارة التوحيد والرسالة المحمدية، وفي الهامش مكان وسنة الضرب وفي الظهر اسم الناصر ولقب أمير المؤمنين، والهامش، الآية القرآنية « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا « .

هذا وسك الداعي إلى الحق يوسف بن يحي بن الناصر لدين الله، بعد أن تمت مبايعته من قبل أهالي مدينة صعدة 368هـ/ 979م (70) إثر الصراع الذي حصل بين أبناء الإمام الناصر، والذي ببيعته هدأت أحوال صعدة، وقد جاءت نصوص نقوده متشابهة مع نقود سلفه من الأئمة الزيدية، مع اختلاف طفيف، إذ نقش في مركز الوجه عبارة التوحيد لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وفي الهامش الداخلي نقش بسم الله ضرب هذا الدينر بصنعاء سنة سبعين وثلثمائة، وفي الهامش الخارجي الآية الكريمة « لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفر المؤمنون بنصر الله، أما الظهر فقد نقش في مركزه الداعي إلى الحق أمير المؤمنين يوسف ابن رسول الله، وفي هامشه الآية الكريمة « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء »، ومن خلال النصوص التسجيلية يتضح لنا أن الداعي يوسف وما أشار إليه المؤرخون من أنه لم يكن من الأئمة المجتهدين الذين توافرت فيهم شروط الإمامة عند الزيدية بل كان داعيا فقط، ولذا لم يسجل ضمن تلك النصوص الإمام، واكتفى بتسجيل لقب الداعي إلى الحق.

(67) ابن الحسين، يحي، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ت سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، 1968م ج 1 ص 167

(68) ابن الحسين، المرجع نفسه، ص 202

(69) ابن الحسين، نفسه، ص 202

(70) ابن الحسين، المرجع السابق ص 328، وما بعده

* شريط الطراز، هو ذلك النص الكتابي الذي كان يسجل على المنسوجات والذي يعد من شارات الحكم إلى جانب النقود والخطبة في يوم الجمعة.

ومع هذا كله فإنه تلقب بلقب أمير المؤمنين ليؤكد بأنه خليفة وأميرا للمؤمنين مستقلا عن الخلافة العباسية أو الفاطمية مع أنه داعيا فقط، لم يصل إلى مرتبة الإمامة، إضافة إلى ذلك سجل لقب ابن رسول الله ليؤكد نسبه المتصل برسول الله وأنه أحق بالخلافة والإمامة، وحتى يثبت أحقيته في ذلك نقش اسمه ولقبه على النقود ليكون أول حاكم زيدي ينقش اسمه ولقبه، فقد كان من سبقه يكتفي بنقش اللقب فقط، وليس هذا فحسب بل إننا نجد أنه سجل اسمه ولقبه على شريط الطراز* على قطعة نسيج نصت على « الداعي إلى الحق يوسف بن يحي بن الناصر أحمد بن رسول الله صلة الله عليهم أجمعين » [71]، وهذا الدينار ضرب بمدينة صنعاء التي لم تكن تابعة لدولة الأئمة الزيدية لأن الصراع كان قائما فيما بين أبناء الإمام الناصر إلا أنهم كانوا يسيطرون عليها بين الفينة والأخرى ولتأكيد هذه السيطرة سك الأئمة نقود فيها، وكان الداعي يوسف قد استولى عليها سنة 369هـ لكنه طرد منها من قبل دولة بني زياد في السنة نفسها، وربما أنه عاد إليها سريعا إذ يؤكد هذا الدينار سيطرته على صنعاء، كما سجل الداعي إلى الحق يوسف على نقوده شعار الأئمة الزيدية وهو من قوله تعالى « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء».

وفي سنة 389هـ/ 998م قدم إلى مدينة صعدة الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني، وتمكن من عزل الداعي يوسف بن يحي بن الناصر واستولى على مقاليد الأمور هناك واستمر حتى وفاته سنة 393هـ/ 1003م فعاد الداعي إلى الحق يوسف وحكم حتى توفي سنة 403هـ/ 1014م [72]، وأثناء توليته سك نقود نقش في مركز الوجه عبارة التوحيد والرسالة المحمدية، وفي هامشيه سجل مكان وسنة الضرب وجزء من الآيتين 4، 5 من سورة الروم، وفي مركز الظهر سجل في أعلاه لفظ الجلالة، ثم اسمه ولقبه المنصور بالله أمير المؤمنين القاسم ابن رسول الله،

وفي هذه المسكوكة يتضح لنا أن القاسم قد اقتفى أثر من سبقه في تسجيل النصوص على نقوده، إلى جانب أنها توضح مدى أهمية مدينة صنعاء كعاصمة يسعى الجميع للسيطرة عليها وهذا ما تؤيده النقود بنقش مكان الضرب فيها. وسك المنصور بالله الدراهم في مدينة صعدة ومنها سدس درهم جاءت نصوصه متشابهة مع نصوص الدينار السالف ذكره.

نقود الدولة اليعفرية:

بالرغم من الإشارات الواردة عند المؤرخين عن النقود اليعفرية وأنها كانت ذات وزن شرعي إلا انه لم يصلنا من نقود هذه الدولة إلا هذا الدينار الذي يمكن أن نستخلص من مأثوراته المنقوشة عليه طراز سكة هذه الدولة، فقد جاء على مركز الوجه لفظ الجلالة وعبارة التوحيد والرسالة المحمدية وكلمة أمير « الله لا إله إلا الله محمد رسول الله الأمير » أما هامشها فهو غير واضح وربما أنه سجل عليه مكان وتاريخ الضرب. وأما الظهر فلم يتبق من عباراته سوى كلمة أسعد مما يدل على أنه يعود إلى الأمير أسعد بن يعفر. وهو بذلك لا يخرج في مجمله عن طراز نقود الخلافة العباسية والدويلات التابعة لها في اليمن.

سك النقود عند الهمداني:

أمر الإمام الهادي إلى الحق يحي ابن الحسين العلوي أبا إسماعيل بن عبدالرحمن صاحب عياره بصعدة أن يحمي الدينار بعد الطبع. فقال له أيها الإمام إن فعلت ذلك اختلفت دنانيرك وعدمت استقامتها وتسوطت والتوت ورطبت فأخذ منها كل ما مرت به فلا يمر بالدينار حول يجري في أيدي الناس إلا وقد نقص حبة وأقل وأكثر (نقص وزنه). قال له قد علمت أنه كما قلت وأن الدينار يبقى بحالته الدهور الطويلة ما ترك بصلابة الحديد ولكنا في بلد بادية لا يتصورون المحك ولا يعرفون العيار ولون الحديد يظهر في الدينار وخضرة ووضوحه والإحماء يظهر فيه الحمرة فينظر إليه البدوي أمر ويغمزه ليناً.

فلبث نقده في حياته وحياة ابنه محمد وأكثر أيام

(71) الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة 1975م ص 285

(72) ابن الحسين، المرجع السابق، ص 228

الناصر، ثم نظروا ما ضرب في أيام الهادي يحي ابن الحسين فوجدوه قد نقص في الورق حبة وأكثر لرطوبته ولينه وأخذ ما جرى عليه فتركت دنانيره على يبس الحديد مع شيء من التلوين مثل اليعفرية فحسبت استقامتها[73].

وكان أبو إسماعيل إبراهيم بن محمد بن عبدالرحمن صاحب عيار صنعاء وصعدة يبتدئ ضرب العيار وزن ثلاثة مثاقيل ويحصله بعد القرض ثلاثة دراهم وثلث درهم فإن أتى العيار بزلل حبة أعاد من الذهب ما ينقص في المائة واحد على حد التقريب. واستمر صاحب العيار هو وابنه محمد وكان حاسبا فطنا[74]، وكان الخالص ابن المعطي وهو ممن ولي العيار بصنعاء في حضره يحصل العيار بعد قرضه لورقه عند الفراغ من ضربه أربعة دراهم فقلة فإذا وزن عيار السلطان فقام وزنه وزن في كفته العيار الثاني فإن رجح قرض منه الزيادة حتى يستوي بمثقال عيار السلطان وإن زل أخذ زلله بشمعة، وإن جاء ينقص أقل من حبة فجيد لأنه يقع في كل دينار أقل من ربع حبة وإن نقص حبة تجاوزه.[75]

وخبرني أبو إسماعيل إبراهيم بن محمد بن عبدالرحمن صاحب عيار صعدة وصنعاء أن جعفر بن دينار لما قدم اليمن سنة 232هـ بويع للمتوكل صير على العيار بصنعاء ابن الحُباب وفوضه في دار الضرب وأسبابها فكان يستقصي على الناس في عياراتهم، وجاءت دنانيره المثاقيل الحُبابية واضحة بيض على كثير منها اسم المتوكل، ثم فورت بعد ذلك باليمن فأخرجت أوساطها فتعامل بها الناس هي الدنانير الجادة وزنها نصف مثقال وكانت من نقش عيار ابن الرومي الضراب، ثم أن ابن الحباب قد غش في الدينار، يقول الهمداني فبقيت إلى يومنا هذا وما يقع في يد أحد من دنانيره إلا دعا عليه [76].

وقال أبو محمد عيارات الدنانير كثيرة وجيدها أكثر من أن يحصى إلا أن خير ما عمل في الإسلام المرواني

(73) الهمداني الحسن بن احمد بن يعقوب، االمصدر السابق ص 67، 68
(74) الهمداني، المصدر نفسه ص 77
(75) الهمداني، المصدر نفسه، ص 81
(76) الهمداني، المصدر السابق ص 94، 95

والسندي والمطوّق والوزاري والعلوي والصعدي وهو أرفع من الوزاري.[77]

النقش على الدينار:

يسمى كتابها نقشا من جهة حفره في الحديد با المنقش وهو القلم الحديد أو بالشهر، ويقال نقش فضة ولا يقال كتبه وفاعل ذلك نقاش ولا يقال كاتب.

فأما ما يكتب فيه ويوضع فإن أهل كل ملة يجعلون عليه أعظم ما يدينون به من اسم أو صورة، فمن كان صاحب وثن وصنم صير عليه صورة، ومن النصارى والروم من يجعل صورة ثور أو بقرة لأجل محبة المسيح عليه السلام التي كانت عندهم للبقر ومنهم من يجعل عليه صليبا لتوهمهم صليب عيسى عليه السلام.

وكان في دنانير حمير ودراهمها صورة للشمس والقمر والكواكب لأنهم كانوا يعبدونها واسمها عندهم عثتر والقمر هبس والنجوم المقه، وكان للفرس والهند في نقودهم صور وأسماء أخرى.

وأما المسلمون فصوروا عليه اسم الله اسم التوحيد الشريف من جانب الوجه وصيروا من الجانب الثاني اسم النبي صلى الله عليه وسلم واسم الخليفة، وأما ما أحدثته المروانية فكانوا يكتبون من جانب قل هو الله أحد السورة وحولها محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ومنهم من كتب جاء الحق وزهق البطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة، وأدير على الوجه الثاني لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ومنهم من يكتب في مكان هذه الآية الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة، وفي جوف هذا الطوق طروق التاريخ واسم رب بها[78].

وهذا ما ورد على النقود التي سكت في عصر الهمداني، لذا يمكن القول أن الهمداني قد سجل المأثورات الواردة على نقود المتداولة في عصره من خلال ما أورده في كتابه الجوهرتين، كما أنه قد فطن

(77) الهمداني، المصدر السابق 89
(78) الهمداني: المصدر السابق ص 131

إلى ذلك بأن أورد طرز النقود سواء القديمة منها أو الإسلامية وما ورد عليها من نقوش كتابية أو حيوانية أو أدمية أو هندسية كالصليب قبل الإسلام لمختلف البلدان كا الفرس والروم والهند واليمن أو المأثورات الإسلامية مرورا بما ورد على تلك النقود في خلافة بني أمية أي أثناء الإصلاح النقدي للخليفة عبدالملك بن مروان (تعريب) وصولا إلى ما ورد على النقود من عبارات في عصره

معرفة وجه الدينار وقفاه:

الصفح الذي فيه اسم الله تعالى لا إله إلا الله الوجه في الطابع الأعلى وهو رأس السكة، والصفح الثاني الذي فيه اسم النبي صلى الله عليه وسلم والخليفة القفا وهو في الطابع الأسفل وهو بدن السكة. ورأس الدينار من حيث يبدأ في الطوق الأعلى لله الأمر في مقدم السطر الذي فيه لا إله إلا الله. والجانب الذي يحاذيه من نحو لا شريك له أسفله وما يتيامن من على السطر ميمنة وما يتياسر ميسرة[79].

وبهذه العبارات التي أوردها الهمداني في معرفة وجه المسكوكة وظهرها قد حسم نقاش بين علماء النقود في ذلك، إلى جانب ذلك حدد من أين تبدأ قراءة نصوص المسكوكة سواء على الوجه أو الظهر

(79) الهمداني المصدر السابق 131 132

جدول يبين أسماء الخلفاء العباسيون الذين سكوا نقود في اليمن في عصر الهمداني

رقم	الاسم المعروف للخليفة	اسم الخليفة	فترة الحكم بالهجري	فترة الحكم بالميلادي
1	الواثق	أبو جعفر هارون الواثق بالله	227 - 232	842 - 847
2	المعتمد	أبو العباس أحمد المعتمد على الله	256 - 279	870 - 892
3	المعتضد	أبو العباس أحمد المعتضد بالله	279 - 289	892 - 903
4	المكتفي	أبو محمد علي المكتفي بالله	289 - 295	903 - 908
5	المقتدر	أبو الفضل جعفر المقتدر بالله	295 - 320	908 - 932
6	القاهر	أبو المنصور محمد القاهر بالله	320 - 322	932 - 934
7	الراضي	ابو العباس أحمد الراضي بالله	322 - 329	934 - 940
8	المتقي	أبو إسحاق إبراهيم المتقي لله	329 - 333	940 - 944
9	المستكفي	أبو القاسم عبدالله المستكفي بالله	333 - 334	944 - 946
10	المطيع	أبو القاسم الفضل المطيع لله	334 - 363	946 - 974
11	الطائع	أبو الفضل عبدالكريم الطائع لله	363 - 381	974 - 991
12	الراشد	أبو جعفر المنصور الراشد بالله	529 - 530	1135 - 1136
13	الظاهر	أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله	622 - 623	1225 - 1226

جدول يبين أسماء أمراء بني زياد والمخلاف السليماني الذين سكوا نقود في عصر الهمداني

	لقب الأمير	اسم الأمير	فترة الحكم بالهجري	فترة الحكم بالميلادي
1	أبو الجيش	إسحاق بن إبراهيم	371 - 291	981 - 903
2	أبو علي	محمد بن القاسم	359 - 346	969 - 957
3	أبو يعفر	السمو بن محمد	374 373	985 - 983
4	أبو محمد	المعمر بن محمد	380 - 379	990 - 989
5	الطرفي	الفرج الطرفي	392 - 380	1002 - 990م
6	بن طرف	سليمان بن طرف	393 - 373	1003 - 984

جدول يبين أسماء الأئمة الزيدية الذين سكوا نقود في اليمن في عصر الهمداني

	اللقب	الاسم	فترة الحكم بالهجري	فترة الحكم بالميلادي
1	الهادي إلى الحق	يحي بن الحسين	284 – 298 هـ	911 – 898
2	الراضي (المرتضى)	محمد بن يحي بن الحسين	301 – 298	913 – 911
3	الناصر لدين الله	أحمد بن يحي بن الحسين	325 – 301	934 – 913
4	الداعي إلى الحق	يوسف بن يحيى	403 – 366	1012 – 977
5	المنصور بالله	القاسم بن علي العياني .	393 – 389	1003 – 999

مدن السك:

لقد تعددت مدن الضرب في عصر الهمداني وذلك بتعدد الدويلات والإمارات التي كنت تحكم اليمن في ما بين القرنين الثالث والرابع الهجريين التاسع والعاشر الميلاديين وهي على النحو التالي:

صنعاء:

تعد مدينة صنعاء من أكثر المدن التي تم سك نقود فيها في عصر الهمداني وذلك لما تتمتع به هذه المدينة من مكانة إستراتيجية جعلت من زعماء الدويلات التي حكمت اليمن في عصر الهمداني من أن تتسابق في السيطرة عليها وسك نقود فيها، وصنعاء قصبة اليمن وعاصمتها .وهي أم اليمن وقطبها في الوسط منها ما بينها وبين عدن كما بينها وبين حد اليمن من أرض نجد والحجاز (80)

عدن:

عدن مدينة تقع على سال البحر العربي، وهي من أقدم أسواق العرب تحيط بها الجبال ومن خلفها البر ولها طريق واحد إلى البر في بطن الجبل منحوت بزبر

(80) الهمداني، الصفة، ص 102

الحديد.[81]

بيش:

بيش بالشين المعجمة وبكسر أوله من مخاليف اليمن قرب دهلك سميت باسم وادي بيش الذي يصب في البحر الأحمر من جهة تهامة عسير شمال صبيا وهو واد عظيم البركة زاكي الخيرات وافر النعم، وبه موالي قريش وساحله عثر[82]

بيشه:

تعد بيشه من أعمال مكة المكرمة مما يلي اليمن على بعد نحو خمس مراحل منها، وهي تقع على وادي بيشة في عسير والذي تسيل مياهه في بلاد نجد شرقا والتي سميت نسبة إليه[83]

ذمار:

ذمار مدينة تقع إلى الجنوب من صنعاء على بعد نحو 100كم، ويطلق عليه الهمداني قرية كبيرة جامعة بها زروع وآبار قريبة ينال ماؤها باليد وتسكنها بطن من حمير وبعض من الأبناء، وهو مخلاف نفيس كثير الخير عتيق الخيل كثير الأعناب والمزارع والمآثر.. إلخ[84]

زبيد:

قصبة تهامة ومستقر ملوك اليمن يسمونها بغداد اليمن،[85] نسبة إلى وادي زبيد، هي الحصيب، وكورة تهامة، بلد طولها 129 درجة وعرضها 13 درجة[86]

سردد:

سردد بضم السين المهملة وسكون الراء ثم دالين أولهما مضمومة وهي إحدى ميازيب اليمن المشهورة، وتنسب إلى سردد بن معدي كرب بن شرحبيل بن ينكف بن شمر ذي الجناح[87] ومدينتها المهجم.

عثر:

عثر سوق عظيم شانها وتنقله العرب فيقولون عثر وإلى حازة عثر تنسب الأسود التي يقال لها أسود عثر.[88] وهي مدينة كبيرة قصبة الناحية وفرضة صنعاء وصعدة وبها سوق حسن وجامع عامر. وقال عمارة مخلاف عظيم وثغر جميل وساحل جليل[89]. ويطلق على مدينة عثر ومخلافها الذي يمتد جنوبا من مدينة الشرجة الواقعة على الحدود الحالية بين السعودية واليمن وشمالا إلى جنوب حدود إمارة حلي. ومن الغرب يمتد من البحر الأحمر إلى الأطراف الجبلية[90] وهي اليوم تتبع ميناء منطقة جازان.

صعدة:

مدينة مشهورة تقع إلى الشمال من صنعاء وهي كورة مخلاف خولان كانت تسمى جماع وكان بها في القديم القصر المشيد وسميت بذلك الاسم لأن رجل من الحجاز مر بها فقال صعده لقد صعده فسميت بذلك، وإليه ينسب النصال الصعدية وبها موضع الدباغ في الجاهلية وذلك لتوفر شجر القرظ[91].



(81) الهمداني، الصفة ص 94
(82) الهمداني، الصفة، ص 98 هامش 5
(83) الأكوع، إسماعيل بن علي، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، صنعاء 1988م ص 52
(84) الهمداني، الصفة ص 206
(85)، المقدسي، ابو عبدالله محمد بن احمد، ت 380هـ، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ط 2 ليدن 1906م ص 84
(86) الهمداني، الحسن بن احمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، ت نو 350 هـ صنعاء 1983م ص 2232
(87) الهمداني، الصفة، الهامش 4 ص 79
(88) الهمداني، الصفة ص 98
(89) الهمداني الصفة، هامش 6.
(90) الريلعي، المرجع السابق، ص 193 194
(91) الهمداني، الصفة ص 115، 116

اللوحات والأشكال:




لوحة رقم 1 توضح مسكوكة الخليفة الواثق بالله




لوحة رقم 2 توضح مسكوكة الخليفة الموفق بالله




لوحة رقم 3 توضح مسكوكة الخليفة المعتضد بالله




لوحة رقم 4 توضح مسكوكة الخليفة المقتدر بالله




لوحة رقم 5 توضح مسكوكة الخليفة المقتدر بالله




لوحة رقم 6 توضح مسكوكة الخليفة المطيع لله والأمير إسحاق بن إبراهيم




لوحة رقم 7 توضح مسكوكة الأمير أبو علي محمد بن القاسم بن طرف واسم الخليفة المطيع لله




لوحة رقم 8 توضح مسكوكة الأمير الفرج الطرفي




لوحة رقم 9 توضح مسكوكة الأمير الفرج الطرفي واسم الخليفة الطائع لله




لوحة 10 توضح نقود الإمام الهادي إلى الحق ضرب صنعاء 288




لوحة 11 توضح نقود الهادي ضرب صعدة سنة 296




لوحة 12 توضح نقود الهادي ضرب صنعاء سنة 298هـ




لوحة 13 درهم ضرب صعدة للهادي




شكل 1 يوضح كتابات درهم صعدة للهادي




لوحة 14 توضح نقود الراضي بالله (المرتضى)




لوحة 15 درهم للراضي بالله ضرب صعدة




شكل2 يوضح كتابات درهم الراضي بالله




لوحة 16 توضح نقود الناصر لدين الله ضرب صعدة


شكل 3 يوضح كتابات نقود الداعي يوسف بن الناصر


لوحة 17 توضح نقود المنصور بالله القاسم



لوحة 18 توضح نقود بني يعفر(أسعد)

حكاية شاعرين.. التصوف في اليمن خلال العهد العثماني

الكسندر كنيش
ترجمة: عبدالسلام الربيدي

التصوف في اليمن:

لا يُعرف عن مصائر الحركات الصوفية في اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية[1] قبل العهد الرسولي (626هـ/1258م - 858هـ/1454م) إلا القليل. وثمة شواهد في الكتب التاريخية ومجاميع التراجم[2] من الفترة السابقة للدولة الرسولية تنطوي على إشارات عابرة إلى أفراد من الزهاد الرجال، و أحيانا، من النساء يتحلون ويتحلين بالتقوى الاستثنائية.

وقد كان ظهور مشايخ متصوفين شعبيين من ذوي التأثير في المناطق الشمالية كأبي الغيث ابن جميل (ت651هـ/1253م) وأحمد بن علوان (ت 665هـ/1266م) متزامنا مع العقود الأخيرة للدولة الأيوبية ومع بدايات الدولة الرسولية.

وكان متصوفة ذلك العهد ينسبون أنفسهم إلى سلاسل طُرُقية ولدت خارج شبه الجزيرة العربية؛ مثل الطريقة القادرية، أو الطريقة الرفاعية، أو الطريقة الشاذلية. ويكاد هذا الأمر ينطبق برمته على مشايخ الصوفية في جنوب شبه الجزيرة العربية.

ونجد في كتب التاريخ والتراجم التي كتبت في حضرموت وظفار أن الأولياء الصوفيين ينتمون إلى العائلات المشهورة من سادة تلك المنطقة ومشايخها[3]. كما نجد أن مشايخ الصوفية الأوائل في حضرموت يعزون انتسابهم إلى سلاسل الطريقتين القادرية أو الشاذلية، غير أنهم، في نهاية الأمر، عملوا على إنشاء سلسلة طُرُقية روحية خاصة عُرِفتْ بالطريقة العلوية[4].

(1) في حين تُعدّ حضرموت، اليوم، محافظة من محافظات الجمهورية اليمنية، فقد كانت، تاريخياً، جزءا من المجال الثقافي والاقتصادي الهندي مما يجعلها تختلف تماما عن كل من منطقة تهامة السنية الشافعية، وعن المرتفعات الزيدية الشيعية (منطقة صعدة). وفي الوقت نفسه كانت لحضرموت روابط اقتصادية وثقافية قوية مع المنطقة الساحلية الممتدة في جنوب الجزيرة العربية من عدن إلى المهرة. وبعبارة أخرى، لحضرموت بنية ثقافية واجتماعية وتجربة تاريخية لا تتداخلان، إلا على نحو جزئي، مع ما هو موجود في شمال اليمن.

(2) مثل كتاب ابن سمرة (ت586هـ/1190م) طبقات فقهاء اليمن، وكتاب الجندي (ت732هـ/1332م) السلوك في طبقات العلماء والملوك، وكتاب البريهي (ت904هـ/1499م) طبقات صلحاء اليمن، وكتاب الشرجي (ت893هـ/1487م) طبقات الخواص.

(3) بينما يطلق مصطلح «مشايخ» في شمال اليمن على رؤساء القبائل فإنه يطلق في جنوب اليمن على البيوتات ذات النسب القبلي التي ميز أفرادها أنفسهم بكونهم علماء دين. وتدعى مثل هذه البيوتات في الشمال بـ(القضاة). أما عن (السادة) فيمكن الرجوع إلى مقالتي: «السادة في التاريخ: بحث نقدي عن نصوص التاريخية في حضرموت» JRAS 9/2 (1999م) ص215 - 222

(4) من اجل معرفة سادتها ببيان دقيق ينظر: محمد بن حسين بن عبد الله الحبشي، العقود اللؤلؤية. (القاهرة: مطبعة بولاق 1910م).

وظهور - وقد ناقشت ذلك في مكان آخر[5] - هذه الطريقة التي تجمع بين تعاليم الصوفية المشارقة والمغاربة وسلوكهم، - يُعْزى، تاريخيا، إلى السيد محمد بن علي باعلوي (المعروف بالفقيه المقدم المتوفى سنة 653هـ/1256م بتريم) وإلى الشيخ سعيد بن عيس العمودي (المتوفى سنة 671هـ/1272م بقيدون وادي دوعن)[6]، وكما ذكرت آنفا، فإن هذه السلسلة الحضرمية قد أدّت إلى نشوء الطريقة العلوية التي يدل اسمها على ارتباطها الجوهري بالسادة الحضارم من عشيرة آل أبي علوي. وقد عمل أعضاؤها بدأب على نشر تعاليمها بين مسلمي جنوب آسيا وجنوب شرقها وغرب أفريقيا حيث حظيت طريقتهم بشعبية واسعة.

أمّا في المناطق السنية من شمال اليمن فقد سادت سلاسل الطرق القادرية والرفاعية والشاذلية[7]، بالإضافة إلى النقشبندية التي غزت كل المدن الساحلية في تهامة خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، ومن المحتمل أن يكون ذلك عن طريق مكة[8].

ومنذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) فصاعداً أصبحت الربط والزوايا الصوفية (التي تكوّنت حول مشايخ الصوفية) جزءاً لا يتجزأ من المشهد الديني والاجتماعي المحليين في كلٍ من الشمال (باستثناء المناطق الزيدية) والجنوب، وخصوصا حضرموت وظفار. وقد أضحت زوايا الأولياء الشعبيين وأضرحتهم ومساجدهم أماكن للسماع الروحي، يتم فيها إنشاد الشعر الصوفي (وغالبا ما يكون باللهجة العامية المحلية) في جلسة أسبوعية تستخدم فيها الدفوف وغيرها من الآلات الموسيقية الأخرى. وغالبا ما تُذكر جلسات السماع الصوفية هذه في الكتب التاريخية اليمنية منذ القرن الثالث عشر الميلادي/التاسع الهجري[9]. وتنتشر هذه الجلسات في المدن والقرى في كلٍ من الشمال والجنوب، رغم ما تتعرض له من نقد وإدانة بين الفينة والأخرى من قِبَل علماء محليين يعدّونها نوعا من البدع المذمومة[10].

وقد حظيت الأعمال الصوفية القديمة المرموقة ككتب القشيري (ت 465هـ/1074م) والغزالي (ت 505هـ/1111م) والسهروردي (ت632هـ/1234م) - حظيت بانتشار واسع، جنباً إلى جنب مع كتابات المشايخ المحليين. كما كان للرسائل والأشعار الصوفية لكلٍ من ابن عربي (ت 638هـ/1240م) وابن الفارض (ت 633هـ/1235م) والتلمساني (ت 690 هـ/1291م) شيوع شعبي، على الرغم مما يبدو من انحصار تداولها وتذوقها على النخبة الفكرية من المتصوفة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ التصوف في اليمن لم يطوّر بنى مؤسسية واقتصادية موسّعة ولم يبنِ منظمات ذات طبيعة تراتبية؛ وهو الأمر الذي تميّزت به، على نطاق واسع، الطرق ذات الطبيعة التفرعية التي وجدت في بعض المناطق من العالم الإسلامي، وخصوصا في مصر وأفريقيا والعراق وآسيا الوسطى والهند. ويمكن أن يُعزى هذا الملمح المميز للصوفية في اليمن إلى انعدام الموارد لدى النخبة الحاكمة في اليمن. وكما نعرف، فإنّ الحكام ورجالات الدولة، في المناطق الأخرى من العالم الإسلامي إبّان التاريخ الوسيط والحديث، قد دأبوا على منح الطرق الصوفية والمشايخ

(5) ينظر: ايه. كنيش، السادة في التاريخ: بحث نقدي عن السير التاريخية في حضرموت، ص215 - 220.

(6) قل انتساب أسر المشايخ الحضارم إلى هذه السلسة قليلا في المرحلة المتأخرة.

(7) عبدالعزيز المنصوب، العارف بالله عبدالهادي السودي (بيروت: دار الفكر المعاصر، 1995م) ص56.

(8) جيه. فول، جماعات الترابط في شبكة علاقات العلماء المجددين في القرن الثامن عشر: أسرة المزجاجي في اليمن، ضمن كتاب: (تحرير) إن. لفتزون وجيه. فول: التجديد والإصلاح في الإسلام في القرن الثامن عشر (سركيوز، منشورات جامعة سركيوز، 1987م)، ص69 - 92.

(9) ينظر: آر. سيرجنت، شعر جنوب شبه الجزيرة العربية، المجلد الأول: شعر ونثر من حضرموت (لندن: منشورات تيلور الأجنبية 1951م) ص40، وينظر كذلك: عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر با مخرمة (884 - 952) حياته، وتصوفه، وشعره (دمشق: دار الفكر 2002) ص77 - 82.

(10) لمعرفة المزيد من التفاصيل ينظر: ايه. كينش، ابن عربي في التراث الإسلامي المتأخر: صناعة الصورة الجدلية في الإسلام الوسيط (الباني: منشورات جامعة الدولة في نيويورك، 1999م)، ص233. وكذلك الفصل الأول من كتاب مارك وجنر، شعرية القصيدة الحمينية: اللغة والمعنى في الشعر العربي واليهودي العامي في اليمن (اطرحة علمية غير منشورة، جامعة نيويورك، نيويورك، 2004م). (طبعت هذه الرسالة مؤخرا تحت عنوان: مثل يوسف في الجمال الشعر اليمني العامي والتعايش اليهودي العربي، هولندا - ليدن 2009 - المترجم).

المتصوفين الأعطيات المادية السخية ؛ أملاً في أن يظهروا شرعيتهم بوصفهم حكاماً مسلمين.

وقد أدّت الأموال الوقفية الممنوحة للرُبُط الصوفية إلى خلق مؤسسة اقتصادية صلبة لإمداد الطرق الصوفية في عدد من مناطق العالم الإسلامي. وفي حين أن الحكّام السنيين في اليمن كانوا متحمسين لدفع أعطيات للمشايخ الصوفيين الشعبيين، فإنّهم، فيما يبدو، لم يكونوا يملكون الموارد الكافية لإنشاء مؤسسات صوفية على نطاق واسع تقف بموازاة الطرق المصرية والعثمانية والهندية. ومن المؤكد أنّ الملوك والأمراء اليمنيين كانوا يقدمون منحا لأفراد المشايخ المتصوفين ولمقاماتهم، غير أن تلك المنح، فيما يظهر، لم تكن كافية لإعالتهم إلا بشق الأنفس.

ولعل عوامل أخرى قد كان لها دور في ذلك، ويأتي في مقدمتها عدم الاستقرار السياسي وتمزق المنطقة لغياب الدولة المركزية القوية. ويبدو، أيضا، أنّ المتبرعين من الأثرياء لم يكونوا يدعمونهم إلا على نحو يسير. ويمكن أن نضيف إلى هذه العوامل الحضور السياسي والعسكري الفاعل والقوي للمجتمع الزيدي الذي كان علماؤه وحكامه يعارضون التصوف لأسباب مذهبية[11]. ومع تسليمنا بأنّ هذه المعارضة لم تكن منتظمة مطردة، فإنّ العلاقات بين أفراد الحكام الزيديين والمشايخ الصوفيين تأرجحت على مر الزمن حتى ساد، في نهاية المطاف، التيار العقلاني الزيدي المعادي للتصوف الذي دفع نحو إدانة الصوفية، وأحياناً، نحو الاضطهاد المادي لهم. ولم يكن خافيا تدمير الموالين الغلاة للأئمة والمشايخ الزيديين لأضرحة الصوفية[12].

ولن تكون مناقشتنا للتحولات التي طرأت على التصوف اليمني كاملةً ما لم نتطرق لذكر الحضور الفاعل، على حدود البلاد، للقبائل الوهابية. ثم للدولة الوهابية بعد ذلك. وقد يكون هذا الحضور الذي يرجع إلى نهايات القرن الثامن عشر الميلادي مسئولا عن تعثر نمو طرق صوفية ذات صبغة مؤسسية خلال القرن الذي يوصف - أحيانا - بأنه «القرن الصوفي» وخصوصا في الجوار الأفريقي. والذي يُحدد من نهايات القرن الثامن عشر حتى نهايات القرن التاسع عشر الميلاديين[13].

إنّ خلو اليمن من انبعاثٍ صوفيّ خلال العهد المذكور لهو أمرٌ باعث على الاستغراب؛ لاسيما إن نحن تذكرنا الإقامة الطويلة، نسبيّاً، للواعظ الصوفي المعروف أحمد بن إدريس (ت 1253هـ/ 1837م) في مدينة صبيا.[14] وقد كان من المعروف، على نطاق واسع، أنّه ظل خلال مدة إقامته في هذه المدينة حريصا على نشر التعاليم الصوفية بصورة نشيطة، وذلك من خلال مواعظه العامة ومناظراته مع المعارضين المحليين للتصوف. وبالتحديد مع العلماء من ذوي الميول الوهابية.[15] وعلى الرغم من ذلك النشاط لأحمد بن إدريس، فإنّ جهوده لم تؤدِّ إلى انبعاث أية طريقة صوفية قوية ونشيطة سياسياً في اليمن بالمقارنة إلى ما أنجزه تلامذته المرموقون: السنوسي (ت 1276هـ/1859م) والمرغني (1268هـ/1852م) وإبراهيم بن صالح الراشد (1291هـ/1874م) الذين نجحوا، على نحو ملحوظ، في نشر تعاليمه وفي تأسيس طرق نشيطة

(11) ولهذا فقد كانت الشيعة الإثنا عشرية الزيدية ترى في دعوى المتصوفة حول العلم اللدني العُلْويّ ضربا من التجاوز لأفضلية الأئمة العلويين من آل بيت النبي. كما إنهم ينكرون على المتصوفة الطاعة العمياء التي يبديها المريد للشيخ. وبوصفهم مشايعين لمذهب المعتزلة العقلانيين في موضوعات علم الكلام، فإنهم ينكرون كرامات الأولياء والعلوم العُلْوية المنسوبة إليهم؛ على الرغم من انهم انفسهم يقرّون بمثل تلك الكرامات والعلوم لأئمتهم.

(12) دبليو. ميدلونج، موقف الزيدية من التصوف، ضمن كتاب (تحرير) اف. دي يونغ (و) بي. رادتك. التصوف الإسلامي بوصفه محل خلاف. (ليدن: كي. جيه بريل. 1999م) الصفحات124 - 144. وكذلك. محمد عزيز. التصوف في تاريخ اليمن الوسيط: حالة أحمد بن علوان (أطروحة دكتوراه غير منشورة - جامعة ميشجن. آن اربور. 2004م) الصفحات203 - 207 (ضمت هذه الرسالة موخرا تحت عنوان. الدين والتصوف في المرحلة الباكرة للإسلام. اللاهوت و التصوف في اليمن. توريس أكادمك ستديز. ابريل 2011م - المترجم)

(13) ايه. كنيش. التصوف الإسلامي مقدمة تاريخية (ليدن. كي. جيه. بريل 2000م). ص251.

(14) تقع حالياً ضمن المملكة العربية السعودية لكنها كانت في السابق ضمن عسير وقد الحقت هذه المنطقة بالسعودية بعد أن كانت مع جيران حرب مع اليمن

(15) آر. إس. اوفاهي. الولي الغامض: أحمد بن إدريس و التراث الإدريسي. إيفانستون آي. إل. منشورات جامعة الشمال الغربي. 1990م) الصفحات

دعويا ومؤثرة سياسيا في المناطق الشرقية والشمالية من أفريقيا.[16]

ويحق لنا أن نسأل هنا عن الوقائع السياسية والاجتماعية في التاريخ اليمني التي حالت دون تطور موازٍ في اليمن وفي جنوب الجزيرة العربية؟! إننا نحتاج إلى بحث مستفيض حتى نجيب على هذا السؤال المثير للاهتمام.

اليمن تواجه واقعا جيو - سياسيا جديدا:

قبل أنْ نناقش الموروث الفكري والثقافي للتصوف اليمني خلال العهد العثماني علينا أن نحاول فهم دواعي توسع السلطة العثمانية في المناطق الجنوبية والشمالية من البلاد. لقد سبق الاحتلال العثماني لليمن في القرن العاشر والحادي عشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين حملاتٌ عسكريةٌ للقوات المملوكية الغازية من مصر. ولقد كانوا يخضعون بعض المناطق اليمنية على طول ساحل البحر الأحمر لسلطتهم، بل وصلت بهم الحال إلى احتلال جزء من مناطق الصيد فيه. حتى جاء العثمانيون المنتصرون فطردوهم، وألزموهم الولاء لهم في آخر الأمر، وذلك سنة 945هـ/1538م[17]. ولقد حفز العثمانيين لذلك خطرُ انتشار البرتغاليين في الهند، وفي المحيط الهندي، وفي البحر الأحمر[18]، وقد كانت الشائعات رائجة عن الهجمة المزمعة التي سيقوم بها البرتغاليون على المدن الإسلامية المقدسة في الجزيرة العربية، وكان من شأن هذه الإشاعات أنْ وفرت المبرر الأيديولوجي المناسب للغزو العثماني للبلد[19]. لقد كانت الأوضاع السياسية في اليمن عشية الغزو فوضوية بكل المقاييس: فالمناطق الشمالية وتهامة كانت غارقة في حروب مدمرة بين الفصائل السياسية والعسكرية المتعادية. وقد كان اللاعب الرئيسي المهم في تلك الفترة هو الدولة السُّنية الطاهرية بقيادة سلاطينها (858هـ/1454م - 923هـ/1517م)، والتي ضعفت، بصورة كبيرة، بسبب صراعاتها المميتة خلال العقود الماضية. وكان على رأس أولئك السلاطين السلطان عامر بن عبدالوهاب آخر حاكم مستقل للدولة، الذي كان يقيم في المدينة الساحلية زبيد، ويشن حروبا غير منقطعة على القبائل الزيدية في وسط المرتفعات الجبلية وشمالها. ومن جانبها، حاولت القبائل الزيدية بقيادة أئمتهم المحاربين أنْ يغتنموا فرصة ضعف الدولة الطاهرية في منطقة الساحل التهامي ليقوموا بتوسيع نفوذهم خارج منطقة صعدة الجبلية التي يحكمون قبضتهم عليها.

وهنا يدخل في المشهد السياسي الممزق المرتزقة الباعثون للهلع أصحاب الطبيعة العنيدة من الجراكسة الذين أرسلهم المماليك إلى اليمن بذريعة حماية موانئ البحر الأحمر من الهجمات البرتغالية المرتقبة. وقد كان هؤلاء الجراكسة، بدورهم، ضمن الفرق المختلفة الأعراق التي كانت منتظمة في سلك الإمدادات العسكرية العثمانية غير النظامية وضمن المرتزقة الذين عرفوا باسم « ليفند »[20]، وقد كان هؤلاء القراصنة (أو عسكر الحظ) مرتبطين، بصورة مبدئية، بالأرض الساحلية في تهامة، غير أنّ قادتهم المغامرين كانوا متحمسين لاجتياح الأجزاء الأخرى من اليمن، إنْ تهيأت لهم الظروف. وكان القتال الشرس بين هذه القوى المتعادية هو الملمح البارز للوضع السياسي والاجتماعي في اليمن عشية الغزو العثماني، إلى أن توّج ذلك الصراع بمقتل السلطان عامر بن عبدالوهاب سنة (923هـ/1517م) قرب صنعاء، وهزيمة قواته على يد جيش مؤلف من المرتزقة والجراكسة والفرق غير النظامية المعروفة بـ« ليفند »[21]. وبعد ذلك بفترة قصيرة، وصلت أخبار الغزو العثماني لمصر فأعلن

(16) كنيش، التصوف الإسلامي، ص250 وما بعدها.

(17) محمد النهروالي، البرق اليماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سيد عبدالفتاح عاشور ومحمد مصطفى زيادة، مجلدان، (القاهرة، دار الكتاب العربي، 1968م)، مج2، ص684 وما بعده.

(18) آر. بلاكبرن، عهد الإمام شرف الدين يحيى وابنه المطهر (القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي) ضمن: اليمن محدثًا، الجزء 42 (2000م)، ص4.

(19) حسين عبدالله العمري، تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، (بيروت ودمشق: دار الفكر، 1997م) الصفحات 11 - 14.

(20) lewend لعل أصل هذه اللفظ الكلمة الإيطالية "levantino" وهو عبارة عن مصطلح استخدم للفرق غير المنتظمة والبحارة من العثمانيين. ينظر: جيه. اتش. كرامرز (و) دبليو. جيه. جريسوولد. في (EI2 دائرة المعارف الإسلامية ط2).

(21) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، المجلد الثاني، ص654 - 655.

المنتصرون ولاءهم للسلطان العثماني. واتسم العقدان اللاحقان بالتوسع المطرد والمصمم للأئمة الزيديين تحت القيادة المقتدرة للإمام والعالم الزيدي الذي يحظى باحترام فائق: شرف الدين يحيى وابنه الأكبر المطهر القائد العسكري المحنك.

وعندما وصلت الحملة البحرية العثمانية الأولى سنة 945هـ/1538م إلى الساحل اليمني، كان شرف الدين وابنه يسيطران، بصورة فاعلة، على قلب البلاد باستثناء المدن الساحلية القليلة التي كانت لاتزال تخضع لحكم الجراكسة المرتزقة تحت إمرة قادتهم العسكريين (الأمراء). ولم يكن الأئمة مع قبائلهم المجندة يوازون الفرق العثمانية المدربة بصورة جيدة، والتي استفادت من كونها مجهزة بالأسلحة النارية التي لم تكن معروفة في اليمن. وقد دُحِر الأئمة الزيديون مع مؤيديهم من القبائل، في نهاية المطاف، إلى المنطقة الجبلية التي يحكمون السيطرة عليها تاركين البلد في أيدي العثمانيين وأحلافهم المحليين. ومع ذلك، فإنّ حكام اليمن من العثمانيين قد أخفقوا في أن يقضوا قضاء نهائيا مبرما على الدولة الزيدية. وكان من شأنها أنْ أصبحت قاعدة لمقاومة العثمانيين في القرن اللاحق. هذا، وقد استمر الاحتلال العثماني لليمن من سنة 940هـ/1538م حتى سنة 1045هـ/1636م. وبعد خروج العثمانيين أصبح الجزء الشمالي من اليمن تحت الحكم الزيدي مرة أخرى.

أمّا بخصوص المناطق الساحلية من جنوب الجزيرة العربية، فلم يكن العثمانيون قادرين على تثبيت حضور دائم لهم (إنْ كانوا قد فكروا في ذلك فعلا)، ولم يبسطوا سيطرتهم المباشرة على الموانئ ذات الأهمية الإستراتيجية على السواحل العربية الجنوبية. غير أنّهم استطاعوا، مع ذلك، أنْ يحظوا بنفوذ غير مباشر عن طريق الحكام المحليين الذين اعترفوا بنفوذهم مقابل دعم عسكري وامدادي « لوجستي». وقد وصل النفوذ العثماني في حضرموت وظفار ذروته خلال حكم السلطان الأكبر لقبيلة الكثيري: بدر بن عبدالله المكنى ببدر بو طويرق، الذي كانت لديه الرغبة في أنْ يبسط سيطرته على بلده الهائج حتى يتسنى له أن يخمد ثورات أقاربه المتعددين وثورات القبائل المحلية[22]. وقد استفاد بدر من الدعم العثماني ليتمكن من القضاء - دونما رحمة - على كل القوى المعارضة له بمن فيهم أخوته وبنو عمومته حتى استطاع، في نهاية المطاف، أن يُدْخل معظم حضرموت وظفار تحت حكمه. وفي سنة 942هـ/1535م استطاع جنوده المجهزون بالأسلحة النارية (التي زوده بها العثمانيون مقابل تعهده بالولاء للباب العالي) مقاومة الحملة البحرية التي شنها البرتغاليون على مدينة الشحر الساحلية، وقتلوا منهم أعدادا من لصوص البحر واستولوا على أربعين سفينة من سفنهم. وفي سنة 944هـ/ 1537م أمر بدر - وهي المرة الأولى في تاريخ الجزيرة العربية - أن يُذاع اسم السلطان سليمان العظيم (الأول) في خطبة الجمعة. وهو الحدث الذي يشير إلى المدى البعيد الذي وصل إليه النفوذ العثماني في الشؤون الحضرمية، وإنْ كان بالوكالة المحلية[23].

وليس من شأني هنا أنْ أفصِّل القول حول التاريخ السياسي والعسكري لليمن وجنوب الجزيرة العربية خلال العهد العثماني، وما فعلته هنا، ببساطة، هو تقديم خلفية عامة لما سأناقشه من تراث شيخين صوفيين شاعرين عاشا في هذا العصر المضطرب. ولقد اخترت هذين الصوفيين اليمنيين: لأنّ عمليهما وحياتيهما، من وجهة نظري، انعكاس ملائم لروح تلك الفترة المضطربة من تاريخ اليمن. وبالإضافة إلى ذلك، فإن في جعلي لهذين الفنانين محورا لدراستي ما يتيح لي أن أبحث وراء معطيات كتب التاريخ الرسمية وشبه الرسمية التي تستحوذ على أذهان مؤلفيها البطولات العسكرية لحكام البلد، والحوادث العجيبة، والكوارث

(22) لمعرفة التفاصيل عن حياته ينظر التوثيق المتعاطف معه الذي كتبه محمد بن هاشم في كتابه: تاريخ الدولة الكثيرية، تحقيق محمد علي الحجري محمد بن (القاهرة، دار الكتاب العربي، 1948م)، مج1 الصفحات 43 - 54 وكذلك سعيد عوض باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي (عدن، مكتبة الثقافة، 1975م)، ص119 - 134. ومن أجل تقييم أكثر توازنا لحركته وسياسته ينظر: الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، ط3، [illegible] 1994م)، مج1، الصفحات236 - 243

(23) محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، مج1 الصفحات 43 - 46، وبعدها وكذلك، إن. ايفانوف، الغزو العثماني للبلاد العربية 1516م - 1574م، ط2 (موسكو فستوشنايا ليتراتورا، 2001م) الصفحات 212 - 216

الطبيعية، ومؤامرات البلاط. وسوف أحاول أن أوضح، خلال هذه الفترة، قيد المناقشة، التعاليم الصوفية وأسلوب الحياة الصوفي من حيث كونهما يقدمان بديلاً أقوى لتلك الروح العسكرية والفساد واللهاث بلا ضمير من أجل السلطة، تلك الصفات التي اتسم بها المجتمع اليمني خلال ذلك العصر.

عبدالهادي السُّودي: الشاعر وعاشق القهوة

ولد عبدالهادي السُّودي (الهادي السُّودي) حوالي 860هـ/1455م في صنعاء[24] لأسرة أنجبت العديد من العلماء والأولياء المشهورين[25]، وقد قدر له بفضل موهبته الشعرية الاستثنائية أنْ يكون أشهرهم جميعا. وبعد دراسته علوم القرآن على يد أبيه الذي كان من أهل العلم انتقل إلى مدينة حَرَض[26] في الشمال الغربي من تهامة، حيث حالفه الحظ ليدرس الحديث على يد أحد المُحدّثين المشاهير في اليمن ويدعى يحيى الأميري[27]، وقد تابع دراسته للحديث في مكة والمدينة ليكون مرجعاً معتمداً في هذا الموضوع عند عودته إلى بلده وإقامته في صنعاء وتعز[28]. وطبقاً للعرف السائد في زمنه، فقد درس النحو والشعر والبلاغة؛ بيد أنّه كان مولعاً بالشعر والأدب الصوفي. وقد احتوت مكتبته في تعز على الكتب الصوفية الأساسية كرسالة القشيري إلى جانب أشعار ابن الفارض وعفيف الدين التلمساني[29] المثيرة للجدل لانطوائها على مقولة «وحدة الوجود». وكما سنرى، فإنّ أسلوب السودي وصوره الشعرية في القصائد التي كان يكتبها تظهر معرفته العميقة وافتتانه بأفكار مدرسة ابن عربي الصوفية التي كان التلمساني من اتباعها المرموقين بل المثيرين للجدل[30].

ويرجع شغف السودي بالتصوف إلى أيام إقامته في البقاع الإسلامية المقدسة، حيث درس على يد مشايخ صوفيين عديدين، وحيث ألبس خرقته الصوفية الأولى تبعاً للطريقة القادرية. فأصبح، لاحقاً، ناشراً مجتهداً للسلسلة القادرية التي أوصلها إلى تلامذته وإلى أصدقائه العديدين[31]. وتُظهِر رسائله إليهم، على نحو جليّ، بأنّ الشيخ عبدالقادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية قدوته ومرشده الأول في أمور التصوف، وإنْ كان يقرّ بمرجعية مجاميع الصوفية الآخرين[32]. وقد أبان سلوكه الشخصي عن رغبته العارمة في العيش طبقاً للمُثُل الصوفية. فعند موت والده ورث السُّودي عنه مالاً وفيراً من الأراضي وما يقرب من خمسين عبدوجارية، غير أنّ هذا الشاب تصدق بالأراضي وأعتق العبيد والجواري حتى «يفْرُغ لله تبارك وتعالى متجرداً من كل شيء سواه»[33].

وخلال ما تبقى من حياته قضى السُّودي جل وقته منهمكاً في التأملات الصوفية، وفي تربية المريدين، وفي السماع الصوفي، وظل مواصلاً كدّه في التربية الصوفية، ولم يفوّت فرصة في الدراسة على يد مشايخ الصوفية المرموقين في عصره. وتذكر المصادر عددا من الرُبُط الصوفية التي أقام فيها ليستفيد من حكمة المرابطين فيها من أهل التقوى. ومن ناحية أخرى لم يألُ السودي جهداً في أنْ يوصل السلسلة القادرية إلى أقرانه ومريديه من أهل بلده الذين نشروها في كلّ ربوع الجزيرة العربية بل أوصلوها إلى مصر[34].

وقد أضحى إفصاح السُّودي عن نزوعه الصوفي في آخر عمره أكثر من ذي قبل حتى طغى على اهتماماته الأخرى. وفي هذا الصدد، يتعرض مؤرخو سيرته لهجره تدريس علوم الظاهر كالحديث والفقه

(24) يجادل بعض الباحثين بانه ولد في تهامة؛ وهي البلد التي تنتمي إليها عائلته المعروفة ببني سود. ومع ذلك، فإن من الراجح انه ولد في صنعاء او في إحدى ضواحيها، وقضى بقية حياته بين صنعاء وتعز التي توفي فيها سنة 932هـ/1525م. يُنظر: عبدالعزيز المنصوب، العارف بالله عبدالهادي السُّودي (بيروت: دار الفكر المعاصر، 1995م)، ص7 وما بعدها.

(25) للمزيد من التفاصيل ينظر: أبو العباس الشرجي، طبقات الخواص (بيروت: الدار اليمنية ودار المناهيل، 1986م)، الصفحات 274 - 277.

(26) من الواضح أنّ ما جعله ينتقل من صنعاء، أو ما سرّع في انتقاله منها هو موت والده.

(27) المنصوب، العارف بالله عبدالهادي السودي، ص48.

(28) نفسه، الصفحات390 - 392 - 403 - 404، وغيرها.

(29) نفسه، ص410.

(30) لمزيد من التفصيل ينظر ملحق كتابي عن ابن عربي، ما ورد عن مادة «التلمساني».

(31) المنصوب، العارف بالله عبدالهادي السودي، الصفحات396 - 399.

(32) نفسه، ص 56 وما بعدها.

(33) نفسه، ص388.

(34) نفسه، ص51.

حتى يفرُغ، بصورة كاملة، للسماع الصوفي، وللتأمل العرفاني، ولإرشاد المريدين. ويدل على إعراضه عن متاع الدنيا وزهده في الوصول إلى مكانة عالية في المجتمع رفضه المتكرر للعرض المقدم له بتولي قاضي قضاة تعز من قِبَل الحاكم الطاهري المستقل والأخير عامر بن عبدالوهاب. وحتى يتحاشى السودي اهتمام السلطان به فقد اعتزل في كوخ مهلهل البناء قبالة بيت مفتي تعز الشرف بن وهب الذي كان يعيره كتباً من مكتبته العامرة. وبعد أن احترق الكوخ في حادث عرَضيّ انتقل السُّودي إلى مقبرة المدينة حيث سكن في زاوية بالقرب من مدرسة التقوية بتعز. وقد قضى بقية حياته هنالك ينشر تعاليمه الصوفية بين مريديه الذين بلغ عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر مريدا (وهو رقم رمزي يطابق عدد المقاتلين المسلمين الذين كانوا مع النبي محمد في غزوة بدر)، إلى جانب شربه للقهوة، وسماعه للأناشيد والتضرعات الصوفية.

ويلخص مؤلف كتاب «النور السافر» - وهو مجموع شهير في سير الصوفية - مسار حياة السُّودي على النحو الآتي: «كان من العلماء الراسخين، والأئمة المتبحرين، درّس وأفتى، ثم طرأ عليه الجذب، وصدرت منه أمورٌ تدلّ على أنّه من العارفين بالله»[35]. ويؤكد عبدالرحمن الرفيدي التلميذ المقرب من السُّودي انسحابه من المجتمع وعزوفه عن تدريس علوم الظاهر بقوله: «ثم ارتفع شيخنا عن ذلك المحل إلى مدرسة التقوية، وظهرت عليه الكرامات العلية وصفات الجمال والجلال قوية، وتستر عن الأغيار، يرقى بثواقب رمي كواكب الأسرار»[36].

وما كتب عنه القاضي والمصلح اليمني محمد بن علي الشوكاني (ت 1250هـ/1834م)[37] بعد ذلك بقرون أقل سخاء مما كتب قبله؛ ويدل على ذلك استشهاده بالإمام العالم الزيدي العظيم شرف الدين يحيى (ت965هـ/1555م) الذي عزا الجذب الصوفي لدى السُّودي وانسحابه من المجتمع حتى نهاية حياته إلى إفساد القات له. وهي عبارة تقتضي أخذها وفقاً لخلفية شرف الدين (وكذلك الشوكاني) ذات التوجه السلبي إزاء الصوفية والتصوف بصورة عامة[38].

وعقب انتقال السُّودي إلى زاوية بالقرب من مدرسة التقوية اعتاد على الدخول في غمار نشوة تأمل ينظم خلالها شعره الصوفي ذا الصبغة الإلهامية. وكان - كما روي عنه - يكتب على جدران حجرته بقطعة من فحم، فإذا أفاق سارع إلى محو ما كتب. وعندما اكتشف طلابه ذلك كانوا يبادرون إلى كتابة أشعاره قبل أن يفيق من نشوته تلك. وبهذه الطريقة، كما تحكي القصة، استطاعوا جمع قدْرٍ معتبر من قصائد السُّودي التي حظيت، بعد ذلك، برواج بين معاصريه. وظلت تُنشد في المجالس الصوفية في اليمن حتى يومنا هذا. ومن الطرائف التي تحكى، أيضا، أنّ بعض المنشدين أنشد بين يديه قصيدة من نظمه في أحد المجالس الصوفية. فطرب لها السودي، ثم سأل عن قائلها. فقيل له: إنّها من نظمك، فأنكر ذلك، وقال مردداً منزعجاً: حاشا ما قلتُ شيئا، حاشا ما قلتُ شيئا[39].

ولم يكن السماع الصوفي هو الشيء الوحيد الذي أولع به السُّودي فقد كان مغرما جدا، أيضا، بالقهوة وبالقات. وقد قيل إنه كان يستهلك كميات كبيرة منهما. وقد كانت تلك النبتة وذلك الشراب لا يزالان جديدين نسبيا على المجتمع اليمني،[40] وكان تناولهما محل جدل عريز بين

(35) عبدالقادر العيدروس، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تحقيق: أحمد حلو، ومحمود الأرناؤوط، وأكرم البوشي (بيروت: دار صادر، 2001م)، ص213.

(36) المنصوب، العارف بالله عبدالهادي السودي، ص411.

(37) انظر عن الشوكاني: بي. هايكل، الإحياء والإصلاح في الإسلام: تراث محمد علي الشوكاني (كامبردج: منشورات جامعة كامبردج، 2003م).

(38) دبليو. ميدلونج، موقف الزيدية من التصوف، الصفحات 136 - 138.

(39) عبدالقادر العيدروس، النور السافر، ص216.

(40) عرف المجتمع اليمني القهوة - طبقا لإحدى الأساطير المحلية - عن طريق الشيخ الصوفي علي بن عمر الشاذلي (ت821هـ/1418م أو 828هـ/1425م) دفين المخا. ينظر حول ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر [illegible] صلحاء اليمن (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني [illegible]، 1983م)، ص261. وترجع أسطورة أخرى ذلك إلى ولي [illegible] بكر العيدروس (ت. 914هـ/1508م). ولمعرفة [illegible] ظهور القهوة في اليمن وارتباطها بمنابع الطريقة الشاذلية [illegible] إي. جيوفري، «انتشار القهوة في الشرق الأوسط [illegible] الأسطورة والواقع»، ضمن كتاب من (تحرير) [illegible] المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 2001م)، ص8 - 16. [illegible] لانتشار القهوة في اليمن عن طريق الحسنة (في [illegible] الهجري/ السادس عشر الميلادي) [illegible]

علماء البلد[41]. أما عن ولوع السودي بالقهوة فقد وصل إلى حد الهوس كما وصفت المصادر التاريخية، وهو الأمر الذي حدا بالإمام شرف الدين أن يدلي بملاحظته الآنفة الذكر. ونقل عن هذا الشيخ الصوفي - السُّودي - أنه كان دائما ما يضع أمامه قدرا كبيرا مليئا بالقهوة المخمرة الطازجة، وكان لحرصه على إبقائها دافئة لا يتردد في أن يرمي إلى النار أيّ شيء في متناول يده بما في ذلك الهدايا الغالية التي يحضرها محبوه إلى زاويته. وثمة أسطورة تقول بأنه أحرق ثوبا ثمينا أهداه إياه السلطان الطاهري عامر بن عبدالوهاب، وبعد سماع السلطان بهذا العمل الطائش من الشيخ غمرته موجة غضب فطلب أن تُعاد هديته، وعندما رجع رسل السلطان إلى الزاوية لأخذ الهدية أدخل الشيخ يده إلى النار واسترد الثوب وهو سليم على هيئته التي كان عليها. وعندما كان السُّودي لا يجد مادة مناسبة لإبقاء النار متقدة تحت إناء القهوة[42]، كان يستخدم رجله لإيقادها[43]، وتظل رجله - بما يخرق العادة - سليمة!. وصار ولوع السُّودي بالقهوة الداكنة مثلا سائرا، كما يمكن للمرء أن يستشف ذلك من هذه الأبيات التي نظمها الشيخ عبدالمعطي بن حسن باكثير:

قهوة البنّ جلّ مقصودي
في الخفا والعلنِ
هام فيها إمامنا السُّودي
قطب أهل اليمنِ
وطبخها بالندّ والعودي
وبغالي الثمنِ
من ثيابِ حريرٍ مع قطنِ
فاخر الملبسْ
وبذاكم خوارقٌ تثني
عليه لم تَدْرُسْ[44]

وتُصور القهوة مع القات بصورة رائقة في سيرة السُّودي. فنراه يقدم إناء من قهوة القات لزائر أتاه باحثاً عن المعرفة، فما يلبث الزائر إلا لحظاتٍ حتى يَخْبُرَ حالاً من الإشراق الصوفي.[45] ويبدو فعل الشرب من الشراب المطبوخ من القهوة أو القات بيد الشيخ جزءا من فعل التلقين عنده؛ فهو يرمز إلى إدخال المريد إلى طريقته وضمه ضمن سلسلته. ويعزز هذا الانطباع قصةٌ كان شُرْبُ القهوة فيها مصحوباً بهذه الصيغة المسجوعة: « اشربْ شُرْبَ أسرار المعارف والتفريد، وسيُفتح لك عن حقائق التوحيد »[46]

وعلى مستوى آخر، لم تكن علاقة السُّودي مع السلطات الدنيوية في زمنه مستقرة. ورغم أنّ الحاكم الطاهري عامر بن عبدالوهاب قد خرج عن عادته فأغدق عليه - طمعا في تأمين ولائه - بالهدايا النفيسة، بل عرض عليه وظيفة قضاء مدينة تعز[47] عاصمته الصيفية[48]، - فإنّ السودي آثر أن لا يتدخل في شؤون الدولة. بيد أنّ السودي - كونه مرجعا دينيا مهما في السلطنة الطاهرية - لم يستطع أن يظل دائما بعيدا ؛ فلقد دعاه الناس، على الأقل، مرة واحدة

(41) عدهما بعضهم من المسكرات و راى تحريمهما، وراى البعض الآخر انهما من المباحات. ينظر حول ذلك. إي. جيوفري. انتشار القهوة. الصفحات 11 - 14. وكذلك. عبدالكريم رفيق. «المضامين الإجتماعية والاقتصادية والسياسية لدخول القهوة إلى سوريا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر» ضمن كتاب من (تحرير) إم. تشوشرر تجارة القهوة. الصفحات128 - 132 وما بعدها. وكذلك. عبدالله محمد الحبشي «ادب القهوة في التراث اليمني» ضمن كتاب. دراسات في التراث اليمني (بيروت دار العودة. 1977م). الصفحات 127 - 156.

(42) عمق الإناء قدمان. كما ورد في كتاب: المنصوب. العارف بالله عبدالهادي السودي. ص417.

(43) العيدروس. النور السافر. ص216.

(44) لا تدرس اي « لا تمحى من الذاكرة». العيدروس. النور السافر. ص217. وقد كانت القصائد في مدح القهوة والقات شائعة جدا في ذلك العصر، ولم تكن محصورة في إطار المجتمع اليمني المسلم. ومن امثلة ذلك قصائد الشاعر اليهودي اليمني سالم الشبزي في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي التي تقدم وصفا حيا للتنافس بين الشرابين. ينظر حول ذلك. عفيفة كلاين فرانكا. «يهود اليمن» في الكتاب الذي حرره دبليو. داوم. اليمن ثلاثة آلاف سنة من الفن والحضارة في العربية السعيدة (انسبروك بحوث وفرانكفورت/ امشاو للنشر - 1987م). الصفحات 280 - 297.

(45) يقول احد زائريه: « وناولني إناء ملآناً من قهوة القات، وقال: اشرب. فشربته جميعه فحين استقر في بطني، اشرق لي نورٌ وحالٌ لم تثبت له البشرية». المنصوب. العارف بالله عبدالهادي السودي، ص416 وانظر كذلك ص26 وص29 ومن أجل معرفة مزيد من التفاصيل عن نوعي القهوة انظر: آر. هاتكس. القهوة والمقاهي: اصول مشروب اجتماعي في التاريخ الوسيط للشرق الأوسط. ط2 (سيتل: منشورات جامعة واشنطن. 1991م) ص14 - 19.

(46) نفسه. ص429.

(47) نفسه. ص407 - 408.

(48) كان السلطان يقيم مع حاشيته خلال فصل الشتاء في زبيد. وقد ذكر ذلك ابن الديبع في كتابه: بغية المستفيد. بتحقيق: عبدالله الحبشي (صنعاء. مركز الدراسات والبحوث اليمنية. 1979م) في صفحات عديدة.

ليكبح جماح هذا الحاكم، وذلك عندما رفض عامر بن عبدالوهاب أنْ يطلق سراح أبناء الأشراف الذين كان يحتجزهم رهائن في قصره لكي يأمن من ولاء القبائل لهم، وفي الآن نفسه كان السلطان يحتجز نصف أوقاف المدينة لكي يموّل حملاته العسكرية. واستجابةً لطلب أعيان المدينة تدخلّه أرسل السُّودي رسولاً إلى السلطان يسأله أن يطلق سراح الرهائن الأشراف وأن يرجع الأموال المحجوزة لصالح المدينة. وبعد أن رفض السلطان أن يستجيب لوساطته ثلاث مرات، قيل إن السُّودي أعلن قائلا: « اعلموه (أي السلطان) أننا قد أذنا لدولة الروم (الدولة العثمانية) أن يدخلوا اليمن»[49] فما هي إلا سنوات قليلة حتى هُزم السلطان وقتله الغزاة من المماليك الذين تعهدوا بالولاء للدولة العثمانية. وبموت عامر بن عبدالوهاب كانت نهاية الدولة الطاهرية بوصفها كيانا سياسيا مستقلا تحقيقا لنبوءة الشيخ.

ويُظهِر السرد التاريخي لحياة السُّودي إقراره الواضح للإحتلال العثماني المحتمل. وقد تعكس قصص الخوارق هذه التوقع الشعبي الذي كان شائعا بين اليمنيين بأن الحكم العثماني القوي سوف يضع حدا للفوضى وللحروب المشتعلة بين القبائل والحكام التي كانت تعم البلاد في بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي[50]. ويؤكد كاتبو سيرة السودي بأنه كان يحظى باحترام حاكم تعز العثماني الأول يوسف بن سنقور، الذي تبرع بحمل ثلاثة جمال من الملابس لزاوية السودي، وهذا التصرف ينسجم تماما مع المواقف المتعددة الأخرى التي يظهر بها الحكام العثمانيون داعمين لمشايخ الصوفية المحليين ولأضرحة الأولياء الشعبيين. [51] وقد يُنظر إلى هذا التوجه بوصفه تعبيرا عن تقديرهم للتوجه الصوفي عامةً السائد في بلدهم الأم، أو على نحو آخر، بأنه جاء نتيجة لفهمهم البرجماتي (النفعي) أن الصوفية السنة موالون، بصورة طبيعية، لنضالهم ضد الأئمة الزيديين ذوي الشخصيات المؤثرة والشعبية في المرتفعات الجبلية شمال اليمن.

وفي الوقت نفسه، نجد أن بعض كتاب سيرة السودي يوردون أن علاقةَ صداقة كانت تربطه بعبد الملك أخي عامر بن عبدالوهاب[52]، على الرغم من أن التأكد من صحة هذه الدعوى غير ممكن لاسيما إنْ نحن ربطنا ذلك بالدعوى التي زعمت بأن هذا الأمير الطاهري قد أمر ببناء قبة على ضريح السودي - وهذا مستحيل من حيث التسلسل التاريخي.

وبالجملة فإن علاقات السودي بالحكام كانت غامضة وأحيانا متوترة. وقد كان السودي يتجنب مصاحبتهم، في حين أنهم كانوا يلتمسون إقراره لهم أملاً في الاستفادة من سمعته بوصفه ولياً من أولياء الله. ومن الناحية العملية، فإن انحسار علاقة السودي مع السلطات الحاكمة كان مبررا، فقد تعاقب على السلطة خلال حياته الكثيرون على مدى فترات متعددة؛ ولهذا فقد كانت دواعي الحصافة تقتضي منه أن لا يربط نفسه بأيٍّ من أدعياء السلطة الكثيرين.

شعر السُّودي:

يتوفر اليوم من تراث السودي مجموعتان شعريتان يتضمنان قصائد باللغة العربية الأدبية وباللهجة اليمنية. وتضم إحدى هاتين المجموعتين قصائد من ذوات القافية الواحدة، وهي مصوغة في جملتها وفقاً للأوزان العربية الكلاسيكية، ويشار إلى هذا النوع من الشعر في النطاق الثقافي اليمني بصفة « الشعر الحَكَمي»[53] أمّا شعر السودي العامي - الذي كان ومازال مفهوما لعامة الناس بمن فيهم غير المتعلمين - فهو الذي كفل له شعبية دائمة في اليمن[54]؛ بيد

(49) المنصوب العارف بالله عبدالهادي السودي، ص413 والصفحة التالية.
(50) إيما نوف، الغزو العثماني، ص111، والصفحة التالية لها، ص118 في مواضع متعددة.
(51) انظر على سبيل المثال: شمس الدين عبدالصمد الموزعي، الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت عدالة آل عثمان (بيروت وصنعاء: دار التنوير، 1986)، ص 109 والتي تليها، وص151 والتي تليها، وص182 والتي تليها.

(52) المنصوب، العارف بالله عبدالهادي السودي، ص462.
(53) محمد عبده غانم، شعر الغناء الصنعاني (صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، 1973م) ص41 - 49
(54) لم يقتصر تأثير السودي على مدينته الأثيرة [illegible] حظيت بشعبية واسعة بين السادة من آل أبي علوي في حضرموت [illegible] المنصوب، العارف بالله عبدالهادي السودي، ص436

أن المفارقة تكمن في أن المؤرخين اليمنيين يفضلون أن يقتبسوا قصائده (الحكمية)، ولا يولون الجانب العامي من موروثه الشعري إلا اعترافا قليلا. ولعل ذلك يرجع إلى تعاليهم الثقافي الذي يمنعهم من الاعتراف بالرغبة الشعبية العريضة في الشعر (الحُميني)؛ ولعلهم هم أنفسهم كانوا يستمتعون به في السر. ويتحدث صاحب «النور السافر» عن شعر السُّودي دون أنْ يحدد أي الصنفين كان حاضرا في ذهنه [55]، فيقول: « وعلى نظمه قبولٌ عجيبٌ، وفيه تأثيرٌ غريبٌ، فإنّه السهل الممتنع يفهمه كلّ أحد مع متانة عبارته، وتتأثر به الناس غالبا. ويكثر عليه وجد المتواجدين، بل قيل إنه فارضيّ اليمن، وهو رقيقٌ جداً، تقبله الطباع ويفهمه الخاص والعام، ويذكر الأوطان، ويهيّج الأشجان، فهو في رقته يشبه كلام التلمساني والحاجري رحمهما الله»[56]. ولا غرو أنْ تُعقد المقارنة بين شعره وشعر التلمساني طالما أن السُّودي كان شغوفا بالإصغاء إلى شعر التلمساني وهو يُنشد، حتى أنه كان في بعض الأحيان يدخل في حالة نشوة من أثره.[57] وبالإضافة إلى أشعار التلمساني فقد كان السودي على صلة وثيقة بأشعار صوفية اليمن؛ كشعر أحمد بن علوان (ت665هـ/1266م)[58] وأبي بكر العيدروس، وبأشعار صوفية المغرب؛ كشعر أبي مدين شعيب (ت 594هـ/1197م) وابن عربي (638هـ/1240م) والششتري (ت668هـ/1269م). ولاشك في أنّ صورهم الشعرية، وأعرافهم الاصطلاحية، ورؤيتهم

(55) تضمن سرده اللاحق عنه قطع طويلة من الشعر الحكمي مع ذكر لبيتين أو ثلاثة من شعره الحميني في بعض المواضع.

(56) العيدروس، النور السافر، ص217 - 218. لم استطع التعرف على هوية الحاجري المذكور هنا. (على الأرجح ان العيدروس يقصد حسام الدين عيسى بن سنجر الأربلي المعروف بالحاجري (582هـ - 632هـ). وهو شاعر رقيق الغزل كثير الأشواق واللوعات له ديوان شعر طبع في القاهرة سنة 1305هـ. وقد ضم ديوانه فن القصيدة التقليدية والموشح والمسمط والدوبيت والمواليا. وبين شعره وشعر السودي وشائج لا تخطئها العين. لمعرفة المزيد عن حياة الحاجري يمكن الرجوع إلى ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: د. إحسان عباس، مج3 (بيروت: دار صادر، 1972م) ص501 وما بعدها. ولمزيد من التفاصيل عن شعره ومكانته في الشعر العربي يمكن الرجوع إلى: د. ناظم رشيد شيخو، حسام الدين الحاجري الأربلي حياته وشعره، (بغداد: مجلة آداب المستنصرية، العدد 10، 1984م) ص251 - 279 - المترجم)

(57) المصوب، العارف بالله عبدالهادي السودي، ص410.

(58) لمعرفة المزيد عنه يمكن الرجوع إلى محمد عزيز، التصوف في تاريخ اليمن الوسيط: حالة أحمد بن علوان (أطروحة دكتوراه: جامعة ميشجن، ان اربور، 2004م).

الصوفية للعالم قد شكلت أسلوبه الشعري، كما تُظهر الأبيات الآتية:

يا ليت شعري هل أرى بعيني
سيد الملاح
اقصى مرادي منتهى شجوني
طب الجراح
قد صار حبه ملتي وديني
سري مباح
ما لي وللعذال خلي أنفع
لا ما أتوب[59]

وهذه القصيدة ترجّع صدى أبيات ابن عربي الشهيرة، التي يقول فيها:

أدينُ بدينِ الحبِّ أنَّى توجَّهتْ
ركائبُهُ، فالحبُّ ديني وإيماني[60]

وكما في « ترجمان الأشواق» لابن عربي فإن روح الشاعر تهفو نحو المحبوب الإلهي؛ ميممة صوب مركز الجزيرة العربية[61] نحو البقاع الإسلامية المقدسة. ويتجلّى ذلك من خلال ذكر المواقع وإيراد أفعال الحركة عند كلا الشاعرين. و في حالة السُّودي يمكن لنا أن نقتبس الأبيات التالية:

قد حلّ من أهوى ربوع نجد
وأنا الغوير
ما حيلتي يا أهل الهوى وجهدي
جهدي حقير
ما لي شفيع إلا عظيم وجدي
ذاكْ لي نصير
والدمع من فوق الدموع أربع

(59) محمد عبده غانم، شعر الغناء الصنعاني، ص218.

(60) ار. نيكلسون، ترجمان الأشواق: مجموعة شعرية صوفية لمحيي الدين ابن عربي (لندن: الجمعية الأسيوية الملكية، 1911م) ص67. (بالإنجليزية).

(61) نفسه ص16، و ص17 (باللغة العربية).

جـــاري ســــكـــــوبْ[62]

وأياً مـا كان الرأي حول استلهام شعر الإنشـاد اليمني لشعر ابن عربي الصوفي وللموشح الأندلسي ونسجه على منوالهما، كما يجادل بعض الباحثين[63]، فإن الوشـائج الأسلوبية والموضوعية بينهما لا تخطئها العـين[64]. وعلى خلاف القصيدة ذات القافية الواحدة فـإن الموشـحة ذات قـوافٍ متعـددة، وفـي حـين أنّ القصيـدة تؤلف لغرض الإلقاء القرائي، فإنّ الموشـحة مصممَـة بصورة جلية لتُغنـى[65]. وفي حين أنّ الأبيات المقتبسـة آنفـاً تتكون مـن أربعة أبيـات كل بيت مكون من شـطرين بقافية واحـدة، فإن القصيـدة الحمينية اليمنية أكثر تعقيدا فـي بنائها، إذ هي تقوم على نظام الموشـحة المركّب الذي تتضمن دورتين لحنيتين يتألفان من ثلاثة أجـزاء متمايزة: البيت، والموشـح، والتقفيل. فهـي تفتتح بالبيت الذي يتكـون، في الغالب، من أربعة صفوف منشطرة أو مفردة، وتتفق قافية الصف الرابع مـع قافية الصفـوف الأخيرة فـي الأبيـات المتعاقبة. يعقب البيت التوشـيح الذي يتكـون من صفين أو ثلاثة صفوف منشطرة أو مفردة مع اتفاق في التقفية. ويأتي بعد التوشـيح التقفيل الذي يتكـون من نصف صفوف البيت ويتفـق معه فـي التقفيـة والوزن. وتطـال هذا البنـاء المعماري العام للموشـحة تنويعـات متعددة إلى درجة تستغني فيها بعض المقاطـع والأنماط عن هذا البنـاء كامـلاً، كما يظهـر ذلك بصورة جلية في شـعر السـودي[66]. وفي الوقت الذي يمكن فيه للموشـح أن يتبع الأوزان الكلاسـيكية، فإنه يجنح، في الغالب، نحو

(62) محمد عبده غانم، شعر الغناء الصنعاني، ص218.
(63) للاطلاع على أحدث محاولة لاثبات الأصل الأندلسـي للموشـح اليمني انظر: مارك وجنر، شعرية القصيدة الحمينية: اللغة والمعنى في الشعر العربي واليهودي العامي في اليمـن (اطرحة علمية غيـر منشـورة، جامعة نيويـورك، نيويورك، 2004م) الفصل الأول، وانظر ايضا: تي. روســن، « الموشـح» ضمن: آر. مينوكال وار شيندلن وام سلس (محررون) الأدب في الأندلس (كمبردج: منشورات جامعة كمبردج، 2000م)، ص165 والصفحة التي تليها.
(64) وقـد فطن الكتاب اليمنيون الناقدون لـ (تصوف وحدة الوجود) لهذه الوشـائج، انظر على سبيل المثال: العيدروس، النور السافر، ص552 - 556. وما يعقب ما ذكرنـاه عن هذا الموضوع افدنا فيه من مناقشـة مارك وجنر لخصائص الشـعر الإنشادي اليمني في الفصل الأول من اطروحته للدكتوراه.
(65) تي. روسن، « الموشح»، ص167.
(66) انظر: المنصوب، العارف بالله عبدالهادي السودي، الصفحات199 - 272.

أوزان تخرج على النظام الوزني الكلاسـيكي[67]. وعند تبنـي هـذا البناء، فإن ذلـك يقتضي أن يطـرد النمط الإيقاعـي بصورة دقيقـة جداً ليمنح الشـعراء فرصة سانحة «لإظهار براعتهم التقنية»[68].

وقد ظهر الموشح اليمني جنبا إلى جنب مع ظهور ما يدعى بالقصيدة الريفية التي ما لبثت أن حظيت برواج واسـع بـين الأميين وأنصاف البدو من سكان جنوب غرب الجزيرة العربية. ويجادل مارك وجنر بأنّ شعراء الحضـر أخضعـوا الخصائـص الأسـلوبية للقصيدة الريفيـة بصـورة متدرجـة لتتناسـب مع واقـع الحياة الحضريـة ومـع موضوعاتهـا. وهي التـي اتخذت في تراثها من شـعر الإنشاد نمطا مفضلا للتعبير. وخلال هذه العملية، أصبح الجنسان الأدبيان الفرعيان للشعر الحمينـي مترابطين بصورة وثيقـة. وقد وُضِع كلاهما مـن حيث المبدأ من أجل الموسيقى: ممّا أدّى إلى بروز ما يعرف بـ" الغناء الصنعاني" الذي بات يؤديه مغنون محترفـون في مناسـبات شـتى إبتداءً بأفـراح الزواج وانتهاء بجلسـات القـات[69]. ويؤدى الشـعر الحميني. أيضا، على نطاق واسع. في الحضرات الصوفية. وفي مجالـس السـماع الصوفي. وفي هذا الصـدد يتراءى شـعر السُـودي نموذجا لهذا التقليد: فغالبـا ما تكون أبياتـه الافتتاحيـة موجهةً إلـى المغنين والموسـيقيين. ودائما ما يذكر أدوات موسيقية تستخدم في جلسات السـماع الصوفـي الروحـي. ويأتـي في هذا السـياق تلميحاته إلى المؤدِّين المتوقَّعِين لما يؤلفه من شعر.

وتتنـوع المضامـين الموضوعيـة للشـعر الحمينـي علـى نحو بيّن. ويقيناً فإنها مستلهمة من الموضوعات التقليديةً للشـعر العربي الخاص بالغزل والخمريات. فالحب المضني الـذي لا يبادل فيه المحبوب محبه حبا بحب، والذي فيه يسكر المحبُ بجمال المحبوب غالبا ما يكثر لدى شـعراء الصوفية الذين يزدوج لديهم مصدر السماع.

(67) روسن، « الموشح»، ص167
(68) نفسه. ص168.
(69) محمد عبده غانم. شعر الغناء الصنعاني. [illegible]

ويمكن أن يفهم المستمع أنّ الحنين الممض للمحبوبة استعارةٌ للعلاقة بين الإنسان والذات الإلهية؛ وأنّ نشوته العارمة في حضرة محبوبته رمزٌ لسكره في قربه من الله؛ وأن كربه لهجرها إياه أو تجاهلها القاسي له إشارة مبهمة إلى ترك الذات الإلهية لمحبها البشر أو لاختبارها صدقه. وبعبارة أخرى، فإنّ مثل هذه الأغراض الشعرية لديها القابلية لأن تخضع للتفسير (المقدس) أو (المدنس) في آنٍ. وتخلق هذه التوأمة مجالاً خيالياً تتزاوج فيه الإشارة إلى الحب (الإنساني) والحب (الإلهي) على نحوٍ واعٍ ومتعمّد في غموضه (وفي قابليته للإبدال).

ولا غرو أن تتخلل موضوعات مثل هذه شعر السودي. فعمله الشعري يتسم بالاستخدام المطرد للصور الجنسية (الاروتيكية)، وبالإشارات الخفية والجلية إلى الرياضات الصوفية، وإلى ميتافيزيقا وحدة الوجود، كما لا نعدم أن نجد المحو الواعي للخط الفاصل بين الموضوعات الدنيوية والروحية.

ومع استلهام السُّودي لأعمال المتصوفة الكبار في هذا الفن كابن الفارض، وابن عربي، والششتري، والتلمساني، وأعمال أتباعهم من اليمنيين كابن علوان، وابن الرداد (ت821هـ/1418م)[70]، وأبي بكر العيدروس، - فقد استطاع أنْ يُخضِع شعره باتقانٍ لذوق معاصريه ولأفق توقعهم؛ بل إنه قد صاغ أسلوبهُ وصوره الشعرية وفق معهودهم. وإنْ كان من موضوعٍ طريفٍ طرقه السُّودي ولم يتعرض له سابقوه، فإنّهُ موضوع القهوة والقات، وهما مادتان لم تكونا قد اكتشفتا من قبل في عصور من سبقه. وبذلك يستطيع المرء أنْ يجادل بأنّ شعر السُّودي يمثل نموذجا للثقافة اليمنية العامية؛ سواء من حيث أسلوبه أو إشاراته الثقافية أو فيما يخص الوقائع الاجتماعية الفعلية المتصل بها أو في تصنيفه الأدبي أو في موضوعاته. ويمكن أن ينظر إلى شعر السُّودي بوصفه جهدا مدبَّراً من أجل نشر أفكار ابن عربي وأتباعه المبهمة والعويصة بين أهل بلده: وهي أفكار تمتزج فيها - على نحو معقّد - معتقدات الأفلاطونية المحدثة مع المعتقدات الغنوصية مع الصور والأغراض الشعرية العربية الكلاسيكية.

(70) انظر عن ابن الرداد: كتابي عن ابن عربي، الصفحات246 - 263.

وشعر السُّودي جديرٌ بفحصٍ معمقٍ وتحليلٍ دقيقٍ ليس من أجل إيصاله إلى الغربيينَ فحسب، بل، أيضاً، من أجل أن يجد طريقه إلى العرب والمسلمين من غير اليمنيين. وأنا لم أمسّ في هذه الدراسة إلا طرفاً بسيطاً من موروثه رجاءَ أنْ أَقِف القارئَ على ما يتذوق به رقته ويدرك به ثراءه. وسأعمد هنا إلى تحليل أبيات شعرية معروفة في الأدب اليمني كانت قد استرعت الحسّ التفسيريَّ لدى عالم وشاعر ومتصوف يمني شهير هو حاتم بن أحمد الأهدل (ت1013هـ/1604م)[71]، وهو معاصر لعبدالقادر العيدروس. وقد أُعجب العيدروس بتفسير الأهدل للأبيات فضمنه كتابه (النور السَّافر)[72] الذي خصصه لمختارات من التراجم. يقول السُّودي:

بلبل الجحف اليماني
لم أزلْ منهُ مبلبلْ
كلما غنى شجاني
قطُّ لا مليتُ لا ملْ
قدْ عناه ما عناني
فلهذا مال أميل[73]
فلِمَه يا أهل المعاني
مأنا (معجمٌ)[74] وهو (مهمل)[75].

وبحسب تفسير حاتم الأهدل، فإنّ البلبل يرمز إلى

(71) انظر عن حاتم الأهدل: عبدالله الحبشي، مصادر التاريخ الإسلامي في اليمن (بيروت المكتبة العصرية، 1988م) ص371. وكذلك كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي (الملحق) الطبعة الثانية، مجلدان، (ليدن: إي. جيه. بريل، 1996م) مج1، ص565.

(72) انظر الصفحات232 - 235. وقد كان هذه الكتاب بمثابة المصدر الأساسي للبحث الحديث الذي انجزه الباحث الأنثروبولوجي في جامعة هارفارد انجسنج هو تحت عنوان: قبور تريم (بركلي: منشورات جامعة كاليفورنيا، 2006م)، انظر المسرد مادة: « العيدروس، عبدالقادر».

(73) قد تصح قراءة البيت على انه يعني: « يحنُّ ويثير الحنين في الآخرين» (يشير الكاتب هنا إلى ترجمته الإنجليزية للبيت - المترجم)

(74) اي صرت عديم الكلام.

(75) اي وصار كلامه يتدفق بحرية.

الحنين إلى الله (الحق)، الذي استقر في قلب الشاعر - المحب. وغناؤه يذكّر (عشاق الجمال) بالعهد الأول مع الله، الذي أعقبه الانفصال والنفي إلى العالم المادي[76]. ويجزم المفسر بأنّ لفظ (البلبل) يُشير إلى قلب الإنسان (البال) الذي لم يزل يتحرك متقلباً في أودية العشق، وكلما كرر السجوع أحرم قلب المحب الموجوع راحته؛ فهو يذكّر المحبَّ بموضوع عشقه. وقلب المحب يهفو إلى العودة إلى محبوبه عن طريق فعل الحب الذي يزيل الحجب بينه وبين محبوبه الإلهي حتى يصير المحب هو المحبوب، والمحبوب هو المحب. وطبقاً لتأويل حاتم الأهدل، فإنّ البيت الأخير ينطوي على لعب لطيفٍ بحروف الهجاء العربية؛ فتوسل الشاعر بـ(أهل المعاني) قد يُشير إلى أهل المعرفة بقواعد العربية الذين يفرّقون بين الحروف (المهملة) والحروف (المعجمة). وفي تفسير حاتم الأهدل تغدو الذات الشاعرة (معجمة) لا نطق لها في وجودها (مرموزاً له بالنقطة)، فالوجود يقيد الذات كما تقيد النقطة حرفها. ومن الجهة المقابلة، يغدو البلبل (مهملاً) - إن صح التعبير - فهو متخففٌ من قيْد النقطة؛ متحرر من القيود والحدود، وروح البلبل تجأر إلى الله وتصبح متحدة معه في فعل شهودٍ مباشرٍ حيٍّ؛ بحيث يكون هو عين الشاهد والمشهود[77].

وحسب تفسير آخر لعالم يمنيٍّ معاصر، فإنّ النقطة تحت الحرف أو فوقه تعني الوضوح: النقطة في الحرف (المعجم) تبين عن طبيعة الحرف تمام البيان، فعندما يُنقط الحرف يكون إما (باء) أو (تاء) أو (ثاء)، وعندما يغيب عنه التنقيط فإنه يكون غامضاً (مهملاً) ومرشّحاً لثلاثة تفسيرات على الأقل. وطبقاً لذلك، فإنّ عشق الشاعر لمحبوبه واضح لا لبس فيه، أمّا استجابة المحبوب لذلك فإنها غامضة يحفها الشك[78].

وبعدُ، فإلى أيِّ مدىً تعكسُ هاتان القراءتان لقصيدة السُّودي القصدَ الأصليَّ للشاعر؟ ذلك ما يستحيلُ علينا الجزم به. ومع ذلك، فإنّ تعددية المقصد وانفتاحه المتعمد أمرانِ لا يطالهما الشك. ومما لا شك فيه، أيضاً، أنّ الشاعر في هذه القصيدة قد استلهم الأفكار والصور الشعرية الغامضة عن وحدة الوجود لكلٍّ من ابن الفارض وابن عربي والششتري والتلمساني ليصيغها في قالبٍ من الاصطلاح العامي المحلي.

عمر با مخرمة: شاعر الوجد الصوفي

استطاع التصوف - كما عرفنا من حياة عبدالهادي السودي - أن يشق طريقه عميقاً في المجتمع اليمني والثقافة اليمنية إبّان العهد العثماني[79]. وقد تطورت تعاليمها وممارساتها، من خلال ارتكازها على الشخصيات الكارزمية لمشايخ الصوفية، حتى كوّنت رؤية مايزة للعالم - أيْ منظومة من القيم وأنماط العيش التي اجتذبت أتباعاً كثيرين. وينطبق هذا إلى حدٍّ بعيدٍ على الساحل الجنوبي بشبه الجزيرة العربية الممتد من عدن إلى حضرموت. وقد كانت حضرموت هذه مسقط رأس عمر بن عبدالله با مخرمة أحد الشعراء المرموقين في جنوب شبه الجزيرة العربية. ولد با مخرمة سنة 884هـ/1479م في مدينة الهجرين بوادي دوعن (حضرموت الداخل). وتربى بِموْشَح، وهي قرية جنوب شبام « مانهاتان جنوب شبه الجزيرة العربية »[80] الشهيرة. ينحدر عمر من أسرةٍ حضرميّة من (المشايخ) وتنتسب إلى قبيلة سيبان التي يعود نسبها إلى نبلاء حمير ملوك جنوب الجزيرة العربية في عصر ما قبل الإسلام[81]. وقد سافر عمر با مخرمة في مقتبل عمره إلى عدن لينضم إلى أبيه : أبي

(76) انظر الآية القرآنية: « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ » سورة الأعراف: 172. ويُنظر عن تفسير المتصوفة لهذه الآية جي. بوفيرنج، الرؤية الصوفية للوجود في العصر الإسلامي الأول (برلين ونيويورك: دبليو. دي جرويتر، 1980م) الصفحات153 - 157. (يشير الكاتب إلى موضع الآية فقط، وإثباتها هنا من عندي - المترجم).

(77) العيدروس، النور السافر، ص234.

(78) محمد عبده غانم، شعر الغناء الصنعاني، ص346.

(79) يصح هذا التعميم فقط على المناطق السنية من اليمن [illegible] شمال اليمن فقد ظلت محصنة من التأثير الصوفي.

(80) ينظر على سبيل المثال، تي ما كنتوش سميث، اليمن [illegible] (لندن جون موري، 1997م) ص178وص179 وانظر أيضاً [illegible] في دبليو. داوم (محرر)، اليمن ثلاثة آلاف سنة ص339.

(81) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة [illegible] وشعره (دمشق دار الفكر، 2002م)، ص97. [illegible]

الطيب عبدالله الذي كان عالماً شافعياً معروفاً، والذي شغل، فترة قصيرة، منصب قاضي قضاة المدينة على عهد السلطان علي بن طاهر[82]، غير أنّ الفتى، لسوء الحظ، لم يستفدْ من معرفة أبيه الواسعة ؛ فقد توفي أبوه بعد وصوله عدن بمدة قصيرة (903هـ/1497م). وعلى الرغم من ذلك، فإنّ الفتى قد استفاد من مكوثه في عدن حيث وطّن نفسه على الاستفادة من المهاجرين الحضارم المقيمين في المدينة بمن فيهم السيد الصوفي (ولي عدن ومرشدها فيما بعد) أبوبكر العيدروس (ت914هـ/1508م)[83] وآخر اسمه محمد باجرفيل الدوعاني. وقبل عودته إلى حضرموت لعله قد زار مدينة زبيد ليدرس على يد العلماء المحليين كعبدالله بن أحمد باكثير (ت925هـ/1519م)[84]. ومع ذلك، فإنّ تحديد تدرج تاريخيّ لتحركه ضربٌ من المستحيل[85]. ولعله قد زار مدينة زبيد في وقتٍ متأخر خلال رحلته إلى مكة والمدينة لأداء فريضة الحج سنة 917هـ/1511م. فإن كان ذلك كذلك، فإنه عند عودته إلى حضرموت قد تابع دراسته للحديث والفقه ليصبح مرجعاً معترفاً به في هذين الفنين. ويبدو من المعقول أنّ شغف با مخرمة بالأفكار والرياضات الصوفية قد بدأ في وقتٍ باكرٍ عند تتلمذه على يد أبي بكر العيدروس. وهو نفسه يقرر بأنّ كتاب « عوارف المعارف» للسهروردي، وكتاب « إحياء علوم الدين» للغزالي، وكتاب « الرسالة القشيرية » - وفقاً لهذا الترتيب - قد أثرت تأثيرا تكوينياً على شخصيته وعلى رؤيته للعالم[86]. بيد أنّ ميلاً خاصاً كان لدى با مخرمة تجاه القشيري الذي كان - وفقا لما يقوله با مخرمة - يظهر له في أحلامه مراراً إما ليشرح له بعض المفاهيم الصوفية أو ليلبسه الكوفية تقديرا لإخلاصه في إتباع تعاليم القوم[87]. ولقد كان با مخرمة متشرباً بأشعار ابن الفارض[88]، التي تركت أثراً بالغاً على شعره. بل إن شيخاً معاصرا له يصغره في السن من شبام - وهو الشيخ معروف باجمال - يذهب بعيداً في امتداح عبقريته الشعرية إلى حد رفعه درجة فوق سابقه المصري العظيم[89]. وبعبارة أخرى، يبدو أن تكوين بامخرمة بوصفه صوفياً وعالماً في آنٍ واحدٍ قد تمّ بصورة مترافقة. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ مؤلف (النور السّافر) يذهب إلى أنّ با مخرمة قد « اعتنق» التصوف على يد الشيخ الصوفي المثير للجدل عبدالرحمن با هرمز (ت914هـ/1508م) وهو من منطقة هينن. وقد جاء إليه با مخرمة - حسب ذلك الزعم - لينكر عليه سلوكه «الفاحش»[90]. ويمكن للمرء أنْ يقدِّر بأنّ هذا الخبر قد صاغه مؤلف (النور السّافر) متعمِّداً ليمنح قصة «اعتناق» با مخرمة العفوي للتصوف بعداً دراميّاً. ومن الراجح، فيما يبدو لنا، أنّ «اعتناقه» للتصوف جاء نتيجةً منطقيةً للتربية الباكرة التي تلقاها على يد أبي بكر العيدروس من جهة، ونتيجة لميوله الشخصية الخاصة في عيش حياة الاستبطان والتأمل من جهة أخرى.

وسواء امتلكنا أم لم نمتلك المسوِّغ للتساؤل حول صحة انتقال بامخرمة العفوي من فقيه ذي عقلية شرعية إلى صوفيٍّ على يد الشيخ باهرمز، فإن الدور الذي اضطلع به باهرمز بوصفه معلماً لذلك الشاعر الروحاني أمر لا يرقى إليه الشك. وقد ولد باهرمز، سليل أسرة المشايخ ذات المقام العالي، في شبام حوالي العام840هـ/1436م. وبعد أن نال من عمه إبراهيم باهرمز الخرقة الصوفية سافر إلى المدينة الساحلية الشحر حيث استمر في رياضاته الصوفية تحت رعاية أسرة باهراوة الذين كانوا من المشايخ أيضا. وبعد

(82) عبدالله بن محمد السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين (الطبعة الثالثة) (الطائف: مكتبة المعارف، 1997م) مج1، ص130، وكذا عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص95.

(83) يُنظر: اوه. لوفقرن، « العيدروس» (دائرة المعارف الإسلامية،ط2) أي. جيه. برل، طبعة إلكترونية. وكذا السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين، مج1، الصفحات 105 - 119. والدراسة الحديثة التي انجزتها إي. بكس، العيدروس وورثته (شتتغارت، فرانتز شتاينر، 2005م).

(84) محمد بافقيه، تاريخ الشحر، تحقيق: عبدالله الحبشي (صنعاء: مكتبة الإرشاد، 1999م)، ص141. ولمعرفة المزيد عن باكثير ذي الأصل الحضرمي والذي أقام بمكة يُنظر: العيدروس، النور السافر، ص178 والتي تليها.

(85) السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين، مج1، ص131.

(86) عن هذا التأثير انظر قصيدته في: عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص99 والتي تليها.

(87) محمد بافقيه، تاريخ الشحر، ص316 - 317 وكذا ص319.

(88) السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين، مج1، ص131.

(89) محمد بافقيه، تاريخ الشحر، ص319.

(90) العيدروس، النور السافر، ص102.

عودته إلى حضرموت الداخل اتبع طريق السياحة الصوفية تجنباً للشهرة الدنيوية. وعلاوة على رياضاته الزهدية وتأملاته كان يميل إلى السماع الذي كان سلوته الكبرى، و« لم يفتر من السماع». (91) وعندما كان يسمع الأناشيد الصوفية كان يغلب عليه الوجد حتى عد ذلك بعض أهل العلم من معاصريه خروجاً وكفراً. وبعد أن استقر به المقام في مدينة هينن (بحضرموت الداخل) وارتبط بالشيخ المرموق سهل من مشايخ آل إسحاق(92) نُسِبتْ إليه ولايات وكرامات وخوارق. وقد مكنته شهرته من أن يتدخل وسيطا لحل الخلافات بين الحكام وقبائل المنطقة؛ بل إن الأمر وصل إلى دعوته ليحول دون احترابٍ وشيك بين حاكم هينن والسلطان الكثيري عبدالله بن جعفر (ت910هـ/1504م) وهو والد السلطان الشهير بدر بو طويرق الذي مر ذكره آنفاً. (93)وقد تبنى با هرمز تجربة صوفية ذات نمطٍ وجديٍّ وروحيٍّ مفرط إلى الحد الذي تتجاوز فيه، أحياناً، المواضعات الاجتماعية لذلك العصر. ومما أثار الجدل العارم ما قيل إنه كان يطلب النساء الحسان ليغنين ويرقصن أمامه حتى يحدث الوجد في المتفرجين. ويحكي مؤلف « النور السافر» أن عمر بامخرمة اقتحم بيت باهرمز أثناء إحدى تلك الحفلات ليؤنبه على « شططه»، وعندما عانقت إحدى الراقصات هذا الرجل المسكين خرَّ مغشيّاً عليه، « فلما أفاق - يضيف مؤلف النور السافر - تلْمَذ للشيخ، وحكّمه في ذلك الوقت وفتح الله عليه ببركة الشيخ، وصار من كبار العارفين المربين». (94)

(91) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص44.
(92) لمعرفة المزيد عن نسب هذه العائلة الذي يرجع الى إسحاق بن جعفر الصادق ينظر: عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص45.
(93) محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، ص27.
(94) العيدروس، النور السافر، ص102. (ينكر بعض المؤرخين هذه الحادثة، وقد اعتذر صاحب النور السافر عند ترجمته لباهرمز وبامخرمة وغيرهم من المتصوف اعتذارا صوفيا تبريريا. ويرى عمر الجيلاني أنها « من اختلاقات جهلة العامة، واستكثر بها بعض من قل حظه من العلم من المريدين الخوارق، ظانين أن ذلك يرفع مقامات متبوعيهم، فشاعت هذه الحكايات، ودونها بعض المؤرخين في كتبهم، انظر: مقدمة السيد عمر بن حامد الجيلاني لكتاب: عمر بن علوي الكاف، خلاصة الخبر عن بعض أعيان القرنين العاشر والحادي عشر (دار المنهاج، ط1، 2002م) ص11 - 12) - وانظر أيضا مقدمة محمد الشاطري لكتاب عبدالرحمن جعفر بن عقيل عن با مخرمة، وراجع اعتذار العيدروس لهما في النور السافر: السنة أربع عشرة بعد التسعمائة - المترجم).

و في ذلك الحين أصبح با مخرمة في هينن عضوا في الدائرة الصوفية للشيخ سهل بن إسحاق آنف الذكر بالإضافة إلى با هرمز وولدي الشيخ سهل مع بعض من يشاركونهم في المشرب. وقد كانوا كلهم يجدون متعة خاصة في السماع إلى الشعر الصوفي أثناء مجالس السماع، وهي العادة التي أصبحت بمثابة الترويح المفضل عندهم. وبعد وفاة الشيخ سهل بن إسحاق آلت رئاسة المجموعة إلى باهرمز.

ولا شك في أن السنوات التي أمضاها با مخرمة في صحبة الشيخ سهل بن إسحاق وباهرمز كانت حاسمة في تشكيلِ شخصيته. ويستطيع المرء أن يجادل بأنه كان يقلِّد سلوكهم عامدا طيلة ما تبقى من حياته. وتكشف مراثيه الشعرية الموجهة إلى قبري شيخيه بالقرب من هينن تعلقه العميق بالأيام الخوالي من ناحية، ورغبته العارمة في أن يستحضر صورتي معلميه في شكل من الإبداع الفني من ناحية أخرى. (95) ونستطيع أن نضرب مثالا شرودا من شعره بهذه القطعة الشعرية الموجهة إلى (الحَثم) تلك المقبرة التي ووري فيها باهرمز الثرى:

جيرَة الحَثم قد كُنّا وقدْ كان مَا كانْ
قد جَرى مَا جَرى مِنَّا بِلا عَمد نسيانْ
التقينا ومِلنا يا حبيبي إلى الثَّانْ
فاعفُ عمَّا مَضى من ذاك يا عبدرحمنْ
فأنتوا اهل الحماية والرعاية والاحسانْ

و يذهب أحد الباحثين اليمنيين المتخصصين في تراث با مخرمة - مستنبطاً من قصائده - إلى أنه قد «عبّر... عن الحبّ والافتتان بشيخه في قصائد كثيرة. وكان يخاطب شيخه في تلك القصائد بالأسلوب الغزلي الواضح كدأب القوم في شعرهم الحديث عن المحبوب الأرضي». والحق فإن بامخرمة كثيراً ما يستخدم عند الحديث عن شيخه عبارات غزلية صريحة كقوله « يا عيني... ويا أبيض الوجه... مفتون ومجنون

(95) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص46 - 47.

بك... »(96). ومثال على ذلك ما يرد في أبياته الآتية:

عبد رحمن وين الوعد يا عبدرحمنْ
وين ذيك الوثائق يا حبيبي والايمانْ
وين ذي قلت لي وين هو ليش ما بانْ
أنت ناسي تذكر يومنا ذاك يا انسانْ(97)

و بالإضافة إلى هذه المقاطع الشعرية، بما تحمله من إشارات غزلية، نجد أن با مخرمة يصف شيخه بأنه المثل الأعلى للمعلم الصوفي ولولي الله الكامل الذي تتمثل في شخصه الفضائل الروحية لمشايخ الصوفية الكبار من السالفين من أمثال عبدالقادر الجيلاني (ت561هـ/1166م) ومعروف الكرخي (ت 200هـ/815م) وإسماعيل الجبرتي (ت806هـ/1403م) وإسماعيل الحضرمي، وابن الفارض. وتجمع هذه القائمة بصورة صريحة أسماء متصوفة لامعين « أجانب» مع متصوفة محليين. وفي ذلك إشارة غير مباشرة إلى أن صوفية جنوب الجزيرة العربية يقفون على قدم المساواة مع صفوة الصفوة من أعلام التراث الصوفي.

وكما حاولت أن أوضح في مكان آخر، (98)فإنّ هذا النوع من الروابط بين الصوفية يتجاوز معنى توقير المريد لمرشده الروحي إلى معنى الانجذاب الروحي والمادي (بصورة قريبة من معنى الإجلال) وقد ينتقل، أحياناً، إلى الأفق الميتافيزيقي. فمن خلال الشخصية الكاملة للشيخ يتوصل المريد إلى إدراك لمحة من كمال خلق الله، وفي نهاية المطاف إلى كمال الله ذاته.

وبناءً على ذلك، فإن الشيخ يصبح بالنسبة للمريد بمثابة الممر الذي لا غنى عنه إلى حضرة الحق، وبذلك فهو يجب أن يستأثر بمحبة تفوق محبة الأهل: وتغدو « محبته لشيخه فوق محبته لوالده وولده»(99). وهذا التسليم الكامل للشيخ يتعارض مع التقاليد الاجتماعية المتعارف عليها، بل لعله يتعارض مع ظاهر الشريعة الإلهية نفسها.

ولقد تجلى هذا السلوك، بصورة ذائعة، في تلك العلاقة المثيرة للجدل بين جلال الدين الرومي ومحبوبه غريب الأطوار شمس الدين التبريزي(100). أمّا في الحالة اليمنية فقد كان ذلك واضحاً فيما يخص الرابطة المتينة بين عبدالكريم الجيلي (ت832هـ/1428م) مع شخصية إسماعيل الجبرتي، الذي كان يمتدحه ويصفه بأنه « أستاذ الدنيا» وأنه « القطب الكامل» و« محل نظر الله إلى هذا العالم»(101). وظهر الإصرار على هذا النوع من السلوك لدى متصوفة اليمن المتأخرين في تلك العاطفة القريبة من العبادة التي كان يبديها مريدو السودي الكثيرون تجاه شيخهم، وكذلك في تلك العلاقة الحميمة بين باهرمز وبامخرمة. والطريف أن باهرمز نفسه قد وجد، هو الآخر، في شخصية الشيخ سهل بن إسحاق محلاً لهيامه؛ فشخصيته الآسرة كانت وراء استقراره في هينن بعد سنوات من السياحة(102).

الشاعر والسلطان:

في العقود الأخيرة من القرن السابع الهجري/ الرابع عشر الميلادي وصل حاكم ظفار سالم الحبوظي إلى حضرموت ليتولى أمرها مقابل إنقاذ سكانها من مجاعة مهلكة. وقد جلب معه أتباعا من آل كثير من أحلاف قبائل ظفار. وعندما باءت خطط ذلك السلطان بالفشل بعد أن خسر كل الأراضي التي حازها وآلت لصالح القبائل المحلية المتمردة انسحب إلى بلدته. غير أن بعضاً من أتباعه من آل كثير اختاروا البقاء والانغماس في أتون السياسات القبلية المحلية ثم ما لبثوا أن سيطروا على معظم البلد حيث عمدوا بدهائهم إلى أن يقيموا تحالفاً مع مجاميع القبائل الحضرمية حتى تم لهم طرد النُّخب المحلية الحاكمة.

ومع ذلك، فإنّ آل كثير، بسبب من المنافسات الداخلية في إطار قيادتهم، لم يستطيعوا أن يؤسسوا دولة مركزيةً فاعلةً. ولأكثر من قرن من الزمان بعد

(96) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص175.
(97) نفسه، ص175، والتي تليها.
(98) أيه. كينش، ابن عربي، ص250 والصفحة التي تليها.
(99) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص177.

(100) أيه. كينش، التصوف الإسلامي، ص156 وما بعدها.
(101) أيه. كينش، ابن عربي، ص251.
(102) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص43.

وصول آل كثير ظلت دولتهم المكوّنة من إقطاعيات صغيرة يحكمها بالتشارك أعضاء من عشيرة آل كثير تسود بينهم العداوة. ورغم أن كلّ واحد من هؤلاء الزعماء قد أطلق على نفسه لقب « سلطان»، فإنّ حكم كل منهم غالبا ما كان محدودا في إطار مدينة محصنة أو مدينتين مع الضواحي القريبة. وإنْ كان لهم من نفوذ أبعد من ذلك، فإنه لا بد أن يكون خاضعاً للتفاوض مع زعماء القبائل المحلية الذين كانوا، في بعض الأحيان، يملكون من السلطة العسكرية مثل ما يملك السلاطين أنفسهم. وغالبا ما كانت هذه القبائل تُستمال بدفعاتٍ مالية سنوية، غير أنهم ظلوا كثيري التململ ولا يتنبأ لهم ببادرة. وكثيراً ما أحبطت المحاولات التي كان ينهض بها حكام آل كثير لتأسيس دولة مركزية قوية نتيجةً لنقص الموارد ولتفشي العداوات والتحاسد داخل العشيرة الحاكمة. وقد كان كلّ حاكم من آل كثير يرى في الآخرين من أقاربه منافسين أكثر من كونهم حلفاء، وقد أدّى كل ذلك إلى التنازع الذي كان السمة المميزة للحكم الكثيري طيلة القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي إلى أن جاء رجل ذو فطنة سياسية فائقة ويمتلك التمويل اللازم ليحوّل ذلك الوضع لصالحه؛ وذلك الرجل هو الزعيم بدر بو طويرق الذي استطاع أن يتغلب على مقاومة المنافسين الآخرين من آل كثير، وأن يخضع القبائل الحضرمية المتململة، وأن يمد سلطته من ظفار في الشرق إلى مناطق العوالق في الغرب. [103] ورغم مؤهلاته الفائقة بوصفه رجل دولة وقائدا عسكريا، فإن جهوده الساعية لتحقيق المركزية كانت ستبؤ بالفشل دون مساعدة خارجية. وبعد أن مد بدر أواصر الصلة مع الباب العالي وأعلن الولاء للسلطان العثماني سليمان القانوني تلقى المساعدة في صورة جنود عثمانيين وأمدادات، وقد كان أولئك الجنود مجهزين بالأسلحة النارية التي لم تكن معروفة في تلك المنطقة، [104] وقد التحمت الكتيبة العثمانية مع محاربي بدر بو طويرق واستطاعوا بسهولة قمع المعارضة بكاملها. وبعد ما يقرب من عقد من الاحتراب خضعت البلاد لحكم بدر باستثناء بعض جيوب المعارضة القليلة كالمشايخ من آل العمودي في وادي دوعن الذين كانوا يتلقون مساعدة من الأئمة الزيود في الشمال. غير أن حكم بدر على حضرموت وظفار ظل غير وطيد الأركان: فقد قضى معظم حياته يقمع ثورات القبائل الناقمة عليه وتمرد إخوته وبني عمومته الذين ظلوا توّاقين لنقض مواثيق ولائهم لبدر حتى يحكم كل منهم بصورة مستقلة. ورغم كل ذلك، فإن جهود بدر من أجل تحقيق المركزية قد آتت ثمارها. وعلى العكس من الإقطاعيات الكثيرية الممزقة التي سادت في العقود الماضية وفشلت في حماية الساحل الحضرمي من غارات البرتغاليين ولصوص البحر[105]، استطاع أن يسيطر على كثير من الموارد واستطاع بذلك أن يبلي بلاء حسنا في مقاومة نشاطاتهم النهبية التي كانت تستهدف المدن الساحلية مثل حريج والشحر وبروم وقشن. واستطاعت جنود بدر في العام 942هـ/ 1535م - معززةً بمجاميع قبلية من الشمال - صد هجوم برتغالي من ميناء الشحر وقتلوا ثلاثين رجلا وغنموا بضائع وأسلاب[106].

لقد جعل هذا النصر من بدر بطلا مجاهدا عظيما سواء في نظر أتباعه أو في نظر السلطان العثماني الذي أرسل إليه بدر خمسة وثلاثين أسيرا مسيحيا علامة على نصره[107]. غير أن علينا الإشارة إلى أن بدراً لم يكن يجد غضاضة في التعامل الوثيق مع « الكفار» عندما تدعو الضرورة إلى ذلك: فلقد عمد - على سبيل المثال - إلى استخدام الجند المبندقين من البرتغاليين في حربه ضد أعدائه المسلمين في حضرموت[108]. ورغم قسوة بدر

(103) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن الجوانب السياسية والعسكرية في سيرة بدر بوطويرق ينظر: محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، ص34 - 54. وسعيد عوض باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص119 - 134. وكذا محمد أحمد الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، ص236 - 242.

(104) محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، ص37.

(105) لمعرفة مزيد من التفاصيل حول ذلك ينظر: [illegible] سرجنت، البرتغاليون على سواحل البحر العربي (اكسفورد. كلارندون برس. 1963م) ص27 - 32 ومواضع أخرى متعددة.

(106) نفسه، ص37، وما بعدها. بافقيه. تاريخ الشحر ص235 وما بعدها. وكذا سالم بن حميد الكندي، تاريخ حضرموت المسمّى بالعدة المفيدة. تحقيق عبد الله الحبشي، مجلدان (صنعاء. مكتبة الإرشاد. 1991م) مج1 ص161 وما بعدها.

(107) محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية. ص42

(108) وذلك في حربه ضد العمودي حاكم دوعن سنة 943هـ/ 1536م. [illegible] سرجنت. البرتغاليون، ص83 والصفحة التي تليها

وافتقاره إلى المبادئ الخلقية عندما يتعلق الأمر بطموحه السياسي (إذ كان يسجن أو يقتل كل من تسول له نفسه الوقوف في وجهه بمن فيهم أقرب أقربائه) - رغم ذلك، فإنه لم يستطع أن يؤمن الاستقرار للدولة التي أسسها؛ فلقد ألبت عليه السياسات التي اتبعها الأعداء وفيهم من كان ينتمي إلى الدائرة الداخلية المحيطة به. وفي نهاية الأمر أقنع هؤلاء ابنه عبدالله بأن يوقف ويسجن السلطان الذي لم يقهر أبداً ليموت أسيرا بعد سجنه بمدة قصيرة عام 977هـ/1569م[109].

وهكذا بقيت حياة بدر بو طويرق موضوع خلاف وجدل بين النخبة الثقافية الحضرمية: فمنهم من يعدّه أعظم حاكم حضرمي على الإطلاق؛ إذ استطاع أن يوحّد البلد المقسم وأن يشجع التعليم الإسلامي عن طريق توظيفه لأفضل العلماء في عصره وأن يحدد أوقافا خاصة بالمدارس الدينية[110]. ومنهم من يرى فيه حاكماً مستبدا يتسم بالقسوة وبفقدان الضمير؛ فهو الذي لم يطق أية مخالفة أو معارضة لحكمه مهما كانت صفتها وأيا كان نوعها[111]. ويمكن إرجاع وجهة النظر الأخيرة هذه إلى با مخرمة وبعض رفقائه من الصوفية في ذلك العصر الذين امتعضوا من طغيان بدرٍ وقسوته.

وتأسيسا على هذه الخلفية الاجتماعية والسياسية التي فصلنا القول حولها آنفاً سنحاول أن نلم بالعلاقات الصعبة بل الصريحة في عدائيتها بعض الأحيان بين الشاعر والسلطان. فبامخرمة يظهر في الوصف الذي يقدمه كتاب سيرته إنسانا رحيما يشعر بقلق عميق إزاء المعاناة التي يلاقيها أبناء بلده، لا سيما الفقراء والمساكين منهم. وفي حادثة واضحة الدلالة يرفض با مخرمة الفتوى الشرعية التي أفتى بها ابنه[112] محرما على النساء أن يصبغن شعر رؤوسهن بالدهن أثناء أيام العدة بعد موت أزواجهن:

يا ابن سالم وَرَى القاضي[113] يعسِّر على الناسْ
ما تغاضَ لهم حتى طَرَقَة الراسْ
وايش يبِّغَى بذا والشرع قد فيه نفَّاسْ[114]

لقد دأب عمر با مخرمة الرجل ذو القناعات الشخصية الراسخة على تجنب الشهرة الفانية، والمكانة الاجتماعية العالية، والاتصال المباشر بالسلطات الدنيوية، وهذا ما تظهره الأبيات الشعرية الآتية بصورة لا لبس فيها:

ما بغيت التفتْ لاهْل الدول والعَساكرْ
لا.. ولا ابغي مع اصْحاب الكتب والمحابرْ
لا.. ولا لي شِفاية في الخُطَبْ والمنابرْ
عندي ان الرِّياسةِ من كبار الكبايرْ.[115]

و يظهر شعر با مخرمة وسلوكه الشخصي ازدراءه للمظاهر الدنيوية وللمناصب العالية والمكاسب المادية التي لا يرى فيها، حسب قناعاته الصوفية، إلا مصدرا للنفاق وللفساد الأخلاقي والجشع. ولقد كان با مخرمة حازما في دفاعه عن إيمانه بنبذ الدنيا في وجه النقد الذي وجه إليه من عائلته الذين ما فتئوا يطالبونه بتحسين وضعهم عن طريق القبول بوظيفة ذات دخل مجزٍ في حكومة بدر بو طويرق.[116]

لقد جعلت نزعة با مخرمة ضد المؤسساتية منه ناقدا طبيعيا لبدر بو طويرق الذي ألهته طموحاته

(109) سالم بن حميد الكندي، تاريخ حضرموت، ص216، وكذا عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص129، وسعيد عوض باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص132.

(110) محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، ص53، وكذا محمد بن احمد الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، ص240، والصفحة التي تليها، وسعيد عوض باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص119 - 134، وعبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص127 والصفحة التي تليها.

(111) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص135 والتي تليها، و ص166.

(112) عبدالله بن عمر بامخرمة (ت972هـ/1565م) المسمى بـ«الشافعي الصغير» وقد كان واحدا من كبار القضاة والمفتين في عصره، وعمل قاضيا للشحر ومستشارا للسلطان بدر بوطويرق. وقد انتقل إلى عدن حيث عمل هناك بوصفة قاضي القضاة. انظر: لوفقرن، «با مخرمة»، والشاطري، ادوار التاريخ الحضرميين311 - 319، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص135 - 141، وعبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص106، والصفحة التي تليها.

(113) كما هو واضح هذا هو ابنه القاضي عبدالله بن عمر بامخرمة المذكور في الحاشية السابقة.

(114) السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين، مج1، ص131، وعبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص132 - 133.

(115) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر با مخرمة، ص103

(116) نفسه، ص104 والصفحة التي تليها.

المادية عن المعاناة اللازبة التي الحقها برعيته. وما من شك في أن ثمة مظالم شخصية وحزازات خاصة، غير أننا نجد أن من الصعوبة بمكان البت في حقيقتها. وعلى كل حال، فإن بو طويرق قد وجد في با مخرمة الشاعر الشعبي والشخصية القيادية المرموقة ذات الأتباع والمريدين المخلصين(117) - وجد فيه معارضا كبيرا. فالتوتر بين الرجلين يبدو منطقيا لا مناص منه؛ غير أن فارق القوة كان بلا شك في صالح الحاكم، وكان على الشاعر أن يتحمل عاقبة تحديه. وهذا لا يعني أن العلاقات بين الرجلين كانت سيئة دائما؛ فقد كان با مخرمة متحمسا في دعم جهاد بدر ضد هجمات البرتغاليين، وامتدح نصره على أولئك الأعداء الكفار في ميناء الشحر سنة 942هـ/1535م(118).

وفي الوقت الذي يعدُّ فيه الشاعر حرب بدر ضد الكفار المعتدين مبررة تماما وتستحق الثناء الحسن، رفض صراحةً معاملة السلطان القاسية لمعارضيه المسلمين بمن فيهم أقاربه من آل كثير. وغالبا ما كان توبيخه لبدر لَبِقا ومواربا كالذي نجده في مديحه للشيخ عثمان العمودي (ت 975هـ/1567م) صاحب دوعن الذي كان خصما لدودا لبدر طيلة حياته.(119) بيد أن نقد بامخرمة، في بعض المواقف، يأخذ طابعا فظا وصريحا كما هي الحال في تلك القصيدة التي وجهها إلى محمد بن بدر الكثيري الذي قضى في سجن بدر بو طويرق ستة عشر عاما حتى مات فيه سنة 946هـ/1540م(120). وقد كان وصفه لبدر فيها بأنه « غَشُومٌ أحمقٌ يقيدُ ويقتلُ» فعلا جريئا ومتحديا لا يستطيع الحاكم تحمل تجاهله إلا على مضض. ولم يكن استنكاره للحروب المهلكة التي كانت، كما أسلفنا، السمة المميزة لحكم بدر أقل جراة من ذلك:

ويشْ في الحرب ما هو إلا عقوبة من اذنبْ
فيه الاموال تخْسَفْ والمنازل تخرَّبْ
والصناديدْ تقتل والصناديقْ تُنْهبْ
كلهْ أهوالْ من راها وهو طفل شيبْ(121)

لم يكن هذا التحدي الخفي والظاهر لسياسات السلطان ليمضي دون عقاب مدة أطول: فقد أظهر بدر سخطه أخيرا حين اصطحب الشاعر معه في رحلة إلى الساحل الحضرمي، وهنالك طلب منه أن يبقى في مدينة ظفار لتكون بمثابة المنفى لبامخرمة. وبعد نزح با مخرمة من المدينة التي دفن فيها شيخاه والإساءة البالغة إليه ظل الشاعر يشكو محنته في عدد من القصائد التي أرسلها إلى السلطان أملاً في نيل عطفه. بيد أنّ تلك القصائد حين تخاطب « البدر» - واسم السلطان بدر - تسفر عن تفسير لا يكون فيه المخاطب إلا النبي الذي. غالبا. ما يشبهه الأدباء المسلمون بالسراج المنير وبالبدر الطالع.(122) فهل كانت تلك حيلة من الشاعر لحفظ ماء الوجه بعد أن اخْتُزِل إلى طالب للرحمة في حين أنه كان خصما كبيرا وظل معاندا ناقما؟ هنا نجدُ أنفسنا داخلين في حيز الحدْس.

وعلى الرغم من أنّ السلطان قد أبدى ليونة وسمح له بأن يرافقه خلال إقامته بالشحر - العاصمة الساحلية للدولة الكثيرية -، فإنه لم يسمح للشاعر الناقد له أن يعود إلى هينن عندما كان ذاهبا إليها في ذلك الحين. وفي نهاية الأمر أدرك بدر أن الحصافة تقتضي أن يضع الشاعر تحت الرقابة الشديدة وأن يأمره بالعودة إلى هينن.

وبعيدا عن النقد الذي كان يوجهه بامخرمة للسلطان. فإن من الصعوبة بمكان تحديد الأسباب الواقفة وراء خلاف بامخرمة وبدر؛ سواءٌ كانت سياسية أو شخصية. أو هذه وتلك معا. والذي لاشك فيه أن معاملة بدر المتعالية مع رعيته، وإقدامه على تجنيد مرتزقة أجانب (من الأتراك والعواقل ويافع) لقمع منافسيه السياسيين ولإلحاق العقوبة القاسية بالقبائل المحلية وتهميشها(123) - قد أدّى كل ذلك إلى تهيئة الأرض الخصبة لنسحط

(117) انظر على سبيل المثال، السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين، مج1، ص131 والصفحة التي تليها.
(118) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر با مخرمة، ص126 وما بعدها.
(119) السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين، مج1، ص139 والصفحة التي تليها.
(120) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص134 - 135

(121) نفسه، ص136
(122) نفسه ص139، وكذا ص142
(123) نفسه، ص149، والصفحة التي تليها

الشعبي. ويبدو أن بامخرمة بموهبته الشعرية الفذة والمؤثرة قد كان مدفوعا بتلك النزعة الصوفية العامة النافرة من القهر والاستبداد، والتي، غالبا، ما يعبر عنها المتصوفة من خلال تفضيلهم لـ (جهاد النفس) على الغزو العسكري والنهب. ويستطيع المرء أن يستخلص أن كل تلك العوامل مجتمعة قد أسهمت في إفساد العلاقة بين الرجلين. [124]

ولم تكن حياة بامخرمة الشخصية خالية من المعايب بالنظر إلى الأخلاقيات الإسلامية التقليدية. فتقليده العامد، في هينن، لسلوك شيخه باهرمز المثير للجدل، وهوسه بالسماع الصوفي، واستخدامه الراقصات والمغنيات الجميلات لإحداث الوجد في نفوس الحاضرين من الرجال - كان، دون شك، فضيحة كبيرة في نظر العلماء الحضارم من أصحاب العقليات المحتشمة. وهو الأمر الذي جعلهم يفصحون عن سخطهم بصورة علنية مما سبب امتعاضا في أوساط العامة. وقد أشار بامخرمه في شعره إلى هذا الاستنكار الشعبي مقتبسا ما يدور على ألسنة المنكرين عليه من مذام: « عمر يحبّ المغاني والسِّفلْ والقَحابْ»[125]. بيد أن هذه الاتهامات الخطيرة لم تثن بامخرمة من أن يرد بتحديه المعهود:

لا تـوَاري ولا ترتـاب مـن الانتقَـادي
خَـلْ كلـن لـه صلاحـه وأنـا فـي فسـادي
خَلُّهـم فـي عقايدهُـمْ ونـا لـي اعتقـادي
مـا يـوافـق مـلام اهـل المـلامَـةْ مـرادي
لا.. ولا شُـرْبهـمْ شُـربـي ولا الـزاد زادي
وينُـهـمْ.. وينُـهـمْ مـا شافـوا إلا سـوادي
لـو دروا كيـف ناداني هنـاك المنـادي
أو سقاهـم ذي اسقاني بكـاس الـودادي
إن يهيْمـون مـمـا هـمـتْ فـي كـل وادي[126]

و يذهب باحث يمني معاصر إلى أن السلطان كان وراء إثارة الاستياء الشعبي من الشاعر؛ وكان غرضه تضييق سبل الحياة أمام بامخرمة في هينن. ولعل الأمر كان كذلك، غير أننا لا نتوفر على دليل بهذا الخصوص. وإلى جانب ذلك، فإن با مخرمة كان يعترف بوضوح بأنه، بسلوكه ذاك، كان قاصدا إثارة سخط الناس. ونقل عنه أنه قال متحدثا عن الشيخ باهرمز: « وكان كثيرا ما يأمرني بالتّلبُّس بأفعال العامة، ويدلني على الظهور بما لا يُنسب فاعله إلى طريقة القوم». [127]

ونصح، في مكانٍ آخر، أتباعه بملازمة أخلاق «الخاصة» مع التزيي بـ«زي العامة». ولعل هذا المبدأ مستلهم من تعاليم الملاماتية[128]. ويقدم أحد كتاب سيرة بامخرمة وصفا له مبينا أنه كان « رث المظهر عامر القلب»، وهذا يدل على أن الشاعر قد اتبع وصية شيخه في أن يعرض عن المظاهر الخارجية وأن يلتفت إلى تهذيب روحه. وهو الأمر الذي منح الباحثين في تراث بامخرمة السند بأن يروا بأن هذا الشاعر قد سلك طريق الملاماتية بصورة كاملة. والملاماتي: هو الشخص الذي يجاهر بعمل لا أخلاقي ليستثير الآخرين ويتحمل أذيتهم وملامتهم في حين أنه طاهر وصافٍ في قلبه وروحه. [129] وأخذ الاستياء الشعبي من سلوك با مخرمة « الشائن»، مع الوقت، أشكالا قبيحة وعنيفة لم تقتصر على نبذ العلماء لزميلهم بامخرمة، ولا على الإيذاء اللفظي له من قِبل المارّة؛ بل وصل الأمر إلى رجمه بالحجارة وحرقه بالنار؛ ووصل، في بعض الأحيان، إلى أن يطلق عليه بعض شرطة الآداب الكلاب[130]. وفي ظل الخطر الذي يهدد سلامته الشخصية ويطال حياته لم يجد الشاعر بداً من أن يتوسّل إلى بدرٍ حتى يسمح له بالانتقال إلى سيئون التي لم تكن، في ذلك الوقت، إلا على مسافة مرحلة واحدة وتقع بين مدينتي شبام وتريم. واستقبله حاكمها محمد بن عبدالله بو طويرق - أخو بدر

(124) نفسه، ص136، و كذا ص181.
(125) نفسه، ص153.
(126) نفسه، ص154.

(127) بافقيه، تاريخ الشعر، ص313.
(128) لمعرفة المزيد عن الملاماتية في خرسان يمكن الرجوع إلى ايه. كينش، التصوف الإسلامي، ص94 - 99.
(129) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص130 وكذا ص153.
(130) نفسه ص154 وما بعدها.

بوطويـرق وعدوه اللدود - بترحـاب. وقد جعلت إقامة الشاعر في سيئون من هذه المدينة محل جذب للزوار ومركزاً للنشـاط الصوفي لاسـيما السـماع الصوفي. ودائما ما كان با مخرمـة، بدوره، يقوم بزيارة أصحابه من المتصوفة في المـدن المجاورة لسـيئون كبور وتريم حيث كانت تعقد مجالس السـماع احتفاءً به.[131] ومع ذلـك، فإن بامخرمة ظل طيلة ما تبقـى من حياته يكنّ حبـا عميقا لهينن؛ تلك البلـدة التي كانت محل تكوينه الصوفي والشعري تحت رعاية شيخيه المحبوبين سهل بن إسحاق وعبدالرحمن باهرمز. ويخاطبها بامخرمة في نوبة حنين عارم: «يا دواء كل داء يا اغلى من المسكِ واطيبْ»[132]، ومـن الطبيعي أن يحمل بدراً المسـئولية عن انتزاعه المهين من المكان المحبب إلى نفسه:

مـا انـتـزاحـي شـنـه والـلـه ولا لـي مـلالِـه
غيـر مـن بـدر وارجـافـه وقـيـلـه وقـالـه
أفْـحشْ الـقـول واظـهـر غـلـطـة اهـل الـجـهـالـةْ
زيّـن ابـلـيـس فـي عـيـنـه قـبـايـحْ فـعـالـهْ[133]
ظـنْ فيـنـا وصـدّقْ مـا طـلـعْ فـي خـيـالـهْ[134]

وفي شـهر ذي القعدة عام 952هـ/1546م وجدت روح بامخرمة القلقـة الملتاعة راحتها. ووري الثرى في مقبرة وسـط سـيئون حيث لا يزال مقامه يقف بجانب أضرحة السلاطين من آل كثير التي - في التفاتة غريبة من القدر - تضم قبر بدر بو طويرق.[135] واليوم تَحْجُب الضريحـين المقامـاتُ المطليـة بالبيـاض (المقضضة) والمهيبة للسادة من آل السقاف وآل الحبشي.

ويظهر أن خلاف بامخرمة الطويل مع بدر بو طويرق قـد كان بمثابة سـابقة مـن نوعها. ولعله لـم يكن أمرا عرضيـا أن المعارضة ضد حكم بو طويرق التي أعقبت مـوت بامخرمة قد كانـت مرتبطة بمشـايخ الصوفية؛ فثمـة مـن يذهـب إلى أن حاكم شـبام علـي بن عمر الكثيري الذي ثار ضد بدر بغية نيل الاستقلال. قد كان يسـتمد السـند الايديولوجي من جماعة من الصوفية المحليين الذين يقودهم الشيخ المرموق معروف باجمال (969هـ/1561م) المستشـار الأول للسـلطان والمؤتمن على أسـراره. ولا بـد أنّ باجمال المعاصـر لبامخرمة والأصغر سـنا منه. والذي درس على يـد باهرمز. قد كان على معرفة مباشرة بالشـاعر با مخرمة وبشعره. ويبدو من المنطقي، أيضا، أن نذهب إلى أنه قد شـارك بامخرمـة امتعاضـه مـن تعالي بـدر. وأنـه كان يريد أن يدمـج الأخـلاق الإسـلامية ضمن سياسـة الدولة مسـتفيدا من تأثيره على حاكم شـبام.[136] ولقد كلف أمر هزيمة علي بن عمر الكثيري وإخضاع شـبام بدرا وقتـا طويلا وجهـدا عسـكريا كبيرا. وعندمـا أخمد تمرد علي بن عمـر بصورة نهائية عام958هـ/1551م. أمر بدر بوطويرق بإنزال إهانة شـعبية في حق الشـيخ المتمـرد باجمال وطرده مـن السـلطنة الكثيرية. وفي حـدث لا يخلو من دلالة انتهت الحـال بباجمال إلى أن يلحق بالمعسـكر المعادي لبوطويرق الذي يقوده الشـيخ عثمـان العمودي فـي وادي دوعن، الـذي وفر الحماية للشـيخ بعد طرده من شـبام.[137] و أخيرا يعرض أحد المصـادر التاريخيـة، على الأقل، لحادثـة خلع ابن بدر عبداللـه لأبيـه ثم سـجنه بناء علـى رؤيـا رآهـا بعض الصالحـين، وحاصلها أنه رأى جماعة مـن أولياء الله الصالحين وهـم في عالم الغيب يولون عبدالله وينهون حكم بدر[138]. ومما تجدر الإشـارة إليه أن هذا المصدر نفسـه يذكر أن عبدالله كان، على خلاف أبيه، «حسن الاعتقـاد فـي الصالحين محبـاً للفقراء والمسـاكين».[139] ولعـل الناظر من هذا المنظور نفسـه يرى في تلك

(131) السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين، مج1، ص131 والصفحة التي تليها.
(132) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر با مخرمة، ص161.
(133) هذا المعنى ماخوذ من القرآن، انظر الآية 43 من سورة الأنفال: «وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم» (اثبات الآية من عندي - المترجم)
(134) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص160.
(135) بافقيـه، تاريـخ الشـعر، ص312. وكذلك، سـالم بـن حميد الكنـدي، تاريخ حضرموت، مج1، ص197

(136) الشـاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، ص243 و السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين، مـج1، ص150. وكذا عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة ص51، و كذا ص129.
(137) السقاف، تاريخ الشعراء الحضرمي، مج1، ص147 - 151 ومحمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، ص50 والصفحة التي تليها وكذا الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، ص242 والصفحة التي تليها
(138) سالم بن حميد الكندي، تاريخ حضرموت، مج1، ص216 وعبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص166
(139) نفسه، والصفحة نفسها.

الحادثة ما يبدو « إنصافاً شعرياً » لبامخرمة.

شعر با مخرمة:

لقد كان بامخرمة - كما اتضح لنا من خلال التحليل الذي أجريناه لشعره وحياته - أكثر انخراطا في سياسة عصره من السودي. وقد كان انخراطه واضحا من مضمون شعره الذي كان يأتي، في غالبه، استجابة للأزمات المتعددة، وللتطورات السياسية والعسكرية الدائرة في عصره، والتي أتينا على تحليل بعضها آنفاً. ومع ذلك، فما من شك في أن هذا الشعر قد أنتجه شاعر تحتل قناعاته الصوفية الأولوية قبل أية التزامات فكرية أو اجتماعية أخرى. فقد كان أولا وقبل كل شيء « سلطان الهوى »، كما أطلق على نفسه هو، صراحة، في القطعة الشعرية الآتية:

يا غَريب[140] اعلم العشاق في كل وادي
وادعهم من نواحي الأرض مرّة ونادي
قلْ لهم سلطان الهوى يا غوّادي
اقربوا قَرِّبوا أوراقكم والمدادِ
واكتبوا يا قضاة الحبِّ هجو السوادِ
من حروفي وهيمُوا في بوادِ البُوادِي[141]
فإنه اليُوم طَمَا مُوج بحر السِودَادي[142]

ونجد أن موضوعات معينة ككون الشاعر هائما في حب الله، وكونه في حالة سكر دائم بسبب شربه من كأس ذلك الحب إلى درجة « الفناء » في حضرة ربه، تسري في نسيج نصوصه لتكوّن لحمتها وسداها، مثلما تظهر هذه القصيدة بصورة رائقة:

ذقت خمر الهوى العذري مع كلْ من ذابْ
ذقت كأس الحَلَى منّه وكأس التحجّابْ[143]
فامسوا اهلُهْ لفتوَى مَذهَبي فيه طلابْ
واستقوا من مَدامي مَنْ حَضرْ منهم أوْ غابْ
ذا وأهل الخلاعة كلُّهمْ والتحجّابْ[144]

هذه الأبيات وغيرها كثير في ديوان أشعار بامخرمة تعيد أصداء البيت الشعري الشهير لابن الفارض:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن تخلق الكرم[145]

وكما ذكرنا في حالة السودي، فإنّ تأثير هذا الشاعر الصوفي المصري على ورثته اليمنيين قد كان واضح الملامح، على الرغم من أنهم قد درجوا على استخدام الشعر العامي أكثر من الشعر الفصيح في توصيل تجاربهم الصوفية.

وعلى خلاف السودي الذي نظم كما هائلا من شعره بالطريقة الحمينية على طريقة الموشحات، فضل بامخرمة أن يعتمد القصيدة «الريفية» ذات القافية الواحدة. ولدى بامخرمة قصائد إنشادية ظل بعضها يحظى بشعبية لدى المتصوفة اليمنيين ويؤدى في الحضرات الصوفية في اليمن.[146] و يصف أحد

(140) من الواضح أن « باغريب » اسم لمنشد صوفي، وكثير من قصائد بامخرمة تستفتح بنداء أشخاص من المنشدين سواء كانوا ذكورا أو إناثا.

(141) لعل في ذلك إشارة إلى العهد الأول الذي أخذه الله من ذرية آدم كما جاء في القرآن في الآية172 من سورة الأعراف (الآية مثبتة في الحاشية رقم 76 - المترجم)

(142) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص122 - 123.

(143) طبقا لـ إم. بايامنتا في: « قاموس عربية اليمن في فترة ما بعد العصر الكلاسيكي » مجلدان، (ليدن: إي. برل، 1990م) مج1، ص83، فإن هذه الكلمة تحمل معنى « الستر » و« الخفاء » و« الاحتجاب ». أما في هذا السياق، فإنها تعني « حميا الحب » و« لوعة الحنين » (ولعله حنين لشيء خفي).

(144) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص203.

(145) نفسه، ص202، وانظر ديوان ابن الفارض، تحقيق: جي. سكتولين (القاهرة: المعهد الفرنسي للآثار الشرقية « إفاو »، 2004م) ص150، وكذا كتاب: عمر ابن الفارض: شعر صوفي وحياة ولي، ترجمة إي هومرن (نيويورك: باولست برس، 2001م) ص47.

(146) يعد أحد الكتاب المحدثين هذه القصيدة من نمط الرجز، انظر: السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين، مج1، ص140 والصفحة التي تليها، وانظر كذلك ص139

المؤرخين الحضارم شعر بامخرمة على النحو الآتي:

«ونظمه كثير جداً، وهو مشتمل على كثير من إشارات الصوفية واصطلاحاتهم ومسائلهم الدقيقة، وعليه حلاوة وفيه طلاوة، على غناء أهل الجهة وأصواتهم ومواخذهم، ويقال له عندهم الدان[147]، ومن أكثر شعره من ذلك يحتوي مجلّدات، ولهذا يحفظه أهل تلك الجهة كثيرا ويتمثلون به، وهو سلس الألفاظ قريب المعاني يفهمه كلّ أحد بحسب حاله في المحبة المجازية ونحو ذلك، وهو مع ذلك مشتمل على كثير من الأمثال المتداولة بينهم،...، وله مصنفات ورسائل». [148]

و ممّا يدل على أن بامخرمة كان يؤلف بعض الشعر، عامدا وواعيا، من أجل أن يؤدّى في جلسات السماع، القطعة الشعرية الآتية:

فاكتبوا من كلامي ذي يؤرَّخ ويكتبْ
اكتبوا منه فإنه حِين يُروَى به اعجبْ
حين يُعْرَضْ في المجالس على سَمع من حَبْ
صار فيهْ الطربْ وامسى يغني ويُطَربْ
في حروفه دواء لاهْل المحبهْ مجرَّبْ
اهْل ذا واهْل كُلّينْ من مَاه يشْربْ[149]

خاتمة

أودُّ الآن أن أختم حكايتي عن هذين الشاعرين بملاحظات عامة ؛ يأتي في مقدمتها أن كلا من الشاعرين السودي وبامخرمة قد وُهِب قدرةً شعرية غنيةً وفذة، وكان لدى كل واحدٍ منهما من الميزات المؤثرة ما جعله يحدث أثرا عميقا في مجتمعه. وعلى الرغم من أن كلا منهما كان يمتلك شخصية كارزمية مؤثرة ومعرفة علمية وشعبية واسعة. فإن أيا منهما لم يسع من أجل منصب سياسي أو مكانة اجتماعية. وهذا يدل على حصافتهما في زمن يسوده الاضطراب والصراع السياسي، مع تفاقم الأطماع الاستعمارية للفاعلين السياسيين والعسكريين الجدد في المنطقة. وهم العثمانيون والبرتغاليون. بيد أن بامخرمة كان أكثر انغماسا في الشأن السياسي من خلال تعرض شعره لكل التقلبات السياسية التي شهدها عصره كالغزو البرتغالي للسواحل الحضرمية. والتهديد الذي تعرضت له حضرموت من قبل دولة شرف الدين يحيى (965هـ/1555م) الزيدية التوسعية. [150] وطغيان بدر بو طويرق وقساوته في تعامله مع معارضيه وأقاربه. وآثار الحرب المدمرة على المجتمع، وغير ذلك. ومع كل ذلك، فقد غلب عليه نزوعه الصوفي في نهاية المطاف فأمضى سنينه الأخيرة معرضا عن نقائص هذا العالم ومصغيا إلى السماع الصوفي. يؤلف الشعر الصوفي وينشر تعاليمه بين مريديه العديدين.

أما فيما يتعلق بالسودي، فإننا نجد أن أدبه كان أدبا جوّانيا. والظاهر أن الأحداث السياسية المزعجة والمتقلبة في عصره لم تكن تكدر صفوه الداخلي. على الرغم مما قيل عن تنبئه بالغزو العثماني الوشيك لبلده. ولعل محاولته في أن يتوسط عند السلطان عامر بن عبدالوهاب من أجل سكان تعز المهضومة حقوقهم وقد فشلت تلك المحاولة. هي ما جعله يشعر بالإحباط والمرارة. وعلى كل حال. فإن السودي ظل

(147) لمناقشة أوفى عن هذا اللون من الغناء الشعبي الذي لا يزال واسع الانتشار لدى الحضارم يمكن الرجوع إلى عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر با مخرمة، ص88 - 92.

(148) بافقيه، تاريخ الشعر، ص314.

(149) عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص80.

(150) انظر على سبيل المثال القصيدة التي [illegible] الزيدي في عبدالرحمن جعفر بن عقيل، عمر بامخرمة، ص[illegible].

متحاشيا الاتصال بأصحاب السلطات الدنيوية سواء منهم المحليون أو الأجانب، وظل معرضا عن انتقاد سياساتهم. وقضى آخر سني عمره - كما فعل معاصره الأصغر منه سنا عمر بامخرمة - مصغيا إلى السماع الصوفي، يؤلف الشعر ويربي المريدين، ويتعاطى القهوة والقات.

وقد أثار هذا النمط من العيش والتسلية حفائظ أنصار اللياقة الاجتماعية والحشمة الدينية. ويتجلى سخط هؤلاء في تلك الأبيات الشعرية التي أقتبسها الشوكاني (ت1250هـ/1834م) في البدر الطالع:

وجماعة رقصوا على أوتارهم
يتجاذبون الخمر عن أكوابه
يتواجدون لكل أحوى أحور
يتعللون من الهوى برضابه
أصحاب أحوال تعدوا طورهم
فتنكروا في الحال عن أحزابه[151]

وكما يظهر جليا، فإن هذين الشاعرين، محل الدراسة، قد استخدما موهبة الشعر لنشر الأفكار والمثل الصوفية بين أهل عصرهما. وقد نجحا في مهمتهما تلك، حيث أصبحت التعاليم والممارسات الصوفية في المناطق السنية من اليمن جزءا لا يتجزأ من الحياة والثقافة اليومية. ويصح لي أن أجادل بأن المشايخ الصوفيين من ذوي الشعبية الواسعة والشخصيات الكارزمية المؤثرة كالسودي وبامخرمة لم يقوموا بنشر التصوف بين أهل عصرهم فحسب؛ بل إنهم، بمعنى من المعاني، أنشئوا ثقافةً ونمطَ عيشٍ ومنظومةَ قيمٍ دائمة وقابلة لأن تكون بديلا عن الروح القبلية القتالية التي كانت سائدة لدى النخبة الحاكمة في بلدهم الذين اتسموا بالاحتراب المستمر من أجل السلطة وبالسلوك الجشع تجاه رعاياهم المقهورين حتى أصبحوا خطرا يهدد المجتمع بتمزيق مؤسساته الاقتصادية ونسيجه الاجتماعي الهش. ومهما يكن من أمر حول التفسير الذي يرجع نشاطاتهم واعتقاداتهم إلى النزعة الهروبية، اتساقا مع الأطروحة التي تذهب إلى أن للدين وظيفة تعويضية، فإننا لا نستطيع أن ننكر أنهم نجحوا في خلق ثقافة مضادة لسلوكيات الوحشية والغدر والجشع والتقليد الفكري والسلوكي التي كانت متفشية في عصورهم تلك.

ونستطيع أن نذهب أبعد من ذلك لنرى في سماعهم متعدد الألوان؛ وفي ترنحهم راقصين عند تواجدهم؛ وفي عباراتهم الوجدانية الشاطحة؛ وفي دعواهم الاتحاد مع الله؛ وفي قصص كراماتهم التي تنتصر فيها الفضيلة على الشر والظلم؛ وفي استخفافهم العامد بالمواضعات الاجتماعية والأخلاقية - نستطيع أن نرى في كل ذلك تحدياً صارخاً لبلادة الحياة ونكدها.

(151) الشوكاني البدر الطالع. ص553 (لم يشر الكاتب إلى الطبعة التي أخذ عنها الأبيات. والأبيات ضمن قصيدة أوردها الشوكاني للقاسم بن أحمد بن عبدالله بن القاسم بن أحمد بن لقمان بن أحمد بن شمس الدين ابن الامام المهدي أحمد بن يحيى عند ترجمته له (وقد كان صديقه) وهي موجهة إلى الشوكاني نفسه ويتحدث فيها القاسم عن المتصوفة. ورد عليه الشوكاني مؤيدا رأيه فيهم بقصيدة تعارضها وزنا وقافية وتتطابق معها في المعاني مع زيادة في التفصيل. انظر. محمد بن علي الشوكاني. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج2. دار المعرفة. بيروت - لبنان. د. ت. د. ط. ص33 - المترجم).

نظرة الكتاب الكلاسيكيين لتجارة الجزيرة العربية

د/ عبدالله بن عبدالرحمن العبدالجبار

الأستاذ المشارك بقسم التاريخ كلية الآداب جامعة الملك سعود

توطئة:

تبوأت تجارة الجزيرة العربية جانباً مهماً في تاريخ الشرق الأدنى القديم منذ الألف الثالث قبل الميلاد ما دفع دول المنطقة وإمبراطورياتها إلى الاهتمام بها والعمل على السيطرة عليها عن طريق التبادل السلمي أو القوة العسكرية. وتهدف الدراسة إلى تقييم نظرة الكتاب الكلاسيكيين لتجارة الجزيرة العربية وثرواتها. خلال الفترة من القرن الخامس قبل الميلاد وحتى القرن الأول الميلادي. التي تمثل فترة زمنية مهمة في تاريخ الجزيرة العربية وتجارتها. ويركز البحث على تحليل الكتابات الكلاسيكية عن تجارة الجزيرة العربية. ودور الكتاب في تزويدنا بمعلومات عن التجارة والأوضاع الاقتصادية في المنطقة، من خلال كتاباتهم عن السكان والقوى السياسية والبضائع وحجم التجارة والضرائب المحصلة عليها، ومدى تأثيرها على الاقتصاد الروماني.

وسوف نركز على التحقق من مدى صدق هؤلاء الكتاب في تقييم تجارة الجزيرة العربية. من خلال مقارنة معلوماتهم بالتجارة القائمة في تلك الفترة وبالشواهد الأثرية التي عثر عليها في الجزيرة العربية والمناطق المجاورة.

شدَّت تجارة الجزيرة العربية اهتمام الكتاب الكلاسيكيين، مادفعهم إلى البحث والتحري عن مصادره هذه التجارة وأنواع السلع المصدرة ومناطق الإنتاج وغيرها من الموضوعات ذات الصلة، التي اكسبت العرب شهرة عالمية في الأسواق الدولية، كما تحدثوا عن ثراء العرب الأسطوري، وامتلاكهم الأموال والثروات الضخمة، التي حققوها من تجارة المواد العطرية والتوابل والمشتقات الأخرى. وقد أثرت كتاباتهم على القادة العسكريين، مثل الإسكندر وخلفائه والقادة الرومان، وشجعتهم على إرسال الحملات العسكرية لغزو الجزيرة العربية[1]. وظل الاهتمام حتى العصور الحديثة حيث شهد القرن التاسع عشر الميلادي زيارة عدد كبير من الرحالة للجزيرة العربية للتنقيب عن كنوزها واستكشاف مناطق إنتاج البخور ليجابهوا بخيبة كبيرة، مثل من سبقهم في العصور

(1) لاتزال النظرة الكلاسيكية تهيمن على الكتابات العربية [illegible] العربية خلال الفترة الكلاسيكية انظر مثلاً هيكتور [illegible] الشتاء والصيف بيروت المركز الثقافي [illegible] 1992م ص 26، 42 [illegible] عبدالرحمن سعد إبراهيم، تجارة روما مع الهند وجنوب [illegible] العصر الإمبراطوري دراسة اقتصادية واجتماعية [illegible] ماجستير غير منشورة جامعة المنصورة 2006م ص 231، 223

القديمة، لأن الجميع بالغ في أثرها على الجزيرة العربية[2].

ويمكن ربط نظرية ثراء سكان الجزيرة العربية لأول مرة عند هيرودوت[3] الرأي المتأخرين الذي تطرق إلى اهمية منتجات الجزيرة وصادراتها، وظل هذا الرأي لدى الكتاب المتأخرين حتى العصور الميلادية، وتطورت النظرة خلال القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي لتصل إلى اتهام العرب باستنزاف الخزينة الرومانية، نتيجة إنفاق الرومان الهائل على المنتجات العطرية والتوابل للاستخدام في الحفلات الرسمية وغير الرسمية، أو للاستخدام في المنازل والحمامات العامة والعلاج وصناعة المستحضرات الطبية والزينة، وهو ماسوف نفصله لاحقاً. ولكن قبل ذلك من المهم معرفة الطبيعة الاقتصادية للجزيرة العربية خلال العصور القديمة.

وحقيقة لايختلف مجتمع الجزيرة العربية عن المجتمعات الأخرى في العصور القديمة، حيث كان مجتمعاً زراعياً من الدرجة الأولى[4]. ولم يكن للتجارة أو الصناعة دور مؤثر في النشاط الاقتصادي، وحتى الرعي كان يعد مكملاً للنشاط الزراعي، ولم يعتمد عليه سوى عدد قليل من سكان الجزيرة العربية، كما تدل على ذلك الشواهد الاثرية والنقوش. فمن خلال دراسة آلاف النقوش المكتشفة في الجزيرة العربية يتضح اقتصارها على جوانب سياسية وعسكرية ودينية وزراعية، ويندر العثور على نقوش تتناول الموضوعات التجارية المتعلقة بتجارة المواد العطرية. فعلى الرغم من مشاركة كثير من الممالك العربية في تجارة البخور مثل، السبئيين، والقتبانيين، والمعينيين، والجرهائيين، والأنباط، والتدمريين، إلا أن النقوش التي تناولت التجارة اقتصرت على النقوش المعينية والتدمرية، ففي النقوش المعينية نجد نقش زيد إيل المعيني (حوالي 264/263 ق.م) في مصر ونقش هاني وزيد إيل في ديلوس[5]، أو النقش المعيني، الذي يشكر كاتبه الرب على نجاة قافلتهم من الحرب بين «مذي ومصر»[6]. كذلك تتكرر عند التدمريين النقوش التي تناولت انخراط التدمريين في التجارة وتقديمهم الشكر للآلهة على نجاح تجارتهم[7]

استهلاك البخور في العصور الكلاسيكية:

قبل التطرق إلى استهلاك منتجات الجزيرة العربية ينبغي تأكيد أن التجارة الشرقية ليست تجارة رفاهية، بل هي تجارة ضرورية لمجتمعات الشرق الأدنى، بما في ذلك الإغريق والرومان، لسبب يسير يكمن في أن معظم هذه السلع تتعلق بحياة معظم السكان لارتباطهم بطقوس العبادة والدفن والعلاج منذ الألف قبل الميلاد، حيث تناولت الكتابات الآشورية والبابلية والنصوص التوراتية العلاقات الحربية والتجارية مع العرب[8]. ولذلك برز عدد من الباحثين الذين رفضوا وصف التجارة الشرقية بتجارة السلع الفاخرة لهذا السبب اليسير نفسه، وهو أن معظم هذه السلع تتعلق بحياة معظم السكان لارتباطها بطقوس العبادة والدفن

(2) حول الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية وماذكروه من معلومات تتعلق بتاريخها القديم وتجارتها انظر جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب خمسة قرون من المغامرة والعلم: ترجمة قدري قلعجي. - الرياض: منشورات الفاخرية، ب.ت. سمير عطا الله قافلة الحبر: الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج (1762 1950م) - بيروت: دار الساقي 1994م.

(3) مؤرخ إغريقي ولد في بلدة هليكرناسوس (حوالي 484 425 ق.م) ولقب ابو التاريخ بعمل كتابه « تاريخ هيرودوت» قام برحلات إلى مناطق البحر المتوسط مثل مصر وسوريا وشمال أفريقيا وكتب عن الحروب اليونانية الفارسية. انظر Lucian Boia (edt). Great Historians from A ntiquity to 1800· an Interna - tional Dictionary. London. Greenwood press 1989. pp. 189 191

(4) حول أهمية الزراعة ودور التجارة في العصور الكلاسيكية انظر Neville Morley. Trade in classical An.. tiquity. Cambridge University press 2007. PP. 1 11 وفي الجزيرة العربية. انظر نورة عبدالله النعيم الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي. ط1. الرياض. دار الشواف. 1992م. ص 94، 98، 285.

(5) سعيد فايز السعيد. العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر في ضوء النقوش العربية القديمة. - الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية 2003، ص 118 119. باسم سمير الشرقاوي بعض الجاليات الأجنبية التي عاشت في مصر القديمة. « العدد التكريمي. تحفة حندوسة. المجلس الأعلى للآثار. 2007م. http//www. adabalex. org/vb/showthread. php?. t= 8278. 2011/1/15م.

(6) محمد بيومي مهران. «دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة. « مجلة اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، 6(1976م)، ص 326 327.

(7) Gary K. Young. Rome›s Eastern Trade. International Commerce and Imperial policy. 3 IBC – AD 305. London: Rutledge 2001.pp. 136 143

(8) مهران. « دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة». ص 337، 355، 377 380.

والعلاج[9]. وقد ذكر الكتاب الكلاسيكيون أنواعاً كثيرة من المواد العطرية المشتقة من اللبان، والمر، والبلسم، والقرفة، التي عرفوها باسماء مختلفة حسب مناطق الإنتاج، وصنفوا المواد حسب الاستخدامات المتعددة لها[10]. التي من أبرزها التالي:

- في المعابد تكريماً للآلهة وممارسة الطقوس والاحتفالات الدينية.
- في الجنائز.
- في صناعة الأدوية.
- في صناعة العطور.
- في الحمامات.

ويمكن استعراض أهم الشواهد التاريخية التي ذكرها الكتاب الكلاسيكيون المتعلقة بالبخور منذ القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الأول الميلادي، فخلال العصر البطلمي في مصر (321 - 31 ق.م) نظمت كثير من الاحتفالات ذات الطابع السياسي والديني مثل حفل ديميتريا (Demetria) وحفل الباسيليا (Basilca) وحفل البطوليمايا (Ptolenaca). ويمثل حفل البطوليمايا نموذجاً لهذه الاحتفالات التي هدفت إلى إبراز القوة العسكرية والاقتصادية للدولة من خلال استعراض الجنود والإنفاق الباذخ لإبهار الحضور، وبدأ بإقامته الملك بطليموس فيلادلفيوس عام 279 ق.م للاحتفال بذكرى مرور أربعة أعوام على وفاة والده. وقدم أثينايوس Athenaeus وصفاً لهذا الاحتفال، تناول فيه الكميات الضخمة من الأواني الفضية والذهبية التي حوت كميات كبيرة من البخور وغيرها من المنتجات العربية[11].

وخلال الفترة الرومانية نذكر الكمية الضخمة التي أحرقها الإمبراطور الروماني نيرون (37 - 68م) في جنازة زوجته يوبيا التي ذكر بليني[12] أنها تفوق ماينتجه العرب في عام واحد أي مايعادل حوالي 2500 طن من اللبان[13]. كذلك تبرز عدداً من الشواهد التي تناولت تقديم كميات ضخمة من حاصلات الجزيرة إلى القادة الإغريق أو الرومان خلال مراحل زمنية مختلفة مثل:

- **الحادثة الأولى** تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد حين ذكر هيرودوت تقديم العرب هدايا للملك الأخميني داريوس الأول (521 - 486ق.م) تتضمن ألف تالنت[14] من البخور سنوياً[15].
- **الحادثة الثانية** تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد خلال فتح الإسكندر المقدوني لمدينة غزة. وحصوله على كميات ضخمة من البخور أرسل منها 500 تالنت من اللبان و 100 تالنت من المر إلى معلمه ليونيدس لإحراقها من أجل الآلهة[16]
- **الحادثة الثالثة** ارتبطت بحصار دميتريوس للبتراء سنة 312 ق.م وتقديم الانباط كميات من البخور والجمال لشراء حرياتهم[17]
- **الحادثة الرابعة** وقعت خلال حصار أنطيوخس الثالث للجرهاء عام 205 ق.م وحصوله على فدية ضخمة تمثلت في 1000 تالنت من اللبان و 200 تالنت من المر حيث يذكر بوليبيوس: "استصدار الجرهائيين مرسوماً بتكريم أنطخيوس واهدائه خمسمئة قطعة من الفضة، ومئة قطعة من اللبان.

(9) Steven E. Sidebotham: Roman Economic Policy in the Erythra Thalassa 30. B. C. - A. D. 217. (Mnemosyne Suppl., 91) Leiden: Brill, 1986, p. 45

(10) حول استخدام واستهلاك البخور في المجتمعات القديمة انظر Nigel Groom, Frankincense and Myrrh. A Study of the Arabian Incense Trade, London 1981,pp.1 21 والتجارة الشرقية القديمة - الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث. 1999م، ص 145 ,168 34 39 pp. محمد السيد عبدالغني، شبه الجزيرة العربية ومصر

(11) Morley, Trade in Classical Antiquity, pp. مصطفى كمال عبدالعليم، «بطليموس الثاني والاحتفال بعيد البطوليمايا»، الجمعية التاريخية المصرية، 19 (1972م)، ص 297 324.

(12) Gaius Plinus Secundus ولد في كومو (23 79م) واشتهر باسمه بليني الأكبر وتقلد عدد من المناصب العليا في الإمبراطورية وكتب الكثير من الأعمال العلمية من اشهرها كتاب "التاريخ الطبيعي" انظر Groom. Frankincense and Myrrh. P. 77 78

(13) Pliny. Natural History trans. by H. Rackham. Cambridge. 1963.12. 41 48. Groom. Frankincense and Myrrh.p. 159 161

(14) تساوي التالنت حوالي 25. 5 كيلو غراماً.

(15) Herodotus. The History of Herodotus. Trans. by A. D. Dodley. London. Loeb classical Library 1981.3. 97

(16) Plutarch. Lives.Live of Alexander.trans. by John Dryden. The Classical Archive. http // classics. Mit. Edu/ Plutarch/ ch 25.2010/9/alexandr.html.23

(17) Diodorus Siculus. Library of History. Trans. By C. H. Oldfather London. Loeb classical Library 1935.19.97.4 98. 1

ومئتي قطعة مما يسمونه عبق البخور"[18].

- تقدم هذه الشواهد نماذج تاريخية على ذكر البخور خلال العصور الكلاسيكية وربطه بالجزيرة العربية، وهي جزء من الأدلة التي سيقت للدلالة على الثراء الفاحش للجزيرة العربية ولكن يجب ملاحظة أن هذه النماذج تعد حالات فردية، امتدت على مدى أربعة قرون ولاتعبر عن تجارة الجزيرة.

الكتاب الكلاسيكيون وتجارة البخور:

بدأ الكتاب الكلاسيكيون في الحديث عن تجارة الجزيرة العربية منذ القرن الخامس قبل الميلاد، ومن أبرز الكتاب الكلاسيكيين الذين تحدثوا عن تجارة الجزيرة ومنتجاتها:

- هيرودوت/ Herodotus 430 ق. م
- ديودور/ 28 - 80 Diodurus[19] ق. م
- سترابو/ 64 [20] Strabo ق. م - 25م
- بليني/ 79 - 23 pliny م
- كتاب الطواف حول البحر الأريتيري القرن الأول الميلادي[21]
- فتيوس القسطنطيني[22] 810 - 893م

يعد هيرودوت أول من تناول صادرات الجزيرة العربية من البخور حين ذكر إنتاج الجزيرة لعدد من المواد العطرية مثل اللبان والمر والقرفة. ومعاناة العرب في حصاده، واشار إلى ثراء العرب وإعفاء الملك الأخميني دار الثاني لهم من دفع الضرائب مقابل تقديمهم هدية ضخمة من اللبان سنوياً، تمثلت في كمية قدرها ألف تالنت من البخور[23].

وبعد هيرودوت تواترت الكتابات الكلاسيكية عن الثراء العربي عند الكتاب الإغريق والرومان، وأبرز الكتاب الذين تحدثوا عن الجزيرة العربية وثرائها، المؤرخ والجغرافي أجاثاراخيدس[24]. خلال وصفه لجنوب الجزيرة ومناطق إنتاج اللبان حيث كتب: ومن تجارتهم أصبح السبئيون والجرهاثوين من أكثر الناس ثراءً وكان لديهم عدد كبير من المقتنيات الذهبية والفضية مثل المقاعد والأسرة ذات الثلاثة مقاعد والأقداح. كما كان لديهم أكواب للشرب ومنازل باهضة الثمن حتى أن الأبواب والجدران والأسقف كانت مطرزة بالعاج والذهب والفضة ومرصعة بالأحجار الكريمة[25].

وهذا النص شبيه بالنص الذي أورده البطريرك فتيوس القسطنطيني نقلاً عن نفس المؤلف حيث يورد«لايوجد شعب يتمتع بالثراء مثل السبئيين والجرهائيين نظراً لعملهم مستودعاً ضخماً لكل البضائع القادمة من آسيا وآفريقيا التي تدخل ضمن البضائع الفاخرة. وقد جعل هؤلاء الاشخاص سوريا البطلمية غنية بالذهب، وهم بفضل نشاط الفينيقيين وبالإضافة إلى آلاف الأشياء، نجحوا في السيطرة على أسواق المنتجات الفاخرة، هذا ولم يقتصر غناهم على الأعمال المنقوشة والأكواب دقيقة الصنع بل تعداها ليشمل أسرتهم وطاولاتهم ثلاثية الأرجل كما وصل قمته في الأغراض المنزلية الأخرى التي هي عادية بالنسبة لنا ويبدو أن كثيراً منهم يمتلك ثروات ملكية ويقال إنهم قاموا ببيناء كثير من الأعمدة من الذهب أو الفضة ؛ بالإضافة إلى أن أسقفهم،وابوابهم زينت بحفر غائرة محشوة بالأحجار الكريمة.. وباختصار

(18) Groom. Frankincense and Myrrh. p. 195

(19) مؤرخ موسوعي إغريقي (حوالي 104 20 ق. م) ولد في جزيرة صقلية. عاش في روما وسافر إلى عدد من الولايات الرومانية ألف «المكتبة التاريخية»، في 45 مجلداً نقل معظم مادته من الكتب التي رجع إليها. انظر Boia. Great Historians from Antiquity to 1800. pp. 185 186

(20) ولد في آسيا الصغرى (حوالي 64 ق. م - 26م). وهو جغرافي وفيلسوف رواقي من انصار الإمبراطورية الرومانية وتقلد عدداً من المناصب في الإمبراطورية قام برحلات كثيرة والف موسوعته المشهورة «الجغرافية»، في 47 مجلداً، انظر 195 Boia. Great Historians from Antiquity to1800.pp. 194

(21) هنالك اختلاف بين الباحثين حول تاريخ كتابة هذا الدليل ولكن المرجع الآن هو النصف الثاني من القرن الأول الميلادي. انظر عبدالله حسن الشيبة دراسات في تاريخ اليمن القديم. - تعز: مكتبة الوعي 2000. ص 207 223.

(22) البطريرك فتيوس القسطنطيني 893 810 Photius of Constantinople(م) بطريرك مدينة القسطنطينية (857 886م) وقام بدور سياسي كبير ألف عدداً من الكتب من اشهرها «المكتبة»، نقل فيه أجزاء من مؤلفات الكتاب الأغريق والرومان. انظر Groom. Frankincense and Myrrh. p67 68

(23) Herodotus. 3.97

(24) Agatharchidesجغرافي ونحوي عاش في الإسكندرية خلال القرن الثاني قبل الميلاد والف عدداً من الكتب أحدها عن البحر الأحمر ولكن كتبه مفقودة Groom. Frankincense and Myrrh. P. 66

(25) Strabo. The Geography of Straboo. Trans.By H. L. Jones London. Loeb classical Libraryy 1930.16. 14. 4.

يوجد اختلاف كبير بين ثرائهم وثراء الآخرين»[26]

ويزودنا سترابو بمعلومات مختلفة عن ثراء سكان الجزيرة العربية حيث يشير أثناء حديثه عن حملة إيليوس جاليوس (Aelius Gallus) إلى أن هدف الحملة هو رغبة الإمبراطور قيصر في كسب العرب أو إخضاعهم، بسبب التقارير التي تحدثت عن ثرائهم الفاحش، التي برزت منذ وقت طويل، نتيجة بيعهم البخور وجميع الأحجار الثمينة مقابل الذهب والفضة وعدم رغبتهم في التعامل مع الأشخاص الخارجيين في جميع ماحصلوا عليه من الذهب والفضة، وذلك لأن القيصر رغب في التعامل مع أصدقاء أثرياء، أو السيطرة على أعداء أثرياء[27].

إن أسطورة الثراء العربي لم تقتصر على اشتغالهم في تجارة المواد العطرية والبخور بل نجد كاتباً مثل فتيوس القسطنطيني ينقل من كتاب أجاثارخيدس «حول البحر الأريتيري» مقتطفات واسعة، يشير فيها إلى وجود كميات كبيرة من الذهب في مساحات شاسعة من الجزيرة العربية على شكل كتل من الذهب الخالص أو المخلوط خلطاً يسيراً، وأنه يباع بثمن بخس حتى إن وزنة الذهب تستبدل بمثليها من الحديد، وبثلاثة أمثالها من البرونز وعشرة أمثالها من الفضة. كما تحدث فتيوس عن نهر جار ينقل معه غبار الذهب بكميات كبيرة، ولكن الناس لايعرفون كيف يستخرجونه[28].

وآخر الكتاب الكلاسيكيين الذين قدموا وصفاً لتجارة الجزيرة العربية هو مؤلف كتاب «الطواف حول البحر الأريتيري»، لكن الملاحظ عدم إشارته إلى موضوع ثراء الجزيرة العربية من البخور والعطور، وربما يعود ذلك في المقام الأول إلى ازدياد المعرفة بالجزيرة ومناطقها نتيجة تطور معرفة الرومان والملاحين الإغريق بتجارة المنطقة، والتكاليف الخاصة بالتجار. أو لتقلص مداخيل العرب من التجارة نتيجة تطور الملاحة البحرية. كما يبرز احتمال عدم تأثر التجارة البرية بتطور الملاحة نظراً لطبيعة منتجات الجزيرة ومواسم حصادها، وأن التطور الكبير في التجارة البحرية حدث مع الهند. وليس مع الجزيرة العربية، وذلك بسبب صعوبة الملاحة في البحر الأحمر في بعض مواسم الحصاد مايتيح لتجار الجزيرة العربية نقل منتجاتهم قبل وصول السفن البحرية أو بالتزامن معها[29].

وفيما عدا الكاتب بليني، الذي سوف يفرد بالدراسة لاحقاً، فإن هؤلاء الكتاب أبرز من كتب عن تجارة البخور في الجزيرة العربية، حيث تناول عدد منهم جغرافية الجزيرة أو بيئتها، وكان لهم تعليقات موجزة على تجارة الجزيرة العربية. تمثل امتداداً للكتابات السابقة بالنظر إلى تجارة الجزيرة العربية[30]. ومع القرن الثاني الميلادي تقلص الاهتمام بالتجارة. نتيجة عدد من العوامل التي أدت إلى تقلص التجارة بدءاً من نهاية هذا القرن لأسباب يمكن تلخيصها في التالي:

- توقف التوسع الروماني ووصوله إلى اوجه مع بداية القرن الثاني الميلادي، ماأدى إلى تقلص الغنائم المحصلة من الحروب الخارجية والقدرة على الإنفاق.
- بدء الحروب الأهلية في الإمبراطورية الرومانية مع نهاية القرن الثاني، وبدأت الحروب مع الدولة البارثية.
- انتشار النصرانية وسعي أتباعها إلى القضاء على الرموز الوثنية، ومنها إحراق البخور في المعابد والاحتفالات الدينية.

بليني والتجارة العربية:

تقدم كتابات بليني (23 - 79م). وهو عسكري ومحام وقائد لاسطول روماني، أفضل سجل مفصل

(26) Groom, Frankincense and Myrrh, p. 71.
(27) Photius, frag. 102. Groom, Frankincense and Myrrh, p. 71.
(28) Strabo. 16. 4. 24.
photius, frag. 96. Groom, Frankincense and Myrrh, p. 69.

(29) ترد إشارات إلى العرب وتجارتهم في أشعار هوميروس وهسيودوس [illegible] وكذلك عند الجغرافيين [illegible] وإراتوستنيس [illegible] الجغرافي وغيرهم من كتاب العصر الكلاسيكي. انظر لطفي عبد الوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار النهضة العربية، 1979، ص 195، 216.
(30) Young, Rome's Eastern Trade, p. 106.

عن منتجات الجزيرة العربية واسعارها، ومراحل التجارة والمسافة التي تقطعها. وقد ذكر بليني أنه نتيجة لازدياد الطلب على المر واللبان أصبح يجمع مرتين في السنة، إحداهما في الصيف، وهو موسم الحصاد الرئيس، والثانية في موسم الربيع[31].

ويعد بليني من منتقدي التجارة الشرقية، وهو القائل باستنزافها للخزينة الرومانية، كما سوف نرى لاحقاً.

كان بليني، بصفته أحد المسؤولين الرومان على دراية بالأمور المالية في الإمبراطورية الرومانية مايفترض لتقديراته عن تجارة الجزيرة العربية صدقية كبرى، ولكنها ليست كذلك. فقد قدر الإنفاق الروماني على تجارة الجزيرة العربية والهند والصين بحوالي 100مليون سيسترز[32]. وفي جزء آخر يرى أن حجم التجارة مع الهند يبلغ على أقل تقدير حوالي 50 مليون سيسترز أو مايعادل بليون يورو[33]، تنفق على الكماليات في الاحتفالات

والمعابد والزينة التي تباع في الإمبراطورية الرومانية بثمن يبلغ مئة مرة ضعف ثمنها الأصلي[34]

كان اللبان والمر أهم صادرات الجزيرة العربية وبدرجة أقل البلسم والقرفة، بحيث مثلت نسبة اللبان حوالي 60 % والمر 30 % من الصادرات وباقي السلع حوالي 10 %[35]. ووضع بليني قائمة باسعار المنتجات المصدرة من الجزيرة العربية، مثل اللبان، والمر، والقرفة، والبلسم، التي تمثل سعر التجزئة في روما[36].

ويذكر بليني معلومات حول وجود أنواع مختلفة من اللبان، والمر حيث ذكر بليني أن سعر المر الأريتيري هو 16 ديناراً للرطل. و 16. 5 ديناراً لمر ساكني الكهوف، و 12 ديناراً للمر المعطر والمر المزروع[37].

في حين يصل سعر البلسم الفلسطيني إلى 1000 دينار وسعر القرفة بين 300و1500 دينار للرطل[38]. وهذه الأرقام تدل على تدني اسعار اللبان والمر مقارنة بالمنتجات الأخرى، وهو ماسوف نفصله عند مناقشة اسعار هذه السلع.

ويلاحظ من أسعار بليني تدني أسعار اللبان والمر، أهم عنصرين في صادرات الجزيرة العربية، مقارنة بالسلع الآخرى، مثل البلسم والقرفة. فقد حدد سعر رطل اللبان حسب الجودة بستة دنانير وخمسة دنانير وثلاثة دنانير. أما رطل المر فتراوحت أسعاره بين 12و 3. 50 دنانير، أي أن سعر اللبان الذي يمثل 60 % من الصادرات يعادل نصف سعر المر.

وقد ظهر اختلاف بين الباحثين حول هذه الأرقام، وهل تمثل المبالغ النقدية أو الذهب أو المقايضة بأسعار أخرى. ففي حين يرى جروم عدم إمكان تصدير سلع رومانية تكفي لتغطية الواردات. وأن معظم الاستيراد كان يغطى بالذهب ماأدى، إلى استنزاف السبائك الذهبية. واسهم في انخفاض قيمة العملة وانهيار الاقتصاد الروماني[39]. لكن الدراسات الحديثة تنتقد هذه النظرة لعدة أسباب سنفصلها لاحقاً. فعلى سبيل المثال يؤكد هاريس أن الجزء الأكبر من التبادل التجاري لم يكن يعتمد على الذهب والفضة، بل كان عن طريق السندات والقروض، حيث تشير برديات Muziris [40] إلى شراء أحد المقرضين سفينة أحد

(31) Groom. Frankincense and Myrrh.pp. 146 148. Young. Rome›s Eastern Trade. pp.105 106.

(32) Pliny. 12. 41. 84 يساوي الدينار الروماني حوالي 45. 454 سيسترز

(33) Pliny, 6. 26. 101. Amma M. Kotarba Morley. Maritime connections of the Arablan Peninsula in the network of Indo Roman trade study of ports and harbours. ،International Sympo sium on the Historical Relations between Arabia. the Greek and Byzantine World (5 THc. BC 10THc. AD)Riyadh.6 9 December 2010.

(34) Pliny. 6 26 101

(35) Groom. Frankincens and Myrrh. P 159.

(36) انظر Groom. Frankincense and Myrrh. P. 154. Young.Rome›s Eastern Trade, p. 221

أيضاً جدول أسعار هذه السلع عند كل من Groom. Frankincense and Myrrh. P. 154 155. Young.Rome›s Eastern Trade, p. 221

(37) Pliny. 12. 35. 71.

(38) يرى جروم ان القرفة الواردة عند بليني ربما كانت تستورد من الساحل الصومالي وتختلف عن القرفة التي استوردت لاحقاً من الهند، Groom. Frankincense and Myrrh. pp. 154 155

(39) Groom. Frankincense and Myrrh. pp. 157 158. Eastern Trade pp. 134 135قارن يونغ الذي يفند هذه النظرية Young. Rome›s

(40) ميناء تجاري على الساحل الجنوبي للهند بالقرب من مدينة كيرلا واشتهرت خلال العصور القديمة بتجارتها مع الجزيرة العربية وروم والصين

التجار القادمة من الهند بسبعة ملايين سيسترز[41]. وربما يكون المقصود بهذه الأرقام هو العقود التي تباع للحصول «على عقود بيع حق جباية الضرائب في البحر الأحمر أو في خطوط التجارة الرئيسية الأخرى»[42].

تكاليف الانتاج والتصدير:

لعل أفضل وصف وتقديرلتكاليف نقل البخور عبر الطرق البرية هو الوصف الذي قدمه بليني خلال وصف طرق ومراحل اللبان والمر من مناطق الإنتاج في جنوب الجزيرة العربية وحتى وصوله إلى مراكز الضرائب في الإمبراطورية الرومانية. مثل أرسينوى (السويس) وميوس هورموس (أبو شعر القبلي) وبرينيقى (الحراس) وغزة أو غيرها من المراكز الرومانية، فهو يذكر مرور قوافل التجارة بحوالي 65مرحلة منذ مغادرتها عاصمة القتبانيين تمنع وحتى تصل إلى غزة في رحلة تمتد على طول 1487 . 5ميلا. وكانت كل مرحلة مزودة بمحطات استراحة مجهزة بالمياه والمؤن[43]، يدفع التجار خلالها كثيراً من الضرائب المقدرة من قبل الملك والكهنة وموظفي الملك والحراس ومرافقيهم وحراس الأبواب والخدم، ويظل التجار يدفعون حتى وصول السلع إلى مراكز الإمبراطورية الرومانية(انظر جدول الضرائب). كما تولى عدد من الأسر والجماعات احتكار إنتاج البخور، مثل وجود ثلاثة آلاف أسرة معينية تحتكر زراعة البخور المعيني وتصديره، ولاتسمح لأحد بالاقتراب من مناطق إنتاجه، ماأكسب هذه الأسر صفة دينية حتى لقبوا بـ«المقدسيين»[44].

والنص التالي من بليني يقدم تصوراً عن مراحل تجارة اللبان منذ حصاده وحتى تصديره، والتكاليف التي يتكبدها التجار حتى يصل إلى مراكز الاستهلاك في الإسكندرية، حيث يذكر إنه بعد جمع اللبان كان ينقل على الجمال إلى سوباتا. وهناك تفتح أبواب المدينة للسماح بدخوله، وقد جعل الملك تحول الجمال المحملة عن الطريق المحدد لها جريمة كبرى يعاقب عليها وفي سوباتا تقدر عشر الكمية بدون وزن يحصلها كهنة الإله المسمى سابيس. ولايسمح بوضع البخور في السوق حتى تحصل (ضريبة العشر). وكان يأخذ العشر لتغطية المصاريف المحلية. وفي الحقيقة فإنه خلال أيام محدودة كان الإله يقدم حفلات طعام للضيوف. ولايمكن تصدير البضاعة إلا بواسطة القتبانيين، ولذلك تدفع ضريبة أخرى لملكهم.. وكانت عاصمتهم تمنع تبعد 1487 . 5 ميلاً عن مدينة غزة في فلسطين على ساحل البحر المتوسط. وتتقسم الرحلة إلى 65 مرحلة مع وجود محطات لانتظار الجمال.

كما تقدم كميات محددة من البخور إلى الكهنة أيضاً، وخدم الملك، وبالإضافة إليهم كان هناك الحراس ومعاونوهم وحراس الأبواب وخدمهم الذين يحصلون على جزء من البضاعة وفي الحقيقة فهم يدفعون على طول الطريق، ففي مكان يدفعون للحصول على المياه وفي مكان آخر للعلف وكذلك للحصول على الخدمات الأخرى. وهكذا تصل إجمالي تكاليف الجمل الواحد إلى حوالي 688 ديناراً قبل الوصول إلى البحر المتوسط. وهناك أيضاً تدفع ضريبة إلى مسؤولي الجمارك في إمبراطوريتا. ولذلك فإن سعر أفضل أنواع اللبان يصل إلى ستة دنانير وخمسة دنانير للدرجة الثانية وثلاثة دنانير للدرجة الثالثة[45].

ومن خلال تتبع نص بليني كان على التجار تحمل الكثير من المشقات والمصاعب في سبيل نقل التجارة. ولعل من أبرزها طول المسافة التي يتعين قطعها لنقل التجارة من جنوب الجزيرة العربية إلى منطق الاستهلاك في البحر المتوسط ومرورها بمناطق خاضعة لعدد من الدول والممالك والقبائل عرضت رسوماً وإتاوات على مرور البضائع. كما يجب الالتفات

(41) W. V. Harris، «A Revisionist View of Roman Money، JRS، 96(2006)P. 16 كرس هاريس المقالة لنقد الاتجاه السائد حول التعامل التجاري في الإمبراطورية اررومانية واعتماد بشكل أساس على النقود الذهبية والفضية.

(42) الحسين احمد عبدالله «ميناء برينيقى ونشاطه التجاري في القرن الميلادي الأول» حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - جامعة الكويت 2009، ص 23.

(43) Pliny، 12، 32، 63 صالح ناصر العمري، طريق البخور القديم من نجران إلى البتراء وآثار اليمن الاقتصادية عليه، صنعاء: وزارة الثقافة والسياحة 2004، ص 32 139.

(44) Pliny، 12، 30، 54.

(45) Pliny، 12، 32، 63 64

إلى النفقات المطلوب دفعها لنقل البضائع من تكاليف توفير الإبل وتزويدها بالأعلاف والمياه وتوفير الطعام وعمليات الحراسة، خاصة عندما نعرف أن مسافة الرحلة امتدت لأكثر من 1487 . 5 ميلاً، حسب تقديرات بليني[46]. وسط ظروف وطرق صعبة يكتنفها كثير من المخاطر: لذا فإن تجارة الجزيرة العربية امتازت بأنها تجارة طويلة المدى Long distance trade ماأدى إلى وجود عوامل كثيرة تتحكم بها[47].

ولذلك فإن الدخل المتحقق من التجارة لم يكن كبيراً ليحقق ثروات طائلة للعرب نتيجة توزعه على أطياف كثيرة في المجتمع.

جدول بالضرائب التي يخضع لها البخور بناء على ما أورده بليني في كتاباته

المستفيد	السبب
المعبود سابين	للمعبود سابين ولإقامة الحفلات
الملك	ضريبة الملك
كهنة المعبد	ضريبة المعبد
كاتمو أسرار الملك	خدمات
الحراس ومرافقوهم	خدمات
حراس الأبواب والخدم	خدمات
زعماء محليون	رسوم محطات القوافل
الأفراد	خدمات الأعلاف والمياه
رسوم العبور	ضرائب
الجمارك الرومانية	ضرائب

يوضح الجدول المرفق بعض الضرائب والإتاوات التي يتوجب على التجار دفعها خلال رحلتهم الطويلة على طريق البخور، بالإضافة إلى المستجدات التي يمكن أن تحدث نتيجة اعتراض قطاع الطرق أو فقدانهم للدواب، مايكبد التجار تكاليف إضافية.

(46) Pliny, 12. 32 حول مراحل طرق البخور، انظر العمري، طريق البخور القديم، ص 32 139.

(47) Morley, Trade in classical Antiquity, pp. 26 34

التجارة العربية والاقتصاد الروماني:

حظيت التجارة الشرقية باهتمام القدماء والمحدثين بسبب طبيعة المنتجات المستوردة. الكتابات التي ذكرها الكتاب حول أسعارها واثرها على الإمبراطورية الرومانية. إن نظرة هؤلاء الكتاب للتجارة العربية ليس لها مايسندها في الواقع لعدة أسباب جوهرية تتعلق بطبيعة السلع التجارية، والاقتصاد والسياسية الرومانية، والمجتمع الروماني. وتوضح دراسة المصادر والمكتشفات الأثرية مجانبة. هذه المصادر للصدق، أو خطأ النظرة السائدة حول استنزاف التجارة الشرقية بشكل خاص للخزانة الرومانية.

إن المتأمل في سلع الجزيرة العربية يجد أن معظم الصادرات تقتصر على سلعتين، هما البان والمر، تعادلان حوالي 90 % من الصادرات. ويلاحظ عدم إشارة الكتاب الكلاسيكيين إلى قيام أية صناعات عطرية في جنوب الجزيرة العربية، مايرجح أنها كانت تصدر بشكلها الخام بسبب عدم إمكان حفظ العطور بعد تصنيعها لفترة طويلة[48]. وكذلك عدم قدرتها على تحمل مشقات النقل البري. وقد اسهم ذلك في انتشار مصانع العطور في جميع مناطق الاستهلاك حول البحر المتوسط، فيذكر بليني إنتاج مشتقات العطور عند البطالمة والحراسة الكبيرة التى تحظى بها، مايدل على أهميتها. وقبل ذلك نجد انتشار المصانع في جميع أنحاء العالم الإغريقي، مثل أثينا Athens وكورينثا Corinth، التي اشتهرت بجودة صناعتها لبعض أنواع العطور. ويوضح برون أن مدينة ديلوس Delos اكتسبت دوراً كبيراً في صناعة العطور بعد أن جعلها الرومان ميناءً حراً بحيث وفد إليها التجار من كل أنحاء الإمبراطورية[49]. كما أكد بليني أهميتها عندما ذكر أنه في الأيام القديمة كانت أفضل العطور تأتي من ديلوس)[50].

إن المكتشفات الأثرية والرسوم التي عثر عليها

(48) Jean Pierre Brun, . The Production of Perfumes in Antiquity Casses Delos and paestum. . A. JA. 104(2000)pp. 277.

(49) Brun, . The Production Of Perfumes in Antiquity p. 282.

(50) Pliny, 13. 4.

في بومبي Pompeii وهيركولنيوم Herculaneum في كامبانيا Campania في إيطاليا وغيرها من المدن الرومانية، وخاصة روما، تشير إلى تجارة مزدهرة في مجال صناعة وإنتاج المواد العطرية[51]. كذلك نجد مصانع العطور تنتشر في مناطق كثيرة من الشرق الأوسط خلال الفترة الرومانية

مثل فلسطين، حيث عثر على مصانع في القدس وماسادا[52]. كما وجد في البتراء شواهد على ممارسة صناعة العطور وتعبئته في قوارير تمهيداً لتصديره[53]. لقد أوجدت هذه التجارة مصانع وأسواقاً مزدهرة قامت على إنتاج العطريات واعتمد عليها عدد غير قليل من الحرفيين والتجار في الإمبراطورية الرومانية. كما أسهمت في زيادة خزانة الدولة الرومانية ومن خلال الضرائب المحصلة عليها.

والجزء المهم هو تقديرات بليني وعلاقتها بالواقع الفعلي لهذه التجارة. وهل جميع الأموال التي ذكرها مئة مليون أو خمسون مليون سيسترز. كانت تصدر للخارج؟ أم أن الجزء الأكبر كان يمثل تجارة المنتجات الشرقية داخل الإمبراطورية الرومانية؟ إن النص الذي ساقه بليني يشير إلى «استنزاف الهند لمبلغ 50مليون سيسترز من الإمبراطورية في مقابل بضائع هندية»[54]. وهذا يعني إذا سلمنا بهذه الأرقام أن المبلغ المتبقي 50مليون سيسترز كان يصرف على البضائع المستوردة من الجزيرة العربية وأفريقيا.

لكن الكتابات الكلاسيكسة تقدم صورة مختلفة فيشير مؤلف كتاب الطواف حول البحر الأريتري إلى أن جزءاً من التجارة الشرقية كان يتم عن طريق نظام المقايضة.

حيث يذكر أن ميناء موزا كانت تستورد البضائع

(51) حول المدن والمقاطعات. والرومانية في إيطاليا التي اشتهرت بصناعة العطور، انظر:

.Brun. .The Production Of Perfumes in Antiquity. pp. 290 291

(52) .Brun. .The Production Of Perfumes in Antiquity. p. 280

(53) Zeyad Al Salameen. .Frankincense and the Nabataeans: Historical and Archaeological Evidence.. Journal of King Saud Univ. Tourism and Archaeology 1(2009) pp. 3 4.

(54) .Pliny, 6. 26. 101

التالية: جميع أنواع الأقمشة الأرجوانية وقماش الموسلين والعباءات والأغطية والزعفران والمراهم والنبيذ والقمح وكذلك أواني الذهب والفضة والنحاس[55].

ويؤكد المقايضة التجارية قطع الأوستراكا (Ostraca) التي عثر عليها في ميناء ميوس هورموس. التي تذكر صادرات مصر من المواد الطبيعية والمواد المصنعة إلى الهند[56].

وكذلك أرشيف نيكانور، تاجر يوناني مقيم في مدينة قفط، وله وكلاء تجاريون في موانىء البحر الأحمر، مثل ميوس هورموس وبرينيقي. وكان اهتمامه منصباً على تزويد الجنود والمحطات بالأغذية والمستلزمات الضرورية، وذلك خلال الفترة من 18 ق.م حتى عام 69م[57]. وتوضح الوثائق أن إدارة الموانىء والإشراف على الطرق لم يكن يكلف الخزينة الرومانية أو خزينة الولاية أية نفقات. لسبب وجيه وهو أن التجار كانوا يدفعون تكاليف صيانة الطرق وحراستها وإقامة المراكز من خلال الرسوم المقررة عليهم. ففي صحراء مصر الشرقية فرضت رسوم العبور على الجميع. فكان قائد السفينة يدفع 8 دراخمات والبحار 5 دراخمات والمرافق 5 دراخمات والرجل دراخمة والمرأة دراخمتين والجمل أوبولاً واحداً والحمار أوبولين اثنين (يساوي الدرهم أوبولات)[58].

وإذا عدنا مرة أخرى إلى صادرات الجزيرة العربية التي يشكل اللبان والمر العنصرين الرئيسين فيها.

(55) حسين على الحبيشي وحيب عبدالرحمن شميري الطواف في البحر الأحمر ودور اليمن البحري. عدن: جامعة عدن 2004م. ص 24.

(56) الحسين. «ميناء برنيقى ونشاطه التجاري في القرن الميلادي الأول» ص 16. The) C. Howgego .20

Supply and use of money in Roman World 200 BC. AD 300.. JRS 82(1982) P. 6

(57) الحسين (ميناء برنيقى ونشاطه التجاري في القرن الميلادي الأول) ص 7 The .Trade) Tony Judd

with India through the Eastern Desert of Egypt under the Roman Empire. The Archaeology of the Eastern Desert. 2007. http // archaeology . easterndesert. com/assets/applets/LYSA Judd pp.15 18.2011/1/pdf.10

(58) عبدالغني. شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة ص 56 2002. .The Trade with India through the Eastern Desert. PP. 13 14

يلاحظ تدني أسعارها مقارنة بأسعار البضائع الأخرى مثل البلسم الفلسطيني والسوري والقرفة، التي يصل سعر الرطل منها إلى حوالي 1000 - 1500 دينار، وحتى سعر المر الأريتيري كان يعادل ضعف سعر المر العربي حسب شهادة بليني[59]. وهناك شهادة بليني الذي يذكر أن السلع الشرقية تباع بأضعاف ثمنها الأصلي مئة مرة في الإمبراطورية الرومانية[60]. ويعود ذلك إلى وجود عدد من الرسوم؛

مثل رسوم العبور ورسوم التصدير المقررة في المناطق التي تعبرها التجارة[61]. مأدى إلى ارتفاع هذه السلع داخل الإمبراطورية.

وهناك نقطة مهمة تتعلق بتجارة الجزيرة العربية وهي أن التركيز الأكبر في تحصيل الضرائب كان منصباً على التجارة الشرقية الخاصة بالهند والصين حيث تمثل وارداتهما الجزء الأكبر من التجارة الشرقية الخاصة بالهند والصين حيث تمثل وارداتهما الجزء الأكبر من التجارة الشرقية هذه التجارة نتيجة جهود البطالمة البحرية في البحر الأحمر، تطورت تطوراً كبيراً خلال القرن الأول قبل الميلاد نتيجة استخدام الرياح الموسمية[62]. ومن الواضح أنه مع تقدم الفترة الزمنية أصبح الجزء الأكبر ينقل عن طريق البحر، وربما يفسر هذا الأسباب التي دفعت بالإمبراطور الروماني تراجان (98 - 117م) إلى تأسيس اسطول بحري روماني في البحر الأحمر بهدف حماية الملاحة البحرية من القرصنة[63] لكن السبب الرئيس ربما يعود على رغبة الإدارة الرومانية وبعض المتنفذين الرومان في احتكار العائدات الضريبية للتجارة الشرقية.

وهذا يفسر اهتمام الرومان بوضع محصلي

(59) Pliny. 12. 35. 63 65

(60) Pliny. 6 26. 101

(61) حول الرسوم الجمركية ورسوم العبور. انظر: الحسين. «ميناء برينيقي ونشاطه التجاري في القرن الميلادي الأول». ص 15 16

(62) مصطفى كمال عبدالعليم. «دور البحر الأحمر في تاريخ مصر على عهد البطالمة» البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة. ابحاث الأسبوع العلمي الثالث. - القاهرة: جامعة عين شمس. 1980م. نقولا زيادة. «دليل البحر الإرتري وتجارة العربية البحرية». دراسات تاريخ الجزيرة العربية ط1. ج1. جامعة الملك سعود. 1984م. ص259 277.

(63) Groom. Frankincense and Myrrh.p. 151

الضرائب في الموانىء البحرية على البحر الأحمر. مثل برينيقى وميوس هورموس وأيلة. بل حسب رأي بعض الباحثين وضع محصلين رومانيين في الميناء النبطي لوكي كومي.[64] الذي ربما كان الهدف الأساس منه هو منع السفن من التهرب الضريبي. وهذا مانفتقده في المراكز النبطية الداخلية مثل البتراء أو بصري، حيث لاتوجد أية إشارات إلى وجود محصلين رومان في هذه المدن، وهذا مادفع يونج إلى الاعتقاد بعدم تحصيل ضرائب رومانية على تجارة البخور البرية The Arabian incenses Which had been brought by land from «Southern Arabia in to empire in fact never paid the tetarte(tax[65] كما يجب الإشارة إلى النقطة السابقة، وهي أن جزءاً كبيراً من هذه التجارة كان يتداول داخل الإمبراطورية الرومانية، من خلال المصانع والوسطاء والتجار الكبار أكبر المستفيدين من هذه التجارة، بالإضافة إلى العاملين في نقل التجارة براً وبحراً[66]. والنقطة المهمة هي أن المستفيد الأكبر من هذه التجارة هو الإمبراطورية التي تتحول التجارة فيها إلى ضرائب نقدية تعود على خزينتها بالدخل. فقد أشار سترابو إلى تحصيل ضريبة قدرها 50 % على واردات مصر من السلع الشرقية والأفريقية، بحيث تحصل نسبة 25 % عند الدخول ونسبة 25 % عند التصدير من ميناء الإسكندرية[67].

إن استنزاف النقود وتصديها إلى الخارج، حسب شهادة بليني أو الآخرين لايمكن إثباتها على أرض الواقع. فجميع التنقيات الأثرية في الجزيرة العربية

(64) هناك اختلاف بين الباحثين على هوية المحصل الموجود في لوكي كومي وهل هو نبطي أم روماني، خاصة وأن الأنباط استخدموا كثيرا من المصطلحات الرومانية. انظر: Young. Rome›s Eastern Trade. pp. 95 96.208 209

(65) Young. Rome›s Eastern Trade. p. 209.

(66) Brun.«The production of perfumes in Antiquity pp. 299 302.

(67) Strabo. 16. 7. 98. Julie Jenkins. «The Berenike customs archive and the organization of trade.» The Archaeology of the Eastern Desert. http://www. Archbase. com/ berenike/ Ucs - Tudentl 2011/1/A2. Html.10 . قارن الحسين ص 15، الذي يرى أن الرسوم الجمركية البالغة 25 % تمثل رسوم العبور من الموانئ المصرية على البحر الأحمر إلى النيل او الإسكندرية. وهذا ربما يكون غير صحيح في تحصيل مبالغ مالية محددة من كل شخص وحيوان: انظر Judd. «The Trade with India through the Eastern Desert.» pp. 13 14

والهند لم تكشف عن كميات ضخمة من النقود. تشهد على وجود استيراد ضخم للنقود الرومانية. ومقارنة بالمناطق الأخرى خارج الإمبراطورية الرومانية. نجد أن كميات النقود التي عثر عليها في آلمانيا وداشيا وبريطانيا ومناطق شمال أوربا تفوق ماكشف عنه في الجزيرة العربية أو الهند(68).

إن التحليل المنطقي للسياسة الإمبراطورية يدل على عدم خوف قياداتها من التجارة الشرقية، بما في ذلك تجارة الجزيرة العربية. والدليل هو عدم سن أيّ قوانين تحد من تدفق التجارة الشرقية على ولايات الإمبراطورية، أو وضع سياسية خارجية تهدف إلى السيطرة على طرق التجارة الشرقية، ولكن العكس هو الصحيح، حيث نجدهم يسعون إلى تشجيع التجارة، بدليل الاهتمام الواضح بإنشاء الطرق والاستراحات والموانئ وتوفير الحماية العسكرية للتجار. مايؤكد أن الاهتمام انصب في المقام الأول على تحصيل ضرائب التجارة الشرقية ومنع التهرب منها(69). ويمكن الاستدلال على أهمية تنظيم العملية التجارية من خلال إنشاء «طريق تراجان الجديد Via Nova Trajan بعد القضاء على مملكة الأنباط سنة 106م(70)، الذي كان الطريق الرئيس للتجارة النبطية بين البتراء وميناء إيلة على خليج العقبة. إن سرعة اهتمام الرومان بتأهيل الطريق استهدف إضافة إلى إحكام السيطرة السياسية على المنطقة، منع التجار والوسطاء من التهرب الضريبي. إن إدعاءات تسرب الاموال خلال القرن الأول الميلادي لها مايسوغها بسبب نقص النقود المعدنية مع نهاية العصر الجمهوري حوالي 79 ق. م. بعد عقود من الزيادة المطردة في كميات النقود نتيجة التوسع الإمبراطوري، ويستدل على ذلك من مطالبات بعض أعضاء مجلس الشيوخ بسن قانونين ضد تسرب الأموال خارج إيطاليا مثل الطلب المقدم من شيشرون Cicero إلى مجلس الشيوخ عام 63 ق. م بمنع تصدير الذهب والفضة، مادفع الرومان إلى سك عملتهم الخاصة عام 46/48 ق. م(71).

كما يؤكد هاريس أن الاقتصاد الروماني لم يكن قائماً على استخدام النقود المعدنية في جميع تعاملاته. وأن الذهب لم يكن جزءاً من أساليب الدفع المالية قبل حكم قيصر(72). وكان الاقتصاد يعتمد اعتماداً كبيراً على القروض البنكية والصكوك وغيرها من المشتقات المالية المستخدمة في تلك الفترة، ويستدل على ذلك بأنه في عز ازدهار الاقتصاد الروماني. خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين. يندر العثور على حطام سفن رومانية تحتوي على مبالغ نقدية ضخمة. لإدراك التجار أخطار النقل البحري المتمثلة في القرصنة البحرية والتعرض للأنواء البحرية. أو ربما بسبب عدم استخدامها في التجارة(73). هذا وتقدر السيولة النقدية من الذهب والفضة في الدولة الرومانية خلال القرن الثاني الميلادي بين 12 بليوناً و 21 بليون سيسترز موزعة على النحو التالي:

1 - 12 بليون سيسترز ذهب

2 - 7 بلايين سيسترز فضة

3 - 2 بلايين سيسترز برونز

ويجب عدم إغفال أن جزءاً من النقود الرومانية. التي كانت تنفق على تأمين البضائع الشرقية. كان يعود إلى الإمبراطورية لشراء بضائع رومانية التي اقتصر التعامل فيها على النقود الرومانية(74). ويرى البعض أن الجزء الأكبر من المبالغ التي تحدث عنها الكتاب الكلاسيكيون لم تغادر الإمبراطورية مطلقاً. وكانت تتداول في الداخل. نظراً لأن أغلب التجار والوسطاء والصناع كانوا من الرومان.(75)

(68) Howgego، The supply and use of money in Roman World 200 Bc – AD300، pp. 5 6

(69) Young، Rome›s Eastern Trade، p. 204

(70) http:// Virtual Karak Resources project، Trajan and the via Nova، www. Vkrp. org/studies/ historical/ roman –roads/ info/new way. Asp، 16/1/2011.

(71) Harris، A revisionist view of Roman money، p. 18

(72) Harris، A revisionist view of roman money، p. 3

(73) Harris، A revisionist view of Roman money، p. 19

(74) انظر Arms H. Commerce and Social Standing in Ancient Rome London Harvard University press. 1981. p. 149 [illegible]
انتشار التعامل بالنقود في معظم أجزاء الإمبراطورية [illegible]
القائم على التبادل التجاري بالبضائع في المناطق [illegible]

(75) Young، Rome›s Eastern Trade، p. 204

كذلك يجب ملاحظة حجم الاقتصاد الروماني الذي قدر فيه الناتج المحلي الروماني GDP للإمبراطورية من حوالي 9 إلى 13 بليون سيسترز سنوياً خلال القرن الثاني الميلادي[76]. ولكن الدراسات الحديثة عن الاقتصاد تضاعف هذه التقديرات وتضع الناتج المحلي الروماني خلال القرن الثاني الميلادي عند حوالي 20 بليون سيسترز على اقل تقدير[77]. وهناك جانب مهم وهو مقارنة حجم التجارة العربية بالثروات الفردية في الإمبراطورية، وتوضح الأمثلة التالية أن كميات الأموال المتداولة في الإمبراطورية تيبريوس (42 ق. م - 37م) يقدم قروضاً بمبلغ 100 مليون سيسترز لتجنب الازمة المالية التي حدثت عام 33م2. وقدر المبلغ الذي حصل عليه ماركوس أنطونيوس بعد وفاة يوليوس قيصر عام 44 ق. م بحوالي 700 مليون سيسترز[78]. بلغ حجم ثروة سينيكا حوالي 300 مليون سيسترز[79] كما يذكر شيشرون شراء المدعو البانيوس C. Albanius ملكية بمبلغ 11. 5 مليون سيسترز. وقدرت ملكية القائد الروماني إيمليوس سكاوريس في مقاطعة Tusculum في إيطاليا بمبلغ 30 مليون سيسترز[80]. واشترى كلاديوس منزل إيمليوس سكاورس في مقاطعية Palaline بمبلغ 14. 5 مليون سيترز كما يشير الكتاب الرومان إلى مشاركة أفراد الطبقة العليا في التجارة. خاصة تجارة القمح والنبيذ في روم والمدن الإيطالية، التي اصبحت أحد مصادر ثراء أفراد الطبقة.[81]

المجتمع الروماني والتجارة الشرقية:

إن الاعتقاد السائد لدى الكتاب الرومان مثل ليفي[82]، وديو كاسيوس، وبليني، يقوم على نظرية أن فساد المجتمع الروماني ظهر نتيجة التأثيرات الأسيوية. ويرتبط ظهور هذه فترة قصيرة بدأ (الرومان) في التنافس على المظاهر مثلهم (الآسيويين). وخلال وقت قصير تخلوا عن تقاليد أجدادهم وهكذا بدأت المشكلة وتملكت المدينة[83].

وفي نص آخر يذكر ليفي أن الاهتمام بالبضائع الأجنبية الفاخرة والكماليات دخل على روم بواسطة الجيوش الآسيوية العاملة عند الرومان «Luxuriae enim peregri nae origo ab exercitu Asiatico invecta in urbem est» [84]

. التي تمثلت في شراء البضائع والمنتجات الشرقية، وكذلك الفرق الاستعراضية والاحتفالات وغيرها من مظاهر اللهو التي شهدتها روما لاحقاً.

إن اتهام الكلاسيكيين للشرقيين باستنزاف الخزينة الرومانية من النقود وتحويلها إلى الشرق من خلال شراء البضائع لايختلف في مجمله عن اتهامهم لهم بالتخلف. ونختم هذه النصوص بنص بليني الذي يظهر النقد القوي لهذه التجارة التي أسهمت في فساد المجتمع الروماني، حيث يقول:

تعرف الجزيرة العربية (بالسعيدة) دولة باسم خطأ ومعنى غير صحيح؛ لأن الاسم يقترح أن سعادتها قد جاءت من الآلهة، ولكنه في الحقيقة يرتبط بقوى الظلام. وفي الحقيقة يعود حظ الجزيرة العربية إلى حب الإنسان إلى الترف حتى عند الموت. لأنهم عندما يحرقون البخور على الميت كانوا في الواقع يحرقون

(76) Keith Hopkins. «Taxes and Trade in the Roman Empire (200 B. c. -A. D 4000) JRS 70 (1980) pp. 117 120.

(77) حول التقديرات والأدلة التي بنيت عليه. انظر: Walter Scheidel and Steven J. Friesen. «The size of the economy and the distribution of income in the Roman Empire.» Version 2. 0. Princeton - Stanford Working papers in Classics. Jan. 2009. http://www. Princeton. Edu/ pswpc/ pdfs/ Scheidel/ 010901.pdf. p. 13

(78) Harris. «A revisionist view of Roman money» p. 12.

(79) Groom. Frankincense and Myrrh.p. 157.

(80) Shatzman. Senatorial Wealth and Roman politics. p. 289

(81) D. Qrms. Commerce and Social Standing in Ancient Rome. pp. 35 39

(82) (59 ق.م - 17م) والشهير بليفي، مؤرخ روماني كبير عاش في روما وكان على علاقة باسرة أغسطس وحظي بعنايتهم. اشتهر بكتاب تاريخ روما الذي أرخ لمدينة روما منذ تاسيسها وحتى سنة 9م في حوالي 120 مجلداً. انظر. Boia. Great Historians from Antiquity to 1800، pp، 324 325. Litus Livius

(83) Cass. Dio. Frag. 64.

(84) Litus Livius. The History of Rome، Trans، Evan T. sage، Book 39. 6. 7 http://www. perseus. Tufts. Edu/hopper/ text? Doc=perseus %3 A 1999. 02. 0166 %3 A book %3D39 %A Chapter %3 D6. 2011/3/15.

مواد وجدت في الأصل من أجل الآلهة، فمن المعروف أن الجزيرة لاتنتج في سنة واحدة كمية ضخمة من البخور تعادل ماأحرقه الإمبراطورنيرو في يوم واحد في جنازة زوجته بوبيا. وعندما نجمع العدد الكبير من الجنائز المحتفل بها سنوياً في العالم والبخور،...، الذي يجمع في أكوام لتكريم الأجساد الميتة. وعلى الأقل فإن الهند والصين والجزيرة العربية تحصل على حوالي مئة مليون سيسترز في السنة. وهو المبلغ الذي تتكلفه نساؤنا وينفق على الكماليات، التي يذهب جزء منها،... إلى الآلهة وإلى قوى العالم السفلي[85].

إن الدراسة المتأنية لهذه النصوص توضح جانباً مهماً بدأ بالتركيز عليه، وهو أنها تعكس حالة الفساد الذي استشرى في المجتمع الروماني، وتخليهم عن عادات وتقاليد أجدادهم. كما تكالبت عوامل كثيرة أدت إلى انتقاد ظاهرة البذخ والإسراف في المجتمع الروماني. مثل ربط ذلك بالنظرة الرومانية التقليدية للتجارة التي تقلل من مكانة العاملين في هذا المجال، نظراً لما يدخل فيه من عدم الصدق والخداع[86].

كان الاهتمام بتجارة البخور العامل المشترك بين ممالك الجزيرة العربية والإمبراطورية الرومانية بهدف تأمين تدفق هذه السلع الضرورية دينياً ودنيوياً، التي لاغنى للناس عن استخدامها في المعابد والعلاج. ولا غنى للحكومات عن الدخل الضريبي المتحقق من ورائها. واوضحت الدراسة وجود تناقض بين ماسطره الكتاب الكلاسيكيون وواقع تجارة الجزيرة العربية، التي تفتقد إلى الشواهد الأدبية أو الأثرية لتأكيد ادعاءاتهم بالثراء الأسطوري للجزيرة العربية، أو استنزاف الخزانة الرومانية. فقد اقتصر القسم الأكبر من صادرات الجزيرة العربية الرئيسية على سلعتين هما اللبان والمر. وكانتا تباعان بأقل الأسعار في الإمبراطورية الرومانية، مقارنة بالسلع الشرقية الأخرى، حسب رواية بليني. وربما نتيجة تدني أسعار هذه البضائع لم يهتم الرومان بتحصيل ضرائب عليها. مثل اهتمامهم بتحصيل الضرائب على الواردات الشرقية من الهند والصين وأفريقيا.

إن الاستعراض الدقيق لكتابات المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين. يوضح أن معلوماتهم عن تجارة الجزيرة لاتختلف كثيراً عن معرفتهم بجغرافيتها وطبيعتها، التي شابها الغموض والأخطاء والمعلومات المبالغ فيها حول المخاطر والصعوبات. خاصة خلال حقبة ماقبل الميلاد. على الرغم من ذلك نجد أن الغالبية العظمى من هؤلاء الكتاب يتحدثون عن الثراء الفاحش لسكان الجزيرة العربية. الذي يعود في نظرهم إلى الكسب المحقق من تجارة البخور والمواد العطرية. سواء كانت من بيع منتجات الجزيرة العربية. أو من خلال عملهم وسطاء في نقل المنتجات الأفريقية والهندية والصينية إلى مناطق الاستهلاك في الشرق الأدنى وحوض البحر المتوسط.

وتشير الشواهد الأدبية والأثرية إلى أن جزءاً من التجارة الشرقية كان يعتمد المقايضة ببضائع رومانية. خاصة الملابس والخمور والصناعات المعدنية. كذلك فإن المبالغ التي ذكرها بليني هي أسعار التجزئة داخل الإمبراطورية، وهي لا تعكس القيمة الحقيقية للتجارة الشرقية. كما أن جزءاً كبيراً عن هذه الأموال لم يغادر الأراضي الرومانية.

وأخيراً فإن الجزء المتبقي. الذي حصل عليه التجار، كان يجب أن يمر بخمس وستين مرحلة حسب تقديرات بليني، هذا عدا الأموال التي تنفق داخل أراضي اللبان، مايجعل المبالغ المتبقية لاتمثل موارد مالية ضخمة تعكس النموذج الكلاسيكي. كما توضح الدراسة ارتباط النظرة الكلاسيكية لتجارة الجزيرة العربية والتجارة الشرقية بتصورات فلسفية عن المجتمع الروماني والفساد المتغلغل فيه بعد سيطرتهم على ثروات الشعوب الأخرى.

إن مقارنة الاقتصاد الروماني بالأموال المنفقة على اقتناء الحاجات الضرورية لهذا المجتمع من الشرق. تدل على عدم استنزاف التجارة الشرقية للرومان.

(85) Pliny, 12. 41. 83 84.

(86) D] Arms. Commerce and Social Standing in Ancient Rome, pp. 20 23. 43 45. 152 153.

كذلك فإن أرقام بليني لاتمثل أرقاماً ضخمة، مقارنة بالثروات الفردية أو الناتج المحلي الروماني. إن أقرب مثال يمكن مقارنته هو وضع النفط اليوم فهل يمكن مقارنة ميزانيات النفط بالميزانيات الغربية والعالمية؟ وهل استفاد العرب من النفط الخام، أم صدوره مثل أجدادهم ليباع لهم مرة أخرى باضعاف ثمنه مرة!

المصادر والمراجع

1 - إبراهيم - عبدالرحمن سعد. تجارة روما مع الهند وجنوب الجزيرة العربية في العصر الإمبراطوري: دراسة اقتصادية واجتماعية 30 ق.م - 192م رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المنصورة 2006م.

2 - بيرين، جاكلين، اكتشاف جزيرة العرب. خمسة قرون من المغامرة والعلم ؛ ترجمة قدري قلعجي. - الرياض: منشورات الفاخرية، ب. ت.

3 - الحبيشي، حسين علي، نجيب عبدالرحمن شميري، الطواف في البحر الأحمر ودور اليمن البحري. - عدن: جامعة عدن، 2004م.

4 - الحسين، أحمد عبدالله، ميناء برينيقي ونشاطه التجاري في القرن الميلادي الأول. حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - جامعة الكويت 2009م.

5 - سحاب، فيكتور. إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف. - بيروت: المركز الثقافي العربي 1992م.

6 - السعيد، سعيد فايز. العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر في ضوء النقوش العربية القديمة. - الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2003م

7 - الشرقاوي، باسم سمير. بعض الجاليات الأجنبية التي عاشت في مصر القديمة، العدد التكريمي تحفة حندوسة. المجلس الأعلى للآ ثار 2007م

8 - الشيبة، عبدالله حسن. دراسات في تاريخ اليمن القديم. - تعز: مكتبة الوعي، 2000م.

9 - عبدالعليم، مصطفى كمال، «دور البحر الأحمر في تاريخ مصر على عهد البطالمة، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، أبحاث الأسبوع العلمي الثالث. - القاهرة، جامعة عين شمس. 1980م.

10 - عبد العليم، مصطفى كمال. «بطليموس الثاني والاحتفال بعيد البطوليميايا» الجمعية التاريخية المصرية 19 (1972م).

11 - محمد السيد عبدالغني. شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة. - الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث 1999م.

12 - عطا الله، سمير، قافلة الحبر، الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج (1762 - 1950). - بيروت دار الساقي، 1994م.

13 - زيادة، نقولا. «دليل البحر الإرتري والتجارة العربية البحرية»، دراسات تاريخ الجزيرة العربية. - ط1، ج1، جامعة الملك سعود، 1984م.

14 - العمري، صالح ناصر، طريق البخور القديم. من نجران إلى البتراء وآثار اليمن الاقتصادية عليه. - صنعاء: وزارة الثقافة والسياحة، 2004م،

15 - النعيم، نورة عبدالله. الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي. - الرياض: دار الشواف، 1992م.

16 - محمد بيومي مهران. «دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة»، مجلة اللغة العربية العلوم الاجتماعية 6 (1976م)، ص 297 - 437م.

17 - يحيى، لطفي عبدالوهاب. العرب في العصور القديمة. مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام. - بيروت: دار النهضة العربية، 1979م.

18 - Boia Lucian(edt). Great Historians from Antiquity to 1800: an international Dictionary, London: Greenwood Press 1989.

19 - Brun, Jean - Pierre. «The Production of Perfumes in Antiquity: The cases of Delos and Paestum,» AJA, 104(2000).

20 - D. Arms, John H., Commerce and Social Standing in Ancient Rome, London: Harvard University Press, 1981.

21 - Diodorus Siculus, Library Of History, trans. By C. H. Oldfather, London: Loeb Classical Library 1935.

22 - Groom, Nigel, Frankincense and Myrrh. A Study Of The Arabian Incense Trade, London: Longman 1981.

23 - Harris. W. V., «A Revisionist View Of Roman Money» JRS, 96(2006).

24 - Herodotus, The History Of Herodotus, trans. By A. D. Dodley, London: Loeb Classical Library 1981.

25 - Hopkins. keith, «Taxes and Trade in the Roman Empire (200 B. C. - A. D. 400), JRS 70 (1980).

26 - Howgego. C. «The supply and use of money in Roman World 200 BC - AD300,»JRS (1982).

27 - Jenkins, Julie,»The Berenike Customs archive and the organization of trade» The Archaeology of the Eastern Desert, http://www. archbase. com/ berenike/UC student LA2 html, 10/1/2011.

28 - Judd, Tony, « The trade with India through the Eastern Desert of Egypt under the Roman Empire,»The Archaeology of the Ecastern Desert. 2007, http://archaeologyeasterndesert. com/assets/ applets/ LYSA_ Judd. Pdf, 10/1/2011.

29 - Kotarba - Morley, Anna M., (Maritime connections of the Arabian Pe - ninsula in the network of Indo - Roman trade - study of ports and har - bours,» International Symposium on the Historical Relations between Arabia. The Greek and Byzantine World (5THc. BC - 10TH c. AD). Riyadh. 6 - 9 December 2010.

30 - Litus Livius. The History of Rome. trans. By Evan T. Sage. http: www.perseus. tufts. edu/ hopper/ text? Doc= perseus %3 A 1999. 02. 0166 %3Abook %3D39 %3A chapter %3D6. 15/3/2011.

31 - Morley. Neville. Trade in Classical Antiquity, Cambridge: Cambridge University press 2007.

32 - North. J.. «The development of Roman Imperialism.» JRS. 71(1981) pp. 1 - 9

33 - Pliny. Natural History. Trans. By H. Rackham. London: Loeb classical Library 1963.

إشكالية الانتقال إلى العصر الحجري الحديث في الجزيرة العربية

د. عبدالرزاق أحمد راشد المَعْمَري -
قسم الآثار - جامعة الملك سعود -
المملكة العربية السعودية - الرياض.
rashed__almaamary@yahoo. com

ملخص:

تتناول هذه الدراسة إشكالية الانتقال من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث في الجزيرة العربية، بالإضافة إلى مفاهيمها المختلفة، وتقترح إعادة الرؤوس الحادة غير المعنقة، المرققة من الجهتين بطريقة الطرق غير المباشر، في ثقافة الشظايا (لوحة 23)، إلى تلك المرحلة الانتقالية، مع أن الباحث لا يستبعد أن تكون الرؤوس الأخرى غير المعنقة، أيضاً، المهذبة بطريقة الضغط (لوحة24: أ - ب، 25: أ - ب)، تعود، هي الأخرى، إلى نفس المرحلة. كما تقترح الدراسة وضع هذه الأدوات المقترحة للمرحلة المذكورة، تحت مفهوم (لواحق العصر الحجري القديم)، أو (العصر الحجري القديم اللاحق) (Epi - Paleolithic)، أو (لواحق العصر الحجري القديم العربية) (Arabian Epi - Paleolithic)، لخصوصيتها، أضف إلى ذلك أن هذه الدراسة تنظر في الأسباب التي قادت في الجزيرة العربية إلى غياب كل من خصائص العصر الحجري الوسيط التقليدية، التي عُرفت في أوروبا، وخصائص لواحق العصر الحجري القديم، التي وجدت في الشرق الأوسط، وترجعها إلى أسباب بيئية، في المقام الأول، وفي الوقت نفسه تشير إلى مسألة غياب، أو على الأقل، عدم تطابق سمات العصر الحجري القديم الأعلى في هذه المنطقة، مع سمات العصر المذكور، في الأقاليم الأخرى، سالفة الذكر، وتعتبرها سبباً من الأسباب الرئيسة التي قادت، هي الأخرى، إلى غياب تلك الخصائص في المرحلة الانتقالية، أضف إلى ذلك، فإن هذه الدراسة تُقدم عدداً من البراهين، حول مسألة الإقرار بنظرية الحتمية البيئية، من عدمه، من واقع الجزيرة العربية، مبنية على الربط بين الوقائع الأثرية، من جهة، والأدوار المُناخية، من جهة أخرى، وجوانب أخرى ذات صلة.

لاشك أن لعوامل البيئية تأثيراً مباشراً على حياة الإنسان، وأنشطته اليومية، وعلى تحديد خصائص العصور الحجرية، وحتى على مسألة وجود بعض هذه العصور من عدمه، وبالأخص العصور الانتقالية، مثل العصر الانتقالي بين العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الحديث، والذي يُعدُّ الموضوع الرئيس في هذه الدراسة، وتأتي في مقدمة هذه العوامل، التغيرات المُناخية، وبالأخص الأدوار الجافة، ولكن الأدوار المطيرة، قد تقود، في بعض الحالات، إلى نفس النتيجة، كما ستُشاهد في هذه الدراسة، وهذا يجعل

الباحث يعتقد أن للإنسان خيارات ذاتية، متفاوتة، إلى جانب الشروط البيئية، حتى وإن كانت محدودة، وهو ما سيتم التطرق إليه، كذلك، في هذه الدراسة، ضمن المواضيع الأخرى ذات الصلة، وتستند الدراسة في موضوعها الرئيس، إلى أدوات حجرية، سجّلها الباحث في عام 1990م (Rashed 1993a)، في جنوبي الجزيرة العربية، منها مجموعة من أربعة مواقع (خارطة1، 2؛ لوحة1 - 3)، بالإضافة إلى معطيات الدراسات البيئية، والأثارية الأخرى ذات الصلة.

المرحلة الانتقالية بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث

تميزت المرحلة الانتقالية من العصر الحجري القديم الأعلى، إلى العصر الحجري الحديث، بظروف بيئية جديدة، بوجه عام، (لوحة5 - 10، 11، 12)، تختلف عن الظروف البيئية القديمة، التي كانت سائدة في عصر البليستوسين (Pleistocene) (لوحة4). فقد اتّسمت هذه البيئة في أوروبا، جراء ذوبان آخر جليد من جليد العصر المذكور، وهو جليد فيور (Würm)، بالدفء، وتشكل الأنهار، والبحيرات (لوحة10، 11)، والمستنقعات، وسادت فيها، أشجار الصنوبر (Pine) (لوحة 8)، والبتولا (Birch)، التي أخذت تحل، بالتدريج، محل أشجار (التندرا) (Tundra)، بالإضافة إلى ظهور الشجيرات الفصلية المخضوضرة (لوحة 8)، إلى جانب تمايز ملموس في فصول السنة، وظهور عالم حيواني جديد (لوحة5، 6، 8)، وبيئة عامة لا تختلف كثيراً عن البيئة المعاصرة، من حيث المبدأ، وقد وصف الآثاري الشهير (برين فجان) (Brain Fagan) عصر الهولوسين (Holocene)، الذي ما زل مستمراً إلى الآن، بـ: (الصيف الطويل)، ((Fagan 2004) The long Summer))، مقارنة بالأدوار الجليدية التي سادت في عصر البليستوسين. ولكن على العكس من هذه البيئة الجديدة التي ظهرت في أوروبا، فقد حدث دور جاف في كثير من مناطق الجزء الجنوبي من الكرة الأرضية، أثّر بدوره على بيئة هذه المناطق، ومنها الجزيرة العربية (McClure 1976) (لوحة 13 - 14)، والصحراء الأفريقية الكبرى (Shaw 1976)، مع أن إقليم البحر الأبيض المتوسط تمتّع ببيئة دافئة. وقسط أوفر من المناخ الرّطب، مقارنة بمناطق أخرى كثيرة جنوبية، هذا فيما يتعلّق بالبيئة.

أمّا ما يتعلق بحياة الإنسان، وثقافته، فإن أوروبا دخلت هذه المرحلة الانتقالية في عصر الهولوسين (Holocene) المبكِّر، فيما دخلتها منطقة الشرق الأوسط في نهاية عصر البليستوسين. وقد أصبحت الكثير من مساكن الإنسان في المرحلة المذكورة (شكل1)، تشيد قرب مصادر الغذاء، وبالأخص على ضفاف الأنهار، والبحيرات (لوحة11). هذا إلى جانب استخدام المغارات، والكهوف القريبة بدورها من هذه المصادر. كما ظهرت في أوروبا. والمناطق القريبة منها، بما في ذلك إقليم البحر الأبيض المتوسط. تقنية جديدة، سُميت بتقنية صناعة الأدوات الحجرية القزمية [1] الهندسية الشكل (Geometrical Microlith Tools) (شكل2: 6 - 22)، بالإضافة إلى انتشار الرؤوس الحادة، ورؤوس السهام (شكل6: 2 - 8، 11 - 17، شكل8: 1 - 8)، وأدوات أخرى. إلى جانب انتشار صناعة الأدوات العظمية (شكل2، 3). وبالأخص ذات الصلة بصيد الأسماك (شكل2: 1 - 6). الذي أصبح عنصراً مهماً في الأنشطة الاقتصادية في هذه المرحلة. وقد كان لمنطقة البحر الأبيض المتوسط. الحظ الأوفر في هذا التحول، ونخص بالذكر، بلاد الشام. وهضبة زاجروس، وشمال العراق، والأناضول. حيث اتجه المناخ فيها نحو الدفئ، والرطوبة (لوحة9) أكثر منه في أوروبا، وظهرت فيها، خلال هذا المناخ. أشجار البلوط. والفستق، التي حلت محل الأشجار السابقة المحبة للبرد، بالإضافة إلى ظهور الحبوب البرية. التي كانت في مخابئها أثناء المناخ البارد في البليستوسين (كوخين 1984: 17 - 18). أمّا المناطق التي سادت فيها ظروف مناخية جافة، كالجزيرة العربية (لوحة13 - 14). عن سمات المرحلة الانتقالية فيها إلى العصر الحجري

(1) - استخدم الباحث هذا المفهوم منذ عام 1995م [illegible] (المعمري 1995: 107، المعمري 2000: 23، المعمري 2005: 4؛ المعمري 2008: 7).

الحديث، كانت مختلفة. ولكن يجب الإشارة هنا إلى أنه، على الرغم من الأثر البيئي الكبير في تحديد سمات هذه المرحلة الانتقالية، هناك خصائص ثقافية، وجدت في العصور السابقة، وبالتالي فقد كانت لها، دور في تحديد هذه السمات، أيضاً.

تُعدُّ تقنية الأدوات القزمية الهندسية الشكل، ابتكاراً نابعاً في تلك المرحلة الانتقالية (Mongait 1973: 179)، مع أن مقدمات هذه التقنية، ظهرت في العصر الحجري القديم الأعلى (شكل5)، كما أن مقدمات صناعة الأدوات العظمية ظهرت، هي الأخرى، في العصر المذكور (شكل4). فقد كانت الأدوات القزمية المذكورة، على وجه الخصوص، ملائمة لنمط العيش الجديد، الذي ظهر على ضفاف الأودية، والبحيرات في تلك المناطق، حيث انقرضت على إثر ذوبان ذلك الجليد، الحيوانات الضخمة، آكلات النبات، مثل الماموث، ووحيد القرن المُوصُوف... الخ في أوروبا (لوحة4)، وحلَّت محلَّها، مع تبدُّل الغطاء النباتي، حيوانات صغيرة الحجم، كالأيائل (لوحة6)، وغيرها من الحيوانات الأخرى الصغيرة الحجم، نسبياً، والسريعة العَدو (لوحة5 - 9)، كما كثرت الطيور على ضفاف تلك الأودية، والبحيرات (لوحة10)، فتطلب ذلك الوضع الجديد، ظهور هذا النوع الجديد، من الأدوات. كما استُخدمت هذه الأدوات، كذلك، في التعامل مع الغطاء النباتي الجديد، بعد أن طُعِّمت بها حوامل صُنِعت من العظام، والمواد العضوية الأخرى، خُصصت لهذه الأدوات، مثل المناجل البدائية (شكل13 - 25، 26)، لقطف محاصيل النبات البري، وقطع أغصان الأشجار، وجَزّ النبات، وقطع جذورها... الخ، التي أدخلها الإنسان في وجبته الغذائية، ومن هذه الأدوات صُنعت، أيضاً، السنانير، أو (الشصوص) لصيد الأسماك (شكل2: 1 - 5)، بعد أن طُعِّمت حواملها، المصنوعة، هي الأخرى، من المواد العضوية، بهذه الأدوات (شكل3: 1). وفي المرحلة الانتقالية استُخدم القوس بشكل واسع، بدليل كثرة رؤوس السهام، ومنها بعض الأدوات القزمية، والذي يُعتقد أن ابتكاره حدث في أواخر العصر الحجري القديم الأعلى، بدليل وجود الرؤوس الحادة، ورؤوس السهام، ومنها ذوات العقب، وبالأخص رؤوس السهام المذنبة، والمعنّقة (شكل5: 22 - 24).

وعلى الرغم من أن الصيد، وجمع القوت الطبيعي، ظلا في المرحلة المذكورة، عنصران أساسيان للحياة المعيشية، كما كان عليه الوضع، من حيث المبدأ، في العصر الحجري القديم، ولكن هذه العملية، صارت تُنفذ بأدوات جديدة، وفي ظروف طبيعية مختلفة، عن ظروف العصر الحجري القديم، إلى جانب تراكم الخبرة الإنسانية الطويلة، والعملية التاريخية نفسها، فصار الإنسان، في ظل استخدامه للتقنيات الجديدة، يحصل على غذاءه المطلوب في وقت قصير، نسبياً، مقارنة بالوضع الذي كان عليه في العصر الحجري القديم، وفي الوقت نفسه فقد توفّر للإنسان، إلى جانب توفير قسط من الجهد البدني، من خلال استخدام هذه الأدوات، وقتاً للتفكير، والتأمل، فصارت عملية الصيد، والجمع الطبيعي، في هذه الظروف الجديدة، عملية خلاقة، على الرغم من أنها كانت مكثّفة في الوقت نفسه، يتم فيها اختيار أنواع محددة من الحيوان، مقارنة بعملية الصيد، والجمع في العصر الحجري القديم. فتمكن الإنسان، في وقت مبكر، من استئناس الكلب (Zeuner 1963)، والضان (Herre 1963: 243 - 244)، حيث استخدم الكلب في عملية الصيد.

كما تمكن الإنسان، من خلال تلك المعطيات مجتمعة، من التعامل مع الغطاء النباتي بشكل خلاق، خلال عملية جمع الغذاء، ومنها التعرف على المحاصيل البرية، وقطفها، وإدخالها في الوجبة الغذائية، بدليل وجود أدوات سحق هذا الحبوب، والمدقات... الخ في المواقع (كوفين 1984: 19)، بما في ذلك ملاحظات نمو النبات، وشروط هذا النمو، ويُعتقد أن ربَّت المسكن هي التي قامت بهذا الدور، بحكم ارتباطها بعمل المنزل، حيث فَطَنت إلى هذه الظاهرة الطبيعية، بشكل آلي، خلال عملها اليومي، ممثلاً ذلك بمشاهدتها المتكررة

لنمو النبات بالقرب من المسكن، بعد صب الماء في التربة، ومن ثم قامت بتكرار هذه العملية بصورة هادفة.

فقد مهّدت المرحلة الانتقالية، لظهور العصر الحجري الحديث بمقوماته، الأساسية، وهي الزراعة، والرعي، من حيث المبدأ، فهي بالقدر الذي تُعدُّ مرحلة انتقالية من العصر الحجري القديم، إلى العصر الحجري الحديث، من حيث الزمن، والأساليب التقنية، بالقدر نفسه، تُعد مرحلة انتقالية من نمط العيش القائم على الصيد، والجمع في العصر الحجري القديم، إلى الاقتصاد الإنتاجي في العصر الحجري الحديث، أو بعبارة أخرى، فإن مقدمات العصر الحجري الحديث خُلقت في أحشاء المرحلة الانتقالية، بالإضافة إلى توافر العوامل الطبيعية ذات الصلة، فيما خُلقت مقدمات هذه المرحلة نفسها، في العصر الحجري القديم الأعلى.

إشكالية المرحلة الانتقالية بين المضمون والمصطلح

لا يوجد خلاف بين الباحثين بوحدة العصر الحجري القديم، وتقسيماته الرئيسة، من حيث المبدأ، على الرغم من الفوارق الزمنية، والخصوصية، التي بدأت بالظهور منذ حوالي العصر الأشولي، ممثلة بثقافة الفؤوس اليدوية (Hand - Axe)، في كل من إفريقيا، وأوروبا، والجزء الأكبر من قارة آسيا، وانتشار صناعة المهاشم الحجرية (Choppers)، التي وجِدَت في جنوبي شرقي آسيا، وباكستان، والجزء الشمالي الغربي من الهند، والتي أدرجت تحت مفهوم الثقافة (السوآنية) (Soan)، علماً أنه لا توجد إجابة موحدة بين علماء ما قبل التاريخ عن تفسير هذا الاختلاف (Movius 1944; Zamiatnin 1951; Lopin 1970; Boriskovskii 1979)، بما في ذلك اختلاف الصناعة الكلكتونية (Clactonian) في بريطانيا، (نسبة إلى موقع كلكتون) (Clacton - on - Sea، Essex) فيها، وكذا الاختلاف بين التقنية الليفالوازية (Levallois)، وغير الليفالوازية، في العصر الحجري القديم الأوسط، ولكن هذا الاختلاف توسّع في العصر الحجري القديم الأعلى. وصار أكثر من ذلك بكثير في المرحلة الانتقالية بين العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الحديث، ثمّ تُوِّج هذا الاختلاف بفوارق أخرى كبيرة في العصر الحجري الحديث. وهذا جزء نفسه كذلك على التطورات الأخرى في العصور اللاحقة.

كما لا يوجد خلاف، كذلك، بين الباحثين، من أن العصر الحجري القديم، بوجه عام، اتسم بالصيد، والجمع، فيما اتسم العصر الحجري الحديث بإنتاج القوت، ولكن الخلاف يظهر فيما بينهم، بشكل كبير، في تعريف إنتاج هذا القوت، حيث يرى البعض أن الزراعة، والرعي هما الأساس (Childe 1936)، فيما يرى آخرون أن الشعوب التي عاصرت الزراعة، والرعي، ولم يوجد عندها هذا النمط من العيش، ظهرت عندها، هي الأخرى، تغييرات كيفية جديدة في الجوانب الاقتصادية، ونمط العيش، ومنها تحديث رفيع المستوى في أدوات الصيد ... الخ، فترتب عليها تغيرات كثيرة، في حياة تلك الشعوب، بالإضافة إلى ظهور جوانب أخرى في الثقافة المادية، والروحية، حيث لا يمكن معها أن يسمّى هذا العصر، الذي عاشت فيه هذه الشعوب، بغير العصر الحجري الحديث (Mongait 1973: 197). فعلى أساس تعريف إنتاج القوت، يتوقف تعريف العصر الحجري الحديث نفسه، وكذا الاعتراف بوجوده، من عدمه، بما في ذلك تحديد طبيعة المرحلة الانتقالية إلى العصر المذكور، وهذا قاد بدوره إلى ظهور تعدُّد المصطلحات، أو (المفاهيم)، أملاً في التعبير عن هذا الاختلاف، ومنها مصطلحات، قد لا تتطابق، أحياناً، مع ما تحمله من مضامين أثرية.

وإذا عدنا إلى مرحلة رواد علم الآثار، الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، في تعريف المرحلة الانتقالية، بين العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الحديث، لوجدنا أن العالم الفرنسي (جبريل دي مورتيليه) (Gabriel de Mortillet)، الذي قدَّم أول تقسيم للعصر الحجري القديم، بناء على الأدوات الحجرية، أعتقد في عام 1869م أن العصر

الحجري القديم يتبعه مباشرة العصر الحجري الحديث، ولكن معاصره الفرنسي (إميل كارتيلاك) (Emile Cartailhac)، لاحظ، بعد فترة وجيزة، أن هذا الاستقراء يترك فراغاً واضحاً بين العصرين المذكورين، على اعتبار أن العصر الحجري الحديث لم يأت جاهزاً، بصورة مفاجأة، وإنما عبر مقدمات أولية، قادت بدورها إلى ظهور العصر المذكور، أو بعبارة أخرى، فإنه إذا أُخِذَ بوجهة نظر (مورتيليه)، فإن ذلك يعني أن إنسان العصر الحجري القديم، الذي عاش في أوروبا، كان قد هجرها بعد انتهاء العصر المذكور، ثم عاد إليها من جديد في العصر الحجري الحديث، وهذا الاعتقاد يتناقض مع المعطيات الأثرية التي كانت متوفِّرة، آنذاك، في أوروبا نفسها.

وفي السبعينيات من القرن المذكور، استناداً إلى هذه المعطيات، ومنها الأدوات الحجرية القزمية الهندسية الشكل (Geometrical Microlith Tools) سمَّى الباحث السويدي (أوتتو تُوريل) (Otto Torell) هذه المرحلة (العصر الحجري الوسيط) (Mesolithic)، ومنذ ذلك الحين أخذ هذا المفهوم ينتشر، بالتدريج، في المراجع الأثرية، وأضحى ثابتاً فيها إلى اليوم، مع أن هذا التعريف لم يُشفع بتحديد دقيق لمضمون العصر المذكور، آنذاك، (Mongait 1973: 172)، وظل على ذلك النحو إلى اليوم، رغم الدراسات الكثيرة. وبعد أن توسعت الدراسات، خاصة في أعقاب الدراسة الدقيقة لمغارة (له ماس - د - أزيل) (Le Mas d'Azil) في فرنسا، كان ذلك خلال الأعوام 1887 - 1889م، بالإضافة إلى مواقع أخرى كثيرة في أوروبا، وجِد أن العصر الحجري الوسيط غير متجانس في ثقافاته في جميع المواقع التي تنسب إليه. فالمواقع المبكرة. وبالأخص التي تؤرخ بالألف التاسع ق.م. - وهو التأريخ الذي يبدأ به العصر المذكور في أوروبا (Mongait 1973: 172)، أو بالألف العاشر ق.م، (Mellaart 1965: 14) على أكثر تقدير - تحمل سمات العصر الحجري القديم الأعلى، وتستمر هذه السمات في المواقع التي تؤرخ بحوالي الألف الثامن ق.م، بينما المواقع المتأخرة، التي استمرت إلى الألف الخامس، وفي بعض الأماكن إلى الألف الرابع ق.م، وجدت فيها مقدمات إنتاج القوت، كما وصفت بهذا الوصف، مع أن العصر الحجري الوسيط استمر في مناطق كثيرة من أوروبا إلى ما بعد الألف الرابع ق.م، (Mellaart 1965: 18).

وعلى أساس هذه الازدواجية، ظهر مصطلح ثان. وهو (العصر الحجري القديم اللاحق)، أو (لواحق العصر الحجري القديم) (Epi - Paleolithic)، فصار يعبر به عن المواقع التي تنسب إلى المرحلة المبكرة من العصر الحجري الوسيط، بل إن الثقافة الآزيلية (نسبة إلى مغارة له ماس - د - أزيل) هي التي حُددت به بداية العصر الحجري الوسيط، أو (Epi - Paleolithic) (لواحق العصر الحجري القديم)، فيما استخدم مصطلح ثالث، وهو (فجر العصر الحجري الحديث/ أو بواكير العصر الحجري الحديث) (Proto - Neolithic)، للتعبير به عن الجزء المتأخر من العصر الحجري الوسيط، الذي ظهرت فيه مقدمات إنتاج القوت، أو (مقدمات العصر الحجري الحديث)، أو بعبارة أخرى فإن العصر الحجري الوسيط، شطر إلى شطرين، فيما قسِّمت المرحلة الانتقالية، بوجه عام، إلى ثلاثة أقسام، وضع كل منها تحت مفهوم يختلف عن الآخر، وكأن هذه الأقسام صارت تتطابق مع ما تم تسجيله من أدوات لهذه المرحلة في أوروبا: فترة مبكرة، تحمل سمات العصر الحجري القديم الأعلى؛ وفترة متوسطة، تتسم بتطور الأدوات القزمية الهندسية الشكل، بالإضافة إلى انتشار القواطع، أو (الأزاميل) (Burins) الصغيرة الحجم، أو (المجهرية/ أو الدقيقة)؛ وفترة ثالثة، وهي الأخيرة، سارت في اتجاه تطوُّر الأدوات القزمية الهندسية الشكل نحو التحديث، أو (الحادثة) (Neolithizaton) (Mongait 1973: 175)، أو بمعنى آخر نحو إنتاج القوت في العصر الحجري الحديث. وبالإضافة إلى هذه المصطلحات الثلاثة الرئيسة، ظهر مصطلح آخر، يوحِّد بين العصر الحجري القديم الأعلى، والعصر الحجري الوسيط

(Mongait 1973: 172)، ولكن هذا المصطلح الأخير، لا يستخدمه الباحثون، في العادة، وهذا قد يشير في الوقت نفسه، إلى عدم وجود فهم كاف، لمضمون هذه المرحلة الانتقالية.

كما أن مصطلح فجر العصر الحجري الحديث لا يستخدم في واقع الأمر في أوروبا، بل يستخدمه بعض الباحثين، للتعبير به عن المواقع المتأخرة لهذه المرحلة الانتقالية في منطقة الشرق الأوسط (Mellaart 1965: 18 - 33)، بما في ذلك موقع أريحا في فلسطين، (Moore 1981: 5) فيما ظل مصطلح العصر الحجري الوسيط يستخدم في أوروبا، بوجه عام، بينما مصطلح (لواحق العصر الحجري القديم) أخذ يعبر به، في واقع الأمر، عن المرحلة الانتقالية بأكملها، سالفة الذكر، في بعض المناطق في إفريقيا، وهضبة زاجروس، والأناضول، وبلاد الشام، بما في ذلك المواقع المتأخرة، كالثقافة النطوفية في فلسطين (Gilead 1991)، كونها تحمل سمات العصر الحجري القديم الأعلى، بالإضافة إلى تاريخها القديم الذي كان يؤرّخ، آنذاك، في نطاق الألف الرابع عشر ق. م، (كوفين 1984: 18)، ووصل مؤخراً، إلى ستة عشر ألف سنة ق. م، (Otte et. al., 1995: table 1,: 936, 943)، بل إن بداية هذه المرحلة، صارت تؤرّخ ما بين الألف التاسع عشر، والألف السابع عشر ق. م، (كفافي 2010: 97) [(2)]، ليس هذا، وحسب، بل إن مصطلح (Epi – Paleolithic)، أصبح يقسم، هو الآخر، إلى مرحلتين: مرحلة مبكرة، وأخرى متأخرة.

فيما سجلت في بلاد الشام ثلاث مراحل رئيسة في تطور مواقع المرحلة الانتقالية، هي: الكبارية المبكرة، والتي يؤرخ لها من زهاء الألف الرابع عشر، إلى الألف الثاني عشر ق. م؛ والكبارية الهندسية، ويؤرخ لها من الألف الثاني عشر، إلى زهاء الألف العاشر ق. م، والمرحلة الثالثة هي الثقافة النطوفية، ويؤرخ لها من الألف العاشر إلى زهاء الألف الثامن ق. م، (كوفين 1984: 18 – 19). وتتسم المرحلة الأولى بسيادة الشرائح (Bladelet)، ذات الظهر، أو (الظهير) المهذب، في الغالب، وذات الطرف العلوي المبتور (شكل11: a – c). بالإضافة إلى وجود بعض الأدوات القزمية الهندسية الشكل. فيما اتسمت المرحلة الثانية بالأدوات القزمية الهندسية الشكل ذات الشكل المستطيل، القريب من المنحرف (شكل11: r – l). وهي الأدوات التي صارت تُحمَّل على حوامل مصنوعة من المواد العضوية، خاصة العظام. بالإضافة إلى وجود أدوات رحي الحبوب؛ بينما اتسمت الثقافة النطوفية بالكثير من المميزات، ومنها انتشار الأدوات القزمية الهلالية الشكل (Lunet)، أو (على شكل أنصاف الدوائر) (Segment)، والأزاميل (Burin)، (شكل12: n – r)، وصناعة الأدوات العظمية المختلفة، ومنها المناجل (شكل13: 25 – 26)، والخطاطيف الخاصة بصيد السمك، والإبر، وأدوات الزينة، والدُّمى، أو المنحوتات، بشكل عام،... الخ (شكل13(.

أضف إلى ذلك أن مصطلح العصر الحجري الوسيط (Mesolithic)، الذي عُني به، أنه يمثل المقدمات المباشرة لإنتاج القوت، التي ظهرت لاحقاً في العصر الحجري الحديث، أو أنه أقرب إلى العصر الحجري الحديث، منه إلى العصر الحجري القديم. في واقع الأمر لا توجد فيه تلك المقدمات في مكان استخدامه في أوروبا، مقارنة بتلك المقدمات التي ظهرت في منطقة الشرق الأوسط. وبالأخص بلاد الشام، وشمال العراق، وهضبة زاجروس، والأناضول. والتي يستخدم فيها مصطلح لواحق العصر الحجري القديم. مع أن العصر الأخير حُدِّد بأنه أقرب إلى العصر الحجري القديم، منه إلى العصر الحجري الحديث. ولكن يتضح أن هناك عاملاً إضافياً، إلى جانب العوامل الذاتية، التي انبثقت عنها هذه المرحلة، له دور كبير في تحديد مقدمات إنتاج القوت. وهي الظروف البيئية الطبيعية. أي أن هناك تكاملاً بين الشروط الطبيعية، من جهة. والشروط الذاتية عند الإنسان نفسه، من جهة أخرى. فعلى أساس العوامل الثقافية، بالإضافة إلى الظروف البيئية، تتحد طبيعة المرحلة الانتقالية، وسمات العصر

(2)- ذُكرت هذه التواريخ دون إسناد بالمعطيات، أو إحالات إلى مصادرها.

الحجري الحديث في كل إقليم جغرافي على حداة.

مقدمات إنتاج القوت في المرحلة الانتقالية

لقد ظهرت مقدمات إنتاج القوت في وقت مبكر من مرحلة (لواحق العصر الحجري القديم) في بلاد الشام، ذلك لأن العامل البيئي أدى دوره، في هذه العملية، إلى جانب المنجزات الثقافية ذات الصلة بالإنسان نفسه، والتي كانت قد وجدت في العصر الحجري القديم المتأخر (Upper - Paleolithic) (شكل10). فالحيوانات التي استأنسها الإنسان، في العصر الحجري الحديث، ومنها الضان، والماعز، والثيران البرية... الخ، كانت برية، تعيش قبل ذلك في بلاد الشام، والتي تؤكدها، بالإضافة إلى المعطيات القديمة الكثيرة، معطيات حديثة (محيسن، أكازاوا 2002: 18)، وكذا في هضبة زاجروس، والأناضول، في وقت لم تكن هذه الحيوانات موجودة في أوروبا، خلال سيادة الجليد في عصر البليستوسين، ومن ثم فإنها لم تظهر فجأة فيها بعد ذوبان هذا الجليد، في نهاية العصر المذكور، وبداية الهولوسين. فقد سُجلت أقدم عظام لاستئناس الضان في العراق، في وقت مبكر من دراسات آثار هذه المرحلة في المنطقة، ومنها في موقع (شَانِدَار) في الطبقات التي تؤرخ بالألف التاسع ق. م، (Herre 1963: 243 - 244)، فيما سُجلت في أوروبا في الألف الثامن ق. م، أقدم عظام لحيوان مستأنس، هو الكلب (Zeuner 1963)، ولكن عملية استئناس الكلب، ارتبطت بهدف استخدامه في الصيد، فيما استُئنست الحيوانات الأخرى بهدف إكثارها، والسيطرة عليها، للاستفادة من لحومها، في بادئ الأمر، ثم من أصوافها، وألبانها... الخ، أضف إلى ذلك أن هناك فَارقاً كبيراً بين العملية التي تم من خلالها استئناس الكلب، والعملية التي استُئنست بها باقي الحيوانات الأخرى.

فالكلب هو الذي قاد نفسه بنفسه، إلى عملية الاستئناس، فيما استَدرج الإنسان إليها باقي الحيوانات الأخرى. لقد استُئنس الكلب بطريقة آلية، بُنيت على أساس الحاجة المشتركة، التي ظهرت بين الكلب، من جهة، والإنسان، من جهة أخرى، في المرحلة الانتقالية، فقد تمثلت حاجة الكلب إلى الإنسان، من خلال حصوله على جزء من الغذاء، الذي صار يتوفَّر له في الأماكن الدائمة التي يقيم فيها الإنسان، فيما تمثلت حاجة الإنسان إلى الكلب، في استخدامه في صيد الحيوانات، والحراسة، وبالأخص حيوانات البيئة الجديدة الصغيرة الحجم، والسريعة العدو، والتي استدعت، بالإضافة إلى استخدام القوس، الاستعانة بالكلب، وبالتالي فقد تمت تلك العملية، بصورة عفوية، من خلال تردد الكلب على مساكن العصر الحجري الوسيط، لأكل الفضلات التي كان يُرمى بها من مطابخ تلك البيوت، ومن ثم ظهرت أُلفة، بين الكلب، وبين سكان هذه المنازل، وبالأخص ربَّة البيت، التي يُعتقد أنها قامت، مرة أخرى، بهذا الدور المهم، بحكم ارتباطها باقتصاد المنزل، ومبدأ الأمومة، الذي جعلها تتعامل برفق مع هذا الحيوان، وبالأخص مع صغاره.

فيما يُعتقد أن عملية استئناس الضان، والماعز، والحيوانات الأخرى، تمت بطريقة أخرى معقَّدة، وذلك من خلال القبض أولاً على صغارها، خلال عملية الصيد، ومن ثم التعامل معها بطرق مختلفة، إلى أن أصبحت، بالتدريج، حيوانات أليفة. ولكن بغض النظر عن هذه الافتراضات، فهناك عاملان أساسيان ظهرا في هذه المرحلة الانتقالية، على الأرجح، وهما حاجة الإنسان إلى استئناس الحيوان، من جهة، بالإضافة إلى استعداده للقيام بتلك العملية، من جهة أخرى، إلى جانب شرط ثالث، وهو توفُّر هذه الحيوانات البرية في البيئة نفسها، وقد تُوِّجت هذه العملية بشكل تام - استئناس الحيوان - في العصر الحجري الحديث.

ولكن هل يُعدُّ استئناس الكلب في المرحلة الانتقالية، من مقدمات إنتاج القوت؟ أم لا؟ سؤال يصعب الإجابة عليه، فهو من جهة، حيوان تم استئناسه، في واقع الأمر، بغض النظر عن الطريقة الآلية التي تمت بها هذه العملية، ومن جهة أخرى، فإن دوره، ظل في نطاق الصيد، مع أنه يمكن القول: أن عملية السيطرة عليه، كانت محفِّزة أو (مغرية) للإنسان، لأن يستأنس

حيوانات أخرى، أو أنها جعلت الإنسان يفكر، أو يسعى إلى استئناس حيوانات أخرى، ولكن هذا الأمر لم يحدث في مكان الاستئناس المبكر الكلب في أوروبا، اضف إلى ذلك أن تحديد عظام الحيوانات المدجّنة، عن الحيوانات غير المدجّنة، ليس بتلك البساطة التي قد يتصورها بعضنا.

وفيما يتعلق بالتعامل مع الغطاء النباتي، فقد سُجلت في منطقة الشرق الأوسط، وبالأخص في المناطق، سالفة الذكر، المدقات، وأدوات السّحق الحجرية، لسحق جذور النباتات، وأوراقها، وأغصانها، وكذا أدوات الرّحى، لرَحي حبوب نبات القمح، والشعير... الخ، البرية، وكذا المناجل المبكرة، التي صُنعت هيكلها من العظام، في الغالب، (شكل13: 25 – 26)، وطُعمت، بعد ذلك، بالأدوات القزمية الهندسية الشكل، حيث أصبحت هذه الأدوات شفرات، أو (أسناناً) لهذه المناجل، بالإضافة إلى ظهور أدوات أخرى ذات صلة، سواء أكان ذلك في الثقافة (الكبارية)، أم في الثقافة (النطوفية)، اللتين انتشرتا في فلسطين، وسوريا، والأردن، ولبنان، والتي وصلت فيها تقنية الأدوات القزمية الهندسية الشكل (Al – Nahar 2005) مستوًى راقٍ، أم في الثقافة (الزّارزية)، التي انتشرت في شمال العراق، والأناضول، وهضبة زاجروس.

وبالإضافة إلى ذلك فقد شُيِّدت في المرحلة الانتقالية، المساكن الدائمة خارج نطاق الكهوف (شكل1)، قرب مصادر الغذاء، إلى جانب استخدام الكهوف، والمغارات، كما وجدت في هذه الثقافات أدوات صيد الأسماك، ومنها السنانير، والخطاطيف، المصنوعة جميعها من عظام الحيوانات (شكل13)، بالإضافة إلى أدوات أخرى مطعّمة بالأدوات القزمية الهندسية الشكل، بما في ذلك استخدام طُرق الصيد الراقية، والمنظمة، التي كان يتم فيها اختيار أنواع محددة من الحيوانات، استناداً إلى البقايا العظمية التي وجدت في مواقع هذه الثقافات، بما في ذلك الأدوات، والمصنوعات الأخرى، التي جُهّزت من عظام هذه الحيوانات (شكل13).

فالقمح، والشعير... الخ. اللذان هُجّنا في العصر الحجري الحديث، وظهرت على أساسهما الزراعة. كانا متواجدين، على هيئة نباتات برية. في المناطق سالفة الذكر. وقد قطفها إنسان المرحلة الانتقالية. واستخدمها في وجبته الغذائية. فعرف قيمتها. وتعلّم بالتدريج زراعتها، عندما تُوِّجت هذه العملية بنجاح تام في العصر الحجري الحديث. في الوقت الذي كانت أوروبا في المرحلة الانتقالية. تعيش في مرحلة الصيد. والجمع، وخاصة صيد الأسماك. على ضفاف الأنهار. والبحيرات، وحتى أن ظهور الزراعة فيها. في العصر الحجري الحديث، إلى جانب استئناس الحيوان. يعيده أغلب الباحثين إلى تأثير العصر الحجري الحديث في منطقة الشرق الأوسط (Mellaart 1965: 16). وبالتالي فإن مصطلح العصر الحجري الوسيط المستخدم في أوروبا، قد يكون من المناسب إذا استخدم في المناطق التي ظهرت فيها بالفعل مقدمات الزراعة. والرعي. مثل بلاد الشام، والمناطق الأخرى سالفة الذكر. على اعتبار أن هذه المقدمات هي التي حُدِّد بها مفهوم العصر الحجري الوسيط التقليدي. بينما مصطلح لواحق العصر الحجري القديم. وأقسامه. المستخدمة. في بلاد الشام، والأقاليم الأخرى. سالفة الذكر. قد يجدر استخدامها في أوروبا، والمناطق الأخرى. التي لم تظهر فيها مقدمات إنتاج القوت. كي تتطابق المصطلحات مع مضامينها الأثرية التي رُبطت بها. أو أن يُعاد النظر في تحديد مضمون المرحلة الانتقالية نفسها، ذلك لأن وجود الأدوات القزمية ليس بالضرورة أن يكون قد رافقه ظهور مقدمات الرعي. والزراعة. والدليل على ذلك ما سلف ذكره في أوروبا. ذلك لأن مقدمات إنتاج القوت تتألف من مجموعة متكاملة من العوامل، أو أن مفهوم العصر الحجري الوسيط يجب أن يعبر به عن زمن المرحلة الانتقالية فقط. بين العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الحديث. بينما يظل مضمونها الأثري مختلفاً من منطقة إلى أخرى. فبعض المصطلحات، قد تكون مناسبة للتعبير بها عن ظواهر معينة، في فترة اكتشاف هذه الظواهر. ولكن

عندما تُكتشف ظواهر أخرى جديدة في فترات لاحقة، قد تجعل هذه الظواهر الجديدة، تلك المصطلحات القديمة، لا تفي بالمضامين الأثرية، أو ظهور عدم اتساق، إن لم يكن تناقض، في بعض الحالات، بين هذه المصطلحات، ومضامينها الأثرية. ومع ذلك فإنه على الرغم من أهمية تطابق المصطلح مع مضمونه الأثري، إلاَّ أن الأهم من هذا، هو تشخيص الظواهر الأثرية نفسها، ومن ثم يمكن البحث عن مفاهيم مناسبة لها.

التغيرات المُناخية القديمة في الجزيرة العربية ذات الصلة بالمرحلة الانتقالية

على الرغم من عدم وجود تصور كاف عن البيئة القديمة في الجزيرة العربية، بسبب قِلّة الدراسات البيئية، إلاّ أن دراسات المُناخ القديم التي أجريت بصحراء المُندفن في الربع الخالي، وفي مناطق أخرى من الجزيرة العربية، سُجّلت دورتان مطيرتان كبيرتان، وأخرى جافة بينهما، كبيرة، أيضاً. فالدورة المطيرة الأولى (Hötzel et., al., 1978: 233)، تزامنت مع جليد فيورم في الشمال، وتمتد من زهاء (36) ألف سنة إلى زها (17) ألف سنة (McClure 1976: 755)، وهي الأغنى، والأكثر رطوبة، مقارنة بالدورة الثانية، مع تركز أكبر لكمية الأمطار فيها، في الفترة ما بين (30)، إلى (21) ألف سنة (McClure 1976, 1978)، أمَّا الفترة الثانية فتمتد ما بين (9) آلاف سنة، إلى زهاء (6) آلاف سنة مضت (Butzer 1974; McClure 1976: 755). بينما الفترة الجافة التي سُجلت بين هاتين الدورتين المطيرتين، يؤرخ لها مابين (17) ألف سنة إلى زهاء (9) آلاف سنة (McClure 1976, 1978)، أو إلى (10) آلاف سنة مضت، استناداً إلى معطيات إضافية من الخماسين (Zarins et., al., 1979: 20)، والمهرة (Amirkhanov 1997: 189)، مع تركّز أكبر لشدة الجفاف ما بين (13) إلى (12) ألف سنة (McClure 1976, 1978).

وتتطابق هذه المعطيات، من حيث المبدأ، مع دراسة المناخ في وادي الدواسر (Hötzel et., al., 1978)، ومنطقة الخرج (MacDonald et., al., 1975)، وفي أماكن أخرى من وسط الجزيرة العربية (Hötzel, Zötl 1978)، بالإضافة إلى المعطيات التي أجريت في جُبة في صحراء النفوذ في الشمال، حيث سُجلت فيها فترتين نشيطتين لتشكُّل البحيرات، الفترة الأولى أرخ لها بـ: (430 ± 25، 630) ق.ح، من عصر البليستوسين، بينما أرِّخت الفترة الثانية بـ: (50 ±6، 685) ق.ح من عصر الهولوسين (Garrard, Harvey 1981: 139 - 140). وهذه الأدوار، سواء الجافة، منها، أو المطيرة، لم تقتصر على الجزيرة العربية وحدها، وإنما شملت مناطق أخرى مجاورة، بمقادير متفاوتة، كالأردن (Hackriede & Wisman 1968)، وسوريا (Kaiser et., al., 173)، والصحراء الأفريقية الكبرى (Shaw 1976)... الخ.

وإلى جانب هذه الأدوار الثلاثة الرئيسة، سُجلت، كذلك، فترات مطيرة، قصيرة المدى، إلى جانب الأدوار الجافة السائدة، منذ زهاء الألف الخامس ق.م، وحتى (3) آلاف سنة ق.م، (Masry 1974)، وفيما بعد هذا التأريخ، كذلك، وحتى في الفترة العباسية (Larsen 1977; McClure 1978, Hötzel, Zötl 1978)، غير أن أغزرها، وأطولها هنا، حسب إجماع دارسي التغيرات المناخية، سُجلت في زهاء الألف الخامس ق.م، ولكن على الرغم من هذه الأدوار المطيرة القصيرة، التي أتت بعد الدورة المطيرة الثانية الطويلة، سالفة الذكر، فإن المناخ الجاف المعاصر، بدأ يسود من حوالي الألف الثالث ق.م، (Marcolongo & Palmieri 1990: 141)، بما في ذلك اشتداد التصحر بدرجة كبيرة (لوحة: 13، 14، 16 - 17)، مع وجود أمطار قليلة تتساقط على مرتفعات اليمن في فصل الصيف، جراء الرياح الموسمية القادمة من المحيط الهندي، وأمطار قليلة، كذلك، تتساقط على الجبل الأخضر في عُمان في الشتاء، القادمة إليه من اتجاه الشمال، إلى جانب أمطار نادرة، تسقط، أحياناً، على بعض المناطق الصحراوية.

أثر التغيرات المُناخية على سمات المرحلة

الانتقالية في الجزيرة العربية

تدخُل الجزيرة العربيـة ضمن المناطق التي ساد فيها تعاقب الأدوار المطيرة، والجافة، وهو المناخ الذي سيطر على الجزء الجنوبي من الكرة الأرضية، بوجه عام، وبالتالي فإن عالم النبات، والحيوان، لم يتغير فيها بشكل كبير، مقارنة بأوروبا، أو المناطق التي تأثرت بالأدوار الجليدية، وبالأخص بذوبان جليد فيورم، سالف الذكر. أضف إلى ذلك أن الجزيرة العربية تعرَّضت، كما سبق الذكر، لمناخ شديد الجفاف، في البليستوسين المتأخر، بدءاً بـ (17000) سنة إلى زهاء (9000) سنة ق.ح، (قبل الحاضر)، (McClure 1967)، وبلغ أشده، ما بين (15 - 13) ألف سنة، وقد كان لذلك المناخ، أثره الكبير، أيضاً، على عالم النبات، والحيوان، وحياة الإنسان، إلى درجة أن بعض الباحثين صار يعتقد أن الإنسان هَجَر الجزيرة العربية بالكامل في ذلك الدور الجاف (Zarins et. al., 1979: 13، 1980: 16)، وهذا ما سيتم العودة إليه في مكان آخر من هذه الدراسة.

ملفت للانتباه، كذلك، أن العصر الحجري القديم الأعلى، في المناطق التي وجد فيها، يتزامن، من حيث المبدأ، مع تأريخ الدور المطير، الذي سُجل في الجزيرة العربية، خلال الفترة ما بين (36) ألف سنة، و(17) ألف سنة من الآن، والذي يقابله جليد فيورم في الشمال، وهو العصر الذي لم تُسجل مواقعه في الجزيرة العربية، مع أن هناك مواقع قليلة في اليَمَن أعيدت إلى العصر المذكور (Amirkhanov 1991: 256 - 312)، (لوحة22: أ، ب؛ شكل22)، على الرغم من أنها ليست بتلك الصورة التي عُرفت في أوروبا، أو في الشرق الأوسط، وبالأخص مناطق الجوار، في كل من سوريا، ولبنان (Copeland 1975، Besancon، Copeland and Hours 1975 - 7)، وصحراء سيناء، والنقب، ومواقع أخرى في فلسطين (Perrot 1968، Henry 1973). كما وُصفت مواقع في شمالي الجزيرة العربية، بأنها تعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى، ولكن هذا الوصف لم يُشفع، في واقع الأمر، بنماذج من الأدوات تؤكد وجود العصر المذكور (Parr et., al., 1978: 35).

وملفت للانتباه في الجزيرة العربية، كذلك، هو: إذا كان غياب العصر الحجري القديم الأعلى، أو غياب تقاليده النموذجية، مرتبطاً بالأحوال المناخية الرطبة، آنذاك، والتي لم تتطلب من الإنسان إحداث تغييرات كبيرة في صناعة أدواته الحجرية. فإن الأحوال الجافة في نهاية عصر البليستوسين، قادت، هي الأخرى، إلى غياب أدوات العصر الحجري الوسيط، أيضاً، وبالأخص تقنية صناعة الأدوات القزمية الهندسية الشكل، ولكن السؤال المهم هنا، هل هذه الأحوال قادت إلى غياب أدوات العصر الحجري الوسيط، سالفة الذكر، أو إلى غياب الإنسان نفسه، كما يرى البعض (Zarins et. al., 1979: 13، 1980: 16).

وعلى هذا الأساس، يمكن القول أن الأدوار الجافة، التي قد تؤدي في بعض الأماكن إلى غياب الخصائص الأثرية لبعض العصور، فإن الأدوار المطيرة، يمكن أن تؤدي إلى نفس النتيجة، أضف إلى ذلك أن مقدمات العصر الحجري الوسيط، ممثلة بالأدوات القزمية، والصناعات العظمية... الخ، سواء أكان ذلك في أوروبا، أم في الأماكن الأخرى التي ظهرت فيها، خُلقت في أحشاء العصر الحجري القديم الأعلى (شكل4، 5)، وكذا مقدمات لواحق العصر الحجري القديم، سواء أكان ذلك في بلاد الشام (شكل11 - 13)... الخ، أم في الأناضول، وهضبة زاجروس، أم في بعض المناطق الإفريقية (لوحة19 - 20). خُلقت، كذلك، في أحشاء العصر الحجري القديم الأعلى (شكل10، 14، 15)، وبالتالي فإن وجود العصر الحجري الوسيط في الجزيرة العربية، بالصورة التي وجد فيها في أوروبا، أو لواحق العصر الحجري القديم، بالصورة التي وجدت في بلاد الشام، وبعض المناطق في إفريقيا، من غير الممكن، طالما أن العصر الحجري القديم الأعلى لم يوجد فيها، بتلك الصورة التي وجِد في المناطق سالفة الذكر، وإن وجِد فيها، بصورة، أو بأخرى، فإنه لا يحمل معه تلك الأساليب التقنية، والمعطيات الأخرى المرافقة، التي كانت من المفترض أن تُمهِّد أمام ظهور

العصر الحجري الوسيط، بتقنيته سالفة الذكر، أو للواحق العصر الحجري القديم بتقنيته، التي عُرفت في المناطق المجاورة.

مع أن موقع (شعبة دَحْيَا/ أو دحية) في خميس بني سعد، الواقع في المنطقة الانتقالية بين سهول تهامة، والمرتفعات الجنوبية الغربية في اليمن، ومواقع أخرى سطحية ([3])، اتسمت بتقنية الشطائر (Blade) الحجرية (لوحة21)، ولكن هذا الموقع، نُسب إلى العصر الحجري القديم الأوسط، (Delagnes، Gaupertb 2009)، بناءً على تواريخ مطلقة تصل إلى أكثر من (60) ألف سنة، وهذا يخلق بدوره مهاماً، وآفاقاً جديدة، للبحث في أسرار حياة عصور ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية، ذلك لأن الباحث يعتقد أن مثل هذا الموقع، إذا ثبت انتماءه، بصورة قاطعة، إلى العصر الحجري القديم الأوسط، فإنه يختلف عن خصائص العصر نفسه، المتسم بتقنية الشظايا، الذي عُرف في باقي مناطق جنوبي الجزيرة العربية (شكل16؛ لوحة22: أ)، وفي وسط الجزيرة، كذلك، وسيتطرق الباحث إلى العصر المذكور في الفقرة الخاصة بالأدوات المقترحة للمرحلة الانتقالية بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث.

وفي جميع الحالات، فإذا كان للتغيرات البيئية، دور كبير في حياة البشر، فإن لاستجابة الإنسان، وتفاعله، مع هذه التغيرات، دور، أيضاً، وإلاّ ستكون النظرة قاصرة، على الأرجح، إذا حُمّلت التغيرات البيئية وحدها، تبعية مثل هذه الأحداث، سواء كالتي وقعت في الجزيرة العربية، سالفة الذكر، والتي جرّت نفسها على التطورات اللاحقة، أو في أماكن أخرى من العالم، وسواء أكان ذلك في عصور ما قبل التاريخ، أو في المرحلة التاريخية، حيث لا يمكن تناول الأثر البيئي على الإنسان، في منأى عن دور الإنسان نفسه في ثقافته، مع أن هذا الدور، يتزايد بتزايد منجزات الإنسان، وقدراته المتاحة، وفقاً للمرحلة التاريخية.

وبناء على ما تقدم فإن الأدوات القزمية الهندسية الشكل، وتقنية صناعة الشطائر الحجرية الخاصة بالعصر الحجري الوسيط التي عُرفت في أوروبا، وبعض المناطق الأسيوية، غير موجودة في الجزيرة العربية، للأسباب، سالفة الذكر، والتي يمكن إيجازها بأربعة عوامل رئيسة، وهي أولاً: غياب تقاليد العصر الحجري القديم الأعلى النموذجية، والممثلة بتقنية صناعة الشطائر الحجرية، والتي كان من المفترض أن تُمَهِّد لظهور العصر الحجري الوسيط؛ ثانياً: وجود الدور الجاف، سالف الذكر، في نهاية عصر البليستوسن، ثالثاً: عدم التغيُّر الكبير، في عالم النبات، والحيوان، من حيث المبدأ، رابعاً: عدم استجابة الإنسان بقدر كاف للمتطلبات البيئية الجديدة. فقد انتشرت الأدوات القزمية الهندسية الشكل في الجزيرة العربية في وقت متأخر جداً، كان ذلك في العصر الحديدي، مع أن مقدّماتها، سجلت في أواخر العصر الحجري الحديث في بعض المناطق، وفي العصر البرونزي (المعمري 2008)، بل وهناك الكثير، أيضاً، من الأسئلة حول صلة هذه الأدوات، بموروث العصور الحجرية المحلية في الجزيرة العربية، من عدمها، حيث يعيدها بعض الباحثين إلى أصول إفريقية، (Huzayyin 1937: 573 ;Caton - Thompson 1944: 134 - 136 ; Rahimi 1987140)، والبعض الآخر إلى بلاد الشام (Amirkhanov 1997: 220 - 221)، فيما يرجِّح الباحث أنها ذات أصول محلية (المعمري 2008).

معالجة المرحلة الانتقالية في وسط الجزيرة العربية

استُخدم في وسط الجزيرة العربية مفهوم (Post - Paleolithic) (ما بعد العصر الحجري القديم) (Zarins et. al.، 1980: 18)، وكذا مفهوم ((Epi - Paleolithic) (Gilmore et. al.، 1982: 12 - 13))، (لواحق العصر

(3) في اغسطس 2007م قام فريق يمني امريكي مشترك بمسح منطقة باب المندب، والمناطق الداخلية المقابلة لشواطئه، ومن ضمن الأدوات التي تم تسجيلها بعض الشطائر الحجرية الكبيرة الحجم والتي تتطابق مع الشطائر الحجرية في موقع (شعبة دحيا) في خميس بني سعد)، وكان هذا الفريق يتكون من مؤلف هذه الدراسة. ود. (بارت تشاومان) من معهد دراسة العصور الحجرية في ولاية (إنديانا) بامريكا. وكل من د. سيف الحكيمي، ود. احمد المخلافي من قسم الجيولوجية بجامعة صنعاء. واخصائي الآثار عزيز النوري، ومحمد عبدالودود، من الهيئة العامة للآثار والمتاحف.

الحجري القديم)، أو (العصر الحجري القديم اللاحق)، للتعبير بهما عن خصوصية المضمون الأثري للعصر الواقع بين كل من العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الحديث، أو (المرحلة الانتقالية بين العصرين المذكورين)، لعدم العثور على الأدوات القزمية الهندسية الشكل، التي تُميّز العصر الحجري الوسيط (Mesolithic)، مع أنَّ مفهوم (Epi – Paleolithic) قد يكون أكثر تحديداً من المفهوم الآخر، طالما أن العصر الحجري الحديث قد أُفرِد هنا، بالإضافة إلى سمة هذه المرحلة نفسها، غير أن الأدوات التي نُسبت إلى لواحق العصر الحجري القديم، في بلاد الشام (Bar – Yosef 1970; Besancon، Copeland and Hours 1975 - 7)، (شكل11 – 13)، غير متطابقة مع ما تم إفراده في وسط الجزيرة العربية (Zarins et.، al.، 1980: 17، Zarins et.، al.، 1981: 19)، (شكل17، 18)، ولكن فقد تم إفراد مجموعة من المواقع تحت مفهوم ما بعد العصر الحجري القديم (Post – Paleolithic) (Whalen et.، al.، 1981: 49; Zarins et. al.، 1980: 18)، وأخرى تركت معلّقة بين العصر الحجري القديم الأعلى، الذي لم تحدد خصائصه، في الأساس، وبين لواحق العصر الحجري القديم (Gilmore et. al.، 1982: 12 – 13، Table 1)، الذي لم يُعط، هو الآخر، تحديداً واضحاً من قبل الباحثين هنا، كذلك.

يُعدُّ مفهوم ما بعد العصر الحجري القديم (Post – Paleolithic)، ذا نطاق واسع إلى حد كبير، حيث يدخل فيه المضمون الأثري لكل من المرحلة الانتقالية بين العصر الحجري القديم، بالإضافة إلى العصر الحجري الحديث، في حالة عدم وجود الزراعة في العصر الأخير، وقد يشمل هذا المفهوم ما بعد العصر الحجري الحديث (Post – Neoloithic)، أيضاً، وهو ما عُني به ضمنياً، كذلك، عند استخدامه بدءاً بعام1954م في جنوبي الجزيرة العربية (Caton – Thompson 1954)، ثم في سبعينيات القرن العشرين في شرقيها (Copeland & Bergne 1976)، وبنفس المضمون أعيد استخدامه، مؤخراً، في جنوبي الجزيرة (Crassard 2007). امّا في عُمان فيستخدم الباحثون الألمان، في المقام الأول، مفهوم العصر الحجري المتأخر (The late stone Age) (Uerpmann 1992) للسبب نفسه، أيضاً، بدلاً من استخدام مصطلح العصر الحجري الحديث، ولقناعتهم بعدم وجود العصر الحجري القديم الأعلى، من المحتمل. وهو المفهوم الذي يصادف استخدامه، فيما ندر، في الأمارات العربية المتحدة (Harris 1998).

بينما استِخدام ما بعد العصر الحجري القديم في وسط الجزيرة العربية، قُصد به المرحلة الانتقالية فقط، بين كل من العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الحديث، على اعتبار أن العصر الحجري الحديث تم إفراده هنا، وبالتالي فإن استخدامه، على هذا النحو، يتناقض مع المضمون الذي وجد من أجله هذا المفهوم، في الأساس، مع أن العصر الحجري الحديث، كان يرد عندهم، بين قوسين، أحياناً، لعدم وجود الزراعة فيه، كذلك (Zarins et. al.، 1980: 17، notes 2، Zarins 1981: 19، notes 6، Zarins et. al.، 982: 30)، ولكن العصر المذكور لم يُضمَّن في هذا المفهوم، غير أن عدم الاتفاق بين الباحثين في وسط الجزيرة العربية، في عدد من المسائل، كما ما يبدو، عكس نفسه على عدم الاتفاق في استخدام أحد المفهومين، للتعبير به عن هذه المرحلة، علماً أن استخدام مفهوم ما بعد العصر الحجري القديم، غير صالح في الأساس هنا، كما سلف الذكر، والأهم من هذا، هو أن الباحثين هنا، لم يتفقوا كذلك، على طبيعة الأدوات الحجرية المحددة لسمات هذه المرحلة الانتقالية.

أُدرِجَت في وسط الجزيرة العربية مواد حجرية من مواقع يبلغ عددها نحو (26) موقعاً في المنطقة الشمالية الغربية (Whalen et. al. 1981: 49)، ومنها المواقع: (210 – 281/ 202/ 328: 205 - 161/101)، وأخرى في المنطقة الوسطى (Zarins et. al.، 1979: 13، 17 – 18; 1980: 18)، مثل (207 - 38/ 40) في صلبوخ، أو (سدوس)، تحت مفهوم ما بعد

العصر الحجري القديم (شكل17). وكذا أُدْرِجت مواد حجرية من مواقع في المنطقة الشمالية، تحت مفهوم العصر الحجري القديم اللاحق، ولكن الأخيرة، تركت معلّقة، في الوقت نفسه، بين العصر المذكور، والعصر الحجري القديم الأعلى، كما سلف الذكر (Gilmore et. al., 1982: 12 - 13).

صنَّف (والِن) مصنوعات ما بعد العصر الحجري القديم بالمكاشط، والسكاكين، والمخارز، والمثاقب، والأدوات المسنَّنة، أو (ذات المخالب) (Notched Tools)، وبمواد ليفالوازية بنسبة متدنية، مقارنة بالعصر الحجري القديم، وبأن أحجام الأدوات فيها تتأرجح، حسب قوله، بين الحجم الصغير، والحجم الكبير، كما وصف هذه الأدوات، كذلك، بخِفَّة لون البِلىٍ عليها، مقارنة بأدوات العصر الحجري القديم، وبتركُّز مواقعها على التشكيلات الجبلية البازلتية، والريوليتية، والجرانيتية (Whalen et. al. 1981: 49). ولكن هذا الحديث يُعدُّ، من حيث المبدأ، حديثاً عاماً، غير مُحَدَّد بدقة لمحتوى العصر، سالف الذكر، فالأدوات الحجرية التي ذُكرت، لا يوجد فيها ما يميزها عن باقي العصور الحجرية الأخرى، وبالإضافة إلى ذلك، فإن كل ما عرضه (والِن) من أدوات نموذجية لتحديد العصر المذكور هو ما نقله الباحث عنه في هذه الدراسة (شكل18).

وكذا فإنَّ (زارينس)، الذي ينفي تارة، وجود هذه المرحلة (Zarins et. al., 1979: 13, 1980: 16 - 17, 1981: 19)، وتارة أخرى، يعود للإقرار بوجودها، وصف مواقعها بأنها تضم عدداً بسيطاً من النّوى، والشطائر الحجرية (شكل17)، وكذا الشظايا، ومخلّفات التصنيع، أما الأدوات فهي كما قال: المكاشط، والمسننات، أو (ذوات المخالب)، والمثاقب، وبأن تأثير البِلى على هذه المواد لم يظهر إلاّ في أدنى صوره (Zarins et. al., 1980: 18)، وبالإضافة إلى هذا النوع من الأدوات، الذي يتواجد في أكثر من عصر، أو (غير المحددة، في نظر الباحث، للواحق للعصر الحجري القديم)، لم يقدم (زارينس) للاستشهاد، نماذج من هذه الأدوات، باستثناء مجموعة صلبوخ، وهي قليلة جداً، (شكل17)، وهي مؤلّفة من بعض الشطائر الحجرية (Blade)، إلى جانب الشظف في الوقت نفسه (Flake - Blade) أو (Lamenary - Flake)، والتي كان قد قال عنها قبل ذلك، بأنها بالقدر الذي يمكن أن تنتمي إلى العصر الحجري القديم الأعلى، بالقدر نفسه يمكن أن تنتمي إلى ما بعد العصر الحجري القديم (Zarins et. al., 1979: 18).

ولكن الأهم من هذا، هو ما حدّده (زارينس) من سمات أخرى مهمة لهذا العصر، من وجهة نظره، وهي عدم وجود كل من التهذيب المزدوج، أو (المرقق من الجهتين) (Bifacial retouch)، والرؤوس، بوجه عام، (Zarins et. al., 1980: 18)، وهما الظاهرتان الرئيستان اللتان يمكن أن يتَميز بهما العصر المذكور، عن غيره من العصور الأخرى، إن كان قد وجد بالفعل، كما يعتقد الباحث (لوحة22: ج، 23، 24: - أ، - ب، لوحة 25: - أ، - ب)(. فالرؤوس الحادة، والتهذيب المرقق من الجهتين، يُعدَّان من الروابط المشتركة، في نظر الباحث، بين العصر المذكور، والعصر الحجري الحديث في ثقافة الشظايا، من جهة، وبين العصرين معاً، والعصر الحجري القديم، من جهة أخرى، (لوحة22، 24، 25). ولا غرابة في أن نجد أدوات العصر المذكور مختلفة تماماً عند آخرين، أيضاً، فقد ذكر (عبد النعيم) بأنها تتميَّز بالرؤوس الورقية المُشرشرة الحواف (Notched foliates) والرؤوس المثلثة القزمية، حسب تعبيره ((Triangular microlithic points، وأدرجها تحت مفهوم العصر الحجري الوسيط، والذي رآه، في الوقت نفسه، بأنه يساوي لواحق العصر الحجري القديم، أضف إلى ذلك أن الأدوات التي عرضها لهذا العصر (Nayeem 1992 39, 61, 62, pl. XVI, XVII)، هي رؤوس مرقّقة من الجهتين من أدوات النمط الصحراوي، المعروضة في بعض متاحف المنطقة، تعود، في نظر الباحث، إلى العصر الحجري الحديث، أغلبها مكسورة الأعناق، أو القواعد، بينما الرؤوس ذوات الأعناق السليمة، من

النمط نفسه، نسبها، كالآخرين، إلى العصر الحجري الحديث، وهذه مشكلة عند الباحث نفسه، إن كان لا يستطيع أن يميز حتى بين الأدوات السليمة، والأدوات المكسورة، كما أنه أعاد تأريخ هذه المرحلة الانتقالية إلى الفترة من: (10، 000) إلى (6000) سنة ق.م، دون أن يوضح مصوغات افتراضه لهذا التأريخ، علماً أن العصر الحجري الحديث المبكر، كان قد أُرّخ له في شمالي الجزيرة العربية، وشرقيها، منذ بداية الثمانينيات بالفترة ما بين (8000) إلى (7000) سنة ق.م، بناء على أوجه المقارنة بين مواده الحجرية، وشبيهاتها في بلاد الشام (Zarins et. al.، 1981: 19). وباختصار فإن بعض المتخصصين في معارف قريبة من عصور ما قبل التاريخ، قد تكون عندهم بعض المعلومات العامة عن عصور ما قبل التاريخ فيعتقدون أن ذلك كافٍ لأن يكتبوا فيها. فغياب العصر الحجري الوسيط في الجزيرة العربية، ممثلاً بالأدوات الحجرية القزمية، والظواهر الأخرى المرافقة التي وجدت في أوروبا، سالفة الذكر، أمر متفق عليه بين الباحثين في المنطقة إلى درجة أن بعضهم صار يتجاوز ذكر هذا العصر، في الأساس (محمد علي 2001؛ الأمين 2003، الشارخ 2003)، أمَّا مسألة الفرق بين العصر الحجري الوسيط، ولواحق العصر الحجري القديم، فقد تمت الإشارة إليه فيما سبق.

الأدوات المقترحة للمرحلة الانتقالية في الجزيرة العربية

يرى الباحث أولاً: أن الجزيرة العربية، نتيجة للتغيرات المناخية، والعوامل الأخرى ذات الصلة بغياب خصائص العصر الحجري القديم الأعلى النموذجية، سالفة الذكر، أخذت تسير، بالتدريج، منذ زهاء العصر الحجري القديم الأوسط، في اتجاه خاص بها. فالعصر الحجري القديم الأوسط يتكون فيها، حسب رؤية الباحث، من ثقافتين رئيستين، إحداهما يمكن تسميتها بالثقافة الساحلية، أو (الاتجاه الثقافي الساحلي)، أو (اتجاه دحيا)، ممثلة بموقع (شعبة دحيا في خميس بني سعد في اليمن)، وبعض المواقع السطحية في السهول القريبة من المناطق الجبلية المقابلة لشواطئ البحر الأحمر عند مضيق باب المندب. وهذا الاتجاه يتسم بتقنية الشظائر الحجرية. بما في ذلك سيادة التقنية الليفالوازية لاستخراج هذه الفلق من النوى، مع غياب الأدوات المرققة من الجهتين. وعملية التهذيب، بوجه عام، باستثناء ما ندر منها (لوحة21). فيما يمكن تسمية الاتجاه الثقافي الثاني. بالاتجاه الصحراوي، أو (أو الاتجاه الداخلي)، ويتسم هذا الاتجاه بتقنية الشظايا، بما في ذلك تسجيل التقنية الليفالوازية. ولكن في نطاق صناعة الشظايا الحجرية نفسها. مع وجود عملية التهذيب فيها، بما في ذلك مصادفة الرقائق، أو (ذات الوجهين) (شكل16: لوحة 22: أ). وقد غطى هذا الاتجاه معظم أراضي الجزيرة العربية، فيما يلاحظ أن الاتجاه الساحلي ظهر في بعض المواقع، قُرب الأودية في سهول تهامة، ولكن يصعب في الوقت الحالي تقدير انتشار هذا الاتجاه. سواء أكان ذلك في السهول التهامية نفسها. أم خارجها.

ثانياً: ترتَّبت على هاتين الثقافتين. أو (العصر الحجري القديم الأوسط)، بالإضافة إلى العوامل البيئية، التطورات اللاحقة، ومنها: مسألة غياب العصر الحجري القديم الأعلى، أو على الأقل غياب تقاليده التي عُرفت في كل من أوروبا. وبلاد الشام. مع أنه لا يستبعد أن تسجل بعض مواقع هذا العصر ذات الصلة بالاتجاه الثقافي الساحلي في جنوبي الجزيرة العربية، كما تحددت، على أساس العصر الحجري القديم الأوسط طبيعة المرحلة الانتقالية إلى العصر الحجري الحديث، التي نحن بصددها في هذه الدراسة، إضافة إلى سمات العصر الحجري الحديث نفسه، والذي اتسم بالصيد، والجمع، بدرجة رئيسة، دون وجود الزراعة.

ثالثاً: أن الجزيرة العربية لم تكن قد خلت بالكامل من وجود الإنسان في الدور الجاف الواقع بين (17000) سنة إلى زهاء (9000) سنة ق.ح. كما يعتقد بعضنا، استناداً إلى وجود صلة بين العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الحديث، في الأدوات

الحجرية، ممثلة تلك الصلة باستمرار تقاليد العصر الحجري القديم في صناعة أدوات العصر الحجري الحديث (لوحة22، 24)، ومنها الأدوات المقترحة في هذه الدراسة للمرحلة الانتقالية إلى العصر المذكور (لوحة23، 24، 25)، والتي انبثقت، بدورها، كما يعتقد الباحث، من الاتجاه الصحراوي، سالف الذكر، (شكل16؛ لوحة 22: أ). فقد لجأ الإنسان في ذلك الدور الجاف إلى الواحات، أو بعض الأماكن في المرتفعات، أو القريبة منها (لوحة1 - 3)، حيث كان يتوفر فيها قسط من مصادر المياه، على الأرجح. بينما الاتجاه الساحلي (لوحة21) نتج عنه، كما يبدو، النمط الحضرمي المبكر في العصر الحجري الحديث (شكل19: أ)، ولا يستبعد أن يكون هذا النمط، أو جزءٌ منه، على الأقل، يمثل، هو الآخر، المرحلة الانتقالية من العصر الحجري القديم، إلى العصر الحجري الحديث.

ومن عوامل الصلة بين كل من الأدوات المقترحة للمرحلة الانتقالية (لوحة 23)، والعصر الحجري الحديث (لوحة22: د - هـ، لوحة 24، 25)، من جهة، والاتجاه الثقافي الصحراوي في العصر الحجري القديم الأوسط (شكل 16؛ لوحة22: أ)، من جهة أخرى، بما في ذلك المواقع التي نُسبت إلى العصر الحجري القديم الأعلى هنا (لوحة22: ب)، والتي يبدو أنها انبثقت عن هذا الاتجاه، أيضاً، وجود النواة (Core) ذات الجهة العاملة، أو (الجهة الموجبة) المفلطحة، أو (المستوية)، وشبه المفلطحة، وكذا انتزاع الشظايا من هذه النواة، بالطَرق المتوازي، وشبه المتوازي، في الغالب الأعم، (شكل20، 21)، بما في ذلك سيادة الشظايا نفسها (Rashed 1993a: 77 - 167) التي صنعت منها أغلب الأدوات (شكل22 - 23)، وهي من المبادئ الأساسية التي كانت سائدة في العصر الحجري القديم الأوسط في الاتجاه، سالف الذكر (لوحة22: أ؛ شكل16)، وحتى عملية التهذيب المرقّق من الجهتين، أو (المزدوج) (Bifaces retoche)، والتي تُعدُّ من الأساليب التي سادت في العصر الحجري الحديث (لوحة22: د، هـ، لوحة 24، 25)، ذات صلة، هي الأخرى، بتقاليد العصر الحجري القديم في المنطقة، بما في ذلك وجود الرقائق الحجرية، أو (ذوات الوجهين) (Bifaces) (شكل16: 1)، وهذه الخصائص هي التي جعلت الباحث يعتقد وجود مضمون أثري لمرحلة انتقالية، وجدت بين العصرين المذكورين، مع أن طبيعة العصر الحجري الحديث التي وجدت في الجزيرة العربية، المتسمة بالصيد، والجمع، لم تكن بحاجة إلى ظهور مقدمات لها، من حيث المبدأ، باعتبارها كانت موجودة في العصر الحجري القديم، ولكن الجديد في العصر الحجري الحديث، يتمثل في تحديث أدوات الصيد، وانتشار الرؤوس الحادة، ورؤوس السهام، إلى جانب ظهور القوس، على الأرجح، استناداً إلى انتشار رؤوس السهام بين الأدوات التي تُنسب إلى العصر الحجري الحديث (لوحة22: هـ، لوحة 24، 25، شكل19).

رابعاً: يقترح الباحث أن الأدوات التي يمكن إدراجها في المرحلة الانتقالية بين العصر الحجري الحديث، والعصر الحجري القديم (لوحة23)، يمكن أن تسمى بـ (لواحق العصر الحجري القديم)، أو (العصر الحجري القديم اللاحق)، وهو المفهوم الذي يمكن أن يقابل مصطلح (Epi – Paleolithic)، مع أن الأدوات الحجرية التي ستدرج في هذه المرحلة في الجزيرة العربية، لا تتطابق مع خصائص (Epi – Paleolithic) التي عُرفت في مناطق الشرق الأوسط (شكل11 - 12، 13؛ لوحة 19، 20)، أو يمكن أن تسمى هذه المرحلة، كذلك: لواحق العصر الحجري القديم العربية (Arabian Epi – Paleolithic)، لخصوصية هذه المرحلة في الجزيرة العربية.

فإذا كان العصر الحجري القديم الأعلى، غير موجود في الجزيرة العربية، وغير موجودة، هي الأخرى، المرحلة الانتقالية بين العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الحديث، بالإضافة إلى عدم وجود العصر الحجري الحديث نفسه، لعدم وجود الزراعة فيه، كما يرى ذلك بعض الباحثين، كما سلف الذكر، فما هي يا ترى المفاهيم التي يمكن أن يُعبّر بها في هذه المنطقة عن المضامين الأثرية الممتدة فترتها

منذ العصر الحجري القديم الأوسط، وحتى ظهور العصر البرونزي؟، علماً أن مواقع العصر البرونزي نفسه انحصرت، هي الأخرى، على مرتفعات جنوبي الجزيرة العربية، وتهامة، وجنوبيها الشرقي، في الأساس. أمّا مفهوم (ما بعد العصر الحجري القديم) (Post - Paleolithic)، الذي سبقت الإشارة إليه، فإنه مفهوم واسع النطاق، وفي الوقت نفسه فإنه لا يتضمن المضامين الأثرية التي وجدت خلال هذه الفترة الطويلة.

فالأدوات الحجرية التي يمكن أن تُحدد بها المرحلة الانتقالية بين العصرين المذكورين، هي مجموعات الرؤوس الحادة غير المعنّقة في ثقافة الشظايا (لوحة23)، وهي الرؤوس التي سبقت ظهور الرؤوس المعنقة (لوحة25)، وقد عُرفت هذه الأدوات من خلال طريقة في الدراسة، جمعت بين الأساليب التقنية، وتأثير البِلى(Patina) على الأدوات الحجرية (Rashed 1993a، 1993b) (المعمري 2002)، (لوحة24، 25)، سميت بطريقة الترتيب الزمني النسبي، بمظهر البِلى، وهي خمس مجموعات متسلسلة من الأقدم إلى الأحدث، رُمِز لها بخمسة حروف أبجدية: (أ، ب،)(- أ، - ب، - ج) (لوحة25)، ولكن السؤال الذي يصعب الإجابة عنه في الوقت الراهن، هو: هل هذه المجموعات الخمس الحجرية جميعها ترجع إلى لواحق العصر الحجري القديم، أم ثلاث مجموعات منها فقط، هي التي يمكن أن تعود إلى هذه المرحلة؟، فيما تعود المجموعتان الأخيرتان إلى العصر الحجري الحديث المبكر؟.

فقد كانت مهمة الباحث عند تسجيله لهذه المجموعات محصورة في تحديد مواد العصر الحجري الحديث، ولذا فقد ترك هذه المجموعات الثلاث: (- أ، - ب، - ج)، (لوحة 24، 25)، خلال كتابته رسالة الدكتوراه، خارج نطاق العصر الحجري الحديث المبكر، وهو العصر الذي حدّده بالمجموعات (أ، ب)، في الأساس (لوحة24)، فيما حدد العصر الحجري الحديث المتأخر بالرؤوس المعنقة (لوحة24، 25)، معتقداً أن المجموعات (- أ، - ب، - ج)، تعود إلى لواحق العصر الحجري القديم، أو إلى العصر الحجري القديم بوجه عام. (Rashed 1993a: 271 - 272).

وفي وقت لاحق أعاد الباحث، إحدى هذه المجموعات إلى العصر الحجري الحديث المبكر (المعمري 2002: لوحة3/ - أ(. وهي المجموعة التي كان قد أشار لها، حينذاك، بـ: (- أ)، كونها احتوت على التهذيب المرقّق من الجهتين. أو (التهذيب المزدوج) (Bifacial Retouche)، بعمليتي الطرق، من جهة، خلال التجهيز الأولى للأداة، والضغط في مرحلة التجهيز الأخيرة.

وفي هذه الدراسة يرى أن المجموعات التي رتبت على النحو التالي: (- أ، - ب، - ج)، يمكن أن تعود إلى لواحق العصر الحجري القديم. فيما المجموعة (- أ) تمثل فترة انتقال بين نهاية لواحق العصر الحجري القديم، ودخول العصر الحجري الحديث المبكر (لوحة 24، 25)، مع أنه لا يستبعد، كذلك، أن تكون الخمس المجموعات بأكملها تعود إلى لواحق العصر الحجري القديم، فيما يبدأ العصر الحجري الحديث في ثقافة الشظايا، في هذه الحالة، بالرؤوس المعنقة (لوحة25). أو (بأدوات النمط الصحراوي)، والذي ينقسم بدوره إلى مرحلتين (لوحة24، 25). ولكن ما سيتم إتباعه، مؤقتاً، في هذه الدراسة، هو إعادة المجموعات الثلاث (- أ، - ب، - ج) فقط، إلى لواحق العصر الحجري القديم (لوحة 23)، إلى أن تتوفر معطيات إضافية.

فقد وجد الباحث عملية الفصل بين هذه الخمس المجموعات، سالفة الذكر، في نطاق الترتيب المرحلي النسبي بمظهر البِلى، من خلال طبيعة التهذيب المرقّق من الجهتين، إضافة إلى التهذيب الأخدودي أو (المسطر) (Fluting Retouch). فالمجموعات الثلاث المبكرة، وهي (- أ، - ب، - ج) تتميز عن المجموعتين الأخيرتين: (أ، ب)، في أن التهذيب فيها يقتصر على عملية الطرق غير المباشر (لوحة23)، إلى جانب الطرق المباشر، بصورة ثانوية، (لوحة23 ج)، وهي في المراحل الأولى من تجهيز بعض هذه الأدوات. فيما تتميز المجموعتان (أ، ب) بعملية التهذيب بالضغط في

الغالب الأعم، بما في ذلك مجموعات العصر الحجري الحديث الأخرى (لوحة24، 25)، كما أن التهذيب الأخدودي يصادف وجوده بدءاً بالمجموعتين (أ، ب) (شكل24: 3، 6)، بينما لم يلاحظ وجوده في أي من المجموعات الأخرى السابقة (المقترحة للوحق العصر الحجري القديم). ومن جهة أخرى، هناك تمايز في طبيعة هذا التهذيب بين المجموعات التي يمكن أن تُسب إلى لواحق العصر الحجري القديم نفسه، فالمجموعة (- أ)، وجد فيها التهذيب بالطرق غير المباشر (لوحة 23: - أ)، وبالضغط في المرحلة الأخيرة من تجهيز هذه الأداة، بينما التهذيب في المجموعتين (- ب، - ج)، اقتصر على عملية الطرق، وبالأخص غير المباشر (لوحة23: - ب، - ج).

أضف إلى ذلك، إن المجموعات (- أ، - ب، - ج) قليلة العدد إلى حد كبير، مقارنة بالانتشار الواسع لأدوات المجموعات (أ، ب)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن المجموعات (- أ، - ب، - ج) تتواجد في المواقع التي توجد فيها أدوات العصر الحجري القديم، من حيث المبدأ، وذلك عند وهاد المرتفعات الجبلية الموجودة في المنطقة الصحراوية نفسها، مثل مواقع العبر (لوحة1)، وموقع الوهد (لوحة2)، أي أن هذه الأدوات لا تتواجد في المواقع التي تنتشر فيها الرؤوس المعنقة، من حيث المبدأ، وبالأخص التي تعود إلى النمط الصحراوي المتأخر، ولكن لا يستبعد أن توجد، في بعض المواقع التي تعاقب فيها الاستيطان في عصور مختلفة، مثل موقع طرف العين رقم4 (لوحة3)، الذي يُحتمل أن توجد فيه أدوات من أدوات هذه المرحلة الانتقالية. فهذه الأدوات لا تتواجد في المواقع التي تعود إلى المرحلة المتأخرة من النمط الصحراوي (لوحة 24، 25)، وهي المواقع التي تنتشر بشكل مباشرة في الأماكن الصحراوية، قرب البحيرات الجافة في الوقت الحاضر (لوحة 16 - 18)، التي تشكلت منذ زهاء الألف السادس، والخامس ق.م.

فيما تتواجد المجموعات (أ، ب) في المواقع التي انتشرت فيها أدوات العصر الحجري الحديث الأخرى، الممثلة بالرؤوس المعنقة، التي تعود إلى الفترة المبكرة من النمط الصحراوي (لوحة22: هـ، لوحة 24، 25)، مثل موقع طرف العين رقم4 (لوحة3)، وذلك عند وهاد بعض المرتفعات في المنطقة الصحراوية. ويبدو أن هذا الارتباط بالتضاريس، يمثل قاعدة عامة، وبالأخص في الربع الخالي، لعلاقته بالتغيرات المناخية، فكلما اتجه المناخ صوب الجفاف، كلما اقترب الإنسان من البحيرات، التي هي جافة اليوم.

وعلى هذا الأساس، فقد رجّح الباحث أن يكون الإنسان قد لجأ في ذلك الدور الجاف الواقع ما بين (17) إلى (9) آلاف سنة من الآن، إلى مناطق الواحات، وبعض المرتفعات الجبلية الموجودة في المنطقة الصحراوية نفسها (Rashed 1993c: 19)، مثل جبال العبر (لوحة1)، والوهد (لوحة2) وطرف العين (لوحة3)... الخ، أو الأماكن القريبة منها، التي كان يتوفّر فيها، أو بقربها، قسط من مصادر المياه، أضف إلى ذلك أن قلة أعداد المواد الحجرية الداخلة في المجموعات (- أ، - ب، - ج)، وكذا ندرة الرؤوس فيها، يشير بدوره، إلى قِلّة كثافة الاستيطان، آنذاك، وبالتالي إلى وجود ظروف مناخية جافة في المنطقة، والتي ثبت وجودها، كذلك، من خلال الدراسات المناخية، سالفة الذكر. فيما يدل انتشار مواد المجموعتين (أ، ب)، النسبي، مقارنة بالمجموعات السابقة (- أ، - ب، - ج) (Rashed 1993a)، إلى التدرُّج في زيادة كثافة النشاط الإنساني، وارتفاع نسبة عدد السكان، وإلى أن الأحوال المناخية، أخذت تسير في اتجاه التحسن، مقارنة بالوضع الذي كان عليه في المجموعات السابقة، والذي وصل ذروته في زهاء الألف السادس، والألف الخامس ق.م، وهذا ما يدلّ عليه، كذلك، انتشار مواقع العصر الحجري الحديث في الجزيرة العربية، بوجه عام في هذه الفترة، وهي أدوات النمط الصحراوي، في المقام الأول، وبالأخص النمط الصحراوي المتأخر (لوحة22: هـ؛ لوحة25) (Rashed 1993a: Plate 1) (المعمري 2010: خارطة1).

فهذه الأدوات الحجرية ممثلة في المجموعات (- أ،

- ب، - ج)، تحمل تقاليد من العصر الحجري القديم، ممثلة بأساليب التفليق (Knapping)، في المرحلة الأولى من صناعة الأدوات الحجرية، إلى جانب ظواهر أخرى جديدة، تختلف عن أدوات العصر الحجري القديم، وهي وجود الرؤوس الحادة، التي لم تكن منتشرة في العصور السابقة، إلى جانب انتشار التهذيب المرقق من الجهتين، أو (التهذيب المزدوج)، (لوحة22)، والذي عوّض عن خشونة المؤن التي صُنعت منها تلك الرؤوس الحادة بالتقاليد القديمة، وهي تقنية الشظايا الحجرية، وبالطرق القديمة، كذلك، وفي الوقت نفسه فإن هذه الأدوات بتلك السمات المزدوجة، المكونة من عناصر قديمة، ممثلة بطرق التفليق، الموروثة من العصر الحجري القديم، والعناصر الحديثة، ممثلة بالرؤوس الحادة، وانتشار طريقة التهذيب المزدوج (لوحة23)، هي الأدوات المرشحة لأن تكون أدوات مرتبطة بلواحق العصر الحجري القديم في ثقافة الشظايا، والتي تشير خصائصها التقنية، إلى أنها انبثقت عن العصر الحجري القديم الأوسط، وبالأخص عن الاتجاه الصحراوي، أو (الاتجاه الداخلي) سالف الذكر (لوحة 22). كما لا يستبعد الباحث أن يكون النمط الحضرمي المبكر (شكل19 : أ)، أو جزءٌ منه، يرجع، هو الآخر، إلى لواحق العصر الحجري القديم، وهو النمط الذي انبثق، حسب اعتقاد الباحث، عن الاتجاه الساحلي، الخاص بالعصر الحجري القديم الأوسط (لوحة21).

وبالتالي فإن خصائص المرحلة الانتقالية من العصر الحجري القديم، إلى العصر الحجري الحديث في الجزيرة العربية، تمثل وجهاً خاصاً بها، انطلاقاً من خصائص العصر الحجري القديم التي وجدت في المنطقة نفسها، فهي تختلف عن لواحق العصر الحجري القديم في بلاد الشام، وعن العصر الحجري الوسيط في أوروبا، بغض النظر عن التسمية التي يمكن أن تُطلق عليها، ويمكن أن تكون خاصة بجنوبي الجزيرة العربية وحدها، أيضاً، حيث يمكن أن يتم العثور في وسط الجزيرة، وشماليها على نوع آخر من الأدوات لهذه المرحلة.

خلاصة واستنتاجات

سنوجز في هذه الخلاصة، إلى جانب النتائج التي سلف ذكرها في مكانها من هذه الدراسة، بعض النتائج العامة، وهي:

أولاً: إن الأدوار المطيرة، قد تقود في بعض الأماكن، إلى نفس النتيجة التي قد تحدثها الأدوار الجافة، مثالاً على ذلك الأحوال المناخية الرطبة في الجزيرة العربية، التي ثبت حدوثها في الفترة ما بين (36 - 17) ألف سنة خلت من الآن، والتي جعلت الإنسان يعيش، في زمن العصر الحجري القديم الأعلى (لوحة22 : ب)، ولكن بتقاليد العصر الحجري القديم الأوسط (لوحة22 : أ)، حيث لم تجبره تلك الظروف الرطبة، على إحداث تغيرات جوهرية في صناعة أدواته الحجرية، مع أنه بالمقابل، إن كان للتغيرات البيئية، دور كبير في حياة البشر، فإن لاستجابة الإنسان، وتفاعله، مع هذه التغيرات، دور، أيضاً، ولكن أثر هذا الجانب في الجزيرة العربية، ضعيف في الثقافة المادية، كما يلاحظ، بدليل استمرار تقاليد العصر الحجري القديم الأوسط (لوحة22 : أ) في العصر الحجري القديم الأعلى (لوحة22 : ب)، مع أن الظروف البيئية، آنذاك، كانت مهيأة للإنسان، من خلال وجود الدور المناخي الرطب في الفترة من بين (36 - 17) ألف سنة مضت.

وهذه الظاهرة قد تسهم في تسليط الأضواء على الجدال الدائر حول الإقرار بنظرية الحتمية البيئية، من عدمه، أو بمعنى آخر: هل كل ما يفعله الإنسان، هو استجابة لضغوط بيئية؟، أو على العكس من ذلك: ليس بالضرورة أن تكون كل أفعال الإنسان ناتجة عن ضغط بيئي، وقد تتجلى هذه الإجابة بصورة أوسع، بالمعطيات الأثرية، من واقع الجزيرة العربية، كذلك، من خلال الربط بين ردة فعل الإنسان، سالفة الذكر، في الدور المطير، وردة فعله الأخرى، في الدور الجاف، الذي حدث في الفترة ما بين (17) إلى (9) آلاف سنة خلت، والتي تمثلت، هي الأخرى، بعدم إحداث تغيير

جوهري، كذلك، في الثقافة المادية (لوحة22: ج)، خلال ذلك الضغط البيئي الشديد، وكذا فإن هذا التغيير الجوهري لم يحدث، هو الآخر، في الجزيرة العربية، في الدور الثاني المطير، الذي وقع ما بين (9) إلى (6) آلاف سنة، مقارنة بمناطق الجوار، والذي تزامن مع العصر الحجري الحديث، على الرغم من أن الظروف البيئية كانت مهيأة لاستئناس الحيوان، والزراعة، ولكن الإنسان استمر على نمط الصيد، وما أحدثه من تغيير جديد، ظل في نطاق أدوات الصيد نفسه (شكل19، 24).

ثانياً: يرى الباحث أن أول اختلاف ثقافي، أو (تنوع)، واضح المعالم، في الجزيرة العربية ظهر منذ العصر الحجري القديم الأوسط، وهو الاختلاف الذي ترتبت عليه الكثير من التطورات اللاحقة، ويتألف هذا التنوع من ثقافتين، أو (اتجاهين)، أحدهما ظهر في بعض المواقع الساحلية في تهامة، ممثلة بموقع (دَحْيَا) في اليمن، إلى جانب بعض المواقع التي وجدت في نفس المنطقة الساحلية (لوحة21)، ومن المحتمل العثور على مواقع مثلها في أماكن أخرى من جنوبي الجزيرة العربية، وهو الاتجاه الذي لم تُعرف أصوله بعد، والاتجاه الثاني شمل المنطقة الصحراوية المعاصرة، أو (الداخلية) من الجزيرة العربية (شكل16؛ لوحة22: أ)، وجنوبي الجزيرة العربية، كذلك، وجنوبيها الشرقي، وهو على صلة في الأصول، على الأرجح، بثقافة العصر الأشولي التي وجدت في المنطقة نفسها. ويعتقد الباحث أن لهذين الاتجاهين أثر على المرحلة الانتقالية التي نحن بصددها في هذه الدراسة، وكذا فإن التنوع الثقافي الكبير، الذي وجِد في العصر الحجري الحديث في جنوبي الجزيرة العربية، والذي كان الباحث قد تناوله في دراسات سابقة (شكل19) (Rashed 1993a) (المعمري2000، 2002، 2009)، على صلة في الأصول، هو الآخر، بهذين الاتجاهين.

ثالثاً: إن التغيرات البيئية، سالفة الذكر، بالإضافة إلى عدم استجابة الإنسان، وتفاعله معها، بشكل كاف، بسبب عوامل، أيضاً، بيئية، وذاتية، من المحتمل، أو (استمرار الإنسان في المحافظة على الأساليب القديمة)، جرَّدت الجزيرة العربية من مقدمات العصر الحجري الحديث، التي كان من المفترض أن تظهر في المرحلة الانتقالية، والممثلة تلك المقدمات، بالتعامل الخلاق مع النبات، والحيوان. أو بمعنى آخر إن الجزيرة العربية أخذت تسير بخطوات بطيئة في تطورها، منذ زهاء العصر الحجري القديم الأعلى، لعدم تمكن الإنسان من مواكبة العصر المذكور، مقارنة بمنجزات العصر نفسه التي وجدت في كل من أوروبا، والشرق الأوسط، بسبب حياة العيش "الرغدة" المفترضة، في الفترة المطيرة ما بين (36) إلى (17) ألف سنة، إضافة إلى عدم قدرة الإنسان على إنجاز مقدمات العصر الحجري الحديث خلال الفترة الانتقالية، سالفة الذكر، مقارنة، كذلك، بالفترة الانتقالية نفسها في بلاد الشام، بسبب الدور الجاف، في هذه المرة، الذي وقع ما بين (17) إلى (9) آلاف سنة، إلى جانب العوامل الأخرى السابقة، بدليل عدم وجود مقدمات الرعي، والزراعة في تلك المرحلة الانتقالية.

رابعاً: إن التغيرات المناخية، سالفة الذكر، وغياب تقاليد العصر الحجري القديم الأعلى النموذجية، بالإضافة إلى غياب مقدمات العصر الحجري الحديث في المرحلة الانتقالية، سالفة الذكر، إلى جانب عدم استجابة الإنسان بقدر كاف لهذه التغيرات، بالإضافة إلى قِلَّة عدد السكان، وعدم وجود تفاعل، من المحتمل، مع مناطق الجوار في هذه الفترة الجافة، جرَّدت العصر الحجري الحديث نفسه من عنصرين رئيسين، هما الزراعة، وصناعة الفخار، ومن المحتمل الرعي، الذي لم يظهر، على الأرجح، إلاّ في العصر الحجري الحديث المتأخر، أو في أواخره، مع الانتقال في هذه الفترة، في بعض الأماكن إلى الزراعة، بدليل الانتشار الواسع للرؤوس الحادة ورؤوس السهام، منذ بداية العصر الحجري الحديث إلى حوالي الألف الثالث ق.م، (شكل 19،

24)، علماً أن النباتات البرية التي كان بالإمكان تهجينها، في العصر الحجري الحديث، وجدت في الجزيرة العربية، على الأقل في جنوبيها، بما في ذلك الحيوانات البرية، التي كان بالإمكان استئناسها، في العصر المذكور، مع أنه من الصعب الحكم، بشكل قاطع، في ظل المستوى الحالي من الدراسات، فيما يتعلق باستئناس الحيوان، من عدمه، لعدم وجود مواقع أثرية كافية في باطن الأرض، تسمح بدراسة البقايا العظمية. وهذا جَرَّ نفسه، بالمقابل، على منجزات العصر البرونزي، خاصة فيما يتعلق بعدم ظهور المدن الشبيهة بمدن بلاد الرافدين، والشام، وما صاحبها من ظواهر أخرى، والتي كان من المفترض أن تنشأ على أساس وجود قُرى العصر الحجري الحديث الزراعية، التي لم توجد في الجزيرة العربية، هي الأخرى، وهذا سحب نفسه، كذلك، على التطورات الأخرى اللاحقة.

خامساً: إن الجزيرة العربية لم تكن خالية من وجود الإنسان في المرحلة الانتقالية، كما يعتقد بعضنا، وإنما اقتصرت الحياة فيها على الواحات، والأماكن الأخرى الجبلية القريبة من مصادر المياه (لوحة1 - 3)، بدليل وجود صلة بين أدوات العصر الحجري القديم (لوحة22: أ، ب؛ شكل20، 22)، والعصر الحجري الحديث (لوحة22: د، هـ؛ شكل 21، 23)، بما فيها صلة هذين العصرين بالأدوات المقترحة للمرحلة الانتقالية بينهما (لوحة22: ج، 23)، مع أنه لاشك بأن الكثافة السكانية صارت قليلة إلى حد كبير، بحيث لا يمكن مقارنتها بكثافة الاستيطان، سواء في العصر الحجري القديم الأوسط، أو في العصر الحجري الحديث، بدليل قلّة هذه الأدوات، أو (ندرتها)، من جهة (لوحة23)، وقلّة مواقعها، من جهة أخرى (خارطة1، 2؛ لوحة 1 - 3).

سادساً: إن المرحلة الانتقالية بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، تَمَّت في الجزيرة العربية، ولكن في نطاق أدوات الصيد، ممثلة بالمجوعات (- أ، - ب، - ج) المقترحة في هذه الدراسة (لوحة23). وهي الرؤوس المحددة. والتي تُعدُّ فعّالة، من حيث المبدأ. مقارنة بالأنصال (Points) (لوحة22/ أ: 1 - 3، 5)، والأدوات الصيد الأخرى، التي وجدت في العصر الحجري القديم. فهذه الرؤوس. المقترحة للمرحلة الانتقالية (لوحة 23)، استخدمت بمثابة رماح للصيد. بعد أن كانت تحمل على حوامل مصنوعة من المواد العضوية. على الأرجح، وهي بذلك تُمثل مرحلة انتقال إلى رؤوس السهام (لوحة 22: هـ. شكل19). واستخدام القوس. الذي لم يستخدم، على الأرجح قبل ذلك. بدليل انتشار هذه الرؤوس في العصر الحجري الحديث (لوحة24، 25: شكل 19). ولا شك أن ذلك رافقه تغييرات أخرى كثيرة في العصر المذكور. بحيث لا يمكن معها أن يُسمَّي هذا العصر باسم آخر. غير العصر الحجري الحديث. مع أن هذه التغييرات. لا ترتق إلى المستوى الذي تشكلت على أساسه المجتمعات الزراعية في مناطق الجوار.

سابعاً: إن بيئة الجزيرة العربية مساعدة. على ما يبدو. في المحافظة على التقاليد القديمة. كما نراها في الأدوات الحجرية (لوحة22: شكل20 - 23). هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنها جاذبة للاستيطان. في الأدوار المطيرة، بسبب بيئتها المتنوعة. بدليل الانتشار الواسع للمواقع الأثرية في الفترات الرطبة. وفي الوقت نفسه تعد بيئة طاردة. في الأدوار الجافة، بدليل قِلَّة أو (ندرة) مواقع أدوات المرحلة الانتقالية التي نحن بصددها في هذه الدراسة (لوحة22: ج، لوحة 23)، بالإضافة إلى عوامل. أخرى، وبالأخص في المراحل المتأخرة. ولذا فقد كانت مصدراً للهجرات البشرية في المنطقة. منذ المرحلة الانتقالية فيما يبدو. وفي العصر الحجري الحديث المتأخر، كما يُلاحظ ذلك. من خلال أدوات النمط الصحراوي (شكل19: د. لوحة22 هـ. لوحة 24، 25)، التي يعتقد الباحث أنها انتشرت خارج حدود الجزيرة العربية (المعمر2000. 2005. 2005ب). وقد توالت هذه الهجرات بعد ذلك في

فترات مختلفة، سواء قبيل المرحلة التاريخية، أو خلالها.

ثامناً وأخيراً: إن النظر في الواقع المعاصر في الجزيرة العربية، بما في ذلك مبدأ المحافظة على التقاليد القديمة، وجوانب أخرى كثيرة، يتطلب أخذ العبرة، أو (الاستفادة) من نتائج دراسات عصور ما قبل التاريخ، بهذا القدر، أو ذاك، رغم بعدها الكبير عن الوضع الحاضر، طالما أن الدراسات الآثارية تصب، هي الأخرى، في خدمة الإنسان، ليس فقط في معرفة الماضي، وتحرير ذهنية الإنسان من التفسيرات غير العلمية لحياته في تلك العصور البعيدة، وحسب، وإنما في استقراء الحاضر، والمساهمة في بناء المستقبل.

قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية

1. إبراهيم معاوية 2009. دراسات في آثار فلسطين. منشورات جامعة فيلادلفيا، الأردن.
2. إبراهيم معاوية 1990. فلسطين: من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد. الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني: الدراسات الخاصة، المجلد الثاني: الدراسات التاريخية، الطبعة الأولى، بيروت.
3. الأمين، يوسف مختار 2003. "العصور الحجرية في المملكة العربية السعودية: دراسة تقويمية"، أدوماتو، ع8، الرياض، ص7 - 40.
4. الشارخ عبدالله بن محمد 2003. "رؤية جديدة لتقسيم فترات العصور الحجرية بالمملكة العربية السعودية"، العصور، ع13، الرياض.
5. كوفين جاك 1984. الوحدة الحضارية في بلاد الشام، دمشق، الطبعة الأولى، تعريب قاسم طوب.
6. محمد علي، عباس سيد أحمد 1421هـ (2001م). "ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية". الدارة، ع3، الرياض، ص89 - 130: 89.
7. محيسن، سلطان، أكازاوا تاكيرو 2002. "مكتشفات متميزة من عصور ما قبل التاريخ". أدوماتو، ع5، ص22، الرياض.
8. كفافي، زيدان 2010: المرحلة الانتقالية من الجمع إلى الإنتاج. في كتاب: دراسات في آثار فلسطين، منشورات جامعة فيلا دلفيا، الأردن.
9. المعمري، عبدالرزاق راشد 2000. "ثقافتان من العصر الحجري الحديث في الجزيرة العربية"، أدوماتو، ع1، الرياض، ص7 7 - 29.
10. المعمري، عبدالرزاق راشد 2002. "إضافات جديدة في تقسيم العصر الحجري الحديث في صحراء الجزيرة العربية"، أدوماتو، ع5، الرياض، ص 23 - 44.
11. المعمري، عبدالرزاق راشد 2005أ. "النمط الأثري الصحراوي وعلاقته بمرتفعات جنوبي الجزيرة الغربية وبتهامة وعمان"، أدوماتو، ع12، الرياض، ص 7 - 28.
12. المعمري، عبدالرزاق راشد 2005ب. "النمط الأثري الصحراوي وعلاقته بالمرتفعات الجنوبية من الجزيرة الغربية وبتهامة وحضرموت وعمان وتشكل الجنس العربي"، في كتاب: صنعاء الحضارة والتاريخ، المجلد الأول، صنعاء، ص 373 - 418.
13. المعمري، عبدالرزاق راشد 2008. "موروث العصور الحجرية ودوره في تشكل قرى ومدن حضارة جنوبي الجزيرة"، في مجلد: الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، خليل المعيقل، عبدالله بن محمد الشارخ. «المدينة في الوطن العربي

في ضوء الاكتشافات الأثرية: النشأة والتطور، الجوف، المملكة العربية السعودية/ 2 - 5 ذو القعدة 1426هـ (5 - 7 ديسمبر 2005م). ص7 - 34.

14. المعمري عبدالرزاق راشد 2009. "دراسات العصر الحجري الحديث في جنوبي الجزيرة العربية: نقد المصادر واستخلاص النتاج"، أدوماتو، ع20، الرياض، ص7 - 32.

15. المعمري عبدالرزاق بن أحمد راشد 2010. "تحقيب دراسات ما قبل التاريخ في شبه الجزيرة العربية"، الدارة، ع3، الرياض، ص167 - 260.

ثانياً: المراجع غير العربية

1. Amirkhanov H. A.، 1991. Palieolit Yujnoi Aravii. Moskva. (In Russian).
2. Amirkhanov H. A.، 1997. The Neolithic and Postneolithic of the Hadramaut and Mahra. Moscow.
3. Balout L.، 1955. Préhistoire de I›Afrique du Nord، Paris.
4. Bar - Yosef O. 1970. The Epi - Paleolithic Culture of Palestine. Ph. D. dissertation. Hebrew University، Jerusalem.
5. Besancon J.، Copeland L.، Hours F. 1975 - 7. " Tableaux de préhistoire Libanaaise". Paléorient، Vol. 3: 5 - 46.
6. Boriskovskii P.، I.، 1979. Drevneishee proshloe chelovechestva. Liningrad. (in Russian).
7. Butzer K.، 1974. Environment and Archaeology. Chicago.
8. Braidwood R. J. 1957. Prehistoric Men. Chicago Natural History Museum.
9. Caton - Thompson G.، 1944. The Tombs and Moon Temple of Hureidha (Hadhramaut). Oxford: Oxford University Press.
10. Caton - Thompson G.، 1953. "Some Palaeoliths from South Arabia". Proceeding of the Prehistoric Society. New Series، London، December، Vol. XIX: 189 - 218.
11. Child V. G.، 1936. Man Make Himself. London.
12. Copeland L.، 1975. "The Middle and Upper of Lebanon and Syria in the Light of Recent Research". In: Problems in prehistory: North Africa and the Levant. Wendorf F.، and Marks eds. Dallas SMU Press: 317 - 350.
13. Copeland L.، Bergne P.، 1976. "Flint artifacts from the Buraimi Area، Eastern Arabia and their relations with the Near Eastern Post - Paleolithic". Proceeding of the Ninth Seminar for Arabian Studies، Vol، 6: 40 - 61.
14. Crassard R.، Bodu P.، 2004. "Prehistoire du Hadramawt (Yemen): nouvelles perspectives". Proceeding of the Seminar for Arabian Studies، Vol. 34: 67 - 84.
15. Crassard R، McCorriston j.، Oches E.، Espagne J.، and Sinnah M.، 2006. "Manayzah، early to mid - Holocene occupations in Wadi Sanaa (Hadramawt، Yemen) ". Proceeding of the Seminar for Arabian Studies، V. 36: 1 - 23.
16. Crassard R.، 2007. Apport de la Technologie Lithique ala definition de la prehistoire du Hadramawt، dans le context du Yemen et de l'Arabie du Sud. Phd dissertation، l'Universite Paris 1en (unpublished).
17. Delagnes A.، et Gaupertb J.، 2009. " Khamis Bani Saad (Wadi Surdud). Opérations Archaeologiques". Yemen Archaeological Annul.، Vol.، 2: 71 - 86.
18. Efimenko P. 1958. Pervobitnoe obschestvo. (Prehistory). In Russian. Leningrad.
19. Elinek J.، 1982. Bolshoi illusrirovannii Atlas pervobitnogo cheloveka. Praga. In Russian.
20. Fagan B.، 2004. The Summer: How Changed Civilization. New York.
21. Fage J.، D.، Oliver R.، 1982. The Cambridge History of Africa. Vol.. 1، Cambridge University Press.
22. Garrard A.، Harvey C.، 1981. "Environment and Settlement during the Upper Pleistocene and Holocene at Jubba in the Great Nefud Northern Arabia". Atlal، Vol.، 5: 137 - 148.
23. Gilead I.، 1991. "The Upper Paleolithic Period in the Levant". Journal of World Prehistory.، No.، 5: 105 - 154.
24. Gilmore M.، Mohammed Al - Ibrahim، Abduljawwad S. Murad، 1982. "Preliminary Report on the Northwestern and Northern Region Survey". Atlal، Vol. 6: 9 - 23.
25. Harris A. D.، 1998. "A late Stone Age site South of the Liwa Oasis". Tribulus، V.، 8، No.، 2: 24 - 27.
26. Henry D 1973. " The Natufian of Palestine

"Paleoenviroment History of Western Al - A'rus". Report and Memoirs IsMEO. Vol. XXIY: 137 - 143.

39. Masry A. 1974. Prehistory in the Northeastern Arabia: the Problem of Interregional Interaction. Field Research Projects. Miami.

40. McClure H. 1976. '' Radiocarbon Chronology of late Quarternary Lakes in the Arabian Desert". Nature، V. 263: 755 - 756.

41. McClure H. 1978. "Ar Rub' Al Khali"، in: Al Sayari S. and Zotl J. (eds) Quaternary Period in Saudi Arabia، Springer Verlag، Vienna: 252 - 263.

42. McClure H. 1994. "A New Arabian Stone tool assemblage and notes on the Aterian industry of Neolithic Africa. Arabian Archaeology and Epigraphy Vol. 5: 1 - 16.

43. McCorriston J.، Oches E.، Abdalaziz J. Bin Aqil، 2004. Roots of Agriculture in Southern Arabia (RASA). Interim Report 2004 (Field research 22 January - 6 March). Interim Report to the General Organization of Antiquities، Museum and Manuscripts، Republic of Yemen.

44. Mellaart James 1965. Earliest Civilizations of the Near East. Londen. (Russian Translation، Moscow، 1982).

45. Mongait A. L.، 1973. Arkheolgia Zapdnoi Evropi - Kamenii Vek. (The Archaeology of Western Europe - Stone Age). In Russian، Moscow.

46. Moore A. M.، 1981. " A Four - Stage Sequence for the Levantine Neolithic، ca. 8500 - 3750 B. C. ". BASOr 246: 1 - 34.

47. Morcolongo B.، & Palmiri A.، 1990. "Paleoenvironment history of Western Al A'Rus". Reports and Memoirs، Is MEO،. Vol.، XXIY: 137 - 143.

48. Movius 1944 H. L.، Early Man and Pleistocene stratigrahy in Southern and Eastern Asia. Papers of the Peabody Museum of American Archaeology and Ethnology، Cambrdge Mass.، 1944. Vol. XIX، pt 3.

49. Al - Nahar Maysoon 2005. "Microlithic Typology and Technology of Upper and Epipaleolithc Transition Period، Jordan". F: Its Material Culture and Ecology". Ph. D. dissertation، SMU، Dallas.

27. Herre W. 1936. "The Science and History of Domestic Animals". In: Science in Archaeology: Brothwel D، Highs E. (ed)، London: 234 - 244.

28. Hötzel H.، Maurin V.، and Zötl 1978. " 2، 5، 3. Studies of the Quaternary Development of the Eastern Part of the Recharge Area of Wadi ad Dawassir". In: S. al - Sayari and Josef G، Zötl eds. Quaternary Period in Saudi Arabia. Saad. New York: Springer Verlag: 139 - 246.

29. Hötzel H.، Zötl F.، 1978. "3. 2 Climatic Change During the Quaternary Period". In: Saad S. al - Sayari and Josef G، Zötl eds. Quaternary Period in Saudi Arabia. Vienna: Springer Verlag: 301 - 311.

30. Huckriede R.، Wiesemann G.، 1968. "Der jungpleistzäne pluvial - see von Gafr und Weitere daten zum quarter Jordaniens". Geologica et Paleontologica، Vol.، 2: 73 - 90.

31. Huzayyin S. A.، 1937. "Egyptian scientific expedition to South - West Arabia". Nature، sept. 18: 513 - 514.

32. Inizan M. - L.، 2007. "Peuplements Préhistoriques Anciens". in: Inizan، Rachad. Art Rupestre et peuplements prehistoriques au Yemen. Sanaa: 31 - 21.

33. Kaiser K.، Kempf E.، K.، leroi - Gourhan، Arl.، Schütt H.، 1973. "Quärtarstratigraphische untersuchungen aus dem Damaskus - Becken und siener umgebung". Zeitschnft für Geomorphologie.، vol.، 17 (new series): 263 - 353.

34. Ribakov B.، A.، 1989. (General editor): Archaeology USSR: Mesolithic USSR.

35. Larsen C.، 1977. Holocene Land Use Variations the Bahrain Island. Ph. D. Dissertation. The University of Chicago.

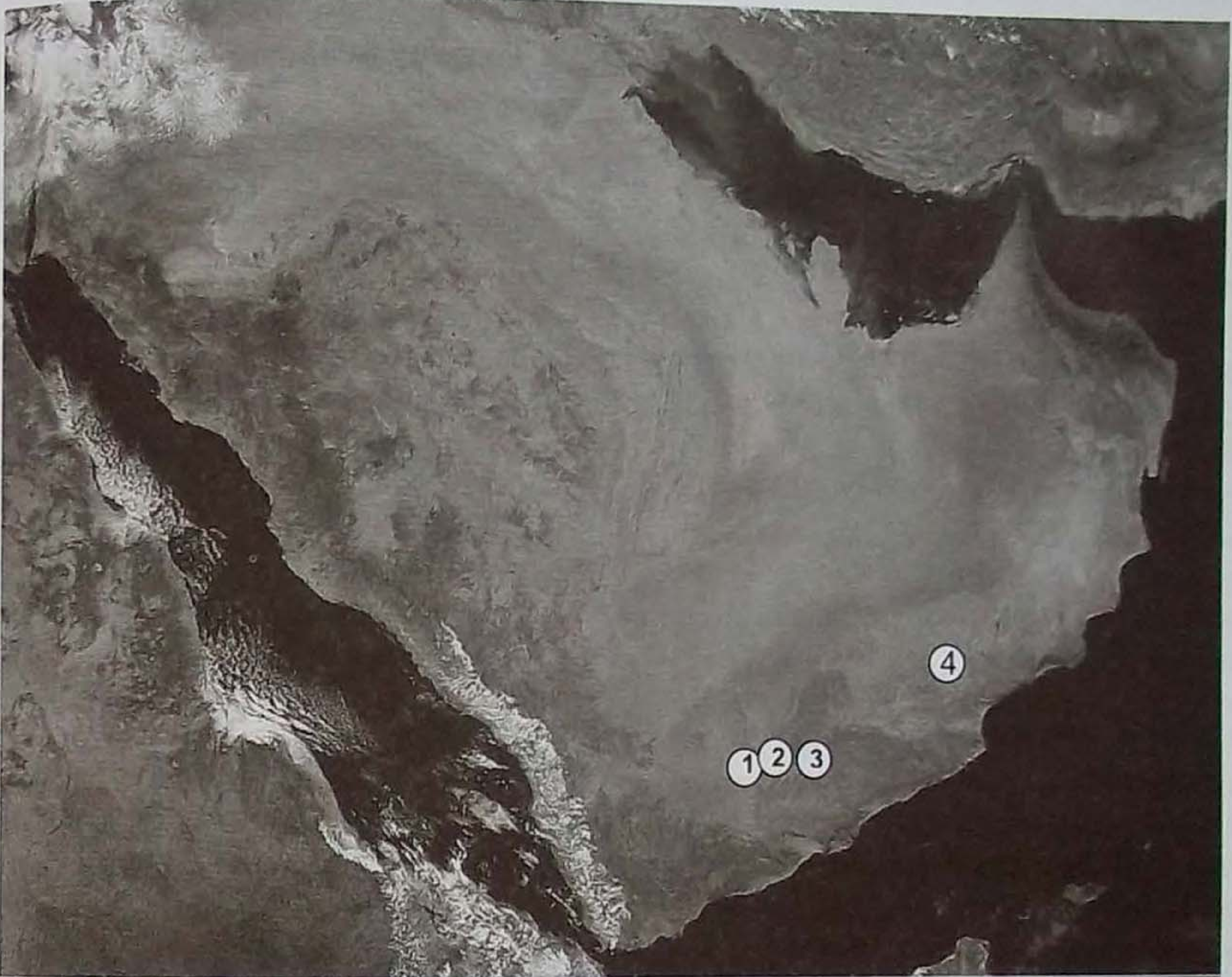
36. Lopin V. P.، 1970. Hijnii Paleolit. KB. (Lower Paleolithic)، (In Russian).

37. MacDonald Sir H.، and partners 1975. Riyadh Additional Water Resources Study. Kharj Area. Ministry of Agriculture and Water، Kingdom of Saudi Arabia، Riyadh.

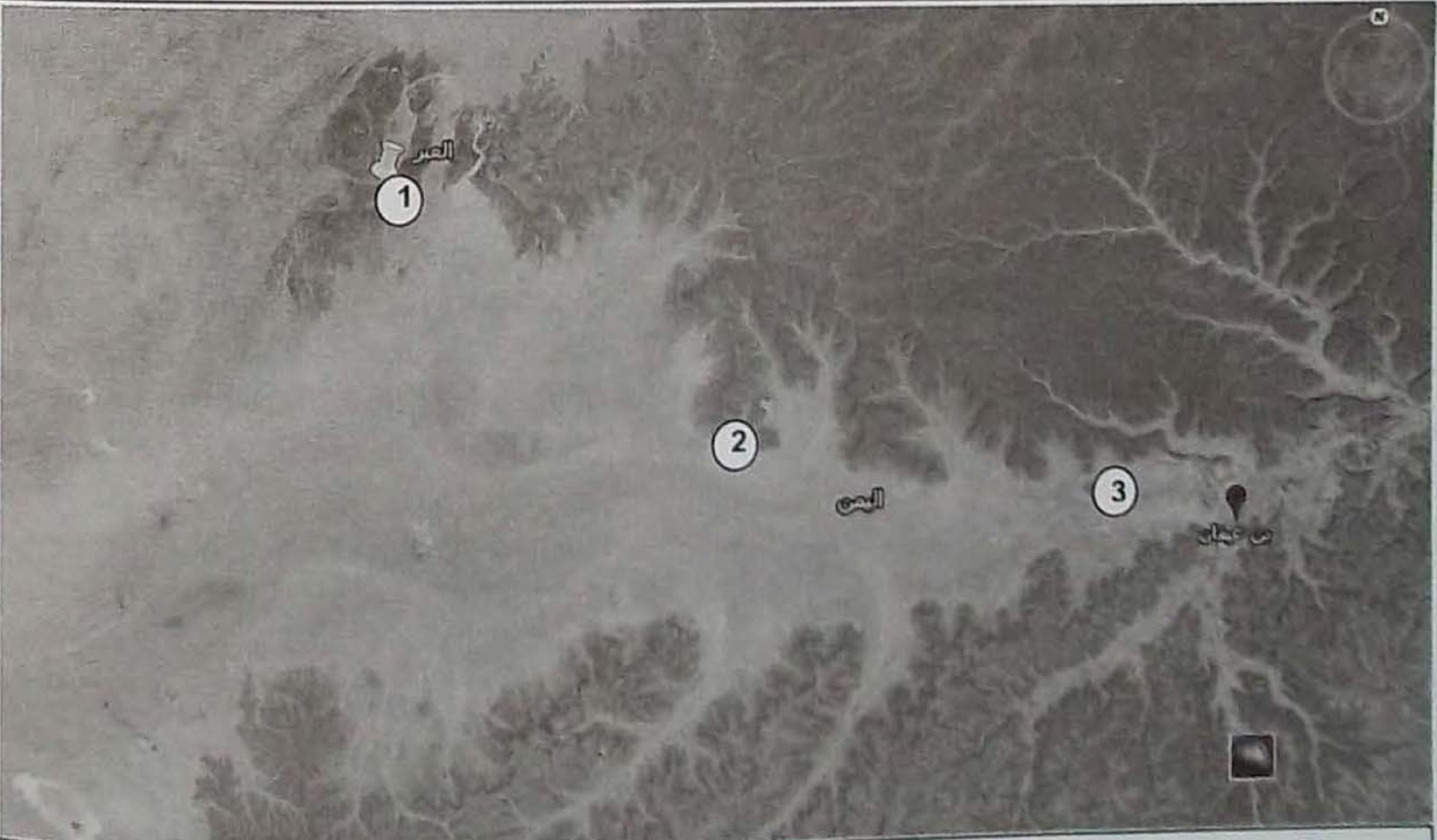
38. Marcolongo B.، Palmiri a. 1990

inventarya). Aftoreferat dissertatsii na soiskanie uchyohnoi stepeni kandidata istoricheskih nauk. Sankt - Petersburg. (Abstract of Ph. D. dissertation. University of Sankt - Petersburg)، (in Russian).
59. Shaw Brent D.، 1976. "Climate، Environment، and Prehistory in the Sahara". World Archaeology، Vol.، 8: 194 - 202.
60. Whalen N.، Killick A.، James N.، Gamal Mosri.، Mahmoud Kamal. 1981. "Preliminary Report on the Western Province Survey". Atlal، Vol. 5: 43 - 58.
61. Wymer J.، 1982. The Paleolithic Age. London.
62. Zamiatnin C. H.، 1951. O Vozniknovenii Lokalnikh razlichii v Koltore paleoliticheskogo Periodi. PChDRch. (In Russian).
63. Zarins J.، Mohammad Ibrahim، Potts D.، Edens Ch.، 1979. "The Preliminary Report on the Third Phase of the CASP - the Central province". Atlal، Vol. 3: 12 - 19.
64. Zarins J.، Whalen M.، Mohammad Ibrahim، Abd Al - Jawad Mursi، Majid Khan، 1980. The Preliminary Report on the Central and South - Western Provinces Survey 1979". Atlal، Vol. 4: 9 - 36.
65. Zarins J.، Abd Al - Jawad Murad، Khalid S. Al - Yish، 1981. "The second Preliminary. report on the south - western province". Atlal، Vol. 5: 9 - 42.
66. Zarins J.، Abdul - Aziz Rahbini، Mahmood Kamal، 1982. "Preliminary Report on the Archaeological Survey of the Riyadh Area ". Atlal، Vol. 6: 25 - 38.
67. Zeuner F. E. 1963. History of Domesticated Animals. London.

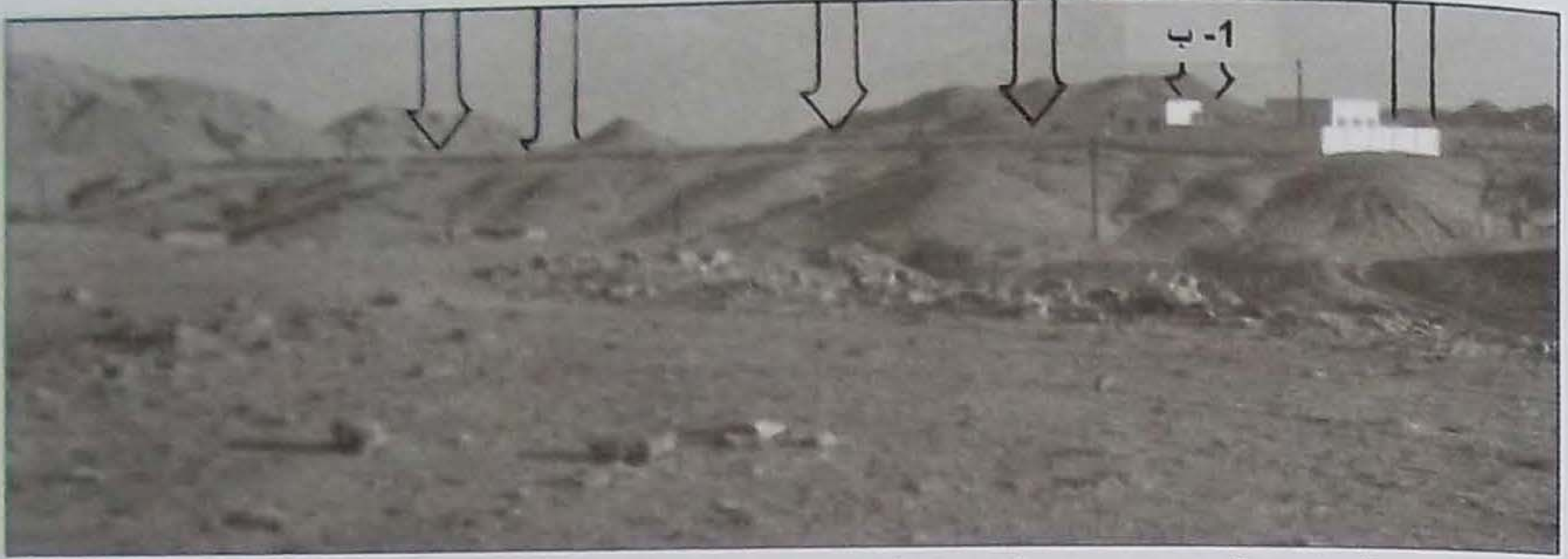
Adumato، No. 12: 7 - 46.
50. Nayeem M. A.، 1992. Bahrian prehistory and Protohistory of the Arabian Peninsula، Vol.، 2، Huderabad (India).
51. Otte M.، Yalcinkaya I.، Leotard J.، Kartal M.، Bar - Yosef O.، Kozlowski J.، Bayón L. B.، & Marshack A.، 1995. " The Epi - Paleolithic of □küzini Cave (SW Anatolia) and its mobiliry art". Antiquity. Vol.، 269/ No.، 266: 931 - 944.
52. Parre Peter J.، Zarins J.، Muhmmed Ibrahim، Waechet J.، Garrad P.، Clarck C.، Bidmed M.، Hamad Al - Badr 1978. "Preliminary Report on the second phase of the Northern Province Survey". Atlal، Vol. 2: 29 - 51.
53. Perrot J.، 1968. "La préhstoire Palestinienne". In: Letouzey et Ané (eds). Supplement au Dictionnaire de la Bible 8: 286 - 446.
54. Uerpmann M.، 1992. "Structuring the Late Stone Age of Southern Arabia". Arabian Archaeology and Epigraphy، No. 3: 65 - 109.
55. Rahimi D.، 1987. "1987 Lithics". In W. Glansman and A. O. Ghaleb The Wadi al - Jubah Archaeological Project. Vol.، 3. Stratigraphic Probe at Hajar ar - Rayhani. Washington D. C. The Foundation for the Study of Man: 139 - 143.
56. Rashed A. A.، 1993a. Nieolit Yujnoi Aravii (tekhiko - tipologicheskii analiz kamennogo inventarya). Dissertatsiya na soiskanie uchyohnoi stepeni kandidata istoricheskih nauk. Sankt - Petersburg. (Unpulbished Ph. D. dissertation. University of Sankt - Petersburg)، (in Russian).
57. Rashed A. A.، 1993b. "On the patinization of the Neolithic tools from the South Arabia (the materials of al - Abr region) ". Russian Archaeology، Vol. 2: 24 - 33.
58. Rashed A. A.، 1993c. Nieolit Yujnoi Aravii (tekhiko - tipologicheskii analiz kamennogo



خارطة1: المواقع التي سجّل فيها الباحث في عام 1990م الأدوات المقترحة للواحق العصر الحجري القديم في الجزيرة العربية: 1- العَبر؛ 2- طرف العين؛ 3- الوهد؛ 4- باغصّين - شرق كهف تية فى المهرة.



خارطة 2: الأماكن الجغرافية التي سجّل فيها الباحث مواقع الأدوات المقترحة للواحق العصر الحجري القديم في الجزيرة العربية: 1- مركز العبر؛ 2- طرف العين؛ 3- الوهد (بين هضبة حضرموت، والربع الخالي).



لوحة1: موقع العبر رقم 1- ب: وجدت فيه بعض أدوات من لواحق العصر الحجري القديم (المجموعة - أ)، مع أدوات من العصر الحجري القديم (مركز العبر- الربع الخالي)، الصورة أخذها الباحث في 1990م.



لوحة2: موقع الوهد رقم1: وجدت فيه المجموعة (-ج) من العصر الحجري القديم اللاحق، مع أدوات من العصر الحجري القديم (الموقع يقع بين حضرموت، والربع الخالي)، الصورة أخذها الباحث في 1990م.



لوحة3: موقع طرف العين رقم4 وجدت فيه أدوات من العصر الحجري الحديث المبكر (المجموعات أ، ب)، مع أدوات من العصر الحجري القديم، ومن الفترة المبكرة من العصر الحجري الحديث المتأخر، أيضاً، الصورة أخذها الباحث في 1990م



لوحة 4: بيئة البليستوسين في أوروربا، وحيواناتها المنقرضة (الماموث، ووحيد القرن المُصَوف).	لوحة 5: بيئة الهولوسين في أوروبا وحيواناتها.	لوحة6: بيئة الهولوسين في أوروبا وحيواناتها.	لوحة 7: بيئة الهولوسين وحيواناتها الجنوبية.



لوحة 8: بيئة الهولوسين وحيوناتاها في مناطق السهوب. http://anthropology.umn.edu/assets/img/BisonCSP



لوحة9: بيئة، وحيوانات البحر الأبيض المتوسط والمناطق الإستوائية، وشبه الاستوائية في الهولوسين. www.pbase.com/image/61143329



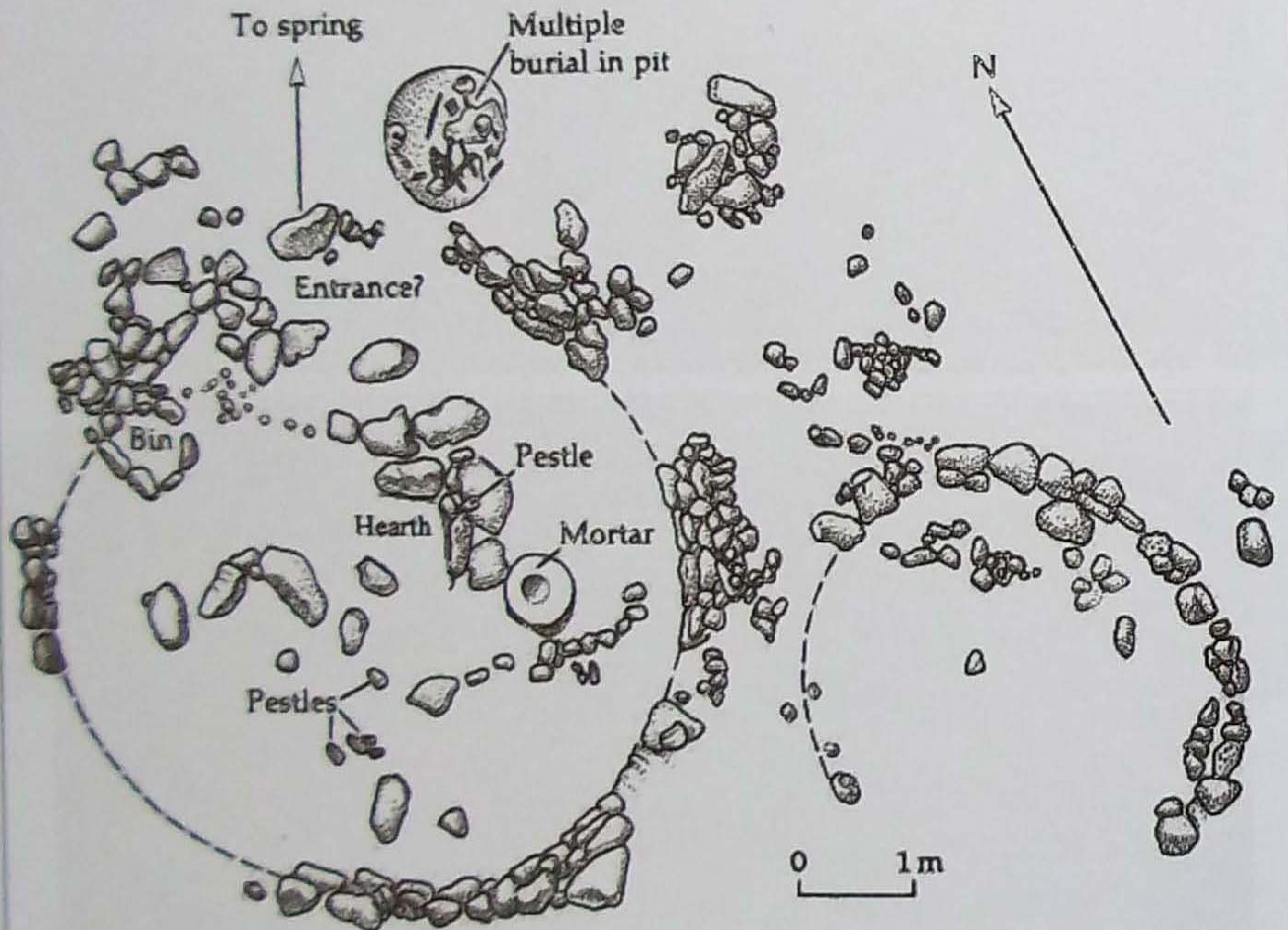
لوحة10: انتشار الطيور قرب مصادر المياه في الهولوسين. http://commons.wikimedia.org/wiki/File:Goose_and_Various_Birds.jpg



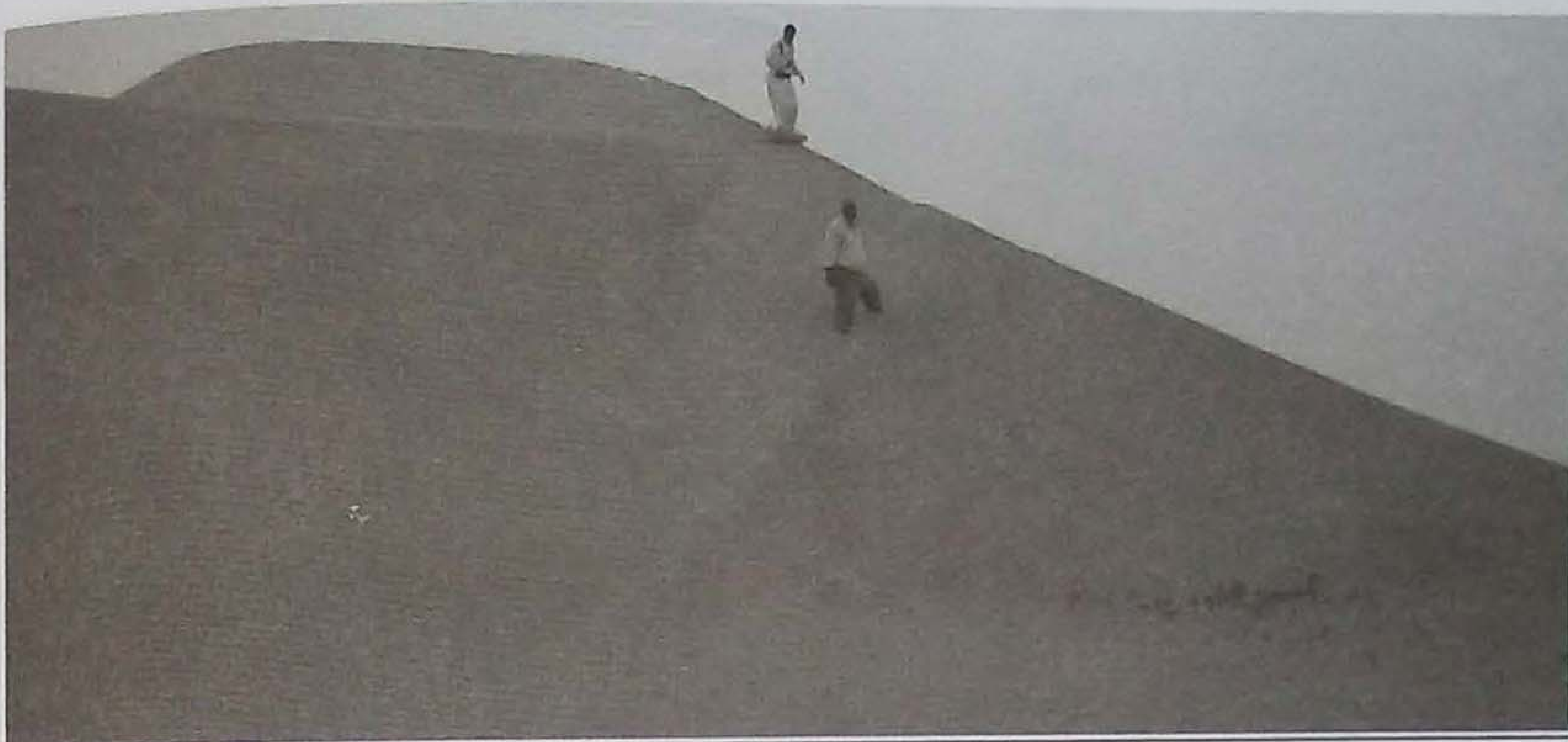
لوحة11: مسكن مُسْتَعاد من مساكن العصر الحجري الوسيط بالقرب من مصادر المياه في أوروبا وأشجار البتولا (Birch) .. http://archaeology. about.. com/od/historyofagriculture /ss/hunting_farming_2.htm



لوحة12: مسكن مُستَعاد من مساكن العصر الحجري الوسيط في أوروبا وأشجار الصنوبر (Pine).



- شكل1: من مساكن لواحق العصر الحجري القديم في الشرق الأوسط – الثقافة النطوفية/ عين ملاحة، وادي الأردن



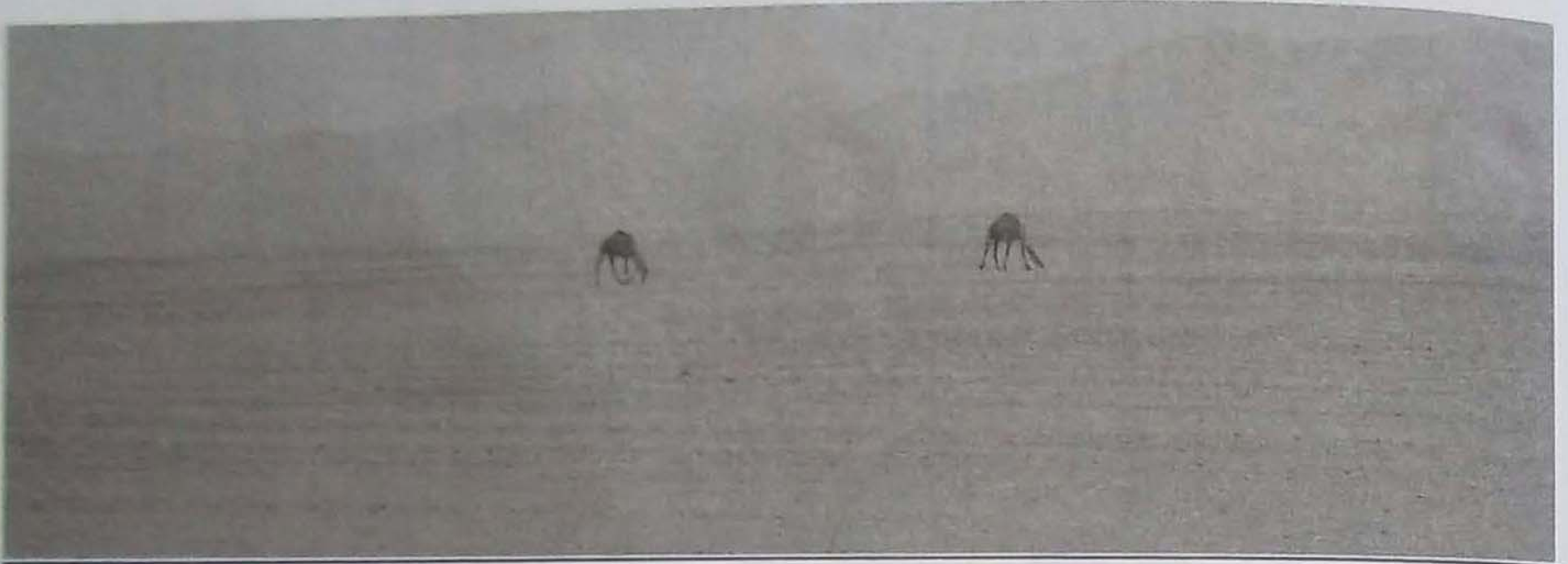
لوحة13: الربع الخالي، الذي يُحتمل أن كان على ما هو عليه اليوم في الفترة الجافة في نهاية البليستوسين، بناءً على الدراسات البئية والأثارية.



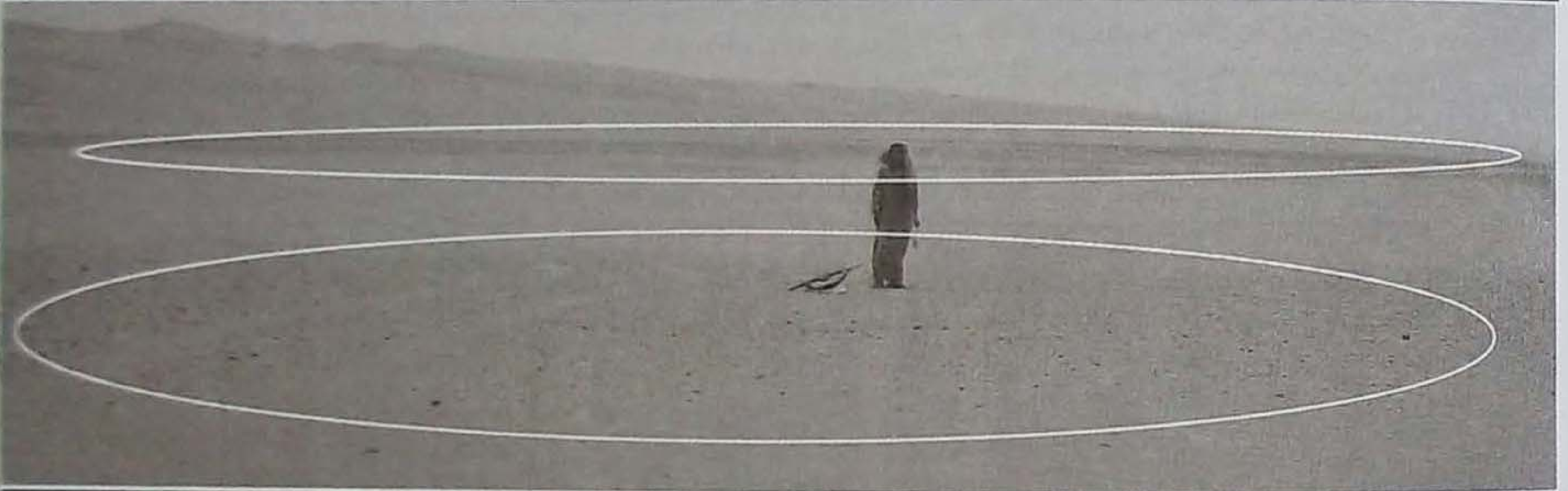
لوحة14: البحيرات الجافة في الربع الخالي، محاطة بالكثبانات الرملية، تتجمّع فيها مياه الإمطار عند هطولها اليوم في الحالات نادرة.



لوحة15: يُعتقد أن كانت هذه البيئة المعاصرة الإستوائية وشبه الإستوائية، مشابهة، أو قريبة من بيئة الفترات المطيرة القديمة في الجزيرة العربية بناءً على معطيات الدراسات البيئية والأثارية.



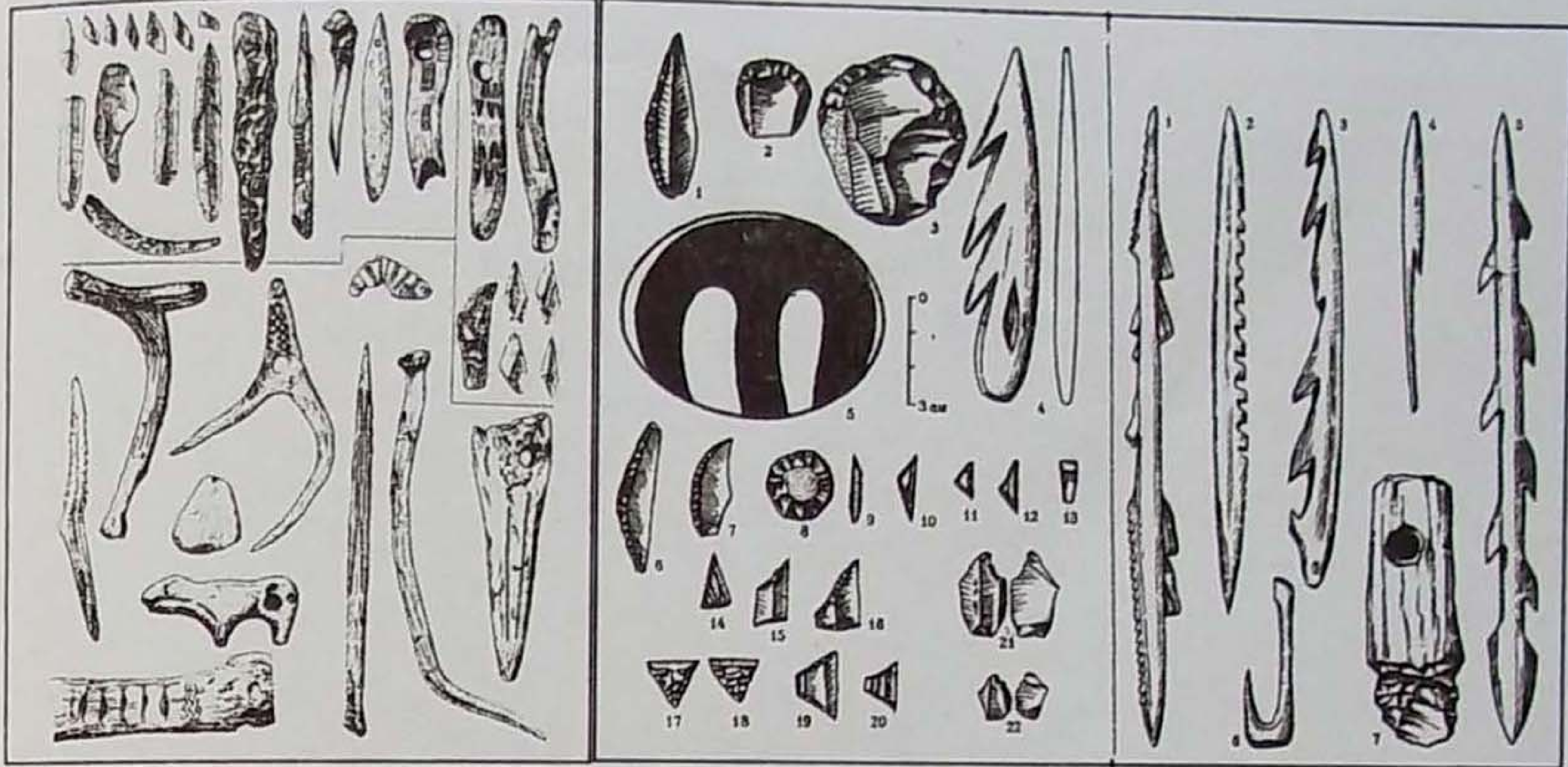
لوحة16: البحيرات الجافة في الربع الخالي، ومواقع العصر الحجري الحديث المتأخر (النمط الصحراوي).



لوحة17: مواقع العصر الحجري الحديث المتأخر (النمط الصحراوي) في البحيرات الجافة في الربع الخالي.

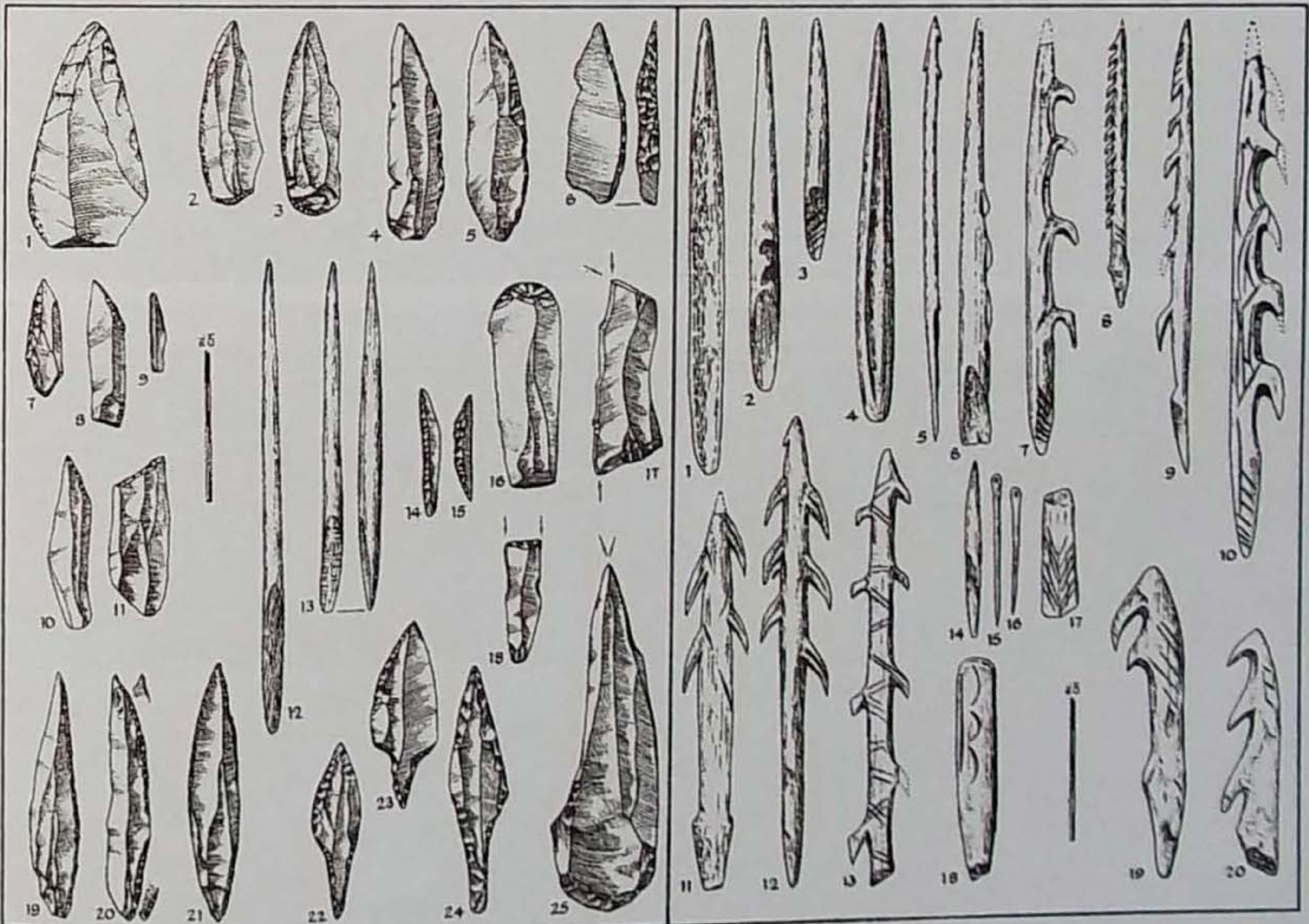


لوحة18: من أدوات النمط الصحراوي فى البحيرات الجافة فى الربع الخالى.



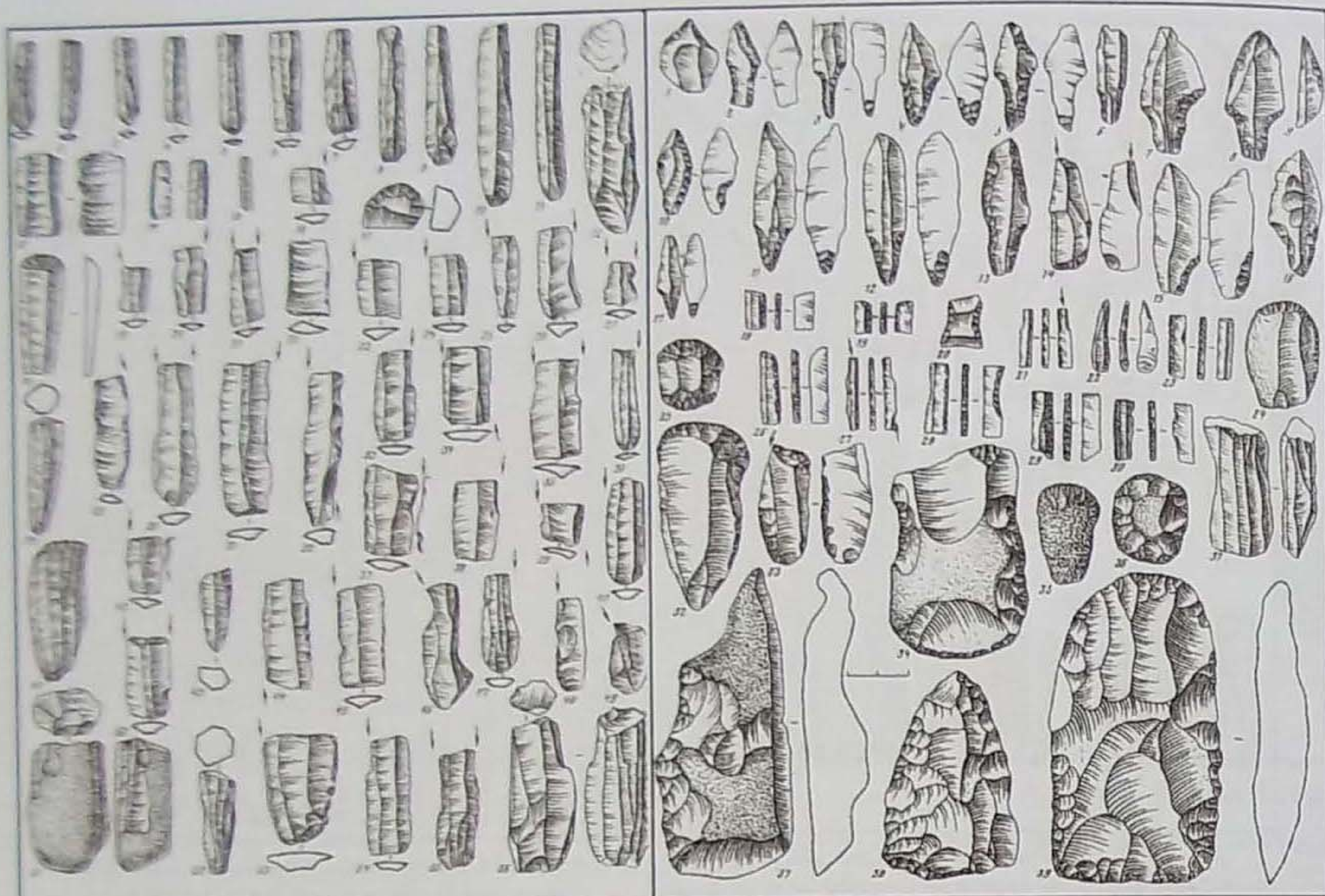
شكل2: نماذج من أدوات العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) في أوروبا: الجهة اليسرى من الشكل: 1- 5 من موقع (له ماس د أزيل) (Le Mas d'Azil):1- نصل، 2- مكيشط طرفي، 3- مكيشط، 4- صنارة مستعرضة الشكل، 5- زخرفة على حجَرة متدحرجة (Pebble)؛ 6- 13- من موقع (سوفتير) (Sauveterre): 6- 7- نصلان، 8- مكيشط دائري الشكل، 9- 13- أدوات قزمية؛14- 22 من موقع (تردينويز) (Tardenois) في فرنسا: 14- 16 أدوات قزمية، 17- 18 رؤوس سهام مثلثة الشكل، 19- 20أدوات قزمية،21- 22 مخرزان قزميان الحجم. الجهة اليمنى من الشكل: أدوات من عظام الأيل: 1- صنارة مطعّمة بأدوات قزمية، (السويد)، 2- صنارة بأسنان منشارية الشكل (الجانب الغربي من ألمانيا)،

شكل3: أداوت حجرية، أغلبها قزمية هندسية الشكل (Geometrical Microlith Tools)، بالإضافة إلى مواد عظمية على بعضها أشكال زخرفية، نُفذت بالنحت الغائر، وجميعها من العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) في شمال أوروبا (ثقافة مَجليموز)،



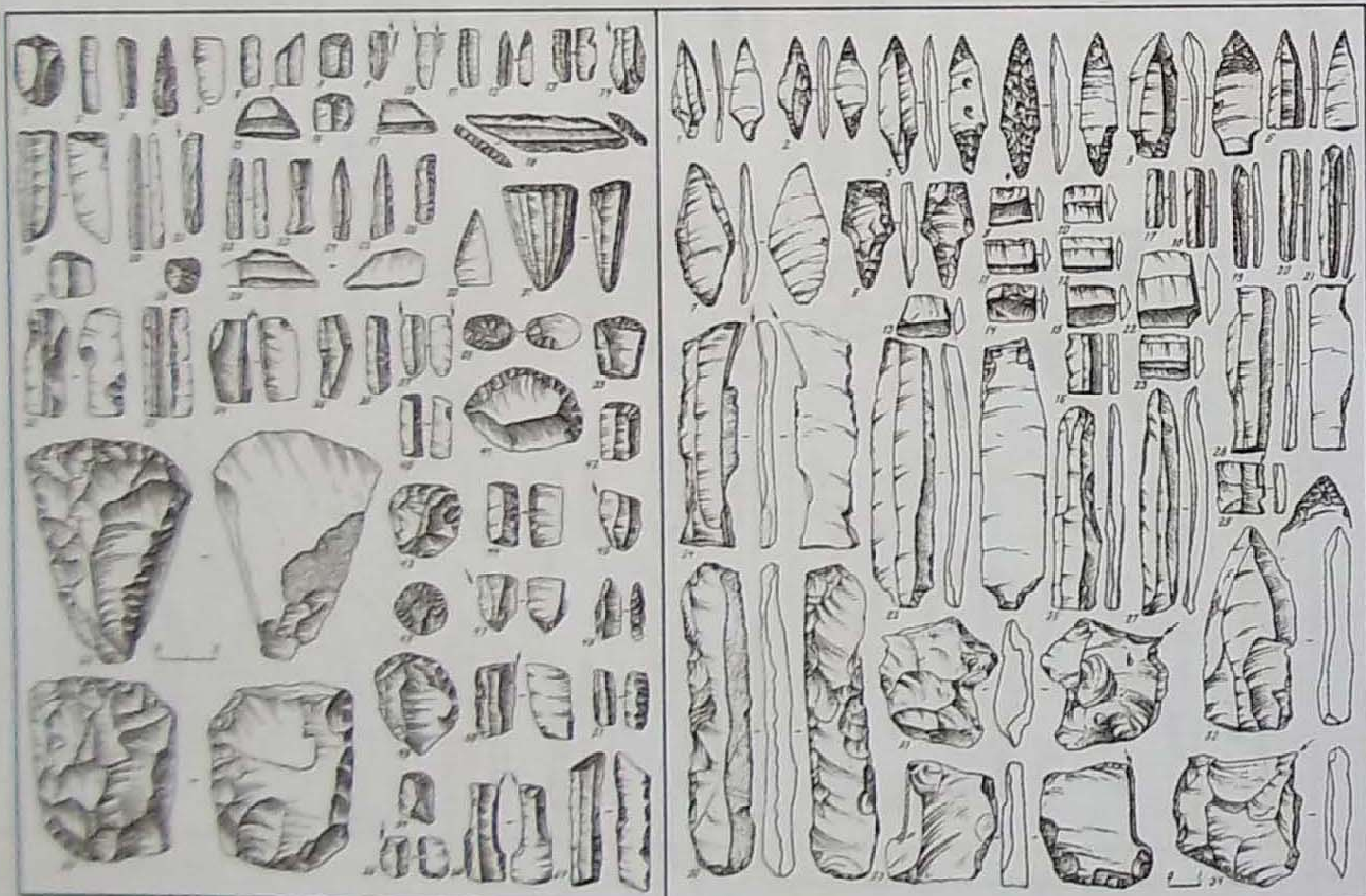
شكل4: نماذج من صناعة الأدوات العظمية، وقرون الحيوانات في العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا، التي تحدّث على أساسها خصائص العصر الحجري الوسيط (الثقافة المجدلينية

شكل5: نماذج من الأدوات الحجرية في العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا التي تحدّث على أساسها خصائص العصر الحجري الوسيط (بري جورديان في فرنسا)،)، نقلاً عن



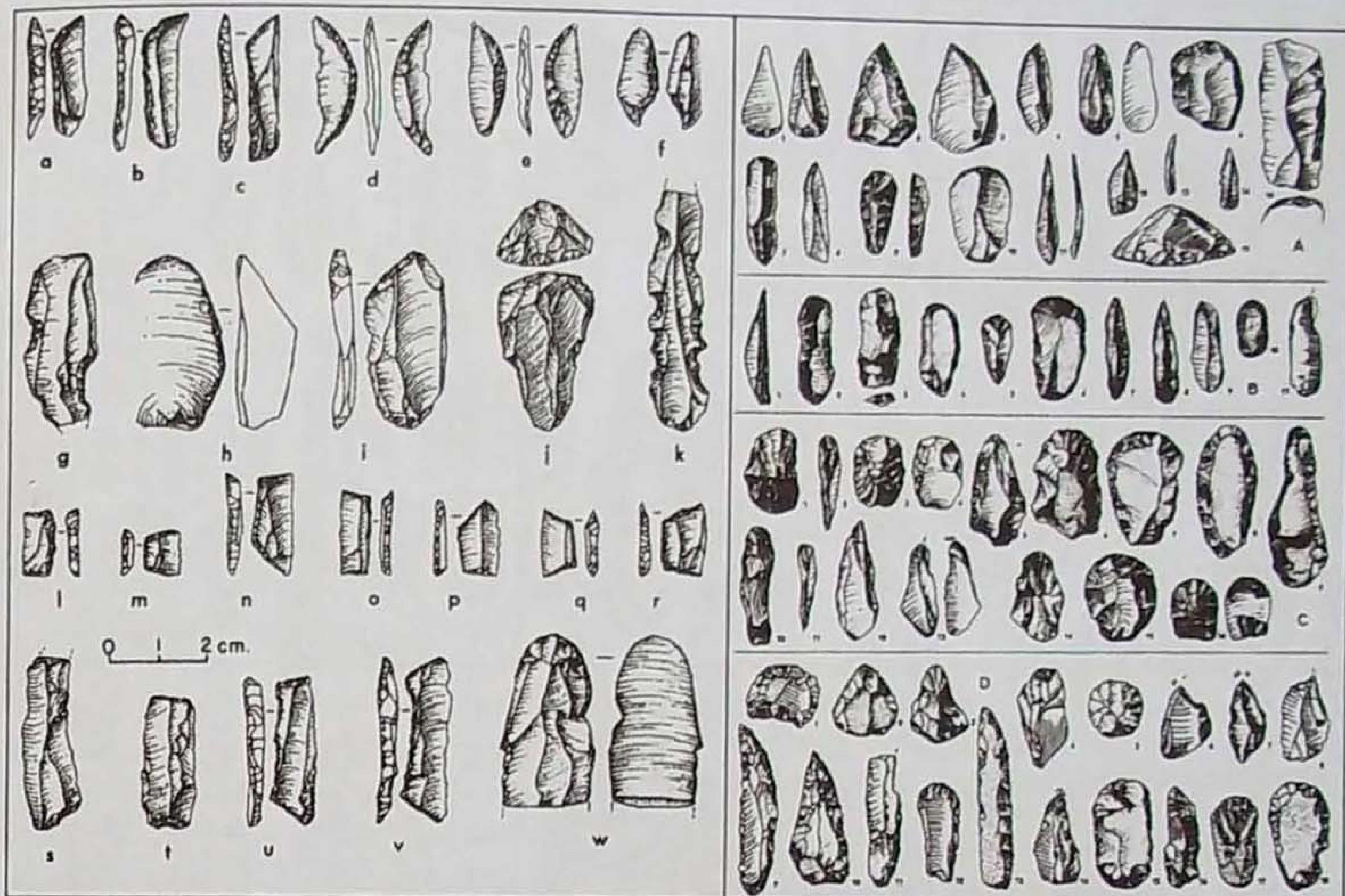
شكل6: أدوات من العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) من مواقع على ضفاف نهر الدانوب (Ribakov 1989).

شكل7: أدوات من العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) في الأورال (أوروبا الشرقية) (Ribakov 1989).



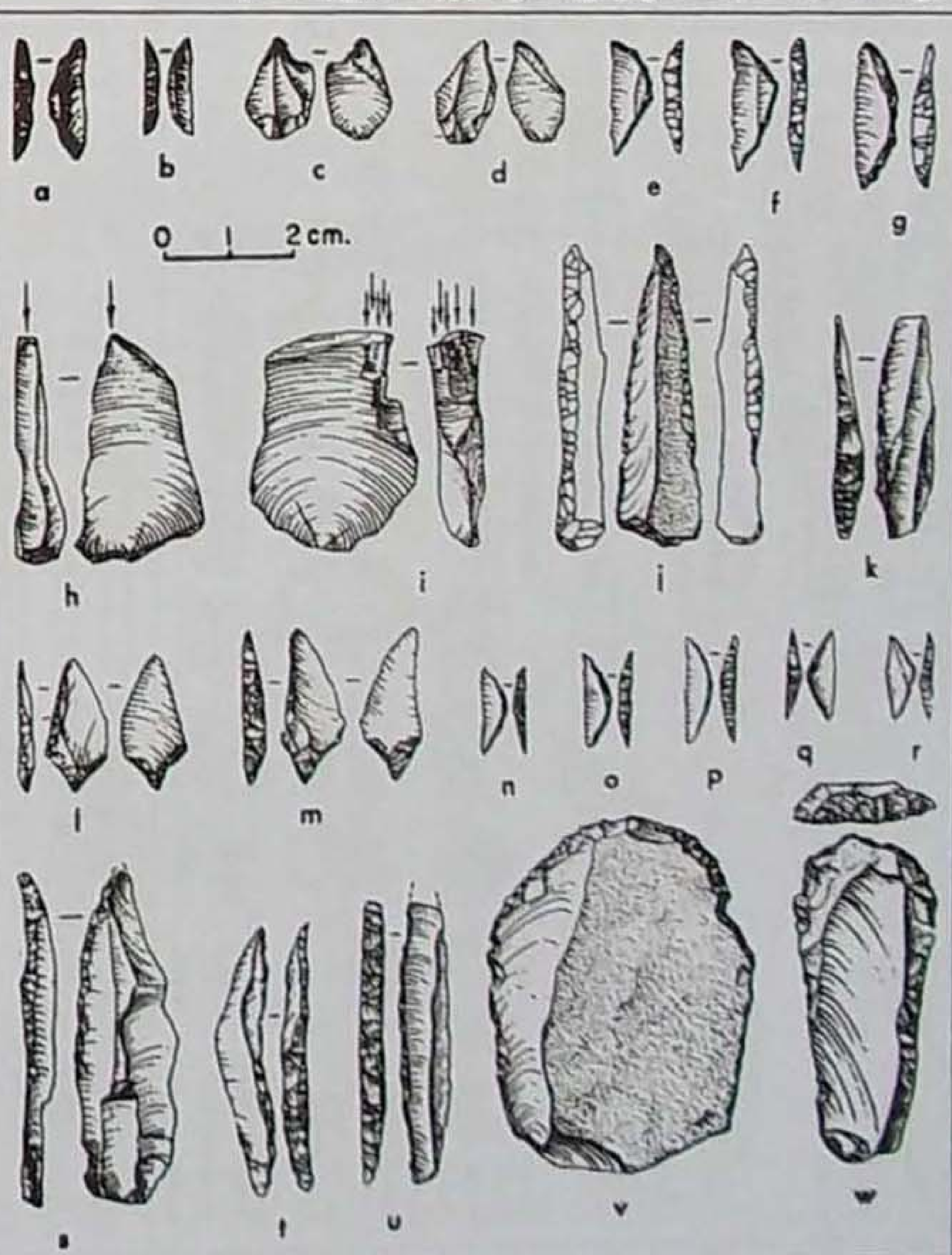
شكل8: أدوات من العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) من نهر الفولجا (أوروبا الشرقية) (Ribakov 1989).

شكل9: أدوات من العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) في آسيا الوسطى (كزاخستان)، نقلاً عن (Ribakov 1989).

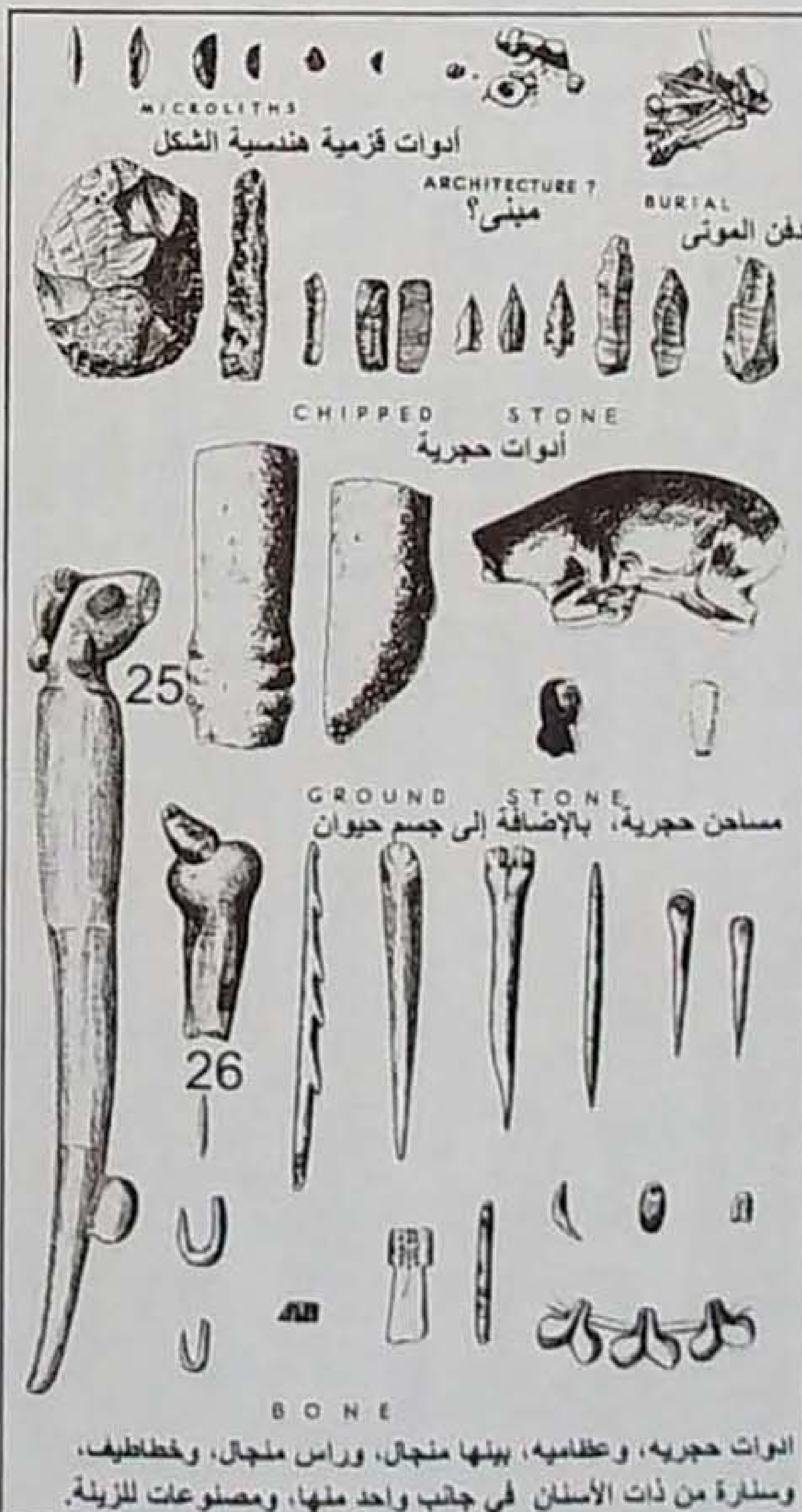


شكل10: العصر الحجري القديم الأعلى (Upper Paleolithic) في فلسطين:A - من كهف الأميرة، B- من عرق الأحمر؛ ج- من الطبقة (E) في مغارة الواد؛ C - من الطبقة (F) من مغارة الواد، نقلاً عن إبراهيم (1990)، وجميعها من الأدوات التي تحملت على أساسها خصائص لواحق العصر الحجري القديم في بلاد الشام.

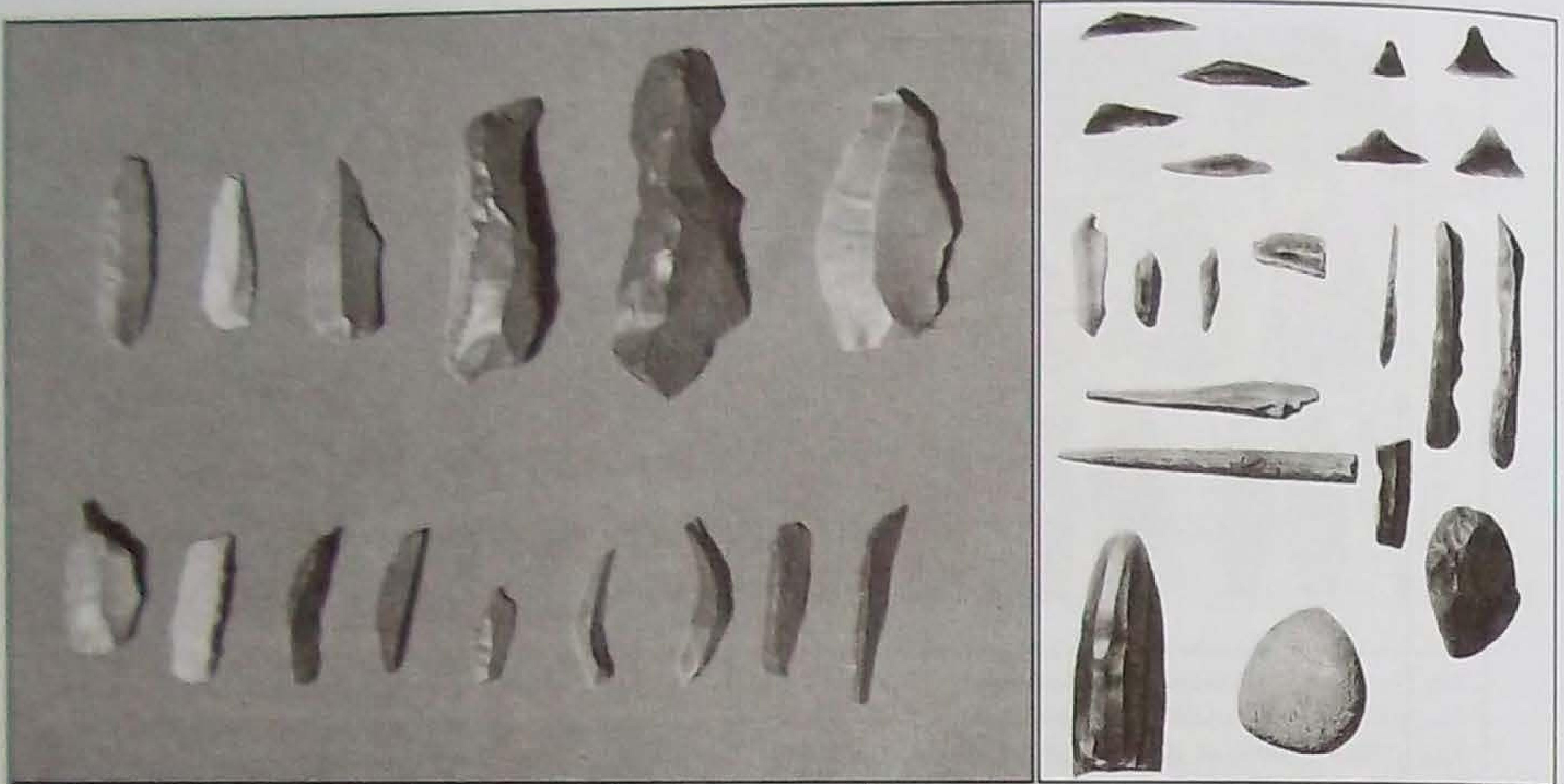
شكل11: لواحق العصر الحجري القديم (Epi- Paleolithic) (الثقافة الكبارية) في فلسطين، نقلاً عن (إبراهيم 2009)، ذات الأدوات القزمية الهندسية، ومنها الهلالية: (d- e) والمستطيلة شبه المنحرفة: r -L، بالإضافة إلى الأدوات المجهزة من شظايا (Blade)، [illegible]



لوحة12: لواحق العصر الحجري القديم، الثقافة النطوفية، نقلاً عن (إبراهيم 1990): المرحلة التي ارتفعت فيها نسبة الأزاميل (Burin): (d, h-i)، وأنصاف الدوائر ، أو الهلالية الشكل: (a-h, e, n-p)

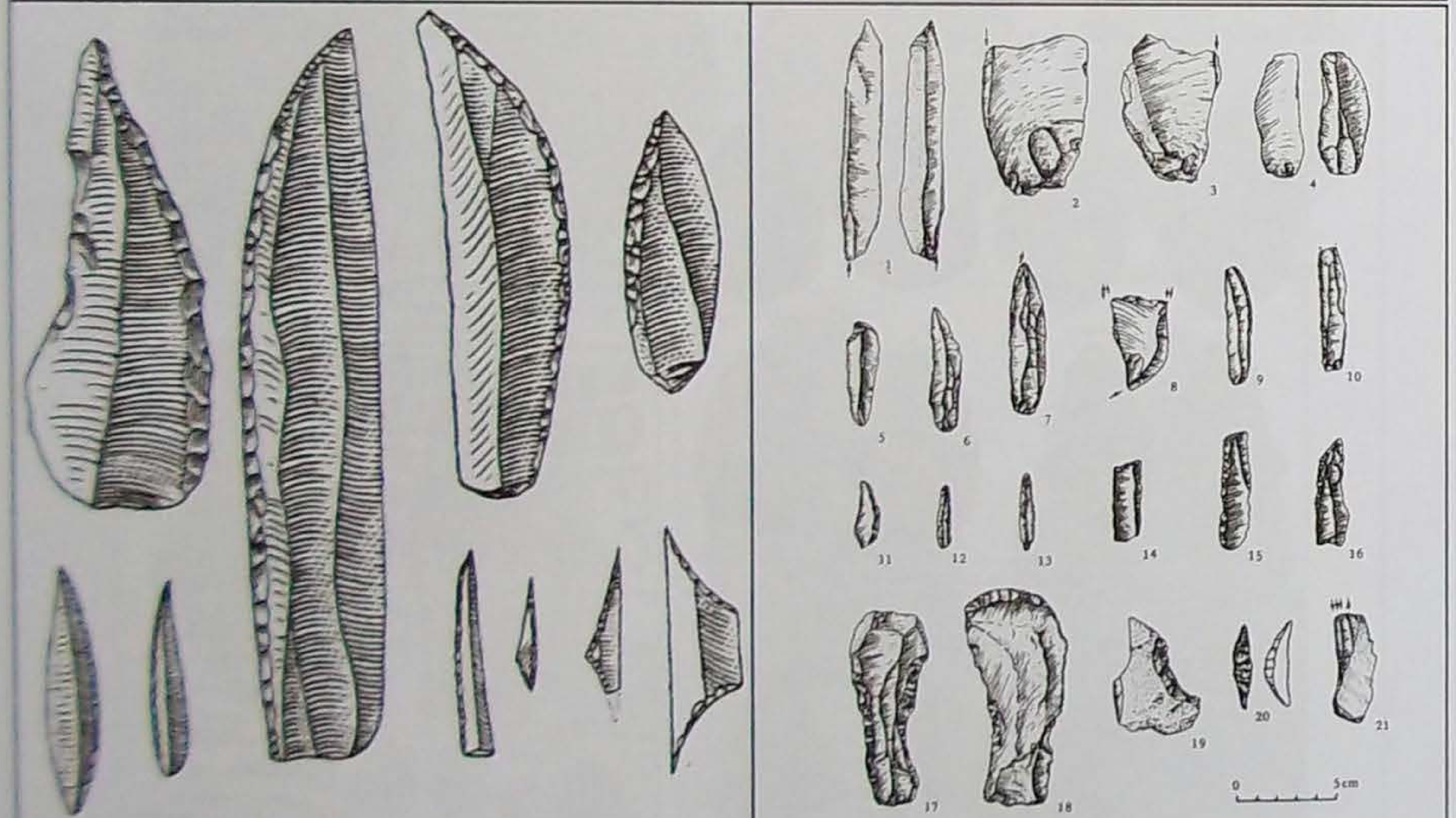


شكل13: أدوات حجرية وعظمية من الثقافة النطوفية في فلسطين تنسب الى لواحق العصر الحجري القديم (Epi-Paleolithic)، (25) منجل، (26) رأس منجل نقلاً عن: (Braidwood 1957; Mellaart 1965).



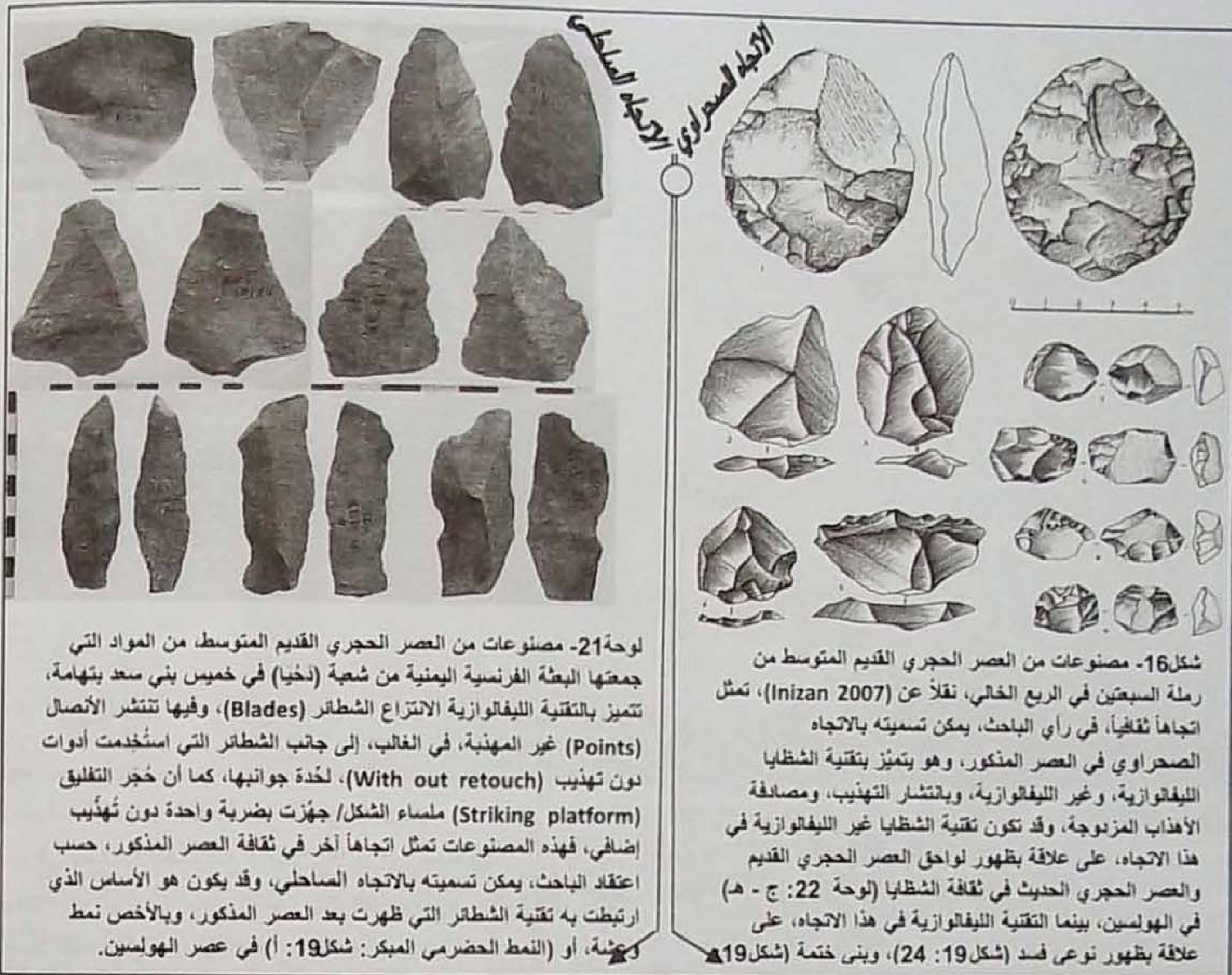
لوحة19- أ: أدوات قزمية وعظمية من لواحق العصر الحجري القديم في الثقافة الكابسية (Capcian) في المغرب، بالإضافة إلى نواة اسطوانية الشكل لاستخراج الفلق الحجرية التي صُنعت منها هذه الأدوات (Balout 1955)

لوحة20: أدوات حجرية مصنوعة على شظايا، وعلى شرائح حجرية من لواحق العصر الحجري القديم (Epi-Paleolithic) في الثقافة الايبيرو- موريتانية في شمالي إفريقيا نقلاً عن (Elinek 1982: 155).



شكل14: أدوات من العصر الحجري القديم الأعلى من هوا فطيح (Haua Feath) في ليبيا، نقلاً عن (Fage, Oliver 1982)، والتي تحددت على أساسها لواحق العصر الحد، القديم ف المنطقة

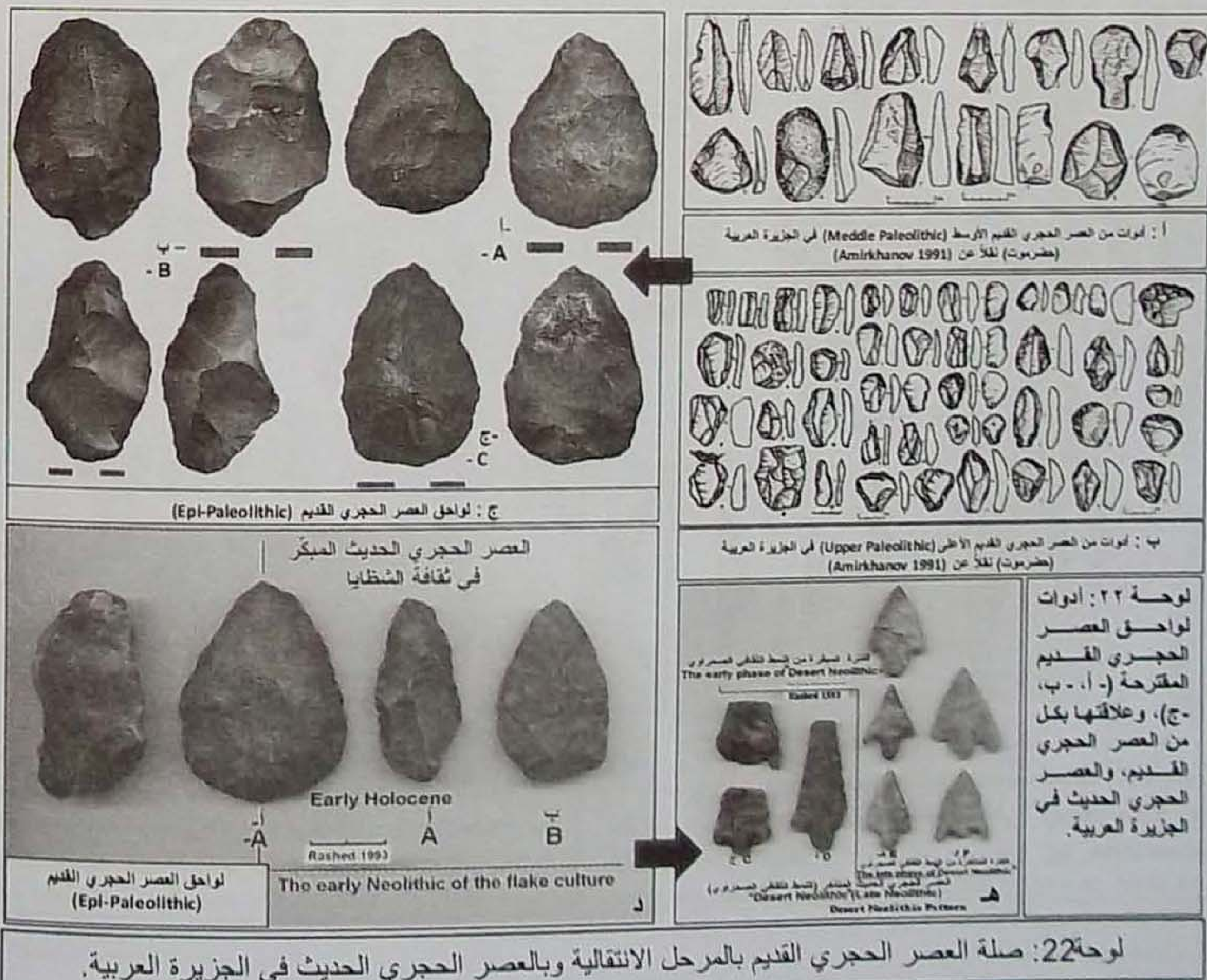
شكل15: أدوات من العصر الحجري القديم الأعلى (Upper Paleolithic) (الثقافة الكابسية المبكرة) في شمال إفريقيا، نقلاً عن (Efimenko 1958: fig. 296)، والتي [illegible]



لوحة21- مصنوعات من العصر الحجري القديم المتوسط، من المواد التي جمعتها البعثة الفرنسية اليمنية من شعبة (نخيا) في خميس بني سعد بتهامة، تتميز بالتقنية الليفالوازية الانتزاع الشطائر (Blades)، وفيها تنتشر الأنصال (Points) غير المهذبة، في الغالب، إلى جانب الشطائر التي استُخدمت أدوات دون تهذيب (With out retouch)، لحُدة جوانبها، كما أن حُجر التفليق (Striking platform) ملساء الشكل/ جهِّزت بضربة واحدة دون تُهذيب إضافي، فهذه المصنوعات تمثل اتجاهاً آخر في ثقافة العصر المذكور، حسب اعتقاد الباحث، يمكن تسميته بالاتجاه الساحلي، وقد يكون هو الأساس الذي ارتبطت به تقنية الشطائر التي ظهرت بعد العصر المذكور، وبالأخص نمط دعشة، أو (النمط الحضرمي المبكر: شكل19: أ) في عصر الهولسين.

شكل16- مصنوعات من العصر الحجري القديم المتوسط من رملة السبعتين في الربع الخالي، نقلاً عن (Inizan 2007)، تمثل اتجاهاً ثقافياً، في رأي الباحث، يمكن تسميته بالاتجاه الصحراوي في العصر المذكور، وهو يتميّز بتقنية الشظايا الليفالوازية، وغير الليفالوازية، وبانتشار التهذيب، ومصادفة الأهذاب المزدوجة، وقد تكون تقنية الشظايا غير الليفالوازية في هذا الاتجاه، على علاقة بظهور لواحق العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث في ثقافة الشظايا (لوحة 22: ج - هـ) في الهولسين، بينما التقنية الليفالوازية في هذا الاتجاه، على علاقة بظهور نوعي فئد (شكل19: 24)، وبنى ختمة (شكل19

شكل16، لوحة 20: ثقافتان من العصر الحجري القديم الأوسط في الجزيرة العربية، بنيت عليها تطورات العصور الحجرية اللاحقة في الجزيرة العربية

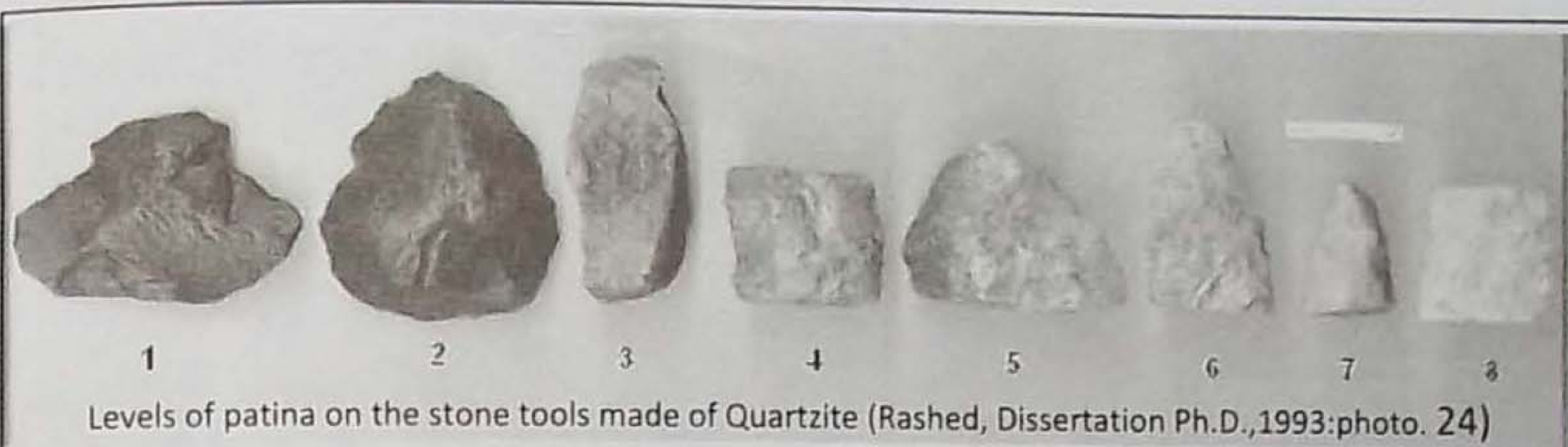


لوحة22: صلة العصر الحجري القديم بالمرحل الانتقالية وبالعصر الحجري الحديث في الجزيرة العربية.

شكل 17: الأدوات التي تركها (زارينس) وآخرون في وسط الجزيرة معلقة بين العصر الحجري القديم الأعلى، والمرحلة الانتقالية، أو كما أسموا هذه المرحلة: ما بعد العصر الحجري القديم (Post- Paleolithic) (Zarins et. al. 1979: 18, fig. 4).

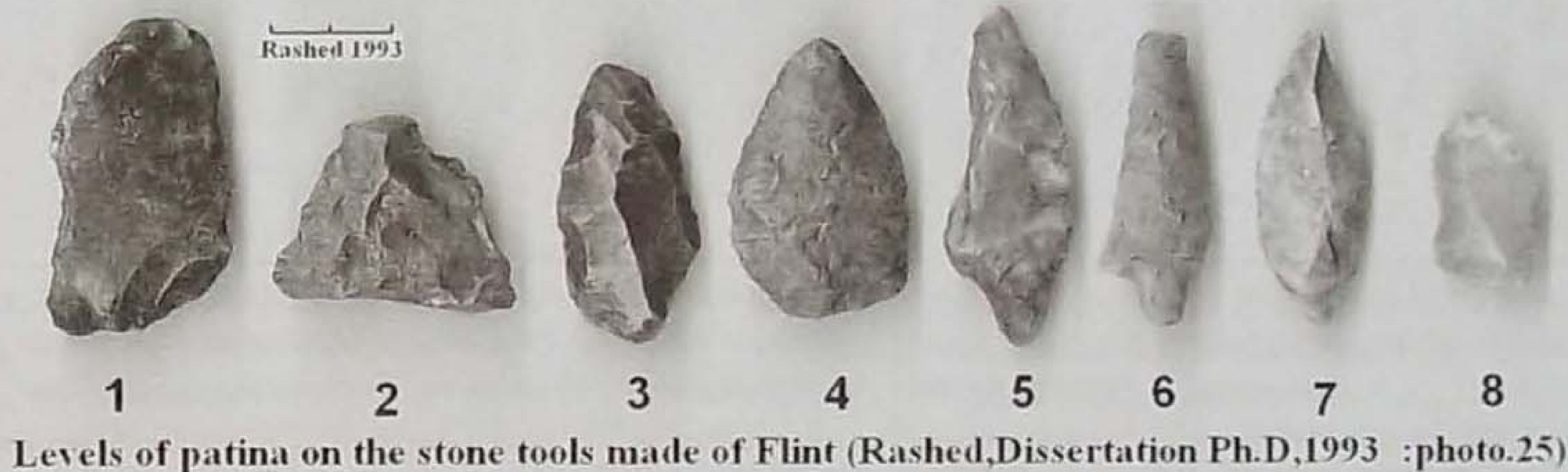
شكل18: الأدوات التي قدّمها (والن) وآخرون للواحق العصر الحجري القديم (Epi-paleolithic) في وسط الجزيرة العربية (Whalen et.al.,1981: 49, fig. 50).

لوحة23: الأدوات المقترحة للواحق العصر الحجري القديم (Epi-paleolithic) في الجزيرة العربية، وهي المجموعات: (- أ، - ب، - ج)، وتعدّ المجموعة (- أ) أحدث من المجموعة (- ب)، والمجموعة (- ب) أحدث من المجموعة (-ج)، وهي من حيث أنواع الأدوات: (- أ، - ج) رأسان مستديران القاعدة من رملة السبعتين: (- أ) من الصوان من موقع العَبْر1، (-ج) من الكوارتزيت من الوهد1غير مكتمل التجهيز؛ (- ب) من موقع باغشّين في المهرة (بين فوجِت وكهف تية)، الرأس الأعلى منهما، مستعرض الشكل من ذات الطرفين الحادين؛ والرأس الأسفل من ذات الطرفين [illegible]



Levels of patina on the stone tools made of Quartzite (Rashed, Dissertation Ph.D.,1993:photo. 24)

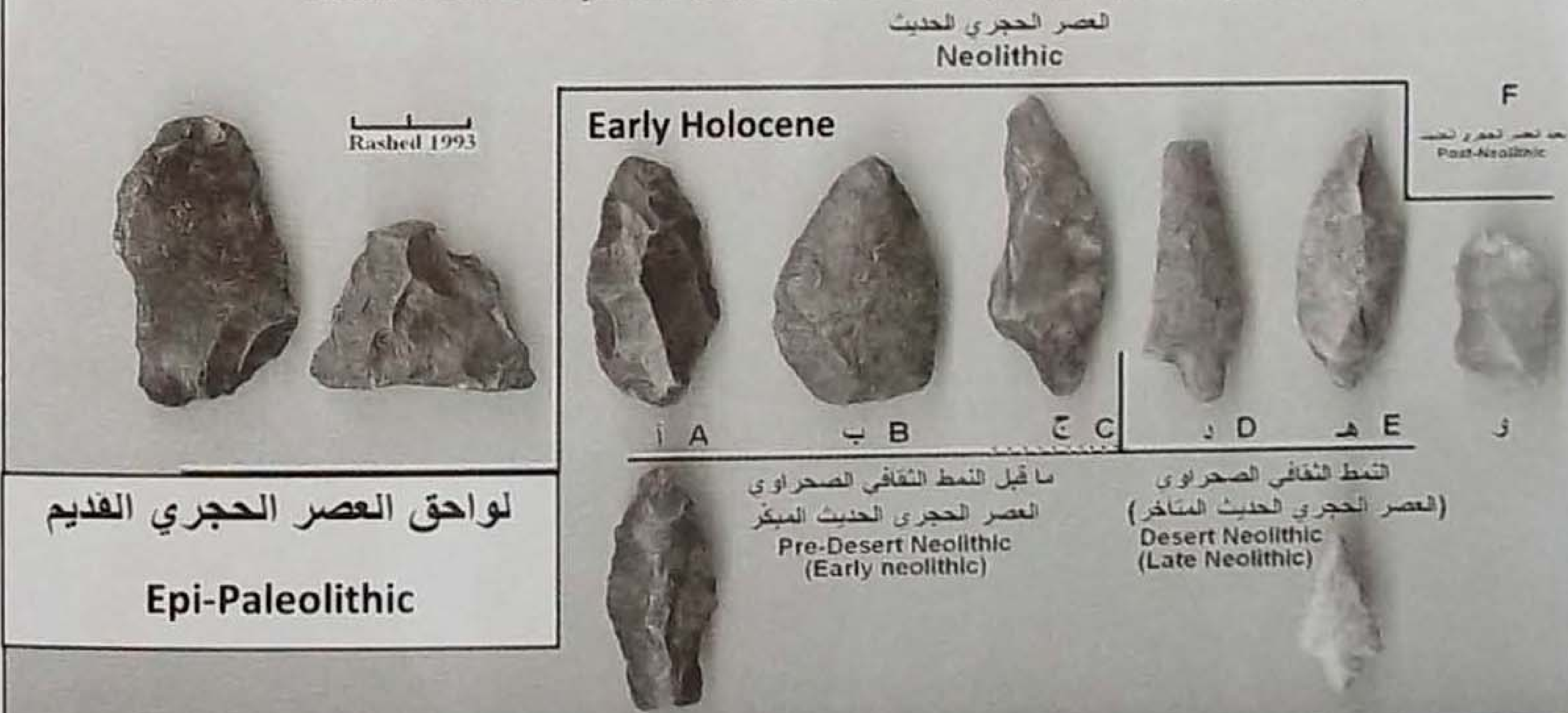
أ- A: مستويات البلى على الأدوات الحجرية المصنوعة من الكوارتزيت.



Levels of patina on the stone tools made of Flint (Rashed,Dissertation Ph.D,1993 :photo.25)

ب- B: مستويات البلى على الأدوات الحجرية المصنوعة من الصوان.

The divison of the Arabian Neolithic of the Flake Culture according to chronological relative order of patina (Rashed,Dissertation Ph.D,1993 :photo.26)



ج- C: التقسيم المرحلي للعصر الحجري الحديث في ثقافة الشظايا الذي أظهره الترتيب الزمني النسبي بالبلى في عا1993م.

لوحة24- الترتيب الزمني النسبي بالبلى ودوره في إظهار تطور كل من أدوات ثقافة الشظايا ، أو الثقافة "العربية"، ومبدأ تقسيم العصر الحجري الحديث في هذه الثقافة ، من خلال تحديد الرؤوس الخاصة بالنمط الصحراوي في المجموعة (د) نقلاً عن: (رسالة الدكتورا ه لكاتب هذه الدراسة (Rashed 1993a) وقد أغني هذا الترتيب بإضافات جديدة في أبحاث لاحقة (المعمري2000؛ 2002).



Pl. 24-Chronological relative order of patina discovered the development and division of the Arabian Neolithic of the Flake (Arabian) Culture on the basis of the location of the points of " Desert Neolithic" in group D. This method was worked

لواحق العصر الحجري القديم
Epi- Paleolithic

العصر الحجري الحديث المبكّر
Early Neolithic

النمط الصحراوي المبكر
Early Desert pattern

النمط الصحراوي المتأخر

ما بعد الحجري الحديث في الصحراء

ج- -C | ب- -B | أ- -A | B | ج C | د D | E | و F | G | ح H | ط I | ي J

أ
A

العصر الحجري الحديث المتأخر/ النمط الصحراوي
(Late Neolithic / Desert

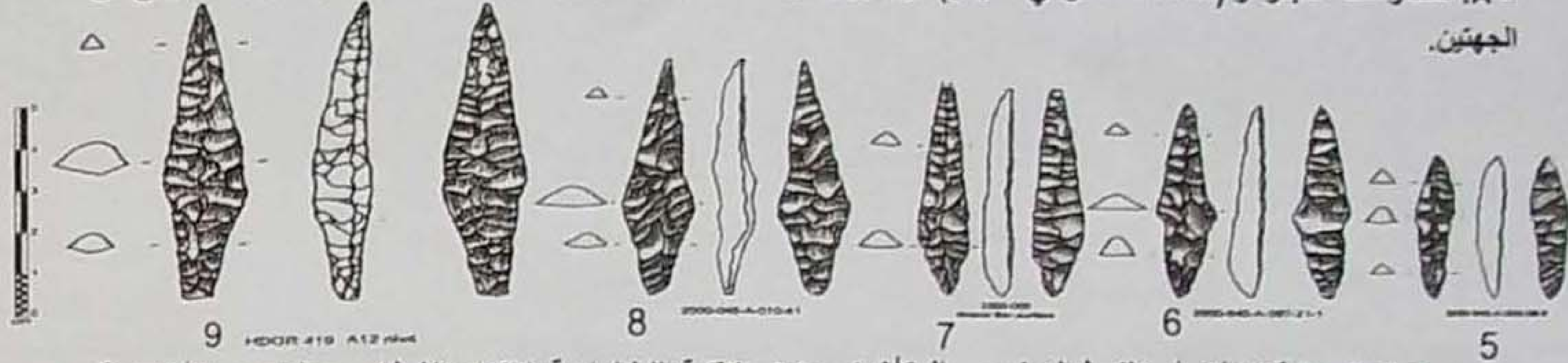
ما بعد العصر الحجري الحديث في الصحراء، يتزامن مع العصر البرونزي في المرتفعات الجنوبية.
The Post-Neolithic in Desert is Parallel to

العصر الحجري الحديث (The Neolithic Age)

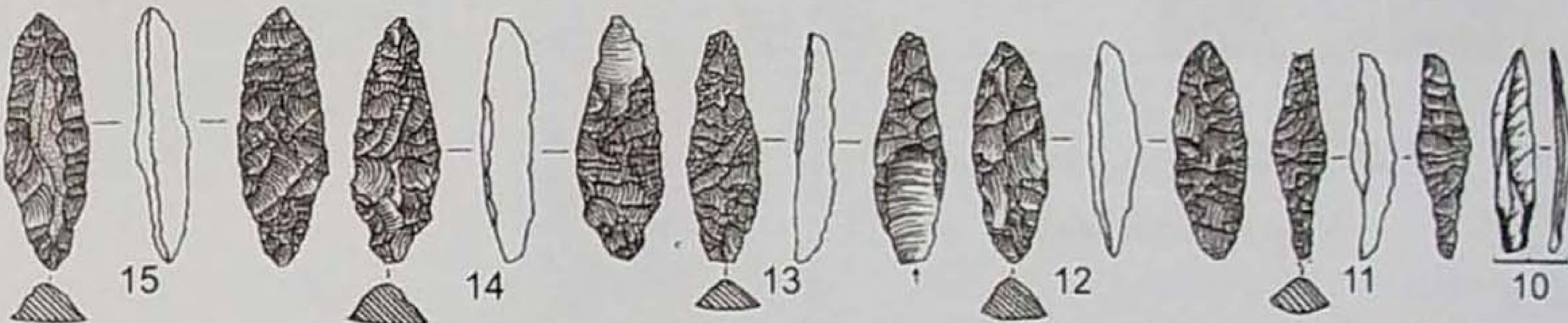
لوحة25: الأدوات المقترحة للواحق العصر الحجري القديم في الجزيرة العربية (- أ، - ب، - ج)، ووضعيتها في سُلَّم الترتيب الزمني النسبي بمظهر البِلى (Patina).



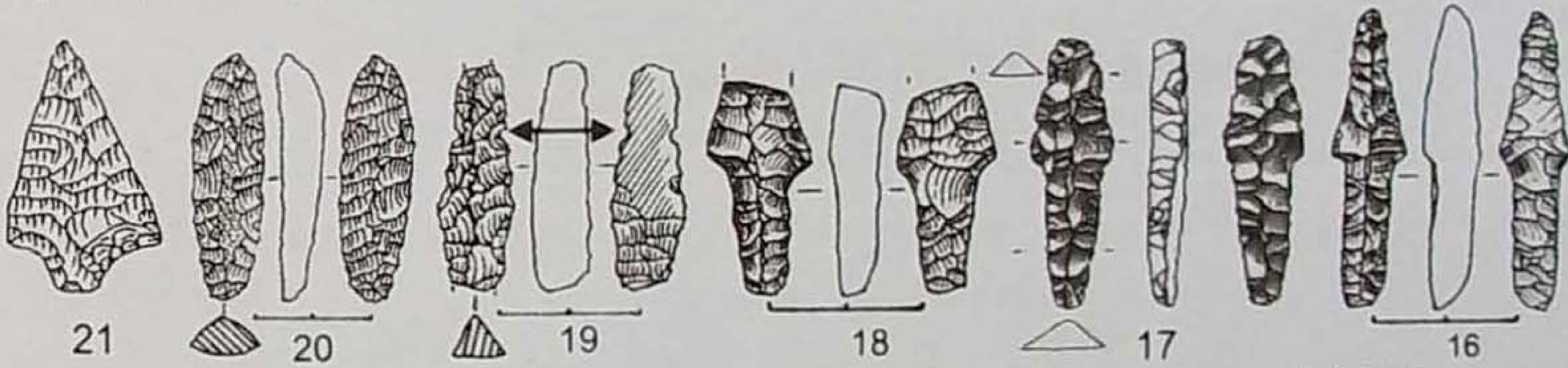
أ- A: نمط وعشة المبكّر أو (النمط الحضرمي المبكّر)، ويتميز بتقنية الشظائر الليفاللوازية، وبالأنصال، وانعدام التهذيب المرقّق من الجهتين.



ب- B: نمط وعشة المتأخر أو (النمط الحضرمي المتأخر)، ويتمز بالتقنية الليفالوازية لانتزاع الشظائر، وبالرؤوس المُخدودية والثلاثية المذيّلة أو ذوات المقابض أو العِقب، وبالتهذيب المرقّق من الجهتين.



ج- C: النمط المهري/أو المهري- الظفاري/أو نمط الهضاب الجنوبية الشرقية/ ويتميز بتقنية الشظايا، في الغالب، وبالرؤوس الثلاثية،ومنها الرؤوس المقضوضبة، وذات الطرفين الحادين، أو (الزورقية)، والرؤوس المذنبة، وبالتهذيب المرقّق من الجهتين، والتهذيب المسطّح،أو (الأخدودي).



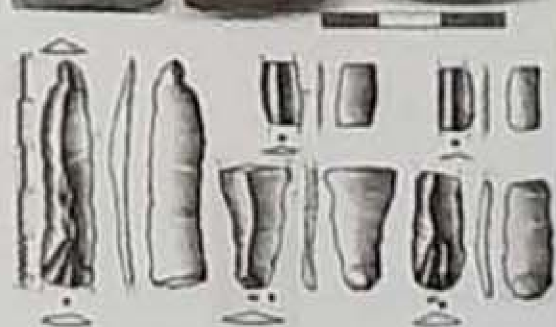
د- D: النمط الصحراوي/ ويتميز بالرؤوس المعقّفة المستعرضة الريشة (الرؤوس"العربية") رقم21، وبأنواع أخرى مختلفة، وبتقنية الشظايا، والتهذيب المرقّق من الجهتين، مع التهذيب المسطّح / أمّا الرؤوس الثلاثية فيه فكثير منها معقّفة، وبعضها من ذات الحقيمين.



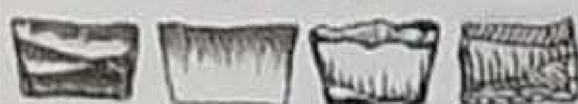
هـ - E: نوع فُسَد، وبني ختمة، يمثلان نمطاً واحداً، يعود إلى العصر الحجري الحديث، ويتميز بالتقنية الليفالوازية لانتزاع الشظف وبالتهذيب الأحادي.

و- F من أدوات العصر الحجري الحديث (النمط الجبلى) فى المرتفعات.

ز- G: من أدوات العصر البرونزي فى المرتفعات.

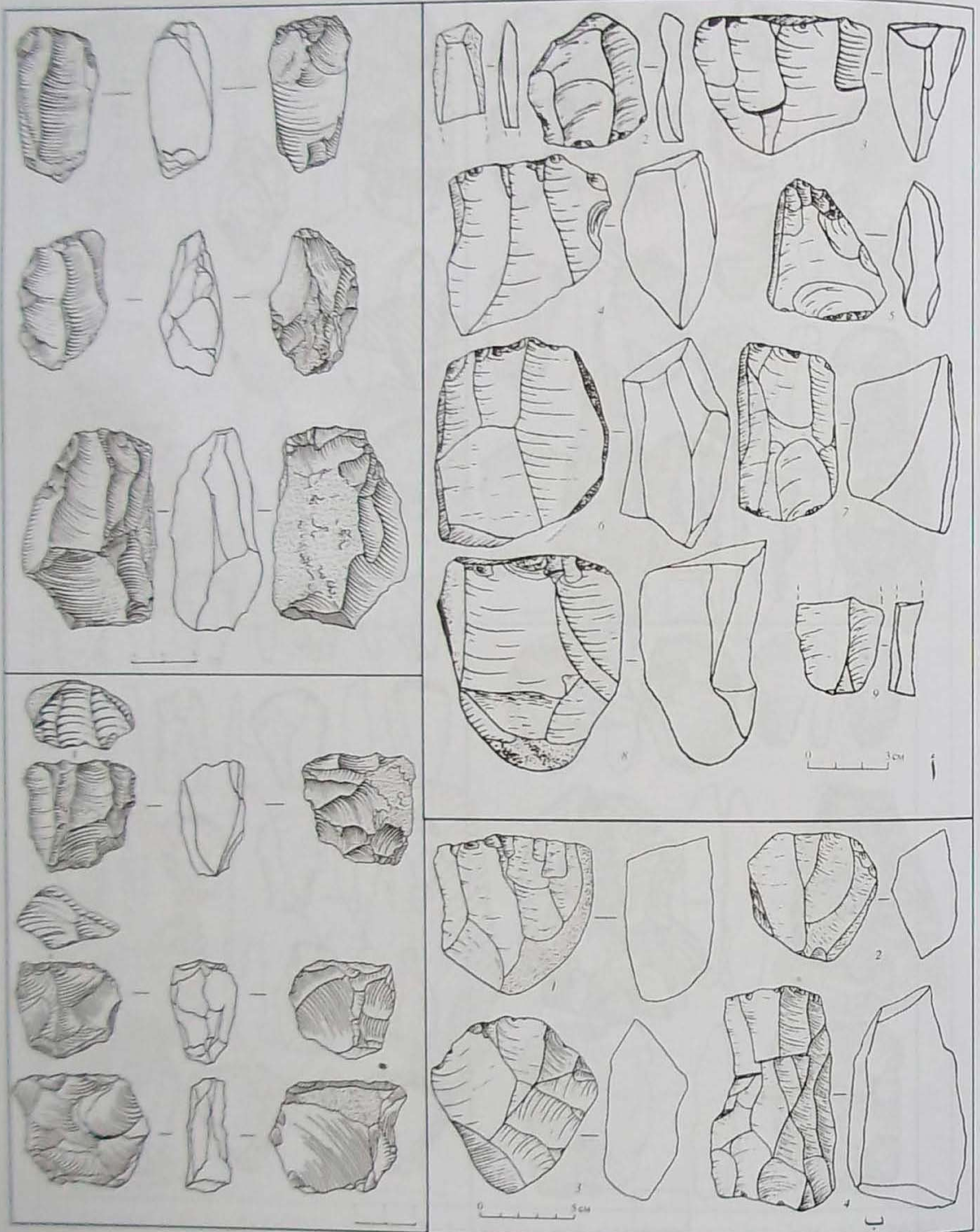


ح- H: تقنية انتزاع الشظائر من الأوبسديان بحضرموت.

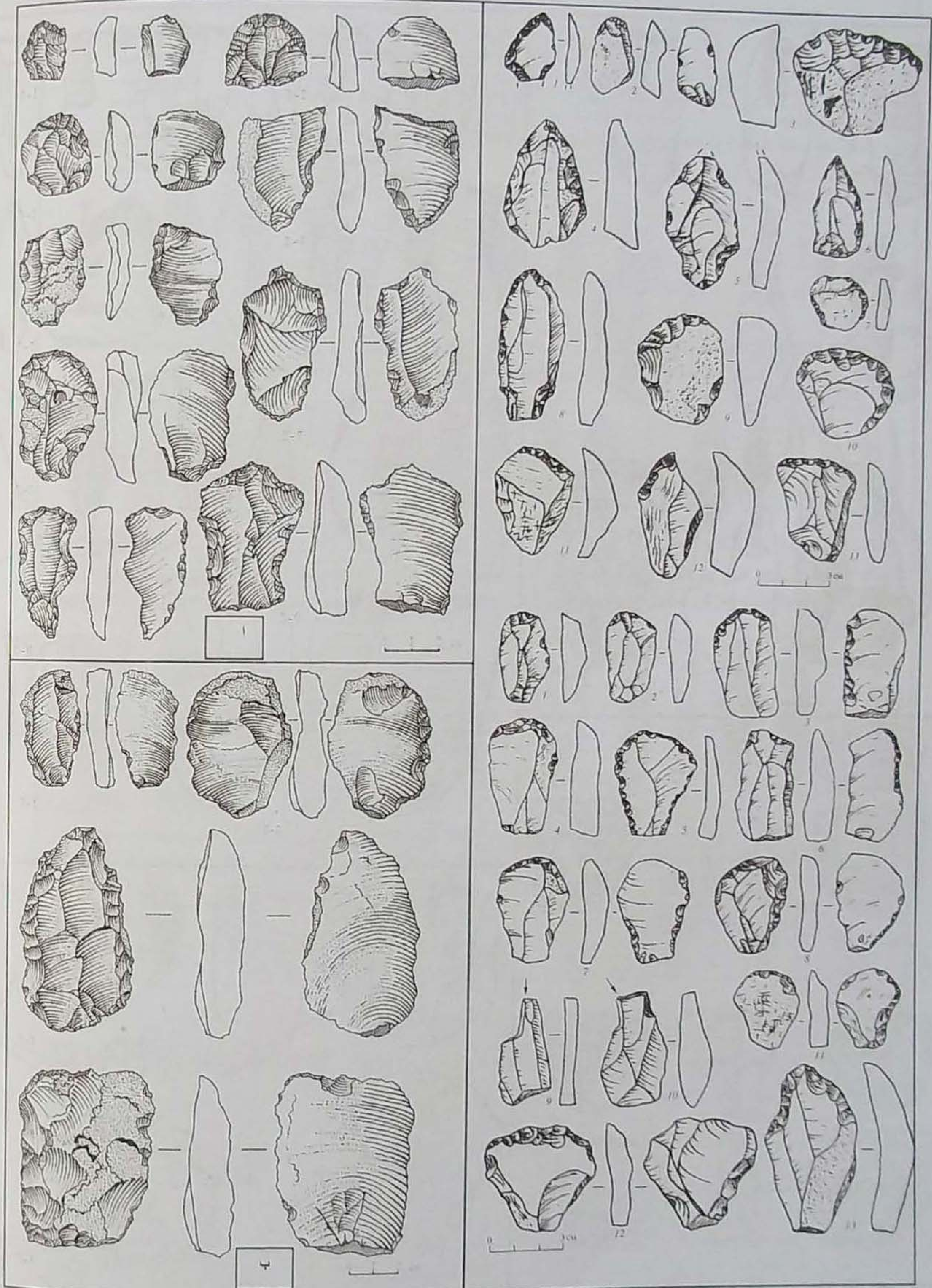


ط - I: أدوات قزمية من حضرموت

شكل19- التنوع الثقافي في عصر الهولسين بجنوبي الجزيرة: 1- 4، 9 من وعشة، نقلاً عن (Crassard &Bodu 2004;Crassard 2007)؛ 5، 6، 8، 17من خُزموم؛ 7 من موقع (Gravel Parr)،26من وادي سنا، وجميعها من حضرموت، نقلاً عن (McCorriston et. al., 2004; Crassard 2007)؛10من حبيق، 22من مسيْحل بالمهرة، نقلاً عن (Amirkhanov 1997) ، 23من (بني ختمة) جنوبي المُندفن، نقلاً عن (McClure 1994)؛ 24 من ظفار، نقلاً عن (Zarins 1998)؛ 25من حم ى، نقلاً عن (Zarins et. al., 1981)؛11- 15رؤوس ثلاثية من المهرة؛ 19، 20، رؤوس ثلاثية،21من الرؤوس العربية، 27، 28من نوع فُسد، وجميعها من رملة السبعتين، نقلاً عن (Rashed 1993a)؛ 16، 18رؤوس ثلاثية من رملة السبعتين، نقلاً عن(المعمري 2002)؛ و- من وادي الثيلة في المرتفعات؛ ز- من أدوات العصر البرونزي في المرتفعات (جمعها الباحث)؛ ح- تقنية الشظائر باستخدام خام الأوبسديان من منيزح بحضرموت، نقلاً عن (Crassard et. al..2006)؛ ط - أدوات قزمية من أطراف رملة السبعتين الشرقية، وهي تختلف عن الأدوات القزمية في.

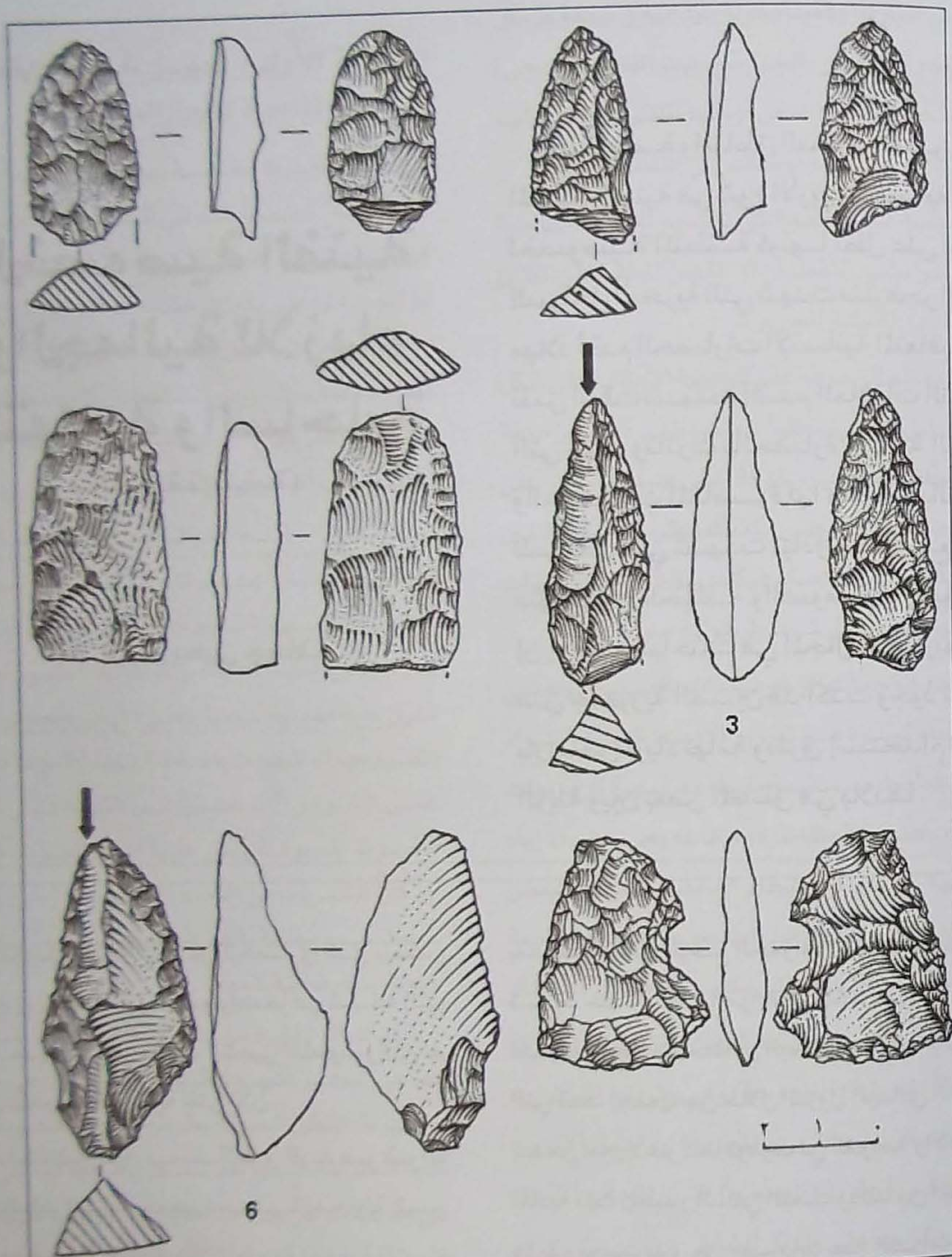


شكل 21: نماذج من النوى التي وجدت في العصر الحجري الحديث (Neolithic) في جنوبي الجزيرة العربية



شكل 22- أدوات من العصر الحجري القديم الأعلى في جنوبي الجزيرة، نقلاً عن (Amirkhanov 1991).

شكل 23- : أ- أدوات من العصر الحجري الحديث المتأخر (مجموعة ج)؛ ب - أدوات ن م العصر الحجري الحديث المبكر (مجموعة ب).



شكل24: أنواع مختلفة من الرؤوس الخاصة بالعصر الحجري الحديث المبكر، السابقة لظهور النمط الصحراوي في ثقافة الشظايا يأتي ترتيبها في المجموعة (ب) في سُلَّم الترتيب الزمني النسبي بالبلى (Patina)، وهي من موقع طرف العين 4 في الربع الخالي: السهمان في الراسين رقم 3 ، 6 يشيران إلى التهذيب المسطر، أو (الأخدودي) (Fluting Retouch)، وهو التهذيب الذي تخلو منه الأنواع

الخصوصية الفنية والجمالية للأزياء التهامية والساحلية

(دراسة توثيقية)

أمة الرزاق يحيى جحاف

تُعد تهامة والمناطق الساحلية من أغنى المناطق اليمنية في تنوع الأزياء التقليدية وذلك لخصوصية المنطقة كونها تطل على أشهر السواحل البحرية التي شهدت منذ فجر التاريخ ميلاد أقدم الحضارات الإنسانية المتعاقبة وفي نفس الوقت شهدت أقدم العلاقات التجارية ألتي أثرت وتأثرت بالحضارة اليمنية القديمة والحضارات المعاصرة لها وخاصة بالنسبة للسواحل التي شهدت تبادل تجاري مع اليمن مثل الهند والحبشة والصومال وجيبوتي بل إن إحدى الباحثات في المجال اللأنثربولوجي من جمهورية الصين قد أكدت وجود تشابه بين بعض أزياء تهامة وطرق إستخدام نباتات الزينة وبين بعض المناطق في بلادها.

وهذا يدل على أن التفاعل الحضاري الذي ينعكس تأثيره بين الحضارات يبدو واضحا في لمساته التي يتركها على مكونات الموروث الشعبي للشعوب والتي لم تتناول بالدراسة المنهجية حتى الآن..

ولذلك فإن أول ما سأتطرق إليه هو قراءة الملاحظات التي تم جمعها ميدانياً ومحاولة تلمس خصوصية هذه المناطق ذات الطبيعة المناخية المتميزة بشدة حرارتها وإرتفاع نسبة الرطوبة فيها وخصوبتها الزراعية العالية ومحاولة فهم مدى تأثر الأزياء فيها بمعطيات هذا الموقع الجغرافي متناوله ذلك بحذر شديد حيث أن هذه القراءة لا تستند على أي مرجعية سابقة ماعدا ملاحظاتي البحثية الأولية والمعلومات التي قمت بجمعها من خلال النزول الميداني الذي أقوم به من حين لأخر كلما توفرت لي الفرصة والإمكانيات المادية ذات المصدر الذاتي البحث وذلك من أجل توثيق ما يقع تحت يدي من مفردات هذا التراث الثقافي الغني والمتميز الذي تمتلكه بتميز.

ولهذا فقد إغتنمت فرصة الإجازة في مناسبة عيد

الأضحى المبارك وقمت بجولة ميدانية واسعة في كل من (زبيد، الدريهمي، الجراحي، بيت الفقيه، الضحي) وذلك لجمع المعلومات عن أزيائها التقليدية النسائية التوثيقيه ومن خلالها توصلت إلى النتائج التالية:

- الأقمشة المستخدمة في تصميم الأزياء التهامية تقتصر على الأقطان أو القطن المخلوط بالكتان وفيما ندر أقمشة الحرير..
- تتركز معظم الزخرفة على الواجهة الأمامية على شكل مستطيل طولي وتخلوا جوانب الزي من أي زخرفة أما الخلف فيكتفى بزخرفة أعلى منطقة الظهر على شكل مستطيل عرضي وكذلك أعلى منطقة الكتفين أما بالنسبة للأكمام فيكتفى بزخرفتها بوحدات زخرفية على شكل شرائط طولية مستقيمة.
- تُستخدم الوحدات الزخرفية ذات التصميم الهندسي بأحجام كبيرة في تطريز الأزياء التهامية سواء كانت خطوط مستقيمة طويلة ومتجاورة أو مربعات ومثلثات هندسية متناظرة ومتقابله وفي بعض الأزياء التهامية نلاحظ إستيحاء العاملة الحرفية لبعض الوحدات الزخرفية من الطبيعية النباتية وخاصة شجرة الدوم والنخيل التي يكثر وجودها في المنطقة.
- تتم الزخرفة والتوشية بتثبيت الخيوط المحبوكة مسبقاً بطريقة (الخدوجة) وهي طريقة إشتهرت بها مدينة زبيد والقرى المجاورة لها مثل (التربيه والجراحي) وقرية (الضحي) التي تقع في الإتجاه المعاكس لزبيد على طريق الشام

وتجدر الإشارة إلى أن تطريز الأزياء في تهامة يتطلب إنجاز مرحلتين من العمل.

المرحلة الأولى: تجهيز خيوط الخدوجة بالكمية المناسبة لإنجاز العمل:

وتقوم إمرأة مختصة بهذا الفن بإنتاج خيوط الخدوجة[1] حيث تعمد في البداية إلى تجهيز كمية كبيرة من خيوط القطن الأبيض غالباً والملون فيما ندر ثم تقوم بلفها على بكرات خشبية صغيرة يتراوح عددها ما بين تسعة فما فوق وتتوسط البكرات القطنية بكرة ملفوفٌ فوقها شريط سلكي من الفضة الخالصة ويسمى (صُرصُر)[2] وأما خيط سيم مطلي بالفضة وذلك حسب المستوى الاقتصادي لصاحبة الزي.

ثم تقوم العاملة الحرفية بتثبيت طرف خيط كل بكرة على مخدة[3] إسطوانية الشكل على مسافات متساوية ولسهولة تحريك المخدة - عند ما تم إنجازه من الخيوط المحبوك حولها - تقوم بوضعها فوق علبة معدنية تضعها على الأرض وتجلس أمامها وتقوم بحبك الخيوط بالمداخلة بينها لظفرها بطريقة عمل الخوص[4] لنحصل في النهاية على لفة من الخيوط المحبوكة يطلق عليها اسم خيوط خدوجة إذا كان الشريط من الفضة الخالصة أو (نَثْرُ) إذا كان خيوط سيم مطلية بالفضة الخالصة أو (تُلّ) إذا كان خيوط سيم فضية لامعة.

وهناك أنوع كثيرة من منتجات الخدوجة لا تستخدم كلها في التطريز أشهرها طريقة (الترجيدة) وهي شريط من خيوط القطن المحبوكة بطريقة زخارف هندسية تشبه خلية النحل يتم تثبيتها بعد ذلك فوق شريط قماشي يربط في وسط الرأس عند ما تتزين العروس بطريقة

(1) للأسف لم يعد هناك سوى القليل من النساء اللواتي يحترفن هذا العمل الذي هو في طريقه للانقراض
(2) اما كلمة صرصر فلم اجد لها اي تعريف في القاموس وهي كلمة [illegible] لا [illegible] بشريط سلكي من مادة القصدير
(3) وسادة
(4) العرف

الشـردخة[5] فتبدو الترجيدة في وسـط الشعر كطوق من الفضة يتوسط تشكيلة الفل.

المرحلة الثانية: مرحلة التطريز والزخرفة:

حيث تقوم إمرأة متخصصة أيضاً بتنفيذ الوحدات الزخرفيـة مـن خـلال تثبيـت خيـوط الخدوجة على القماش باسـتخدام إبرة خياطة يدوية وخيوط القطن العاديـة لتوشـية الـزي وزخرفـة المسـافة المطلوب زخرفتها.

وما لفت نظري هو وجود شريط صغير متعرج على شـكل زجـزاج 5 - يصعـب على العين غيـر الفاحصة إكتشـافه - وهو نوع من أنـوع الدانتيل اليـدوي - يتم إنتاجـه محليا بطريقة الخدوجة هذا الشـريط مهمته أن يضع للمختصـة التي تقوم بتثبيت خيوط الخدوجة على القميص المراد زخرفته (خريطة خط سير العمل) مهمتهـا توضيح طريقة تثبيت شـرائط الخدوجة على كامل مسـاحة القميص ورسـما لحدود بـين الوحدات الزخرفيـة هذا الشـريط يسـمى (أم عَرَجَـاء) إذا تم إنتاجـه محليـاً ويسـمى (أم أُوَيّه) إذا تم إسـتيراده من الخـارج وعندما كنت أسـأل عـن الفـرق بينهما كانت المختصـات وكلهـن كبار في السـن يرددن فـي إصرار (أم ؤيه) بحـري و(أم عرجاء) (نوطيهـا) أي يقمن هن بحياكتها.

وبعـد كثيـر مـن البحـث عـن سـبب تسـمية هذا الشريط (أوية) إتضح أنها كلمة تركية بمعنى الزخارف الحريرية أو الكتانية التي تنسجها النساء على حواشي الملابـس وأن هـذه الطريقـة خاصة بالطـراز القديم المشغول باليد[6].

- تخلوا الأزياء في تهامة من أي إضافة للودع[7] أو قشر الأصداف ربما لأن كثرت تواجدها متكدسة بإهمال علـى الشـواطئ البحرية قـد حجب عنهـا الجمال والسحر الذي تجده فيها المرأة التي تسكن الصحراء الداخلية أو المرتفعات الجبلية والتي تفضل دائما أن تزين بها أزيائها وكذلك بعض مسـتلزماتها النسائية التـي تخصهـا وترى في إسـتخدامها مـا يجلب لها التفاؤل ويحميها من الحسد.

- كمـا تخلو الأزياء التهامية مـن إضافة قطع القماش الصغيرة أو الأزرار الملونة التي تهتم بها المرأة الجبلية.

- أمـا المواد المسـتخدمة فـي تطريز الأزيـاء التهامية وتوشيتها فإنها محصورة بين:

1 - خيوط القطن الطبيعي وأشـهرها اللون الأبيض[8] التي تنتج منها خيوط الخدوجة

2 - شـرائط معدنيـة من الفضة الخالصـة تخلط مع الخيـوط القطنية أو تسـتخدم بمفردهـا في تطريز بعض أزياء المناسبات

3 - خيوط السيم المطلية بالفضة وتسمى (نثرُ)

4 - وخيوط السيم العادية وتسمى (تلُ)

5 - وأحيانـاً تسـتخدم نتـف صغيـرة من اليـاف خام الحرير الطبيعـي في تزيين جوانـب الزي خاصة إذا كان زي عروس.

ويتكـون الزي الأساسـي في تهامة مـن ثلاث قطع يكمل بعضها بعضاً وتختلف المواد المصنوع منها وكذلك كميـة الزخرفـة ونوع المواد المسـتخدمة فـي تنفيذها بإختلاف مناسبة استخدامه والمستوى المادي لصاحبته وهي على النحو التالي:

(5) تغطية كامل راس العروس بالفل والمشاقر

(6) (ص 26) معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي تاليف محمد احمد دهمان دار الفكر المعاصر بيروت لبنان دار الفكر دمشق سوريا ط

(7) الأصداف البحرية

(8) هناك خيوط قطنية ملونة من ال خدوجة خضراء وحمراء وزرقاء ولكن إستخدامها قليل

السديرية(9):



لباس خاص بالجزء العلوي من الجسد وهي عبارة عن صديري قصير ضيق مفتوح من الأمام تزين جانبية ياقة بيضاوية عريضة ويغلق بثلاثة أزرار[10] إلى أربعة ويختلف نوع الأزرار من مستوى إجتماعي إلى أخر فقد تكون أزرار يدوية تصنع على شكل قياطين ملتفه بشكل كروي وتصنع لها عراوي بنفس الطريقة تثبت على الجانب الأخر وقد تكون أزرار عادية وقد تكون أزرار ثمينة من الفضة الخالصة أو من الذهب الخالص[11] وطول السديرية عادة يصل إلى ما فوق (السُرة) مما يسمح بظهور أجزاء من أعلى الصدر ومنتصفه وأكمامها قصيرة قد تكون عادية وقد تكون مزينة بكسرات مزمومة وللأكمام ياقة مقفلة تحيط بأعلى الساعد أما ياقة السديرية العريضة فتزينها بعض الزخارف والتوشيات بشكل أنيق وملفت.

أما بالنسبة للجهة الخلفية فتزينها بعض التطريزات الخفيفه وعادة ما يكون للسديرية جيب صغير على الجانب الأيسر الأمامي لا يتسع سوى لعملات نقدية صغيرة.

الفُوطة:



وهي عبارة عن جونلة نسائية تزين محيط خصرها كسرات متتابعة يجمع بينها حزام على شكل كمر تترك نهايته مفتوحة متوازية مع نهاية الجونلة وتنتهي نهايتي الكمر برباطين يثبتان الفوطة حول الخصر.

أيضا تختلف نوعية القماش وحجم الزخارف المضافة إلية ونوعية المواد المستخدمة في زخرفتها بختلاف المستوى الإقتصادي

أما في المناطق الريفية من تهامه وقراها فتستبدل الفوطة بإزار قطني (لحفه[12]) تلف حول الخصر وتبدو ظاهرة من تحت القميص وقد تستبدل أحيانا بالفوطة

---

(9) لم أجد لهذه الكلمة أي معنى في القواميس العربية وعرفت في بعض مناطق المرتفعات بالصديري وهو فيها من الملابس الداخلية

(10) تسمة الأزرار في تهامه بالجماجم فيقال سديرية مجمجمه ولعلها في التسمية تستند إلى تشابهها مع شكل الجمجمه

(11) مثل السديرية التي شاهدتها لدى أسرة عريقة في الجراحي - أزرارها من الذهب الخالص -

(12) مصنف ينسج على مناسج أرضية إشتهرت بإنتاجه مدينة زبيد وبيت الفقيه وقرية منظر

القطنية المستوردة من أندونيسيا وما جاورها.

وعند ارتداء المرأة للفوطة والسيديرية تبقى منطقة الخصر ظاهرة للعيان.

- لمحة تأصيلية..

وعند محاولتي البحث عن تأصيل هذا الزي فوجئت بمن ينسبه إلى الهند وقد يبدوا هذا صحيحاً إلى حد ما حيث يبدوا التشابه كبير بين هذا الزي والزي الهندي التقليدي المشهور مع تعديل يمني أدخلته الحرفية اليمنية عليه والذي تمثل في إضافة جزء ثالث إليه وهو القميص الذي يرتدى من فوق السديرية والفوطة عوضاً عن (الساري[13]) ولكن لا نستطيع أن نأخذ هذا كدليل قاطع حيث لا يوجد أي مستند علمي يؤكده خاصة وأننا لم نجد ضمن أزياء منطقة عدن - التي شهدت تواصل تجاري كبير مع الهند - أي وجود لهذا الزي الذي ترتديه المرأة التهامية بإستمرار خاصة أثناء الخروج حيث أن منطقة تهامة شهدت تواجد عملي واسع للمرأة وخاصة في مجال الزراعة بكل تخصصاتها المختلفة وكذلك عملها في مجال التجارة وأي زائر لأسواق تهامة وخاصة الأسواق الأسبوعية سيشاهد المرأة التهامية العاملة مرتدية للفوطة والسيدرية ومن فوقها القميص وقد شمرت أكمامه العريضة ورفعتها إلى فوق كتفيها..

كما أن أحد اللقى الأثرية التي تم الحصول عليها في منطقة بيحان وهو عبارة عن تمثال لمرأة ترتدي زياً مماثلاً لساري الهندي يدعونا إلى التساؤل عن مصدر هذا الزي..

القميص:

تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من أن لكل منطقة في اليمن قميصها الذي ينسجم مع خصوصيتها البيئية والثقافية إلا أنها جميعاً تتفق في سماتها العامة المتمثلة في أنها جميعاً يطلق عليها إسم قميص سواء كانت قمصان خروج أو قمصان مناسبات وأن تصاميمها تتميز بأنها عريضة ومريحة وأكمامها طويلة قد تربط أطرافها خلف الظهر في قمصان المرتفعات أو ترفع وتلقى أعلى الكتف في قمصان السهول والسواحل وعادة ما يكون الجزء الأمامي في كل أنواع القمصان عبارة عن قطعة واحدة من الأمام والخلف تتوسطها فتحة الرقبة.



أما من حيث الخصائص الفنية فإنها هي ما يميز قميص كل منطقة عن قميص المناطق الأخرى والمقارنه بينها موضوع يطول شرحه وسأكتفي في هذه الدراسة بتناول الخصائص الفنية للقميص التهامي..

حيث يتميز قميص تهامة ببساطة تصميمه وخلوه من التعقيدات كونه مجرد قطعة مستطيلة واحدة تُصمم من قماش خفيف لأيام الصيف وثقيل نوعاً ما لأيام الشتاء وكلا النوعين كانا يُنسجان من القطن الطبيعي الذي امتازت منطقة تهامة بزراعته بكميات إنتاجية إضافة إلى حلجه وغزله وصباغته وحياكته

---

(13) لباس هندي مشهور

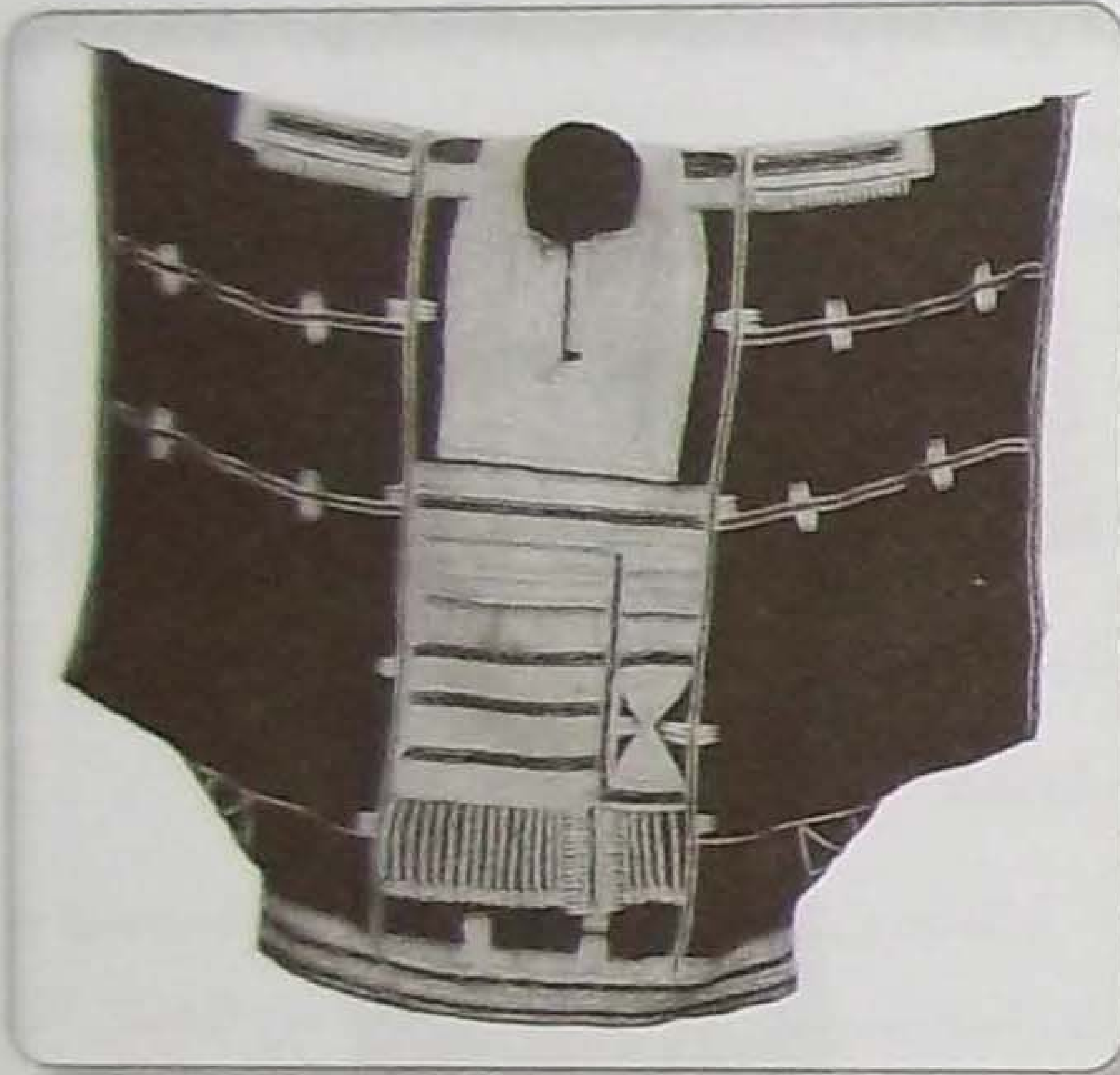
في أنــوال خاصــة[14] أومن قمــاش قطني أسـود كان يسـمى من قبل (دُكْمّه) قبل أن يستبدل بالكتان الأسود المخلوط والذي يتم إستيراده من الخارج.

وكان القميـص التهامـي يتميـز بأكمامه الواسـعة التي يصل إتسـاعها بحجم طول القميص لأنها لم تكن تضاف إليه كمـا هي العادة ولكنها عبـارة عن فتحتين عريضتين على جانبي القميص نتجت عن خياطة وضم القطعة العلوية إلى القطعة السـفلية في الجانبين على شكل خط خياط مستقيم من قبل نهايتة (بطول حوالي ثلاثون سـنتيمترا) ويترك بقية الجـزء العلوي مفتوحاً ليكونا أكمام القميص.



وتمتلك المؤسسـة[15] نموذج لهذه القمصان تم تطريزه يدويـاً وفقاً للطرق المتبعة فـي هذه المنطقة وذلك بتركيب خيـوط الخدوجة علـى قطعة مسـتطيلة تسـمى (حَلَق) وتمثـل الواجهـة الأماميـة للقميـص وجزء مـن الواجهة الخلفيـة بطريقة متناسـقة حيث قامـت الحرفية بتثبيت خيـوط الخدوجة على شـكل شـرائط متتالية فوق قطعة مستطيلة من القماش تمثل الصدر وجزء من أعلى الظهر والكتفين تتوسـطهما فتحة الرقبة وذلك باسـتخدام إبرة الخياطـة العاديـة ثـم يتم لاحقـاً تركيب هــذه القطعة - الحلق - على قماش القميص ثم يتم إضافة بقية الزخرفة بتثبيت شرائط من الخدوجة على القميص مباشرة.

وتتميز هذه الطريقـة بالإتقان والجودة حيث يكون بالإمكان فك الخدوجة (الحلق) ونقلها إلى قميص أخر جديـد إذا ما أصـاب البلى القميص السـابق أو كانت هنـاك رغبة فـي تغيير نـوع القماش ومع ذلـك تبدوا الخدوجة المنقولة كما لو كانت جديدة.



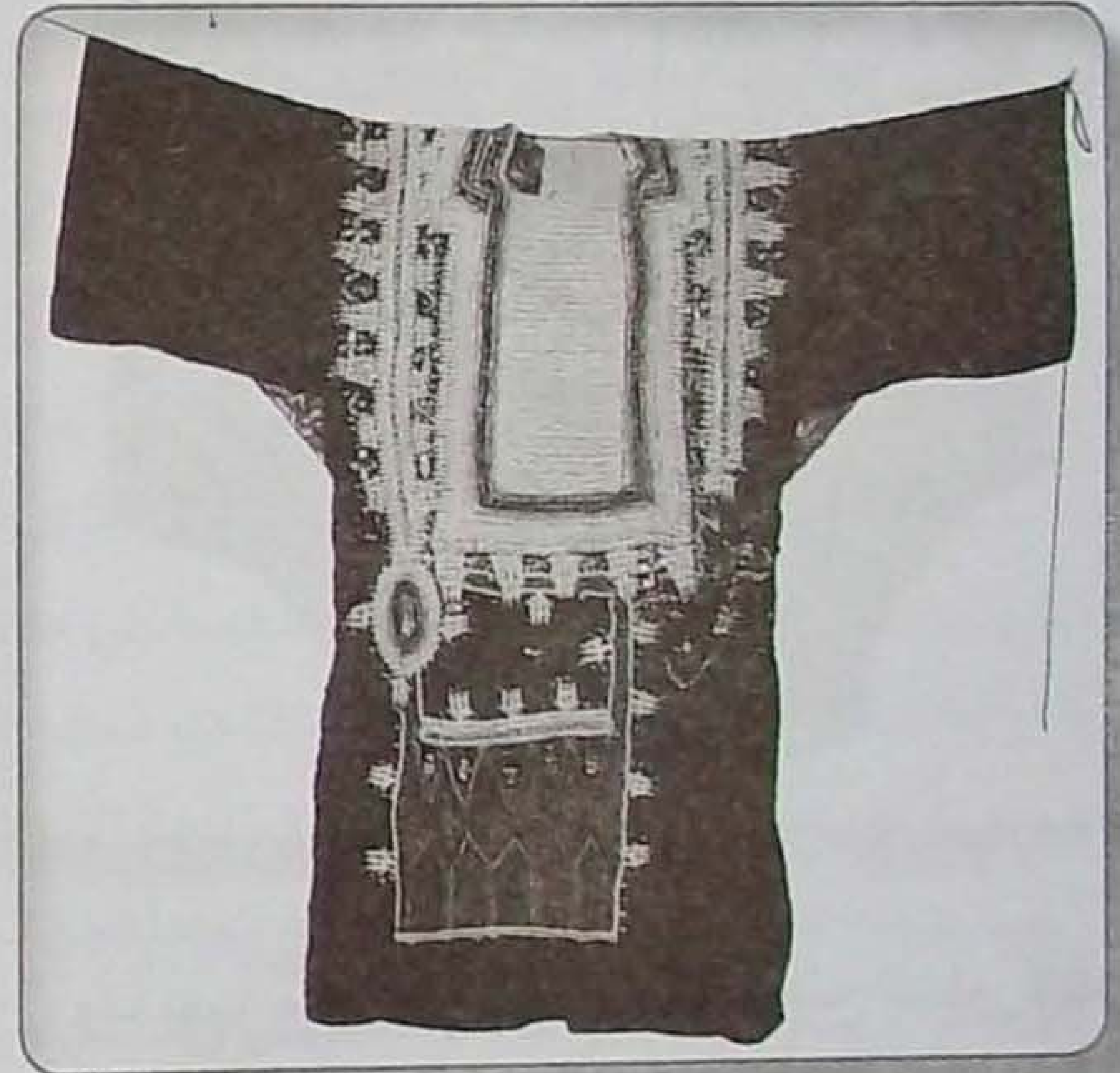
وما يميز هذا الزي تحديداً أنه يوضح التطور الذي حدث في الخدوجـة بظهور الخدوجة الملونة في تزيين القميـص إلا أن اللـون الأبيض الفضي ظـل هو اللون الأساسي السائد في الخدوجة.

ولهيئـة وضـع (الخدوجـة) علـى الصـدر دلالتها الاجتماعيـة فإذا كانـت مقفلة تماما كان هـذا إشـارة إلى أن صاحبته عذراء وإن كان مفتوحاً قليلاً من أعلى الجانـب الأيمن كان هذا دليل على أنها متزوجه أما إذا كان مفتوحاً من أعلى الجانبين كان هذا إشارة إلى أنها مرضعة.

(14) وفـي العقـود الأخيـرة تم إستبداله بقمـاش من الشـبك الخفيف المتل وهـو القميص المستخدم في القرى الكبيرة القريبة من وادي مور

(15) مؤسسة بيتنا للتراث والتنمية مؤسسة ثقافية تُعنى بتوثيق الأزياء التقليدية

ويعتبـر القميص بصورة عامة مـن أزياء الخروج لكنه فـي تهامة يستخدم كزي خاص بالمناسبات مـع تعديل بسيط في تصميمه وزيادة في كمية المساحة المطرزة فيه واستخدام شرائط رفيعة من الفضة الخالصة في زخرفته وأقـدم نمـوذج لهذا النوع مـن الأزياء الزي الـذي تمتلكه مؤسسـة بيتنا لتراث والتنمية وهـو القميص الذي يطلق عليه إسـم (أم تِبِيتْ) والتطريز والتوشـية فيه تتم بتثبيت قياطين الخدوجة على القماش مباشرة بعد أن يتم تبطينه لتقويـة بحيث يصعب فكه وتركيبـه على قماش أخر كما هوالحـال في القمصان العادية ويسـمى نوع التطريز فيه بخيوط الخدوجة قميص (مُشَهّدّ[16]).



وهناك نوع أخرمن القمصان خاص بعمل المرأة في الزراعة وهذا تستبدل فيه الخدوجة بشرائط قماشية مختلفة الألوان تمتد على القماش بشـكل أفقي شريط بعد شـريط مع إضافة زخارف عشوائية بخيوط لامعة من التل بمكينة عادية.

أما بالنسـبة للأزياء الأخرى التي تستخدمها المرأة في تهامه فقد تناولت هذه الدراسة نماذج منها أهمها:

(16) يطلـق على زهور الفل التي يتم شـكها على هيئة حبال طويلة شَـهاد منه جائت التسمية لوجه التشابه بينهما

الكُرْتهْ:

زي نسـائي يسـمى (كُرْتــه) وهو بسـيط التصميم مفتوح من الأمام ويضل هكذا عند اللبس ليتناسـب مـع حاجة المـرأة لركـوب الحيوانات في تلـك المنطقة وكانـت المـرأة ترتدي تحته سـديرية مع لحفـة قطنية تثبتها حـول خصرها[18] أما أكمـام الكرته فهي طويلة وضيقة وملتصقة بالساعد حتى الرسغ.[17]



وتمتلـك مؤسسـة بيتنـا لتـراث والتنميـة نمـوذج لهذا الـزي مطـرز بخيـوط الخدوجة ولكـن بطريقة الجراحـي[19] علـى الأمام والخلف وأهـم ما يميز هذا الـزي تزيـين ياقتـه بخيـوط الخدوجـة التي تسـمى (تَرْجِيْدَه[20]) كما يتميز باستخدام الخدوجة الملونة في تزيين جانب كتفيه.

ثوب قرش:

زي نسـائي بسـيط التصميم أكمامـه عادية يصل طولها إلى الرسغ ويصل طول الزي إلى منتصف الساق

(17) يشبه البالطو

(18) تم استبدالها حالياً باالفوطه الأندونوسيه

(19) إحدى مديريات زبيد ة

(20) شـريط معدنـي من الفضـة المطلية بالذهـب يطرز على الياقة بشـكل مثلثات متقابله ومتداخلة

ويعتبر هذا الزي من أزياء المناسبات بدليل الطريقة التي نفذت بها زخرفته وتوشيته الدالة على هوية المكان الذي ينتمي إليه وهو (بيت الفقيه[21]) التي لها خدوجة خاصة بها تختلف عن الطريقة التي تتبعها زبيد والمناطق المجاورة لها حيث تتميز خدوجة بيت الفقيه باستخدام نوع رفيع من التل اللامع الذي يحبك مع بقية خيوط القطن لصنع الخدوجة بطريقة تتميز بالدقة والأناقة وتمتلك المؤسسة واحد من أقدم نماذج هذا النوع من التصميم مصنوع قماشه من القطن الطبيعي المنسوج يدوياً في المناسج المحلية. والمصبوغ محلياً بمادة النيلة وقد تمت خياطة الزي يدوياً بواسطة إبرة الخياطة العادية.



وقد قامت الحرفية بتطريز الزي وتوشيته وتزيينه بطريقة فنية بديعة بواسطة تثبيت قياطين الخدوجة يدوياً على هيئة صفوف شبه دائرية صف خلف صف على كامل مساحة الصدر مع إحاطتها بشريط من الفضة المنسوجة بخيوط قطنية اللون فأبرزت جمال خيوط الخدوجة المنسوجة مع التل اللامع ثم توسط منتصف الدائرة من اسفلها تطريز شريط قَسَم الزخرفة في الزي إلى مستطيلين طوليين طرزت بداخلهما صفوف أفقية متتالية من الخدوجة روعي فيها التناسب بين المساحة المطرزة إلى المساحة الخالية من الزي مما منح الزي طابع الاناقة والجمال وجعل المتأمل يكتشف نوع من التشابه بينه وبين الأزياء الفرعونية.

ولهذا الزي ياقة ارتفاعها حوالي 5سم تمت زخرفتها بشريط من الفضة المطلية بالذهب وحتى الآن لا أعرفُ الطريقة التي تم بها تنفيذ هذه الزخرفة بهذا الشريط نفسه دون أي استخدام للإبرة والخيط.

وتوجد أسفل الزي ونهاية أكمامه حاشية من التل الخفيف المنسوج لم أتمكن من العثور على أي معلومات عن نوع المادة المصنوع منها.

أما خلفية الزي وأكمامه فقد تم تطريزها بأناقة كبيرة وبانسجام فني مع واجهته.

خاتمة

والمتأمل لكل أزياء تهامة التي إستعرضتها هذه الدراسة سيجد أنها تقدم لنا لوحة من الجمال الفني الذي يدل على مدى ما يتمتع به الإنسان في اليمن من تذوق فطري للجمال وإحساس عفوي بالألون وتناسقها رغم بساطة الأدوات التي يستخدمها كما يدل على الصحة النفسية التي كان يتمتع بها والتي تدل على مدى إنسجامه الروحي والعاطفي مع معطيات بيئته الطبيعية ومحيطة الاجتماعي.

مع التنويه إلى أن ما تعرضت له هذه الدراسة من أزياء تهامية يعد مجرد قطرة من فيض أزياء تهامة التي لم تحضى أزيائها حتى الآن بمسح توثيقي شامل شأنها شأن كل أزياء المناطق اليمنية مما يُعرض تراثها الفني والمتنوع للضياع والسطوا من قراصنة التراث.

(21) إحدى مديريات زبيد

ذِكْرُ المَرَاحِل والمَسَافَات بالرَّصْد والسَّاعَات*

أو (قِيَاس المسافات من وإلى بعض بلدان اليمن في عهد دولة بني رسول)

جمع السُّلطان الملك الأَفْضَل

العَبَّاس بن عَلِي بن دَاوُد بن يُوسُف بن عُمَر الرَّسُولي

تحقيق وتعليق

محمّد عبد الرّحيم جازم

المعهد الفرنسي

للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء

تقديم

يُعد كتابنا هذا فريد في بابه على الأقل فيما يخص رصد المسافات مابين الأماكن داخل بلاد اليمن، وإن لم يشمل كافة البلاد اليمنية إلاّ أنّ معظمها مشمول فيه ابتداءً بعدن جنوباً ومنها يمتد حَبْل رصد المسافات شرقاً وصولاً إلى دَلْتَا أَبْيَن وَوَادِي يَرَامِس وبعض أَحْوَر، أمّا غرباً فيشمل الرَّصد إلى جانب مواضع بمدينة عَدَن طريق السّاحل الواقع إلى الشمال منها وامتداده غرباً وصولاً إلى بَاب المَنْدَب على مدخل البحر الأحمر، ومنه يتجه الرَّصد ليشمل القرى والمدن الواقعة على الطُّرق السَّاحلية المجاورة للبحر الأحمر وصولاً إلى شمال عَسِيْر، والقرى والمدن الواقعة على الطرق الدَّاخلية التي تخترق السَّهل التِّهَامِي من جنوبه إلى شماله وصولاً إلى مَكَّة.

وشمل رصد المسافات الجغرافية أيضاً طريق عَدَن إلى بِلَاد لَحْج، والطريق الشَّرقية الموصلة بين لَحْج وتَعِز والجَنَد عبر طريق سَائِلَة عَقَّان فَوَادِي وَرْزَان فَمَدِيْنَة الجُوَّة ومنها إلى تَعِز، كما تم تناول المسافات على الطريق الغربية الموصلة مابين عَدَن وتَعِز عبر خَبْت الرُّجَاع فالمَفَالِيْس فنَقِيْل الحَمْرَاء فَالجُوَّة وصولاً إلى تَعِز.

ومن تَعِز عاصمة دولة بني رسول حُدِّدَت المسافات باتجاهات مختلفة شاملة جبل صَبِر وجَبَا وذَخِر ومَوْزَع ومناطق التَّعِزِيَة المختلفة وخَدِيْر والجَنَد وسَوْرَق والحُشَا وصولاً إلى إب، وبعض الحصون والقرى فيها، وقد ذكر كبير الفلكيين الذي كان يعمل لدى السلطان الملك المؤيد المسافات ما بين صَنْعَاء وَزَبِيْد، وصَنْعَاء وعَدَن، وصَنْعَاء والجَنَد، ولم يتعد الرَّصد ذلك إلى مايقع من قرى ومدن على الطرق داخل ماكان يعرف في تلك العصور باسم(إقطاع صنعاء) والذي كان يمتد من ذَمَار جنوباً إلى صَعْدَة والجَوْف شمالاً ومن رَيْمَة وعُتْمَة غرباً إلى بَيْحَان ومَأرِب شرقاً، كما لم يتم ذكر المسافات لبلاد رَدَاع ولبَيْضَا ودَثِيْنَة (شبوة) وبلاد حضرموت والمهرة.

* ملاحظة: اضطرت المجلة إلى حذف الهوامش (المصادر والمراجع) الخاصة بالدراسة نظراً لطولها

وللإجابة على سبب حدوث هذا النقص في عملية الرصد نرى أنّ سببه الأوّل والأخير يرجع إلى أن كون من قاموا بعملية رصد المسافات هذه هم بعض سلاطين دولة بني رسول(المُؤيد داود بن يوسف بن عمر الرسولي حكم من696-721هجرية، والمُجَاهِد علي بن داود حكم من 721-764هجرية، والأَفْضَل العباس بن علي حكم من764-778 هجرية) واثنان من الموظفين لدى بعض هؤلاء الملوك. ومن هنا شملت عملية رصد المسافات محطّات توقف القوافل على خطوط التجارة الداخلية الرئيسية، والمدن والمناطق التي كانوا يكثرون من التنقل فيها، وهي كما يلاحظ كلها مناطق خصبة زراعياً وتتركز فيها المدن التجارية، والبعض منها كانت بمثابة متنزهات صيفية وشتوية يحلون فيها بين الحين والآخر للراحة والاستجمام، ويمكننا أن نرى ذلك بوضوح من الذكر المكثف للعدد الكبير من قصور ودور الدولة في العديد من المدن، وخاصة فيما أورده السلطان الأفضل في نهاية الكُتيب والذي يوحي بأن السلطان أثناء رحلته من تعز إلى زبيد كان يحل يومياً في كل قرية ينزلها بقصر من قصور الدولة. ويبدو لنا أنّ هؤلاء الملوك وسط مشاغلهم العديدة كساسة وحكام لم يكونوا معنيين بدرجة رئيسية بتأليف كتاب في الجغرافيا يكون من شروط تأليفه شاملاً لكل المسافات مابين البلدان اليمانية وتحديد مواقعها الفلكية. إن كل ما قاموا به هنا هو ثمرة جهود ذاتية بدأها السلطان الملك المؤيد داود بن يوسف برصد المسافات بالساعات بين بعض الأماكن، ثم أتى بعده ولده السلطان الملك المجاهد علي والذي كان مولعاً بالعناية بالعلم وكتب العديد من المصنفات العلمية في فنون شتى بما فيها المسافات التي أشار جامع الكتاب بأنه نقلها من كتاب لوالده، وتدل بقية الإشارات والملاحظات الأخرى أن الملك الأفضل قد قام بجمعها من مصادر شتى أشار إليها مؤرخة في المواضع التي أثبتها فيها. وألحق في نهاية الكتاب ما رصده من مطالع عند تنقله بين تعز وزبيد.

ويعد رصد المسافات هذا ذو فائدة عظيمة فهو لا يسجل لنا فقط المسافة بين مكان وآخر بذراع يد الإنسان وبالساعات المعتادة والمستوية والمطالع فحسب، بل ونتعرف من خلاله على جهد طيب بذله من سعوا إلى تحقيق ذلك. فقد ذكروا مثلاً أسماء مدن كانت حية في زمنهم اندثرت منذ أزمنة بعيدة عن وقتنا الحاضر. وذكروا أسماء بواباتها وهي معلومات في غاية الأهمية لعلماء الآثار. كما قاسوا أبعاد بعض الأماكن مثل أبعاد مدينة زبيد والمسافة فيما بين أبوابها الرئيسية من باب إلى آخر من جهة خارج السور مما يعطينا فكرة دقيقة عن سعتها وحجمها. والمسافة ما بين قصر السلطان في المدينة والباب الشرقي لمدينة زبيد. وكذلك بوابات مدينة ثعبات والجوة وقلعة الدُملوة والمسافة ما بين باب عدن وحصن الخضراء إلى جانب ذكرهم دور وقصور كانت تابعة لدولتهم في أكثر من قرية ومدينة.

ولعل الفضل الأكبر لايعود فقط إلى جامع الكتاب فحسب بل وإلى والده السلطان الملك المُجاهد علي بن داود الرسولي الذي كان ملكاً عالي الهمة شديد الذكاء مولعاً برصد المسافات. ومهتماً بأعمال العمران وكثير التنقل بين الأماكن داخل اليمن وهو من قام بتسجيل معظم المسافات المذكورة في كتابه هذا وإن كُنّا لم نعرف بعد اسم كتاب الملك المجاهد الذي نقل منه الملك الأفضل هذه المعلومات. وفي كتاب [illegible] للسلطان المجاهد نجده يذكر أن أحد أحصنته وثب مسافة طويلة أثناء سفره فأمر بقيسها بذراع فكانت من المسافات القياسية التي تبلغها وثبات الأحصنة. وقد ذكر الخزرجي في كتاب العسجد المسبوك أن مدينة زبيد مسحت في عهد الملك المنصور عمر

بـن علي فبلغت مسـاحتها680 مَعَـاداً. والمعاد الواحد تبلـغ مسـاحته عشـرة آلاف ذراع يد ويمكـن مقارنته مع المسـاحة التي ذكـرت في الكتاب لمدينـة زبيد، بما يعطينـا أن مسـاحة مدينة زبيد بلغت فـي عصـر دولة بني رسول وفقاً للعملية الحسابية التي أجراها الزميل عبده علي عبد الله هارون بمسـاعدة المهندس محمود عبـد الرحمن العابدي (6'819'435 ذراعاً مربعاً) عنه بالمتـر (2' 327'574 متـراً) على ضوء أن المتر الواحد يسـاوي ذراعين ونصف الـذراع. أما بنـاءً على قياس المسافة من باب إلى آخر فيعطينا أن محيط المدينة بلغ (10150 ذراعاً طولياً)، ولكن قراءتنا للرقم المدون بقلم الحُسَّاب الرسوليين يقول بأن مساحة زبيد(693000 ذراع ونصف ذراع) وهو ما يتعارض وما ذكرناه سـابقاً، وسيكون الرقم أكثر صحة إذا قرأناه على النحو الآتي(ستمائة ألف ألف وثلاثا وتسعون ألفاً ونصف ذراع) أي ستة ملايين وثلاثاً وتسـعون ألف ذراع ونصف الذراع، ويحتاج الأمر إلى إعادة نظر لفهم أكثر دقة وصواباً.

و لا يقلِّـل عدم عثورنا على الأصـول التي تم النقل منها من شـأن المعلومات الواردة هنا والتي قمنا بنقلها مـن كتـاب الملـك الأفضل الذي نشـر مصـورة كل من البرفسـورين دانيال فارسكو، وركس سمث من الأصل المحفوظ لدى شـخص في جهة من بـلاد كَوْكَبَان، وهو الأصـل أو الأُم التي كانت في ملك صاحبها السـلطان الملك الأفضـل العباس بن علي الرسـولي، والتي نقوم بإرفـاق صورة منهـا في ملحق عملنا هـذا من أجل أن يتتبـع المختصون صحـة قراءتنا للأرقام التي رسـمت بقلم الحسـاب الرسـولي والذي كان معتمداً في كتابة الحسابات في دواوين الحواصل السلطانية لدولة بني رسـول لدقته وعدم إمكانية حصـول خطأ أو لبس في قراءته.

أما كيفيـة تمكن الرسـوليين من قياس المسـافات بـ(الـذِّراع) مـن منطقـة إلى أُخـرى وتغطيـة كل هذه المسـاحة الكبيـرة مـن الأرض اليمنيـة فقـد تم ذلك بواسـطة أُناس مختصين بأعمال المسـاحة وكانوا كُثر فـي عصرهـم ويتبعـون جهـازاً مهمته مسـح الأرض الزراعيـة خاصة في بـلاد تهامة ولحـج وأبين لمعرفة مقدار مسـاحة الأرض المزروعة سنوياً ومن ثم تحديد مقـدار مـا يؤخـذ عليها مـن جبايـة لخزانـة الدولة، وتواجد هؤلاء المسـاحون في كل مـكان من بلاد اليمن للقيـام بمسـاحة الأرض عند بيعها أو شـرائها أو عند تقسيم التركات بين ورثة المتوفين أو عند القيام بأعمال البنـاء وغيرها. ولعل في المقدمـة القصيرة التي تناول فيها الملك المجاهد مقاييس المسافات ومقارنتها ببعض مافيه كفاية دالـة على الكيفية التي كانوا يتوصلون بها إلى معرفة المسافات بين الأماكن بدقة متناهية.

فلكي نعرف مقدار المسافة مثلاً من زبيد إلى حيس أو مـن تعز إلى أي مكان فما علينـا إلاَّ أن نركب جملاً ونحسـب عـدد خطواته مـن وإلى المكان المـراد قياس مسـافته ثم نضربها في اثنين فيعطينا مقدار المسـافة المطلوبـة قياسـها. ولكـي يكون الأمـر أكثـر وضوحاً فقـد أوضـح السـلطان المجاهـد أن مسـافة خطـوة الجمل(البَعِيْر) الواحدة تساوي ذراعين، وأخذ الفقهاء المسـلمون بـذراع اليـد المتوسـطة وحسـبوا مقدارها بدقة- وفي الحالة هذه يقوم من يريد معرفة المسـافة بـذراع اليد بين مـكان وآخر بركوب ظهـر الجمل ومع كل حركـة إلى الأمام أو الخلف للراكب تحسـب خطوة جمـل وهكـذا يعدها بذاكرته أو يضع خطـاً على ورقة يدل عليها، وعند توقفه يقوم بجمعها وضربها في اثنين وهما الذراعان فيحصل على المسـافة المراد قياسـها. وبهذه الوسـيلة كان من السـهل علـى الناس في عصر دولة بني رسول سواءً كانوا مختصين بالمساحة أو ملوكاً من معرفة المسـافات بين موضـع وآخر، ويعد ما دونوه

من معلومات هنا عن المسافات بين الأماكن في اليمن و(بذراع اليد) حسب علمي عملاً غير مسبوق وفكرة تدل على رأي ثاقب وتبصر في سلوك دروب معرفية جديدة قاموا بطرقها دون غيرهم من المؤلفين الذين سبقوهم وتناولوا تحديد المسافات بالساعات واليوم و البَرِيْد والمِيْل والفَرْسَخ و(الغَلْوَة) -مقدار مسافة رمية السَّهم- والقَصَبَة، وبالمطالع والدرجات الفلكية، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر كل من الحسن بن أحمد الهمداني في كتاب(صفة جزيرة العرب، والإكليل والجوهرتين). و(ابن المجاور).. بن محمد بن مسعود النيسابوري. في كتاب صفة بلاد اليمن المسمى(تاريخ المستبصر.). وغيرهما من المؤلفين العرب والمسلمين والذين أجمعوا على استخدام المسافات المذكورة آنفاً بينما انفرد الرسوليون عنهم بتحديد المسافات بالذراع إلى جانب بعض ما أخذ به هؤلاء من مسافات أخرى.

لقد عرج جامع الكتاب أثناء تناوله للمسافات في بلاد اليمن وبصورة مفاجئة إلى مسألة قياس محيط الكرة الأرضية بالفرسخ وبالذراع، كما تناول خطوط الطول والعرض وقطبي الأرض الشمالي والجنوبي مما يدل على أن ما ندرسه في علم الجغرافيا اليوم عن الكرة الأرضية كان الناس في اليمن في القرون الوسطى وقبل اكتشاف أمريكا بزمن طويل يعرفونه كما نعرفه اليوم وندرسه في المدارس والجامعات وهذا أمر لافت للنظر ويستدعي أن يقف أمامه الباحثون مطولاً. ويستحسن أن يعودوا إلى الرسوم الموجودة في المخطوطة التي نقلنا منها هذا النص ليعرفوا مدى التقدم الذي بلغه الجغرافيون العرب والمسلمون في هذا المضمار وسبقهم لغيرهم في هذه المجالات التي نسب ما أنجزوه فيها إلى غيرهم، مع أن الجغرافيون العرب لم يغمطوا من سبقهم من الأمم الأُخرى حقهم في هذا الميدان.

لقد كابدت مع هذا النص الكثير من المشاق والمتاعب. كان أولها نقله من صورة الأصل الذي كان قد صغر بالتصوير فكانت حروف كلماته صغيرة وبحاجة إلى تكبير بالمجهر. فكان استخدام المجهر والنظارة معاً لقراءة النص. كما أن الأرقام الحسابية كانت مكتوبة برموز الأرقام الحسابية الخاصة بكتاب دولة بني رسول مما اقتضى قراءتها أولاً ونقلها كما هي ثم إعادة فكها وكتابتها وتكرار التأكد من صحة فكها أكثر من مرة باستخدام المجهر. كما أن التعليق على النص وتتبع الأماكن التي ذكرت في النص اقتضى التتبع الميداني وذلك بتتبع مسالك الطرق القديمة التي كانت تسلكها قوافل الجمال والتي غدا البعض منها غير مطروق وبعيداً عن خطوط المواصلات الحديثة. كما أن الجيل السابق الذي كان كثير الأسفار على وسائط المواصلات القديمة والسفر على قدميه على خطوط السفر القديمة قد كاد أن ينقرض. وللأسف الشديد فالجيل الحالي لا يعرف الكثير عن القرى والبلدان القريبة من مواضع إقامته. كما أنه لا يرى في معرفتها فائدة كبيرة. ونظراً لما تعانيه المعاجم التي تتناول البلدان اليمانية من نقص شديد في مادتها ليفيد منها الناس فإننا نتطلع إلى وجود جهة تتبنى مشروعاً متكاملاً يكون جل همّ القائمين عليه إصدار سلسلة من الأعمال التي تتناول كل ما له علاقة بجغرافية اليمن من قرى ومدن ووديان وجبال وقلاع وحصون ونبات وحيوان وطيور ومناخ وعادات وطرق مواصلات قديمة وحديثة وخرائط وكتب الخ.

في الأخير أشكر الزملاء في المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية على تشجيعي على إكمال هذا العمل وأشكرهم مرة أخرى على نشره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تَعَالِيق عَلَّقَهَا مَوْلاَنَا السُّلْطَان المَلِك الأَفْضَل خَلَّد الله مُلْكه، مِن كِتَاب وَالِدَه مَوْلاَنَا السُّلْطَان المَلِك المُجَاهِد رَحِمَهُ الله وَقَدَّس رُوحَه في الجَنَّة، في ذِكْر المَرَاحِل والمَسَافات الَّذِي مَسَحَهَا وَقَدَّرَهَا بِالرَّصْد والسَّاعَات

قال رحمة الله عليه : المِيل ثلاثة ألف خُطْوَة بَعِيْر، والخُطْوَة ذِرَاعَان، والذِّرَاع قَدَمَان، وهو عشرون أَصْبُعاً، الأَصْبُع سبع شُعَيْرَات مضمومات ظهراً لبطن.

والفَرْسَخ ثلاثة أَمْيَال عنه ثمانية عشر ألف ذِرَاع، والبَرِيْد أربعة فَرَاسِخ عَنْهُ اثنان وسبعون ألف ذراع. والقَصَبَة خمسون ذراعاً، وبالله التَّوفيق.

من باب المَغْرِبَة بثَعْبَات إلى مَيْدَان عُدَيْنَة خمسة آلاف وسبعمائة ذراع. من تَعِز إلى الرَّوْض خمسة وعشرون ألف ذراع، ومن الروض إلى وَادِي الحِنَّا تسعة وثلاثون ألفاً وسبعمائة وخمسون ذراع، وإلى الدُّرَيْعَا سبعة وثلاثون ألفاً وخمسمائة ذراع، وإلى المُخَيْشِيْب ثمانية وثلاثون ألفاً وثمانمائة ذراع، وإلى حَيْس [274] تسعون ألفاً وسبعمائة ذراع، وإلى النُّوْرِي اثنان وثلاثون ألفاً وستمائة واثنا عشر، وإلى زَبِيْد اثنان وتسعون ألفاً وخمسمائة وخمسون ذراعاً.

من حَيْس إلى تعز مائة ألف واثنان وخمسون ألفاً وسبعمائة وخمسون ذراعاً. من زبيد إلى الفَائِق بالنَّخْل أربعة وثلاثون ألفاً وثمانمائة ذراع. من دَار زبيد إلى بُسْتَان الرَّاحَة ألفان وخمسمائة وخمسة وعشرون ذراعاً. من دَار البَحْر إلى شَرْم السَّحَارِي ستة وثلاثون ألفاً وتسعون ذراعاً. من السحاري إلى دَار الأَوْشَج أربعون ألف ذراع. من مَوْشَج إلى دَار الطُّوَيْلِع بحيس تسعة آلاف وثلاثمائة وخمسة وتسعون ذراعاً. من خَنْفَر إلى وَادِي أَبْيَن تسعة وتسعون قَصَبَة.

من حَيْس إلى السَّحَارِي ثمانية وخمسون ألف ذراع. من حَيْس إلى زَبِيْد ثمانية وسبعون ألفاً ومائة واثنان وستون ذراعاً. من بَاب النَّخْل بزبيد إلى مَسْجِد الرند عشرة آلاف وأربعمائة وخمسون ذراعاً، ومنه إلى الفَائِق اثنان وعشرون ألفاً ومائة واثنا عشر ذراعاً. من دَار زَبِيْد إلى باب الشَّبَارِق ألف ومائة وخمسة وخمسون ذراعاً. من دَار زَبِيْد إلى مَسْجِد مُعَاذ اثنان وأربعون ألفاً ومائة وسبعة وثمانون ذراعاً. من باب سِهَام إلى القُرَشِيَّة ثلاثون ألفاً وأربعمائة ذراع. من القرشية إلى الفائق اثنان وثلاثون ألفاً وسبعمائة واثنا عشر ذراعاً. من محطة المَدْنَى إلى الفائق ستة وخمسون ألفاً ومائة ذراع. من المدبى إلى باب سهام خمسة وتسعون ألفاً وستمائة وخمسون ذراعاً. من المدبى إلى الفَازَّة ستة وخمسون ألفاً وثمانمائة وخمسون ذراعاً. من المدنى إلى القرشية خمسة وأربعون ألفاً ومائة وخمسون ذراعاً. من زبيد إلى فِشَال خمسة وأربعون ألفاً وخمسمائة ذراع، وإلى مَحَل القَائِد قريب قَوْنَس ثمانية وعشرون ألفاً ومائتا ذراع. من فشال إلى القرشية اثنان وأربعون ألفاً وتسعمائة وخمسون.

من فِشَال إلى القَحْمَة تسعة وستون ألفاً وخمسون ذراعاً، وإلى الكَدْرَاء ثمانية وأربعون ألفاً ومائة وستة وخمسون ذراعاً، وإلى الجَثَّة خمسة وستون ألفاً وخمسمائة وخمسة وتسعون ذراعاً، وإلى المَهْجَم ستة وستون ألف ذراع، وإلى المَحَالِب سبعة وثمانون ألفاً ومائة وسبعة وثلاثون ذراعاً، وإلى المُنِيْفَة مائة ألف وثلاثمائة وخمسون ذراعاً. من المحالب إلى خَبْت البَقَر سبعة وثلاثون ألفاً وتسعمائة ذراعاً. من المُنَيْفَة إلى حَرَض ألف ومائة وعشر قصب، وإلى العَالِيَة ثمانية وخمسون ألف ذراع، وإلى جَازَان ثلاثة ... وإلى صِبْيَا ثلاثة وأربعون ألفاً وثمانمائة ذراع، وإلى النُّجَيْمِيَة خمسة وخمسون ألفاً وسبعمائة. وإلى وادي بَيْض قرب لُوْلُوْة ثلاثة وثمانون ألفاً وخمسمائة ذراع وإلى وادي... اثنان وتسعون ألفاً وخمسمائة ذراع، وإلى المَدَان وعُذَر الرَّبَايِع اثنان وثلاثون ألفاً وخمسمائة وخمسون ذراعاً، وإلى حِمْضَة العَرَب ثمانية وأربعون ألفاً ومائة ذراع،

وإلى ذَهْبَان خمسة آلاف وخمسمائة ذراع. وبعد البِرَك إلى الدَّبْسَا أربعة وخمسون ألفاً وخمسمائة. وإلى حَلْي مائة ألف وسبعة آلاف وخمسمائة ذراع.

ومن بِيْر السُّلْطَان إلى مدينة حَلْي خمسة وعشرون ألف ذراع. وإلى راصدينة ثمانية وستون ألف ذراع، وإلى عُلِي قَنَوْنَة تسعة وسبعون ألف ذراع، وإلى مَدَاسَا وعَر ووادِيه ستة آلاف ومائة. ومن... إلى دوم وعر778، ومضايق ملاوى. وإلى عُلَيْب الوَادِيَيْن والسُّرَّيْن تسعة وسبعون ألف ذراع. وإلى الضبية على الرياضة مائة ألف وعشرة آلاف وسبعمائة وخمسون ذراعاً، وإلى الخيال مائة ألف وأربعة عشر ألفاً وستة آلاف وخمسون ذراعاً. وإلى بِيْر عَلِي مائة ألف وخمسة آلاف وأربعمائة وخمسون ذراعاً، ثم يَلَمْلَم وعلى البيضاء إلى مَحَطَّة المَاجِل مائة ألفاً وعشرة آلاف ذراعاً، وإلى مَسْجِد الخَيْف مثل الجَنَد وأقرب من السَّمْكَر، وإلى عُرْنَة ساعتين ونصف.

ومن ثَعْبَات إلى الجَنَد إثنان وأربعون ألفاً وثمانمائة وستة وثلاثون ذراعاً، وإلى القَاعِدَة ستة وعشرون ألفاً وثمانون ذراعاً. من ثعبات إلى القُصَيْبَة أربعة عشر ألف ذراع. من الشَّجِرَة إلى حَبِيْل الوَعْل من خط مولانا الملك المؤيد رحمه الله ساعتين مستوية ودرجة. من ثعبات إلى بِيْرعَبْدَان ستة وعشرون ألفاً ومائة ذراع. من باب القِبْلَة بثعبات إلى دار عَبْدَان خمسة وعشرون ألف ذراع. من باب القبلة بثعبات إلى الجَوَّة اثنان وثمانون ألفاً ومائة وخمسون ذراعاً. من سُوْق الخَمِيْس إلى بَاب الجوَّة تسعة وثلاثون ألفاً وثلاثمائة. من وَرْزَان إلى الجوة ثمانية آلاف ومائة ذراع. من الجوَّة إلى القَاهِر اثنان وثلاثون ألفاً وثلاثمائة وعشرون ذراعاً. من محطة ذِي عَنَّة بالحُشَا إلى محطة فَلْحَان ببلد المَقَادِمَة ساعتين ونصف مستوية، ومنها إلى وادي دايه نَقِيْل جَرْبَان الأَسَاوِدَة خمس ساعات ونصف [من اللَّخَبَة إلى الرَّاحَة خمسة عشر ألفاً وخمسمائة ذراع. من حلي إلى بير السلطان خمسة عشر ألفاً] من امم المناسرة محطة سَوْرَق إلى دار يَفْرُس بالظُّهر ساعتين، وإلى الجند ساعة زمانية. من الصَّرْدَف إلى يَفْرُس ثلاثة عشر ألف ذراع.

ذَرْعُ طريق عَدَن ساعات إلى الدُّمْلوَة:

من المَنْظَر إلى اللاَّخْبَة ساعتين ونصف. وإلى فقر أربع ساعات، وإلى الحَيْق خمس ساعات. وإلى سائلة عُقَّان خمس ساعات، وإلى المَاء الحَار أربع ساعات ونصف. وإلى القَاهِر أربع ساعات وثلث. وإلى الجوَّة ثلاث ساعات، وإلى الجنَّات ساعة ونصف. وإلى باب المَغْرَبَة ساعة وثُلُثين، وإلى دَار العُلَى نصف ساعة.

من الدُّمْلُوَة نازل إلى الجُوَّة ثلاث ساعات وثلث. وإلى الرَّخْبَانِيَّة ثلاث ساعات وثلث. وإلى الرحامية ثلاث ساعات. جملة من عدن إلى الجند ثلاثة وثلاثون ساعة مستوية. من الجوة إلى القُرَيْن خمسة عشر ألف ذراع، وإلى القَاهِر سبعة عشر ألف ذراع. من الجُوَّة إلى جبل السُّرُوْح ثلاث ساعات. ومنه إلى المَاء الحَار ثلث وربع. من فُوْر إلى الجُوَّة خمس ساعات.

من دَار السَّلاَم إلى التَّعْكَر ساعتين إلاّ ربع. من الرحامية إلى الجَنَد أربع ساعات. من حَسِنَات إلى باب عَبْدَان بثَعْبَات ألف وثمانمائة وثمانون ذراعاً. من وادي دَايَة إلى الرَّجَبِيَّة أربع ساعات. ومن الدَّارَة إلى ذِي أشْرِق ثلاث ساعات. من الشَّجِرة إلى الشَّامِقَة خمس ساعات وثلث، ومنه إلى الحُصَيْن ساعتين ونصف. وإلى المُحَوَّل على أبو رُبَاح والصَّرَادِي أربع ساعت وثلث.

من الجُوَّة إلي البَيَّاض ساعة. من الجوة إلى الجنَّات أربع ساعات. من البَيْضَاء إلى الرَّاحَة تسعة وتسعون ألف ذراع. من الجنَّات إلى الجَاهِمِيَّة ساعتين مستوية. من باب عَبْدَان إلى دار الذَّهَب بثعبات ألف ومائة وعشرون ذراعاً.

مَرَاحِل المَرْحُوْم، قدَّس الله روحه في الجنَّة. إلى عَدَن سنة724:

من المَفَالِيْس إلى الرُّجَاع تسعة آلاف وثلاثمائة وخمسة أذرع، وإلى لَخَبَة مائة ألف وخمسة آلاف وثمانية أذرُع. من أَعْيَن إلى المُخَرَّ خمس ساعات من بَاب عَدَن إلى بُسْتَان لَحْبَة إثنان وعشرون ألف ومئة

ذراع. من المُحَرَّر إلى المفاليس ست ساعات. من باب عدن إلى المَنْظَر ثلاثة آلاف وسبعمائة وعشرون ذراعاً. حِصَّة نَقِيل الحَمْرَاء طَالع وَنَازِل ساعتين، وأَذْرُع تسعة آلاف وخمسمائة ذراعا.

من بَاب عَدَن إلى المَكْسَر ثلاثة عشر ألف وثلاثمائة ذراع، وإلى لَخَبَة عشرة آلاف ومائة ذراعاً، ومنها إلى بيرابن مُسَلَّم ثمانية عشر ألف وخمسون ذراعاً، وإلى الححة بالمَعَادي تسعة وعشرون ألفاً ومائة وخمسون ذراعاً. من النُّوَيْعِم إلى الهَشَمَة عشرون ألف ذراعاً. من الرُّجَاع إلى النُّوَيْعِم أربعة وأربعون ألفاً وثلاثمائة وخمسون ذراعاً. من اللَّخَبَة إلى الرَّعَارِع ثمانية وخمسون ومائة ذراع. من عَدَن إلى بَاب تَعِز الجُوَّة مائتا ألف وأربعة عشر ألفاً ومائة ذراعاً. من عَدَن إلى خَنْفَر بأَبْيَن مائة ألف وسبعة وعشرون ألفاً وخمسمائة ذراعاً.

من أَبْيَن إلى لَحْج مائة ألف وتسعون ألفاً وخمسمائة ذراعاً. من المفاليس إلى الجوَّة سبعون ألفاً ومائة وخمسة أذرع. من سِفْل نقيل الحمراء إلى رأسه خمسة آلاف وثمانمائة ذراعاً، من المسجد إلى أسفل النقيل ثلاثة آلاف وستمائة ذراعاً. من باب أبين إلى وَادِي يَرَامِس اثنا عشر ألفاً وثمانمائة وخمسون ذراعاً، وإلى الكنده ببصر ستة آلاف وتسعمائة وخمسون ذراعاً. من باب أبين إلى المَحَل اثنا عشر ألفاً ومائة ذراعاً. من بستان لخبة إلى بِيْر فَرَج ثمانية عشر ألفاً وثلاثمائة. من عَدَن إلى مَطْلَع لحرسه ثلاثون ألفاً وستمائة ذراعاً.

من بير فرج إلى الرَّعارع تسعة وثلاثون ألفاً وتسعمائة ذراعاً. من الَخَبَة إلى رُبَاك اثنا عشر ألفاً وسبعمائة وخمسون ذراعاً. من لخبة إلى البَيْضَا سبع ساعات. من البيضا إلى المَزْحَجِيَّة احدى عشر ساعة، ومنها إلى أوَّل خَنْفَر اليَمَن ثماني ساعات وثُلث. من بَلَد الأَفْحُوْز بخنفر إلى وَادِي شِعْب ست ساعات.

حسبة جُمْلَة من السَّاعات لجبال اليمن اثنتا عشر ساعة. من مَوْزَع إلى الحُمْرَانِيَّة تسعة وثمانون ألفاً ومائة ذراعاً[275] وسبعة وخمسون، الساعات ثمان ساعات ونصف، ومنها إلى الطُّوَيْر احد وستون ألفاً وستمائة وخمسون ذراع. من الحُمْرَانِيَة إلى الطُّوَيْلِع ست ساعات ونصف، حِصَّة القَوَادِيَة منها ساعتان. من الطُّوْر إلى الطُّوَيْلِع خمسة وعشرون ألفاً وستمائة ذراع.

من باب عَدَن إلى بَطَاط مَنْزِل بالسَّاحِل مائتان ؟وتسعون قَصَبَة عَنْهُ أذرُع تسعون ألفاً وسبعمائة ذراع. من اللاَّخَبَة إلى خَنْفَر خمسمائة وستة وثلاثون قَصَبَة عنه أذرع ستة وعشرون ألفاً وتسعمائة ذراع. من خَنْفَر إلى بِيْر البَرْكَاني ثلاثمائة وثلاثة عشر قصبة. عنه خمسة عشر ألفا وسبعمائة ذراع. من بير البَرْكَاني إلى السَّيْل ثلاثمائة قَصَبَة عنه عشرة آلاف وخمسمائة وخمسة أذرع. من السَّيْل إلى الوَادِي ثلاثمائة وست وتسعون قصبة عنه ثمانية آلاف عشرة آلاف؟ وثمانمائة ذراع. من الوَادِي إلى بَاب دَار السُّلطَان بِخَنْفَر ثمان وتسعون قصبة عنه أربعون ألف ذراع.

مِسَاحَة زَبِيْد ستمائة وثلاثة وتسعون ألفاً ونصف. من بَاب الشُّبَارِق إلى بَاب سِهَام أربع وخمسون قَصَبَة طَوْل. من بَاب القُرْتُب إلى بَاب الشبارق أحد وخمسون قَصَبَة. من بَاب النَّخْل إلى بَاب القُرْتُب خمسون قَصَبَة ونصف. من بَاب سِهَام إلى بَاب النَّخْل سبع وأربعون قَصَبَة ونصف.

من خَطّ مَوْلاَنَا المَلِك المُؤَيَّد، قَدَّس الله رُوْحه في الجَنَّة:

من بَاب ثَعْبَات إلى الرَّوْض ثلاث ساعات ونصف، وإلى حريجة أربع ساعات ونصف، وإلى الرُّكَافِي ثلاث ساعات، وإلى مَوْزَع خمس ساعات ونصف، وإلى المَخَا خمس ساعات، وإلى الحُمْرَانِيَة ثلاث ساعات وثلث، وإلى حَيْس ست ساعات. من الطُّوَيْر إلى حَيْس ساعة، ومن حيس إلى المَنْصُوْرَة أربع ساعات وثلث، وإلى بَاب القُرْتُب ساعة، وإلى الدَّار ثلاث دَرَج، وإلى فِشَال ثلاث ساعات، وإلى القُرَشِية ثلاث ساعات، وإلى النَّخْل ساعتان. من القُرَيَّة إلى سَاحِل المَدْنَى ثلاث ساعات ونصف، وإلى القُرَيْن أربع ساعات ونصف، وإلى البطيحا ساعتان ونصف، وإلى الكَدْرَاء خمس ساعات،

وإلى الجُثَّة خمس ساعات، وإلى المَهْجَم أربع ساعات وثلث، وإلى الفارضي ثلاث ساعات، وإلى المَخَالِب ساعتان وثلث.

من الكَدْرَاء إلى المَهْجَم ثلاث ساعات، وإلى فِشَال أربع ساعات ونصف، وإلى بُسْتَان الرَّاحَة ثلاث ساعات ونصف، وإلى الرقاص ست ساعات ونصف. من النَّخل إلى البَحْر ساعتان. من دَار السَّلَام إلى إب ساعة وربع. من دَار السَّلَام إلى ذِي أَشْرِق ثلاث ساعات ونصف. من الجوْة إلى الصَّرَارِي ثلاث ساعات. من ذي أشرق إلى القُصَيِّر ثلاث ساعات. من باير الصراري إلى جَبَا ساعة. من جَبَا إلى الحُصُب أربع ساعات وثلث، وإلى العَتَبَات أربع ساعات، وإلى الشَّجرَة ساعتان وثلث. من النَّخْل إلى حَيْس على طَرِيْق نَخْل وَرَك ونَخْل حينبى سبع ساعات، والله أعلم.

وقال أيَّده الله بالنَّصر والتَّوفيق وجدتُ هذه المسافات على ظهر تَقْوِيْم ما عرفت كاتبها وأظن أنَّه خَطّ بعض الحُسَّاب:

من فِشَال إلى القُوْز 38 درجة، ومن فِشَال إلى محل حودي 45 درجة، ومنه إلى القَحْمَة 48 درجة، ومنها إلى الكَدْرَا أربع وخمسون درجة وست وعشرون دقيقة. ومن المَنْسَكِيَة إلى المَزْحَف 74 دقيقة، ومن الكَدراء إلى المَنْسَكِيَة 70 دقيقة، ومن المَزْحَف إلى الدُّمَيْنَة 114، ومن الدُّمَيْنَة إلى المَهْجَم 42، ومن باب مدينة المَهْجَم إلى باب القَصْر 8، ومن المَهْجَم إلى الجُثَّة 81، ومنها إلى الكَدْرَاء خمس ساعات ودرجتين. من المَقْطَعَة إلى النُّوْرِي 31دقائق، ومن النُّوْرِي إلى حَيْس 96، من حَيْس إلى السَّلَامَة 11، من السَّلَامَة إلى المُخَيْشِيْب 77 بالماضي، وبالارتفاع ثلاث ساعات وخمسين. من المُخَيْشِيْب [إلى] الدُّرَيْعَا 65 وهي أربع ساعات وثلث. من الدُّرَيْعَا إلى وَادِي الحِنَّا 59 وهو ثلاث ساعات وثلاث وخمسون. من وادي الحِنَّا إلى الرَّوْض 38، من الرَّوْض إلى الشَّجرَة 410 وهو ساعتين وثلثين وثلاثا وخمسون. من الشَّجرة إلى الرَّوض بالسُّوْق 38 وهو ساعتين ونصف. من تَعِز إلى عَبْدَان 49 وهو ثلاث ساعات وثلث، من مَوْشَج إلى المَسِيْلَة 85، ومنها إلى

عشر48. وهو جميعه بتاريخ ست وستين وسبعمئة هجرية

من خط والدي رحمة الله عليه لسنة٢٩_ :

من الشَّجرَة إلى قَرَامِد ثلاث ساعات. وإلى الحَوْلَجَة بَلَد الأَسَاوِدَة ست ساعات. ومن الماء الحار سبع ساعات. ومن الجَوْة إلى الماء الحار تسع ساعات ونصف. من المَاء الحَار إلى قُوْر خمس ساعات. وخمس درج. وإلى لَخَبَة ثلاث ساعات. من المَزْجَعِيَة عين إلى الجَرَوِيَة إلى غَيْل جِبَال جَنَّة 7 ساعات وثلث. من اللَّخَبَة إلى البَيْضَا 8 ساعات ونصف. من موزع إلى الحُمْرَانِيَّة 10ونصف منه حِصْة الجَدْون 8 ساعات. من الحُمْرَانِيَّة إلى الطُّوَيْلع 4 ساعات ونصف منه حصة القُوَادِيَّة ساعتين ونصف. من غَيْل جِبَال جَنَّة إلى وادي شِعْبُ 4 ساعات. ومنه إلى وادي مَوْزَع12 ساعة.

تَعْلِيقَة:

عُرْض الأَرْض من القُطْب الجَنُوبِي الذي يدور حول سُهَيْل إلى القُطْب الشَّمَالِي الذي يَدور حَوْل بَنَات نعش واسْتِدَارَة الأرض في مَوْضِع خَط الإِسْتِوَاء360 درجة. الدَّرَجة29 فَرْسَخًا الفَرْسَخ 18 ألف ذِرَاع. الذراع24 أَصْبُعًا، يكون ذلك 9 آلاف فرسخ. وكل واحد عن القطب 90 درجة. واستدارتها عرضا مثل ذلك. إلا أن العِمَارَة في الأرض بعد خط الإستواء24 درجة. وبقي الأرض قد غمرها البحر. فنحن على الربع الشمالي من الأرض، والربع الجنوبي خراب ستمائة فرسخ. وكل ربع من الجنوبي والشَّمالي سبعة أقاليم. وذكر بطليموس أن مدن الأرض على عهده أربعة آلاف وعشرين مدينة.

تعليقة من حَسَابِهَا دَار الحَاسِب المُؤَيَّدي:

من صَنْعَاء إلى الجَنَد ثمانية وأربعون فرسخ. ومن صَنْعَاء إلى عَدَن ثمانية وسبعون فرسخ. ومن صَنْعَاء إلى زَبِيْد اثنا عشر فرسخ. وعرض بحر صَبِر عرضه24 فرسخاً فيكون أذرع ... ذراع وثمانون ألف ذراع وثمانية آلاف ذراع ... أميال اثنين وسبعون ميلاً. وهو أكبر ...

وفيه بقية حصن من بناء الجبابرة، وتحت هذا الجبل حصن تَعِز ومدينته، وقال أن في جبل صَبِر ألف قرية. من الزراعي الجديد إلى المُخَيْشِيْب ساعتين مستوية. من جَازَان إلى النُّجَيْمِيَّة 7ساعات ونصف مستوية. من الخَيَّال إلى يَلُمْلَم 7 ساعات ونصف مستوية، وإلى بِئْر المَحْرَم بِئْر عَلِي مثل المخيشيب وحَيْس ستمائة وخمسة وأربعون ألف ذراع عنهاثلاث ساعات مستوية ونصف.

ابتداء ذلك سنة779:

رَكِبْنَا من الرَّوْض الساعة السابعة وصلنا قَصْر الكَاذِيَّة بالوادي حِنًّا قبل غُروب الشَّمس بعشر دَرَج، وركبنا من الكَاذِيَّة مثل ذلك وصلنا قَصْر العُذَيْب بالبَرْح والارتفاع خمسة دَرَج عَرَبِي، وركبنا من العُذَيْب الساعة الثَّامنة دَخَلْنَا قَصْر الطُّوَيْلِع بالحَيْسِيَة والباقي من النَّهَار خمسة دَرَج عربي، ركبنا من دَار الطُّوَيْلِع بالحيسية السَّاعة الثَّامنة دخلنا قَصْر الفَارِض بالنُّوْرِي والارتفاع ثمانية درج عربي والله أعلم.

وفي سنة771:

من الشَّجَرَة إلى الرَّوْض 3 ساعات، ومنه إلى الكَاذِيَّة 8 ساعات، ومنها إلى العَقَبَة ساعتين ونصف، ومنها إلى العُذَيْب 3 ونصف، ومنه إلى الطُّوَيْلِع 8 ساعات، ومنه إلى النُّورِي 3ونصف. رَكِبْنَا من المُحَوَّل شهر شعبان سنة776 الارتفاع 8 عربي وصلنا سُوْق الخَمِيْس بِعَثَر والارتفاع38 عربي. ركبنا من البَيَاض والارتفاع38 عربي وصلنا الجُوَّة والارتفاع35 عربي، بتاريخ شهر رجب سنة776.

كتابة تاريخ الدولة الرسولية

(اليمن، القرن السابع - القرن التاسع/ الثالث عشر - الخامس عشر)

إيريك فاليه
جامعة باريس الأولى- السوربون

في بحثه في التاريخ والمؤرخين، والمعروف بعنوان «الإعلان بالتوبيخ»، لم يكتف المصري السخاوي في القرن التاسع/ الخامس عشر بإعطاء قراءة لتأملات عارفة حول المادة التي خدمها بتألق. بل إنه كشخص منظم ومنهجي، قد ترك لنا أيضاً قائمة نفيسة من المصادر، مصنفة حسب النوع وحسب الموضوع. جرد مكتمل جداً وشامل لكتابة التاريخ باللغة العربية لما يرقى إلى قرونها الثمانية من الوجود. فمحب المعرفة هذا والذي سيصبح عابرا لخطأ وتائهاً في نهاية القسم الثالث عشر المسخر للتواريخ المحلية سيتفاجأ بتقاطعه هناك مع عدد- في الأغلب مشرف- من كتاب اليمن، فموقعه تالٍ لكل من القاهريين والدمشقيين والأندلسيين الآخرين، وهم الذين كانوا بدون شك آخر القادمين. فمن بين أربعة عشر مؤلف يمني مشار لهم، إثنى عشر منهم كانوا نشطين أثناء الفترة الرسولية بين نهاية القرن السابع/ الثالث عشر وبداية القرن التاسع/ الخامس عشر. مصادفة محيرة كتلك التي لعهد بني رسول، هذه العائلة التركمانية التي استولت على السلطة في اليمن بعد وفاة الأيوبي المسعود يوسف في عام 1229/626، وكذلك للنصوص التاريخية في جنوب شبه الجزيرة العربية. لهذا هل نستطيع أن نتحدث عن «كتابة تاريخ الدولة الرسولية»؟ من الممكن أن يفهم التعبير بمعان متعددة، لكننا سوف نعطيه هنا معنى ضيقاً، أي مجمل النصوص الصادرة عن محيط السلاطين، بل وحتى السلاطين والمحررة من قبلهم ولأجلهم أو تحت طلبهم. فقد تمت معرفة بدايات خجولة لهذه الأدبيات التاريخية الخاصة بالسلالة المنفتحة في نهاية القرن السابع/ الثالث عشر وبالتحديد في القرن الثامن/ الرابع عشر، وبشكل خاص في عهد «السلطانين المؤرخين» الأفضل العباس (764-1363/778-1377) والأشرف إسماعيل

(778-803/1377-1400). وبجانب الحوليات الساردة سنة بعد سنة لمفاخر السلاطين، تضاعفت أثناء هذه الفترة مؤلفات السير وذلك راجع في البدء إلى وفرة رجال الدين والمعرفة وإلى أولئك الذين تثقفوا ذات مرَّة، الذين لم يكونوا قد كفوا عن «كونهم يمنيين». حتى حول هذه المؤلفات الأخيرة، ظلال بني رسول- هالتهم إذا كان مفضلاً - كانت توجد ملقاة باستمرار. طاوية في النسيان تابعيهم الزياديين والنجاحيين، الذين عرفنا تاريخهم عبر عمارة اليمني فقط (المتوفي عام 569/1174)، فقد كان الرسوليون هم السلالة السنية التي كان المؤلفون قد أشاروا لها بإسهاب أكبر في العصر الوسيط. فكيف نفسر طلاقة لسان كهذه؟ هل يتوجب رؤيتها كتأثير بسيط للعائلة التي لم تتردد في أن تُقدِّم كذرية لأمراء متعلمين وعارفين، والتي شجعت تعدد المعرفة عبر تأسيس المدارس في مناطق عدة من الأراضي، والمزهوة بامتلاك مكتبة غنية وبإيواء العلماء من جميع أنحاء العالم؟ هذه السياسة المتبعة حتى لأجيال عدة، لا يمكن أن تكون كافية لشرح انطلاق الكتابة التاريخية التي عرفتها اليمن في هذه الفترة. بالتأكيد يجب النظر لها كذلك كثمرة للتطورات،وبالشكل الذي يمثل السلطة ويبرزها لأن ترى كذلك بطريقة تنظر ملياً في تاريخ المملكة التي كان الرسوليون يمارسون عليها هيمنتهم.

بصورة أكثر دلالة، أيوبيي اليمن (509-625/1173-1292) لم يكن لديهم حوليين خاصين بهم. فتاريخ هذا الفرع من عائلة صلاح الدين كان قد أصبح جزءاً مكملاً للحكايات، لأن الحوليات معدة في أماكن أخرى غير جنوب العربية. في هذا النصف الأول من القرن السابع/ الثالث عشر، جزء كبيرمن التاريخ، كان في البدء مكتوباً في مدن سوريا أو في العاصمة المصرية للإمبراطورية، على شكل سير ذاتية ملكية، وكحوليات محلية وسلالية، أو حتى كتاريخ عالمي. بعض هذه المؤلفات كان بالطبع قد سخر حيزاً لأحداث اليمن، كالمؤلَّف الشهير المعروف الذي انتشر بسرعة في اليمن، وهو «الكامل في التاريخ»كامل ابن الأثير (المتوفى عام 630/1233)، أو مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل (المتوفي عام 697/1298) الذي يقدم إحدى الحكايات الأكثر تفصيلاً لعقود الأخيرة للسلالة. وبمجرد الخروج لمرة واحدة من المجال السوري- المصري، نجد أن يمن الرسوليين قد استحوذ قليلاً على اهتمام الحوليين الأجانب في النصف الثاني من القرن السابع/ الثالث عشر. قبل أن يكتشفه المسافرون أو الموسوعون على غرار النويري أو ابن فضل الله العمري في وقت آخر من منعطف القرن الثامن/ الرابع عشر.

وبعيداً عن كتابات الكُتَّاب والعلماء المصريين والسوريين، كان يمن القرن السابع/ الثالث عشر قد قدم مع ذلك سلسلة من أشكال الكتابات التاريخية البديلة، إنتاج وفير جداً، لكنه منحصر ويشكل ضيق على العالم السياسي والديني للأراضي العليا. فجزء كبير من مدن وقرى وحصون وهجر منطقة صعدة كانت واقعة في الحقيقة منذ القرن الرابع/ العاشر تحت تأثير المدرسة الزيدية، تحت سلطة إمام من سلالة النبي ينتسب لعلي بن أبي طالب وعُرف من قبل تابعيه كقائد للمؤمنين.

الكتابة التاريخية الزيدية، قارة معزولة. تُقدَّم كمدونة لنصوص غنية جداً غير قابلة للفصل عن باقي الإنتاج الكتابي الديني (حديث وفقه أو أصول الدين). وبقيت مع ذلك غير معروفة بالنسبة للفترة التي تهمنا: فهي مؤلفات تم تحريرها بين القرنين السابع- التاسع/ الثالث عشر- الخامس عشر وقليل منها كان قد طبع أو تمت دراسته. كان النمط السائد في هذا الوقت هو ذلك المتعلق بسيرة الأئمة. والنموذج الذي كان يمثلها هو سيرة الإمام الهادي إلى الحق مُدخل الزيدية إلى اليمن في نهاية القرن الثالث/ التاسع هذا النمط كان ما زال حياً في النصف الثاني من القرن السابع/ الثالث عشر. كما تشهد بذلك كتابة سيرة الإمام المهدي أحمد بن الحسين (646-656/1248-1258). والمصنَّف من قبل شرف الدين بحيى بن القاسم الحمزي (المتوفي عام 677/1278) وحميمه

كتلك التي سبقتها، هذه السيرة كانت محتوية بشكل أساسي على حكاية الوقائع العسكرية الهامة للإمام ومعركته المقدسة ضد الزنادقة الذين تتم مناداتهم من وهلة لأخرى بـ «الكفار» أو «أعداء الله»، ويمكن أن يكونوا الرسوليين أو إسماعيليي المناطق العليا أو حتى بعض أسر الأشراف المعارضين للإمام. وتعتمد الحكايات على اصطلاحات تستخدم ضدهم، راجعة للغزوات الإسلامية المبكرة. فهجمات الإمام كانت غزوات وكانت تختتم في حالة النصر باقتسام الغنيمة حسبما رسخه رسول الله : «وغنم منهم غنم ودواب وأثاث وعادوا سالمين، وأمر- عليه السلام- بقسمة الغنيمة على ما أمر الله به وقبض الخمس من ذلك».

كانت السير الزيدية أدب معركة حقيقي فهي تتعلق بتصوير سلطة كاريزماتية، معيدة راهنية الحماس النبوي والمبعوثين في الأصل. أما الكتابة التاريخية السورية-المصرية فقد كانت من جهتها تتقصى المشروعية المقلقة لسلطة دنيوية وليست عربية، وكان لها هم واحد وهو التجذر السلالي، أي عملها على ترميم السنية وبسالتها في المعركة. كتابة التاريخ هذه كانت تدل في منحاها العالمي على الزحف المستمر للأرض المصرية السورية لتصبح مركز جذب جديد للإسلام.

إذا كانت هناك كتابة تاريخية رسولية آيلة لأن تتأسس، فهي إذاً بالتميز عن مختلف النماذج هذه، فهي تتشكل بالتدريج، متلمسة، تقليدها النصي الخاص. مع ذلك، ليس هناك دراسة للمجمل وليست حتى اليوم موجهة نحو هذا المجال. والعدد الضئيل للنصوص الرسولية المطبوعة حتى سنة 1980 توضح في جزء كبير منها هذه الهوة. هذا التأخر هو اليوم متدارك بالتدريج فالباحثين من الآن فصاعداً يمكنهم الاستفادة من مادة هائلة يسهل الوصول لها، وهي تقدر بثمانية مؤلفات في التاريخ مصنفة بين نهاية القرن السابع/ الثالث عشر وبداية القرن التاسع/ الخامس عشر، منشورة بالكامل ومحافظ عليها حتى اليوم. مطلوب منا من الآن فصاعداً استيعابها في أي سياق، وضمن أي مناظير، وأي مشاريع يقوم بها هؤلاء المؤلفين «للإخراج السردي» للتاريخ الرسولي. كما أن اختيار الأحداث والالتواءات أو لحظات الصمت المفترضة والشكل والخطة لمجمل هذه الكتابات التاريخية يجب أن تكون مفحوصة بعناية، لأنه في هذا المستوى من بنائية مختلف الحكايات الفردية أو الجماعية، تتوضح أغلب الأحيان أصالة كل مؤرخ والإجابات التي بحث عن نقلها في سياق خاص.

ظهور الكتابات التاريخية في اليمن الرسولي في نهاية القرن السابع/ الثالث عشر ليست مفصولة عن التطورات التي عرفتها الدولة هناك، وذلك في الوقت الذي تعززت فيه السلالة تحت السوط اليقظ للمظفر يوسف (647-649/1250-1259) في منعطف القرنين السابع- الثامن/ الثالث عشر- الرابع عشر، ويشهد ازدهار الحوليات بالتجذير لسلطنة جديدة: بالنسبة للمؤلفين الذين يعرفون تاريخ العربية الجنوبية، كانت السلطة قد ربحت على شكل ثروة، الأرض موحدة والإدارة بوضوح. ومن وجهة النظر هذه تم تسجيل أزمة التعاقب في عام 720/1320 والمجابهات التي مزقت جهاز الدولة كقطيعة حقيقية. ففي هذا السياق بدأت مؤلفات السير، مبتدئة بذلك الذي للجندي تأخذ طابعاً مميزاً جداً. فقد كان مجمل إنتاج الكتابة التاريخية الرسولية في نهاية القرن الثامن/ الرابع عشر مفسراً تحت رعاية «السلاطين- المؤرخين» فحينئذ كانت مشروعيتهم لحكم البلد مطروحة في المحك من قبل قبائل الجنوب. منظور السلالة المتجذرة في الماضي القديم للعربية الجنوبية ومنظور الدولة المعتمدة على كل صفوات البلد أحدثا أن الكتابة التاريخية الرسولية كانت تتأسس بشكل متقدم عبر الأخذ برسم صورة أفضل لهذين المنظورين.

في أصول الكتابة التاريخية الرسولية:

توجه اهتمام الرسوليين في البدء إلى شعر المدح وعلم الأنساب إلى جانب التاريخ الحولي. وعلى كل حال، هوماظهر من خلال واحد من أقدم النصوص الرسولية المحفوظة، وهو كتاب طرفة الأصحاب في

معرفة الأنساب. تصنيف هذا البحث في علم الأنساب ليس راجعاً إلى الحظ. فقد كان محرراً في الحقيقة من قبل أحد أبناء السلطان المظفر يوسف- قبل أن يصبح سلطاناً بدوره وباسم الأشرف عمر، وذلك خلال فترة قصيرة (694-696/ 1295-1296)- مما منحه مدى سياسياً لا يمكن تجاهله. «فإن هذا مختصر في علم الأنساب،يسهل حفظه على أولي الألباب،محتوَ على أصول أنساب العرب،مقرَّب حفظها لأولي الطلب،مضافاً إليه نسب النبي المختار،مشفوعاً بصحابته الأبرار،نبَهنا على أوصلهم به سبباً،وأقربهم منه نسباً،ثم تلوناه بالخلفاء من بني أمية وبني العباس،ثم بني رسول ملوك اليمن،ثم من اشتهر بخدمتهم من أكابر الأشراف في عصرنا والأعراب».

هنا يلخص المؤلِّف في مقدمته، أهداف، وترتيب ومحتوى مُختصرِه هذا. فالخطة تعزز بشكل جوهري طابعه السياسي: كل البحث يتمحور جزءه الأخير، الذي يبحث في تناول علم الأنساب الرسولي وأولئك الذين كانوا يعملون في خدمتهم في النصف الثاني من القرن السابع/ الثالث عشر. فسلاطين اليمن جاء موقعهم بعد الخلفاء الأمويين والعباسيين، مقابل «دوران قوة» حقيقي قائم على النسب و يتعلق بجعل عائلة من أصل تركماني، منحدرة من رسول غامض، وارثة للملوك الغسانيين العريقين، وهي نفسها من سلالة قحطانية، أي منتمية إلى عرب الجنوب. ومن ناحية أخرى، توضيح خط النسب الموجود في الجزء الأول من المؤلِّف منذ آدم وحتى النبي وأصحابه وتابعيه، ليس له وظيفة إلا ليوضح أنساب الأشراف، عرب الشمال المنحدرين من صلب النبي أو بشكل أوسع من قريش وبالتحديد من قبائل عرب الجنوب التي هي في خدمة الرسوليين. عبر هذا البناء العارف، كان الرسوليين ينتقون بشكل واضح «معسكرهم»و هو ذلك الذي لعرب الجنوب، ولإحدى سلالاتهم الأميرية، باحثين كذلك عن تثبيت مشروعيتهم في حكم القبائل المتحالفة معهم.

في مواضع عدة من سياق النص، يذكِّر الأشرف عمر بعدم رغبته بتقديم عرض مفصل لمختلف السلالات، ولكن موجز مقتصر على المعلومات النافعة. لكن نافعة لمن؟ يظهر حقيقة أن مؤلِّف الأشرف عمر لم يكن يهدف في البدء إلى إعادة كتابة التاريخ... وإنما الشعر. وهذا ما أكده المؤلف في الحقيقة. إنما الشعراء يغلطون ولا يذكرون الأنساب على حقيقتها». وقد نشروا من حولهم شجرة الأنساب المعدلة لبني رسول وهي إذاً أحد الأهداف المسبقة لطرفة الأصحاب. فلم يكن المدح يطمح لإرضاء كبرياء الملوك وتشنيف آذانهم. بل كان أداة سياسية حقيقية. والداعم الأساسي لإعادة تنصيب الملك. فالشعر بشكل أكثر عمومية سواء كان مدحاً أو هجاءً أو عتاباً. كان لغة عامة تسمح بإبراز علاقة قوة لمواجهة السلطات المنافسة أو المأمورة. وبالتحديد القبائلية. وكيفما كان الانشغال الأول للسلطان المظفر يوسف ولابنه الأشرف عمر في النصف الثاني هذا من القرن السابع/ الثالث عشر. فهذا الأول لم يستحق استلام السلطة في عام 1249/647 إلا بدعم قبائل تهامة في السهل الساحلي للبحر الأحمر. وفي فترة حكمه الطويلة. ناضل دون توقف لتعزيز تفوقه على المشائخ والأشراف ليس فقط في الأراضي الخلفية وفي هضاب اليمن الأعلى ولكن كذلك في المرتفعات الجبلية في الغرب أو في الأراضي القاحلة في الشرق. ودون أن يتردد في إرسال ابنه لمواضع عدة لإدارة المعارك.

مؤلِّف طرفة الأصحاب يشير أيضاً لبعض هذه القبائل المناهضة. المسببة للمشاكل والفوضى (أهل الفساد)، إنما من أجل جعل الأمر أكثر وضوحاً. فإن معظمها كان منضوياً خلف راية الرسوليين. وبالنسبة للأمير، كانت إعادة كتابة الأنساب الرسولية تعتبر حينها كإنجاز، وشكل لإبراز أن هيمنة السلالة كانت مقبولة ومعروفة ومشهورة بشكل واسع. وفي اللحظة التي كان فيها الشعراء يتغنون بانتصاراتهم. في هذا النصف الثاني من القرن السابع/ الثالث عشر عمر الرسوليون بالنسبة للأغلبية الساحقة من سكان الملوك, غير العرب. الفز. فمنذ بداية حيز الأشرف عمر المتعلقة بالنسب. لم يكن يتوجب على نحو...

الأولى المحررة بزمن قصير بعد كتاب طرفة الأصحاب أن تقدمهم بصورة أخرى.

وخلافاً للشعراء والأمير الوارث، لم يكن يجرؤ أحد على عمل مؤلَّف مذكرات للسلطان الذي ما زال على قيد الحياة المظفر يوسف. فقد توجب انتظار وفاته لتتمكن الحولية الأولى الرسولية الحقيقية من الظهور، متضمنة معالجة مفصلة للعهدين الأولين للسلالة، والمعنونة السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن. وكانت من عمل بدر الدين محمد بن حاتم اليامي الهمداني (المعروف دائماً باسم ابن حاتم، المتوفي عام 705/1305) . وقد كان هذا منتمياً لجماعة قوية ولقبيلة كبيرة في الأراضي العليا، بنو همدان والتي كانت تشكل إحدى الدعامات الأساسية لسيادة الإسماعيليين في اليمن في القرنين الخامس/ الحادي عشر والسادس/ الثاني عشر. وبعض أجداده كانوا قد مارسوا السلطة في منطقة صنعاء، قبل أن يخضعوا هم بدورهم للغزاة الجدد، الأيوبيين ثم الرسوليين، الأمير ابن حاتم نفسه لعب دوراً هاماً في فترة حكم المظفر يوسف، فقد كان مكلفاً بوظائف سياسية وعسكرية عدة وبالتحديد في إقليم صنعاء.

ويعتبر ابن حاتم أول من كتب حولية للملوك الغز في اليمن ولم يتوانى عن التصريح بذلك «العهد السعيد للرسوليين» ويؤكد ذلك في مقدمة مؤلَّفه. فإذا كان قد بدأ بالملوك الخمسة الأيوبيين، لأنه بالتأكيد «العهد السعيد للرسوليين» ذلك الذي للسلطانين المنصور عمر والمظفر يوسف، الذي نال القسط الأكبر من الحكاية، مستفيداً من معلومات عدة ممن سبقوه. المؤلَّف مرتبك قليلاً في الحولية، فهو يعطي تواريخ قليلة، لكنه يعرض بشكل منهجي، تحديات ومآلات الإرساليات العسكرية الكبيرة التي كانت تميز العهدين، واحداً تلو آخر، واضعاً مسبقاً مساهمته الخاصة في سياق الأحداث. ويبدو أن المؤلَّف كان متداولاً بشكل خاص في دوائر ضيقة من السلطة حيث أن المقدمة لم تكن تتضمن إهداءاً خاصاً. وفي نهاية كهذه الإشارة لعهد متزامن مع المظفر يوسف ومع ابنه الأشرف عمر تسمح ببساطة بوضع تاريخ لبداية تحرير الكتاب،أي خلال بضعة أشهر بين جماد أول ورمضان 694/مارس ويوليو1295 (). ومسبقاً في النص،لاحظنا وفاة المظفر يوسف ثم الدلالة عليها بإضافة الصيغة «قدّس الله روحه في الجنة»وبألقابه المألوفة(). أخيراً،من هذه الوفاة،وتولي الأشرف عمر للسلطة دون تقاسم،وانتهاء الحكاية،سمح كل ذلك بوضع تاريخ لخاتمة الكتاب ترقى إلى695/1296 أي قبل أن يختفي السلطان الجديد بدوره في بداية سنة 696/أكتوبر 1296(). ومع ذلك خاتمة الحولية،لا تستند فقط على وقف مريح ــــ وفاة المظفر يوسف. إنها بالتأكيد المناسبة لعمل صورة شخصية أكثر من مادحة لعظمة الملك الجديد،الأشرف عمر. تظافر هذه العناصر سمح بالإختتام،بأنه في الواقع تم تولي الأشرف للعرش أثناء حياة المظفر،الذي دفع ابن حاتم لكتابة مؤلَّفه، وجميعهم مثل ابن حاتم فعماد الدين إدريس ابن علي الحمزي(673-714/1274-1314) كان منحدراً من عائلة شهيرة من اليمن الأعلى، من بني حمزة، من سلالة النبي، وبعض أجداده حملوا لقب الإمام الزيدي في أكثر من موضع. وقد كان أبوه أحد المعارضين الأساسيين للرسوليين في منطقة صنعاء قبل أن تُضم للسلطان المظفر منذ عام 679/1280. وبعد وفاة المظفر أي في عام 714/ 1314، عاد ادريس الحمزي إلى البلاط وكان حتى وفاته عام 714/1314، أحد الأمراء الأساسيين للسلطان المؤيد داؤود(696ــ721/1296ــ1321) .

جميعهم مثل ابن حاتم، إنما مع تفاوت عقدين، فقد كان إذاً شاهداً متميزاً لأفعال الحاكم الرسولي، وترتكز حكايته بنفس الطريقة وبشكل حصري على الأراضي العليا، أو على أولئك الذين احتسب إدريس عليهم مباشرة في بداية القرن الثامن/ الرابع عشر. مع أن حوليته للرسوليين داخلة ضمن التاريخ العالمي وهو الإطار الأكثر اتساعاً، والمعنونة كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار، وملخَّصة في جزء كبير منها كامل ابن الأثير ومكمِّلة له فيما يخص النصف الثاني من القرن السابع/ الثالث عشر. ويحتل تاريخ اليمن بعد فترة

النبي القسم الأخير من المؤلَف. إذ يذكر إدريس من ناحية أخرى بأنه عزله عن الباقي «إذ الكتاب يمان وشوق أهل كل بلد إلى الإطلاع على أخبار بلدهم».

ابن حاتم وإدريس الحمزي هما إذاً رجلا سلطة، قادمين من الأراضي العليا، وقد كانا من أوائل الكتاب التاريخيين الحقيقيين حول السلالة، كذلك كانا رجلان بثقافة عالية، فهما يمزجان بين أنشطة العارف والقائد العسكري. على ماذا يمكن أن يدل مؤلفيهما، إذا لم يكن على حشدٍ للصفوة القديمة المنحدرة من أصول قبلية أو من الأشراف في النظام الجديد؟. هذين المؤلفين كانا متابعين لملحمة العهدين الرسوليين الأولين، وكانا كذلك يسهبان بالتاريخ العريق لعائلتيهما الخاصتين. فالسلطان الجديد أخذ مكانة في الذاكرة الأرستقراطية للعربية الجنوبية في نهاية القرن السابع/ الثالث عشر. من الآن فصاعداً، بدأت تترسخ شجرة أنساب ذات حضوة للرسوليين في الماضي الأكثر قدماً للعربية الجنوبية. فإطار الكتابة التاريخية المعد من قبل ابن حاتم وإدريس الحمزي كان يقدمهم في البدء كورثة للأيوبيين، بل وكسلالات عربية سابقة كذلك. بالنسبة لهذين المؤلفين، كان المسرح الحقيقي للتاريخ الرسولي هو اليمن الأعلى، الذي كان يشكل قلب البلد منذ بدايات الإسلام: ويمكن أن يوجز تاريخ السلاطين الرسوليين الأوائل في الصراع الطويل حول الحصون والمدن المحصنة في صنعاء وصعدة و كذلك في مرتفعات حجة أو وادي الجوف الذي كان ينتقل بسرعة من يد لأخرى حسب علاقات القوة المتقلبة باستمرار.

ومن وجهة النظر هذه، سجل عهد المؤيد داؤود (696-721/1296-1321) حقيقة ذروة الرقابة الرسولية على شمال اليمن. ولأن الهدنة كانت معلنة منذ عام 712/1312 بين الإمام المطهر والسلطان المؤيد، لذلك لم يتوجب أن تكون هناك أي مواجهات مباشرة بين الأمير الرسولي والقادة الزيديين، قبل قدوم الإمام الناصر صالح بن علي (773-793/1371-1391). وذلك راجع لهذا الصراع الطويل على توحيد السهول والجبال اليمنية، الذي ابتدأ منذ بدايات الغزو الأيوبي. فكانت المسألة إذاً مرتبة. إذ تم تأسيس تاريخ جديد، على صعيد الأرض الواسعة التي قام السلاطين بضمها بين أيديهم.

أسس الدولة الرسولية الخاضعة للمسائلة (النصف الأول من القرن الثامن / الرابع عشر):

الأزمة الطويلة التي اندلعت بموت السلطان المؤيد داؤود (721-733/1321-1333). لم تحدث في اليمن الأعلى الذي كان فضاءً أساسياً للمواجهات إبان القرن السابع/ الثالث عشر. فقد مزقت بالمقابل السلطنة في أقاليمها الأكثر ثباتاً أي في حصون الجنوب وكذلك في مدن تهامة. هذه الحرب الداخلية لم تستمد حيثيتها فقط من التعارض بين وريثي العرش: المجاهد علي ابن المؤيد، في مواجهة مع الإبن الأصغر للسلطان المظفر، المنصور أيوب (المتوفي عام 723/1323). والذي تم استبداله سريعاً بابنه الظاهر. لأن هذه المواجهة إضافة لذلك كانت قد تجاوزت مجمل التراتبية العسكرية والإدارية. واضحة وضع انهيار التحزبات التي كانت قد شكّلتها.

كتاب بهجة الزمن في تاريخ اليمن. لعبد الباقي ابن عبد المجيد اليماني المخزومي (المدعو دائماً ابن عبد المجيد)، المحرر عام 724/1324. هو الشهادة الأقدم المحفوظة حول هذه الأزمة. كان المؤلف، المولود عام 680/1281. كاتباً للقنصلية في السنوات الأخيرة من عهد المؤيد. وبعد ثلاث سنوات من وفاة السلطان كنا نجده ضمن جماعة الظاهر. مأسوراً في حصن الدملؤة، الذي جعل منه وريث العرش مركزاً لسلطته. وحسب ابن عبد المجيد، طلب الأمير منه حينها استعراض تاريخ أولئك الذين عاشوا في حضرة رسول الله في القطر اليمني، والملوك الذين تبعوهم «فأجبته خلد الله سلطانه أني عثرت على مصنفات مختصرة، وفوائد في أمهات الكتب مشتملة على ذكر طرف من أخبار اليمن المحروس». فما هو حقيقة محتوى الجزء الأكبر من مؤلفه إنه تجميع لمقاطع منسوخة

والمنسوخة بالنسبة لما هو جوهري في حوليتي عمارة اليمني وإدريس الحمزي. لكن التماس «الظاهر» الوصي على العرش لم يكن قد توقف هنا: «فبرز مرسومه برسم ما علق بالذهن من أخباره، وأحضره الحس عن التذكر من آثاره وكان ذلك منه وهو في محل ملكه وعظمة سلطانه، بمعقل الدملؤة(...) وسُعد بخته قائداً يقود إلى طاعته قلمي عساكر الأخبار».

جرأة هذه الصورة البلاغية الأخيرة، التي جاءت لتختتم المقدمة، تدع مجالاً صغيراً للشك. فالأعمال الأخيرة المشار لها في المؤلَّف مؤرخة في عام 1324/724، وحدث أن جانب الظاهر، أحرز أكثر من انتصار حاسم، آخذاً عدن وتهامة وقام بأسر المجاهد وبجعله لاجئاً في حصن تعز. كان الكتاب إذاً يهدف قبل كل شيء لتعزيز مشروعية الوصي، الظاهر، والذي عبر فضيلته لم يكن مؤهلاً سوى لاستحقاق أن يعقب المؤيد والمظفر، وعندما يؤخذ النص كما هو نجد أنه لم يجد المناسبة لأن ينتشر حقيقة: فهناك مخطوطة واحدة، منسوخة في نهاية القرن الثامن/ الرابع عشر عبر ناسخ في البلاط الرسولي، وتم الاحتفاظ بها حتى أيامنا هذه. كان قد لزم مع ذلك التطرق لذرية معينة من المناخ المملوكي. والتي تم تلخيصها من قبل النواري في موسوعته.

إذا كان ابن عبد المجيد قد ظل وفياً لإطار الكتابة التاريخية والتي تم التلميح لها من قبل إدريس الحمزي، فإسهامه كان شخصياً أكثر منذ حكاية عهد المؤيد داؤود. ومؤرخنا كان أيضاً شاعراً، وكما كان قد ظهر فخورا بموهبته. وفي عام 1303/703، أي في عمر الثالثة والعشرين، وبعد أن أمضى شبابه في عدن، غادر ابن عبد المجيد باتجاه بلاط تعز وقام بعرض خدماته على السلطان.

وليبرهن على فصاحته، نظم قصيدة، وهي عبارة عن مقامة بعنوان: خلاصة الحِكم في المفاضلة بين السيف والقلم، ولم يبخل على القارئ بمقطع مختار. لكن من باب المعارضة. غادر اليمن سريعاً إلى آفاق أكثر رحابة. فقد حصل على فرصة عمل وبشكل محدد في الإدارة المملوكية في سورية قبل أن يعود في عام 1317/717 على رأس ديوان الإنشاء بالدولة الرسولية. ولم تكن هذه العودة قط وليدة للصدفة. فقد كان يساهم في فترة ما بالتأثير القوي للإمبراطورية المملوكية على السلطنة اليمنية، والتي تلت قدوم الأمير علاء الدين كشد غوداي عام 1315/715. وصعوده اللامع لقرب السلطان. هذا الأمير كان قد ضم إلى سياجه كل جموع المدنيين والمماليك المدعوين بحرية، والقادمين من مصر وسورية للعمل في خدمة السلطة اليمنية. ابن عبد المجيد القابع في قلب السلطة، قام بالتسجيل وبدقة لهذه التطورات التي يظهر أن له نظرة مرحبة بها.

تركزت حوليته حينها حقيقة على البلاط منذ عام 1315/715، وعلى التعيينات بالوظائف ذات المسئولية، وعلى صراعات التأثير التي أديرت بصعوبة من قبل سلطان مسن ومريض. ومع وصول المجاهد علي للعرش- كان حينها بعمر خمس عشرة سنة، هذا الجانب «المصري» والذي سبق وأن ضعف بموت الأمير علاء الدين عام 1320/720، كان موجوداً وبقوة ثم أعيد إرساله خارج دائرة السلطة الحالية، وتم استبداله بأقارب الملك الجديد. ابن عبد المجيد قال الحقيقة في هؤلاء الأخيرين: «ومنها أن (الأتابك الجديد) تغير على مماليك أبيه ونفيهم،واستجد له عسكراً، والأتابك الشجاع ابن منصور والفقيه عبد الرحمن مدبِرا دولته بل مدمِراها».

وبعد ما يقارب ستة أشهر من وفاة المؤيد داؤود، في جماد ثاني عام 722/ يونيو 1322، تم اغتيال المفضلان لدى المجاهد علي من قبل المماليك البحرية، الذين قيدوا الملك الشاب بالأغلال وأعلنوا الولاء لعمه الذي كان ما زال على قيد الحياة، المنصور أيوب ثم لابنه الظاهر. وبعد بضعة أشهر تم تحرير المجاهد علي، عبر عودة جديدة للوضع والتي لم تكن الأخيرة، وكان قد تعهد بإعادة العرش، حينها اختار ابن عبد المجيد الوفي «للجانب المصري» بأن يسخر قلمه لخدمة الظاهر وحرر لعظمته كتابه بهجة الزمن. قصر عمر

التعهد بمقاومة السلطان المجاهد علي الذي عرف من جديد نجاحاً في عام 1325/725. حينذاك فضّل ابن عبد المجيد، الذي هزمت عصبته وهربت ناحية سوريا حيث استمر في مجاله الإداري، بعيداً عن الأسوار الرطبة لحصن الدملؤة المنيع، ولم يتمكن مؤلّفه من إيجاد النهاية التي كان يبتغيها.

تم توضيح هذه التمزقات في وسط الموظفين السياسيين والعسكريين عند السلالة، وبشكل منقطع النظير في مصدر آخر معاصر وهو من النوع الذي لم يكن قد استفاد من ذلك التطور في كتابة الحوليات. إذ قام بهاء الدين محمد بن يوسف الجندي السكسكي الكندي (المدعو دائماً بالجَنَدي) في الواقع بين عامي 1323/723 و1330/730 بتحرير ما يظل بالنسبة لنا واحداً من أهم مؤلفات السيرة في اليمن الوسيط، وهو كتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك. وقد كان الجندي قبل كل شيء قاضياً شافعياً من أصل مدينة الجند وقد عمل في الوقت ذاته مدرساً ومحاسباً في المدينتين الهامتين في البلد، زبيد وعدن. يتجلى مؤلّفه من الوهلة الأولى في قالب معروف جداً لنوع من الحوليات هو «علم التاريخ» كما صرح لنا بذلك في مقدمته «علم التاريخ من العلوم المفيدة». ويهدف مؤلفه في البدء إذاً لإكمال المؤلَّف الأقدم لابن سمرة (المتوفي عام 1190/586) طبقات فقهاء اليمن والذي كان سباقاً في إعادة تعقب انتشار الشافعية في جنوب اليمن منذ القرن الخامس/ الحادي عشر، وإرجاعها إلى الاستمرارية في نقل المعرفة الدينية منذ بدايات الإسلام في هذه المنطقة عرَّف الجندي ابن سمرة قائلاً «ثم أني تتبعت كتابه فرأيت ما يدل على كمال مصنفه ونزاهته عما ينسب إليه أهل ناحيته من الإعتزال والقول،بخلاف ما صح عند أهل الطول فقد طالعت كتابه المذكور مراراً ونقلت منه إلى كتابي هذا أخباراً وأخباراً». وقد استعار مؤلِّف كتاب السلوك الأغلبية الساحقة من الملاحظات للفترة السارية حتى القرن السادس/ الثاني عشر من هذا السابق الشهير. وأخذ عنه كذلك البنية العامة لكتابه المرتب حسب الفصول أو الأجيال المتعاقبة (الطبقات). ونجده داخل الفصل نفسه مرتباً حسب مختلف مناطق نقل المعرفة. ورغم هذا الإطار المحدد سلفاً. نجد أن الجندي أضاف مع ذلك تجديداً على مستوى الحجم «ثم عرض لي أنه متى عرض مع ذكر أحد من الأعيان ذكرت من حاله ما لاقى ثم أضفت إلى ذلك طرفاً من أخبار الملوك وجعلته مختصراً».

مؤلّفه إذاً يذهب أبعد من أن يكون مجرد تاريخ بسيط لنقل المعرفة الدينية. أو مؤلَّف عن حياة موجبة للعبرة. فلم يفصل الجندي رجال الدين والمتعلمين والقضاة عن المجتمع المحيط بهم. من جهة أخرى لم يتردد في ما يخص السير للعارفين من الاستطرادات حول شيخ القرية أو حول الأعيان الساميين في المدينة والمشار لهم في إحدى الحكايات. هذه الاستطرادات عملت في الوقت ذاته على إغناء وتعقيد المؤلَّف التي تَوَّه أكثر من قارئ.

إضافة لذلك. أدخل الجندي الشخصيات الرئيسية للسلطات الزمنية في البنية ذاتها لمؤلفه. فبمجرد الانتهاء من حياة النبي التي كانت بمثابة افتتاح. تم تجميع الأجيال المختلفة في مجموعتين واللتان كان انقطاعهما التاريخي بين القرنين الرابع/ العاشر والخامس/ الحادي عشر. وهي فترة دخول الشافعية إلى اليمن. كل مجموعة من أجيال العارفين توجد متبوعة بملاحظات منسوخة ومسخرة للسلاطين الرسوليين وللمحيطين بهم من الأمراء والكتب وأصحاب المقام. ولم يكن هناك قط. قبل كتاب السلوك، تقديم لهذه الشخصيات بمثل هذه النظامية.

إلا أن الجندي اعتنى بتسجيل الحدود لهذا التوسع بشكل مؤكد: «ولم أضع هذا الكتاب جامعاً لعلم التاريخ بل غرضي أن لا أخليه عن نبذة مفيدة من التاريخ فيها ذكر الملوك وأعيان دولتهم الأخيار،لاسيما الدول الرسولية إذ تحقيق ذلك ممكن».

ماذا نفهم بالضبط من «نبذة مفيدة»؟ عنه يكن الجندي غائباً عن الأحداث فيما يتعلق بالملاحظات المسخرة للسلاطين الرسوليين. فهو يكتفي بتذكر

بعض الوقائع التي تميز أشكال الحكم وبالتحديد شروط الوصول للعرش. ثم يشير في وقت آخر للمنجزات المعمارية لكل سلطان وللمؤسسات الدينية التي أسسها، وكذلك تعامله مع المتعلمين ومع المعرفة، كل هذا كان محسوباً كفضائل للملك. ويسري ذلك على الأمراء والكتاب الذين تم تحديدهم بشكل أكثر نظامية حسب علاقاتهم بالمؤسسات الدينية أو بالمعرفة (تصنيف الكتب، التعليم، امتلاك مكتبة). إضافة لذلك عملية إتّباع منهج في التقديم مطبق في البدء على العارفين، حتى أن الجندي لم يتردد في تجاوز الإطار التاريخي المفروض مبدئياً لإعادة تعقب تركيبة الذرية الحقيقية في قلب الإدارة الرسولية. طريق معبدة، إلا أن الجندي يقدم السلطة كذلك بحلة جديدة: فلم يكن استخدام القوة هو الأول، وإنما نقل المعرفة والفضيلة قبل كل شيء. كما أن أجيال العارفين متتابعة واحد تلو آخر، تعزز تمرير وانتشار المعرفة الدينية. حتى عملية نقل السلطة من سلطان لآخر ومن جيل من الخدم لآخر، تقدم عند الجندي بملامح تعاقب وتراكم طبيعيين بحيث تترسخ وبشكل عميق مشروعية السلالة الحاكمة. هل نستطيع أن نرى في هذا التقديم، طبقاً لعقلانية خاصة بقاضٍ من بداية القرن الثامن/ الرابع عشر، ميلاً لفهم الوجهة التي تشكلت وتمظهرت بها الإدارة القوية أيام السلاطين الرسوليين الأوائل، وكذلك، بدرجة أقل أيام الملوك الأيوبيين؟ من المهم ملاحظة أن هذه البنائية لموقف الجندي كانت تدل وبشكل نهائي على تأسيس علاقة طفيفة بين انتشار السنية الشافعية في جنوب وغرب اليمن، وبناء الدولة القوية، وبشكل خاص بعد ترسخ السلالة الرسولية.

تصنيف كتاب السلوك للجندي ليس راجعاً في أي شيء إلى الحظ، ففي مواضع عدة في سياق مؤلفه. يشير المؤلف للتاريخ الذي كان محدداً كأجل لكتابه: 1324/724. وهو مقارب لنفس السنة التي تم فيها تحرير كتاب بهجة الزمن لابن عبد المجيد. كان الجندي قد بدأ بالطبع بإنضاج مشروعه وبجمع وثائقه- بأعداد معتبرة- منذ زمن طويل جداً، منذ بداية تنقلاته على الأراضي الرسولية. إنما هناك وبما لا يدع مجالاً للمراهنة، أن قرار تحرير عمله لم يكن بمنأى عن صيغة الاستيلاء الناجمة عن أزمة التتابع للسلطان المؤيد داؤود. فإذا كان الجندي في الأغلب مشرعناً- إلا أنه لم يصف الملك الظاهر بالسلطان ولا مرة، بخلاف ابن عبد المجيد، ولم يكن بالمثل في هذه اللحظة معيناً في خدمة السلطة ولم يتخذ موقفاً في حرب التعاقب هذه. مشروعه الذي كان يظهر تشابهاً بين نظام السلطة وبين نظامي المعرفة والإيمان، كان قد أخذ شكلاً خاصاً جداً في اللحظة التي أخذت بها ديمومة الدولة بالمعنى الواسع- السلطان وخدمه- توجد مجزأة بشكل عنيف، فبالنسبة للجندي لم يكن «المسلمين» مهدَدين في تكامل كيانهم عبر تضاعف المشاكل، وغياب الأمان في المدن وفي الطرقات. فما شكل تهديداً أشد خطورة على نقل المعرفة المنتشرة كان أزمة سنة 1320/720. وحتى لو أن نتائجها قد ظهرت عام 1324/724، لم يكف المؤلف وبشكل دال عن مساءلة الواقع المشتعل لزمانه. وتوجد في الحقيقة إضافة تالية لنصه الأساسي وهي حكاية حولية للسنوات من 724-1324/730-1330. إنما دون تنقل واضح. هذا الشكل المفكك والمربك للصفحات الأخيرة يوحي بأنه متعلق حينها بالملاحظات التي كان المؤلِّف يضيفها حتى وفاته عام 1331/731، وكان قد شكل «علامة استفهام» واضحة، علامة عدم إنجاز، في مؤلَّف كان مع ذلك ملحقاً ليعكس اقتراب الخدم من الله ومن أولئك السلاطين. كان كتاب السلوك للجندي مدرسة، بضخامة المؤلَّف، وبالتجديد في موضوعه وبأصالته وبتنظيمه، تدهش المعاصرين بدون شك، بالرغم من أنه لم يتم الاحتفاظ بأي شهادة حول الاستقبال الفوري للمؤلَّف. وأياً كان الأمر، من المدهش أن نقر في النصف الثاني من القرن الثامن/ القرن الرابع عشر، وفي بداية القرن التاسع/ الخامس عشر، بتحرير مؤلَّفات قد أخذت بشكل إيمائي الخصائص الأكثر بروزاً لكتاب السلوك في طبقات الملوك. فكتاب

تاريخ مدينة أصاب. المحرر في النصف الثاني من القرن الثامن/ الرابع عشر من قبل متعلم متواضع هو عبدالرحمن بن محمد الحبيشي الأصابي. إعتمد على مناهج عرض قريبة من تلك التي للجندي مطبقاً إياها في مجال أشد ضيقاً. وفي الواقع المؤلَّف مقسوم إلى جزئين أساسيين، تاريخ سياسي من جهة، وتاريخ للعلماء الدينيين من جهة أخرى. فالحكاية التي تعتمد على الأحداث ليست دائماً متماسكة في بنيتها.

فبعد أن ذكر بشكل موجز التاريخ العام للسلالة الزيدية والصليحية، يورد الأصابي توصيفاً لإقليم أصاب، لمدنه وحصونه، وينقل عادات ترتقي أحياناً لماضي قديم جداً. ثم يعود للإشارة إلى الملوك الذين تولوا في أصاب، إنما مع بعض التكرار، ملحاً بشكل خاص على الرسوليين حتى عهد السلطان الأفضل العباس. يشير الأصابي لاحقاً لأولئك الذين كانوا في خدمة الملوك كحكام الحصون أو المدن في الإقليم. لهذا كان يظهر السياق الذي كتب من أجله المؤلَّف وبشكل واضح، فالتاريخ، كما يعلن ذلك المؤلِّف في مقدمته، يسمح لنا بـ «التفكر في تقلب الزمان». الأصابي، المولود عام 1332/732، كان وبشكل عميق موسوماً كمعاصريه، بأسر السلطان المجاهد علي عام 1351/751. هذا الحدث شكل منعطفاً حقيقياً، متضمناً ضعف السلطة السلطانية في الإقليم.

يذكر المؤلِّف أن في زمنه «سكان أصاب يحكمون بأنفسهم كل حصن في أصاب. ولا يرهنون عند خضوعهم إلا عملة السكة والدعاء من على المنابر « يجب أن نفهم من هذا أن سكان المنطقة لم يعودوا يدفعون الضريبة المتوجبة للسلطان. لذلك، أثناء عهدي المظفر يوسف والمؤيد داؤود وبداية عهد المجاهد علي، والممثلة بشكل فعال بالحكام العادلين والمحترمين، كانت تظهر كالعصر الذهبي، المتبوع بالفوضى وغياب النظام. كان المؤلَّف مع ذلك ليس تاماً، بالتأكيد بسبب موت المؤلِّف في بداية سنة 1380/780. ثم أعيد أخذه وتم إكماله في أواسط القرن التاسع/ الخامس عشر من قبل أحد أحفاده، في وقت كانت فيه السلطة الرسولية حقيقة تحتضر.

التاريخ المعاد تأويله (النصف الثاني من القرن الثامن عشر/ الرابع عشر):

شكلت عملية حبس السلطان المجاهد علي في مكة في ذو القعدة 751/ديسمبر 1351 من قبل أمير القافلة المصرية منعطفاً كبيراً في تاريخ السلالة. فقد اقتيد إلى القاهرة مهاناً وغائباً عن مملكته لما يقارب السنة. وفي الأخير استرجع المجاهد علي سلطة هشة. فقد وقعت مشاكل كثيرة في تهامة منذ عام 754 1353 مؤثرة في الصميم على موارد السلطنة. السلطانين الأفضل العباس (764-778/1363-1377). ثم ابنه الأشرف إسماعيل (778-803/1377-1400) توصلا لقهر التهديدات المختلفة. مركزين جهودهما بشكل خاص على وادي زبيد. وفي اللحظة التي تعهدا فيها في هذا المؤلَّف بإعادة بناء قوة متداعية. حققت كتابة التاريخ الرسولي إنجازاتها الأكثر ضخامة.

الجميع كجدهم المؤيد داؤود. والذي كان يمتلك حسب أقوال ابن عبد المجيد «ما يقارب من 100. 000 كتاب» فالسلطانين الأفضل العباس والأشرف إسماعيل كانا من هواة الكتب النادرة. سمعتهما في هذا الموضوع كانت قد تجاوزت حدود مملكتهما كما يشهد عليها المصري المقريزي،فهو يقول عن الأشرف: «كان مغرىً بجمع الكتب،أخبرني نجم الدين المرجاني،وكان قدم علينا بالقاهرة لشراء كتب للأشرف فسألته مقدار كتبه فقال لي: مخزانة كُتُبه مقدار حزة». وكتب إلي الحافظُ قاضي القُضاة أبو الفضل أحمد ابن حجر(العسقلاني). قال:أخبرني الجمال المصري أنه أمر بقراءة «صحيح مسلم» على شيخنا المحدث مجد الدين الفيروزآبادي الشيرازي صاحب «قاموس المحيط»،وألتمس منه شيئاً من النُسخ الصحيحة والشروح قال:فوجهني إلى الحصن بتعز فستحرجت منه من هذا النوع خاصةً حمل حمل. قال الحافظ شهاب الدين ابن حجر رأيت أن هذا الحصر وحررت الكتب التي فيه نحو الخمسة آلاف مجلد فلا تريد قليلاً ولكني ما تمكنت من تقليبها لإعجال الذي رافقه».

في الواقع، لم تكن آثار هذه الأنشطة المكثفة في الجمع والبحث والنسخ قليلة. فالشهادة الأكثر وضوحاً تكمن في حجم المخطوطة التي جمعت ما يقارب من 151 نصاً من مجالات متعددة (علم الفلك والطب والتاريخ والزراعة... الخ) وقد نُسخت بأمر الأفضل العباس بين عامي 1372 و 1376. إضافة لذلك، أن المؤرخين المعاصرين واللاحقين أسندوا للملوك عدة مؤلفات وقد وصل لنا جزء منها فقط. فالأمر مع ذلك يتعلق بعدم إرجاع غلط التاريخ إلى إلمام «المؤلِّف». ولم يكن نشاط السلاطين في الكتابة مفصولاً في الحقيقة عن نشاط محيطهم القريب، وحقيقة فيما يتعلق بالأفضل العباس يذكر المقريزي: «ويقال:أن قاضي تعز رضي الدين أبا بكر بن محمد بن عيسى بن يوسف النزاري الصبري كان يعينه على تأليفها».

أما تقديم السلطان الأشرف إسماعيل من قبل السخاوي، في نهاية القرن التاسع/ الخامس عشر، فهو أنه لم يكن واضحاً بالنسبة لهذا الموضوع: «أنه يضع وضعاً ويحد حداً،ثم يأمر من يتمه على ذلك الوضع ويعرض عليه فيما ارتضاه أثبته وما شذ عن مقصوده حذفه وما وجده ناقصاً أتمه». كان دور الملكين إذاً محدداً بالنشاط الثقافي لزمنهما، فإذا لم يكونا محررين لمعظم المؤلفات المسندة لهما شخصياً، فهما لم يتوانيا في بذل الجهد في اختيار موادها وتصنيفها. وبهذا، تصبح دراسة هذه المؤلفات مفيدة لفهم ماهية رهانات هذه الكتابة المكثفة، أو إعادة كتابة التاريخ الرسولي في الثلث الأخير من القرن الثامن.

الصورة الشخصية للأفضل العباس المقدمة من قبل الحولي الأساسي لتلك الفترة الخزرجي (المتوفي عام 812/1409)، تسمح بقياس سعة نشاطه في كتابة التاريخ: «وكان ملكاً شهماً يقظاً عازماً أبياً ذكياً فقيهاً مشاركاً للعلماء في عدة فنون من العلم عارفاً بالنحو والآداب واللغة والأنساب وسير العرب وسير الملوك،وصنف عدة من الكتب منها كتاب«نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون» لم يحذ على مثاله ولم ينسج على منواله، وهو كتاب نافع جداً وله أيضاً كتاب«العطايا السنية في المناقب اليمنية» يحتوي على طبقات فقهاء اليمن وكبرائها وملوكها ووزرائها. وله كتاب «نزهة الأبصار في إختصار كنز الأخيار». واختصر تاريخ ابن خلكان. وله كتاب«بغية ذوي الهمم في أنساب العرب والعجم» وله غير ذلك».

فهناك عدة خصائص تجلت عبر هذا الوصف. فبالنسبة للتاريخ وضع الخزرجي في المقدمة ما يعجب الملك وبأشكال مختلفة جداً، تتأرجح من ملخص المؤلفات الأقدم (إدريس الحمزي وابن خلكان)، إلى تصنيف مؤلفات أصلية وقد وصلت إلينا كلها. هذه الأخيرة كانت ترد بصنفين مميزين غير أنهما مرتبطين، علم الأنساب ومؤلفات السير. فالاستفادة من علم الأنساب كانت قديمة في العائلة الرسولية. ولنتذكر مؤلف الأشرف عمر ابن المظفر يوسف وهو طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، والذي كان سباقاً في تأكيد الانتماء العربي للرسوليين نسبة لبني غسان. ثم أعاد الأفضل العباس تناول هذه المواضيع في رسالة قصيرة في الأنساب وفي مؤلف أطول وهو بغية ذوي الهمم في أنساب العرب والعجم، وهو غير منشور حتى الوقت الحاضر. إلا أن الخزرجي نفسه توسع في حكاية الأصول قبل الإسلامية للسلالة، في بحث ضائع حتى اليوم، وهو المحصول في انتساب بني رسول، والذي وردت مادته في بداية حوليته الشهيرة للرسوليين العقود اللؤلؤية. أما استدعاء وانتشار إدعاءاته الأنسابية فقد كانا بدون شك ملحين جداً من أجل إعادة تعزيز مشروعية السلالة لمواجهة الانتفاضات الدائمة لقبائل تهامة في الجنوب.

بالنسبة للخزرجي، تم تميُّز السلطان الأفضل العباس بشكل خاص عبر مؤلفاته السيرية. فمؤلَّفه العطايا السنية والذي سينال اهتمامنا هنا. يحتوي على 972 سيرة للمتعلمين وللكبار، ولملوك اليمن منذ فترة صحابة النبي، فهو يقع ضمن امتداد كتاب السلوك للجندي، والذي أُخذت مادته بشكل واسع. إلا أنه وخلافاً لهذا، قام السلطان بإرفاق تصنيف أبجدي دقيق للشخصيات متبوعاً بأسمائهم، مع استثناءات عدة ملاحظة عن كتب:

فالصحابة الذين عاشوا في اليمن تم وضعهم حقيقة في المقدمة، أما افتتاحية الفصل فقد خصصت للحرف الأول من أسمائهم. وهناك إضافة تفوق ما جاء به الجندي وهي أن الأفضل العباس ركز على المتعلمين الشافعيين في اليمن الجنوبي. فهو يورد علاوة على ذلك حسب إحصاءاتنا 233 كاتب سيرة جديد مقارنة بمؤلف الجندي أو بمؤلف ابن سُمرة، وهو يحتوي على 29 عضواً في العائلة الرسولية، أبناء وإخوان أو أبناء عموم السلاطين، ويحتوي كذلك على 41 عضواً في الجيش والإدارة أو في المحيط القريب من السلاطين الرسوليين. وضمن هؤلاء احتل خدم المجاهد علي والأفضل العباس مكانة هامة: فهناك 25 من عهد الأول، و18 من عهد الثاني، ويلح السلطان كاتب السيرة بشكل خاص على استمرارية الموظفين من محيط أبيه إلى محيطه: وهناك ما يقارب إحدى عشر ملاحظة مخصصة للأصحاب الذين خدموا الملكين. ويورد مع ذلك بينهم تسعة مخصيين؟ ممن مارسوا وظائف عليا في القصر أو في الحصون السلطانية الأساسية، مجموعة شكَّل وفائها جيشاً هاماً للسلطان المجاهد علي أثناء صراعه على العرش. نستنتج من ذلك أن المؤلِّف كان يهدف منذ البدء إلى المسح النهائي لتأثيرات أزمة التعاقب في عام 730/1330. وفي لحظة تحرير كتاب العطايا، كان قد تم تسوية التمزقات التي كانت تهدد باقتلاع كل موظفي الدولة: «كيانات» جديدة كانت قد تشكلت حول السلطان المجاهد علي ثم حول ابنه الأفضل ودون انقطاع. «خدمنا بشكل مرضٍ»: هذه العبارة تتكرر أكثر من مرة بقلم الملك المتحدث عن هذا أو ذاك من مساعديه. وكانت معظم الملاحظات حولهم موجزة، مشيرة بشكل نظامي للمهام المكلفين بها، ونادراً ما كانت تتعلق بنوعيات البشر. لأن هذه مشار لها، فالملك يُلح في الوقت ذاته على وفاء الشخصية وعلى سيرته الحسنة غير المتعارضة مع تعاليم الإسلام.

هناك مقاطع أطول مسخرة للملوك الرسوليين انفسهم- مع إقصاء كل ملك من سلالات سابقة: فالانشغال بإعادة كتابة التاريخ كان يظهر هنا بشكل صارخ. فهناك قليل من الوقائع العسكرية، ولكن هناك الحاح على ورع ومعرفة مختلف الملوك. فلم يعد مؤسس السلالة المنصور عمر المقاتل، وبدرجة ما الخض كما صوره ابن حاتم. فقد صار يتصف حسب نظرة أحد أحفاده البعيدين بأنه الرجل المحب لصحبة العارفين والمشيِّد الكبير السائر على «طريق الحق» والذي مات مستشهداً». أما ابنه المظفر يوسف فقد نال مجداً عالمياً، دونما علاقة بالتوسع

الحقيقي لسلطته: «وملك مكة ونواحيها والطائف وما والاه،... (وخطب له في الحبشة) وأقاب وعيذاب ودهلك، وبنى جامع الصين،وأثبت فيه منبراً وخطب له عليه، وبنى جامع هرموز». أما بالنسبة لابنه المؤيد داؤود، «فالعارفون بالسِير يقولون ما أشبه أبا المظفر داود بأبي المأمون هارون الرشيد». إلا أن المدائح بلغت الذروة لأن المؤلِّف يأتي بها لذكر أبيه المجاهد علي في واحدة من السير الأطول في المؤلَّف. لأن «سيره لو تعرضنا لذكرها لاستغرقنا كتباً كبيرة». ويعد أن ذكر بالكلمات المبطنة شروط التعاقب على عرش الملك. وعدَّد طويلاً منجزاته المعمارية. عاد الأفضل العباس إلى الأحداث المؤلمة. الأسر والاقتياد إلى مصر. ولكن بعد أن انقلب معناها كلياً لصالح الرسوليين.

«ثم سافر للحج في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة،وجرت له القصة المشهورة. ودخل مصر وحضر عند سلطانها في جماعة الفقهاء المفتين. فدار معهم في كل فن وباحثهم في كل علم،وحتى سلب قلوبهم وجلب عقولهم فعظَموا قدره وسيدوا ذكره وحينئذ خاف سلطان مصر من أن يبايعوه ويدخلوا تحت طاعته لما اتضح لهم من أهليته وكماله. فأقام هنالك اثنى عشر شهراً وعاد إلى أرض اليمن قرير العين».

مع كتاب العطايا السنية تم التكريس إذاً لنموذج الملك المتعلم كأحد المبادئ المتبعة في السلالة الرسولية بمجملها. والمستخدم كلياً كحجة للحصول على هيئة أسبقية نظرية مقارنة بسلطان مصر التركي، حسن، الإبن الشاب للناصر محمد. ومسح مدنة لاسمر هذا الادعاء العارف كان يعمل قبل كل شيء على عمدة تثبيت المشروعية المحتج عليها في الأرض اليمنية...

هنا كان الجندي قد رسم مخططاً عبر كتابه المنظم للموازاة بين نقل المعرفة ونقل السلطة، وكذلك الأفضل العباس، عبر اختيار التصنيف الأبجدي للملاحظات السيرية، سامحاً بالإقصاء وبسهولة للملوك غير الرسوليين، كل ذلك كان يدل على الاستئثار من قبل هذه السلالة بالموارد الرمزية المأخوذة من الهيبة القديمة الدينية والعارفة للعربية الجنوبية. القضاة الفاضلين والسلاطين الأجلاء والخدم الأولياء، كلهم كان ينظر لهم مجتمعين تحت مظلة لقب الصحبة، مما يضمن مصداقية تسلسلهم الإسلامي.

ودون شك، كان كتاب العطايا السنية في البدء موجهاً ليعمل كمرجع للمحيطين بالسلطان الأفضل العباس أو لذريته. فالأعداد القليلة من النسخ المحتفظ بها حتى اليوم، وكذلك الاستخدام المحدد الذي كان لها في المؤلفات اللاحقة ينزعان لأن يثبتا ذلك. إضافة لذلك، يذهب الأفضل العباس في كتاب آخر من تصنيفه والذي تجلى على نمط «مرايا الأمراء» ليوضح كلياً المنزلة الخاصة التي كان يحتلها عنده نمط السيرة: «يتوجب على الملك قراءة وإعادة قراءة سِير القدامى، وحكايات بشر الماضي، وتاريخ أولئك الذين سبقونا. قال قُس بن ساعدة الإيادي: «بين رجال القرون الماضية نجد بشائر». إذا لاحظ ملك القصائد الملحمية للملوك السابقين، توجب عليه بالضرورة تعقب آثارهم، وأن يتصرف طبقاً لممارساتهم، يقرأ الكتابات التي تتضمن مواعظهم وتعليماتهم الهامة، لأنهم عاشوا أكثر وملكوا خبرة أكثر اتساعاً وحكم أكثر رجاحة».

سيَر القدامى هي النمط الوحيد للكتابة التاريخية التي تم ذكرها في كل «مرآة» السلطان الأفضل العباس، والذي قدم جرداً محدداً لكل ما يتوجب على الملك معرفته. فالعناية الخاصة التي قدمها السلطان لتحرير كتاب العطايا هل يجب أن تفهم من هذا المنظور؟ فالأفضل العباس أنجز مؤلفه للسيرة في عام 1369/770، وهي نفس السنة التي لـ «مرآته»، ويوجد هنا ما هو أكثر من مصادفة. دون شك، توقع كذلك أن يوزع للملوك من ذريته سيرة وفضائل أجدادهم العظماء كنموذج. هناك مؤلَف آخر، وتحريره قد تم من قبل مؤلفين مجهولين في عهد الأفضل العباس أو الأشرف إسماعيل، هو يشهد كذلك على إرادة توزيع نسخة «رسمية» للتاريخ. هذا النص معروف بنسختين إحداها متوقفة عند عام 1404/807، والأخرى عند عام 1436/840. يبدأ المؤلِّف بالتعاقب على السلطة عند السلالة الإسماعيلية الصليحية في عام 1047/439، ثم يتحدث بشكل سريع عن الأيوبيين، قبل أن يسجل بشكل احتفائي وصول (الملوك العظماء والنبلاء والسادة الفاضلين بنو رسول). أما الحوليات اللاحقة فهي مُجَمَّعة عهداً فعهد، كل واحد يبدأ بصيغة استعطافية قصيرة للأربعة السلاطين الأوائل. «قدس الله روحه في الجنة». وتوحي الإطالة في التصنيفات وفي الملاحظات الحولية منذ عهد الأفضل العباس بأن الحوليات عرفت مراحل عدة في التحرير منذ عهد هذا الأخير. ففي البدء تم تجميع التواريخ أيام الأفضل العباس والأشرف إسماعيل في سياق اهتمامهما بكتابة التاريخ، وكانت قد اكتملت لاحقاً بالتتابع خلال كل عهد حتى عام 1436/840 سنتان قبل نهاية عهد الظاهر يحيى، السلطان الأخير الجدير بالذكر للسلالة. العدد القليل لنسخ هذا النص وميزة نسبته لمجهول يشيران، هنا أيضاً إلى أنه كان متعلقاً بإنتاج موجه لاستخدام محدود، في إطار البلاط الرسولي.

يختلف كلياً ذلك الإنتشار للحوليات المحررة من قبل السلطان الأشرف إسماعيل والمؤرخ الأساسي لمحيطه الخزرجي المولود في عام 1330/730، فهذا الأخير كان قد خدم في البدء الأفضل العباس بالإشراف على زخرفة الجوامع والقصور الملكية. وكان لاحقاً مكلفاً في عام 1382/784 بالقيام بالحج إلى مكة لأم الأشرف إسماعيل المتوفية في نفس السنة. وعند عودته استثناه السلطان من الضرائب (الخراج) المتوجبة على أرضه ونخيله في وادي زبيد. نستنتج إذاً من ذلك أنه كان محمياً من قبل الملك. تطابق المؤلفات الخاصة بالأشرف إسماعيل وبالخزرجي، تاريخ عالمي و تاريخان لليمن الإسلامي و تاريخ للرسوليين، محسوبة بالتناوب على واحد أو آخر، مما أعطى مساحة لعدة نقاشات تثبت كم هي صعبة

خصومة الأبناء على إنتاج مراكب بطريقة متشابكة. المؤلَّف الأكثر شهرة من بين الجميع، على الأقل اليوم، هو حولية السلالة الرسولية العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية المسند بدون اعتراض إلى الخزرجي، إنما وباستثناء تام لم يكن يشكل كتاباً في البدء. فالطبعة الحديثة تمت طبقاً لمخطوطة هندية متأخرة وجدت في الهند. ولا تحتوي من جهة أخرى على مقدمة للمؤلف وتنتهي بموت السلطان الأشرف إسماعيل في ربيع أول 803/أكتوبر 1400، وكانت هناك قصيدة تمجده بمثابة الخاتمة. في الواقع، المؤلَّف كان عبارة عن جزء من حولية أكبر وسعة، مسخرة لملوك اليمن منذ بدايات الإسلام.

مع ذلك، يتعقد الشأن لأن هناك حوليتين عالميتين كانتا مسندتان إلى الخزرجي، إحداها «طبقات للسنوات» (بعنوان العسجد المسبوك) والأخرى «حسب الدول» (بعنوان الكفاية والإعلام). مقارنة مخططا المؤلَّفين تشير إلى أن الأمر كان متعلقاً تقريباً بحولية واحدة وبنفس النص. إنما تم تداولها بأحجام وعناوين مختلفة، وبنسخ منقحة عبر الزمن، والتي يصعب تحديد تاريخها حالياً. ولزيادة تعقيد الوضع، بعض هذه النصوص كان أحياناً مسنداً للسلطان الأشرف إسماعيل نفسه بتسمية العسجد المسبوك أو فاكهة الزمان. ومع غياب الدراسة الدقيقة لـ 27 مخطوطة تم إحصائها حالياً لهذه الكوكبة من العناوين التي تُكون ما ندعوها «الحولية الكبيرة» الرسولية، ويمكن أن تكون بعض النقاط فقط مثبتة مع التأكيد:

- أنها نصوص تاريخية متقاربة أو متشابهة تم تداولها باسمي المؤلِّفين، وهذا بتاريخ مبكر. بالتأكيد، نملك قليل من المخطوطات المؤرخة لهذه المؤلفات ترتقي للقرن التاسع/ الخامس عشر، إنما يشهد المقريزي في كتابه للسيرة، المؤلف بتاريخ 839/1435، بما يخص الأول أي الأشرف إسماعيل: «وقَدِم علينا القاهرة تاريخٌ في عدة مُجلدات من تصنيفه وفيه بخطه: «قال الأشرف كذا»...». من المؤكد أن مشروع الحولية كان مرتبطاً بالملك الأشرف إسماعيل نفسه. فحولية فاكهة الزمن، المسندة إليه مباشرة، والتي توقفت قبل موته بيوم عام 802 1399 والعقود اللؤلؤية خُتم. كما رأيناه في فترة وفاة المنت وبالتحديد بعدها بسنة. أما التالي فهو الخزرجي الذي توفي عام 1410/802 ولم يكمل هذه الحولية.

- أن هذه النصوص تغرف من نفس المصادر فيما يتعلق بتاريخ السلالة بمعنى الكلمة. وبالتحديد ابن حاتم وابن عبد المجيد والجندي والأفضل العباس. الذين أعادوا ترتيبها وحتى أعادوا كتابتها وقاموا بإخفاء التضاريات الأساسية بينها. أشار جورج ريكس سميث كذلك إلى الشكل الذي سُردت به حكاية الاستيلاء على السلطة من قبل المنصور عمر مؤسس السلالة عند الخزرجي في العقود اللؤلؤية والتي كانت تختلف بشكل ملموس عن تلك التي لابن حاتم الذي كان ينزع وبوضوح للانتقاد. في هذه الحالة كما في حالات أخرى، عمل إعادة الكتابة للأصول كان يتم بواسطة الحمزي وابن عبد المجيد. والذي كان بالضرورة لصالح الرسوليين.

بالنسبة لما تبقى، معرفتنا لعملية تصنيف هذه الحولية الكبيرة تعتمد على التخمين. فإذا تتبعنا تقاسم الأعمال كما نقله السخاوي. توجب أن يكون الأشرف نفسه من بدأ هذا المشروع: فهو من ثبت المخطط. ولكن وبما لا يدع مجالاً للشك أن الخزرجي هو من جمع المادة الأساسية. وبمجرد وصولها ليد السلطان، عرف المؤلَّف تقريباً «إضافات أو حذف» من جهته، ثم أصبح حينها مؤلف سلطاني. متوسعٌ وكاملٌ حتى قبل وفاته بيوم، وذلك بتاريخ 1399/802. وبالتوازي، استمر الخزرجي من جانبه بإغناء المجمل والذي تم تداوله كذلك باسمه.

السلالة لم تخفق هناك قط، مما جعل من الخزرجي المؤرخ الحقيقي للسلالة، فسنينه الأخيرة تظهر أنه كانت مشغولة بتحرير قاموسه السيري. وهو يعد معروف بأكثر من عنوان وبأكثر من نسخة. طراز أعلام الزمن أو العقد الفاخر الحسن في طبقات أعيان اليمن ولم يُسند قاموسه هذا قط للملك واختصر جيده الطراز/ العقد كان قد استأنف مؤلَّف السيرة

بدأه السلطان الأفضل العبّاس،متّبعاً مبادئه(نظام أبجدي موضوع قبل كُتّاب السير والأصحاب والنبي). ولكن مع مادة أكثر توسعا. بإضافة هذا المؤلف إلى مختلف النسخ من حوليته، كان الخزرجي قد أضفى على إنجازه بنية كتابة تاريخية منظمة ومنسقة تم نضجها على امتداد القرن السابع/ الثالث عشر قبل أن تنفتح تحت التحريض القاطع للـ «الملكيين المؤرخين» الأفضل العباس والأشرف إسماعيل. كان مؤلف الخزرجي في نسخته الحولية قد قدم العدالة لترى عملياً وكذلك نبل سلطة هي قبل كل شيء عائلية وسلالية مؤسسة على قِدم السلالة وعلى الميزة القدرية لتناقل الإرث. كان عمله السيري يعيد مكانة الملوك وخدمهم إلى الصحبة الرائعة للعارفين وللقديسين، مقدمة للقراءة بناءً متمهلاً للدولة من مرآة الانتقال غير المنقطع للمعرفة وللإيمان مجمل عمل الخزرجي، الذي عرف انتشاراً واسعاً، ثبّت العرض الشرعي للتاريخ الرسولي منذ استيلاء المنصور عمر على السلطة حتى عهد الأشرف إسماعيل وبشكل نهائي. وعلى هذا المجمل اعتمد مؤلفي القرنين العاشر- الحادي عشر/ السادس عشر- السابع عشر، سواء كانوا سنيين كابن الديبع (المتوفي عام 944/1537) أو زيديين كالشرفي (المتوفي عام 1055/1645) ويحيى بن الحسين (المتوفي عام 1100/1688) . وقد تناولوا بدورهم الوقائع العليا لهذه السلالة.

هل يعتبر عمل الخزرجي مؤلفاً أصيلاً؟ الصعوبة تكمن في تحديد ما هو خارج عهد الأشرف إسماعيل الذي كان فيه الخزرجي أحد الشهود المميزين، أما باقي كتاباته فتقوم على إعادة إنتاج، غالباً مشابهة للمؤرخين الذين سبقوه، الذين نادراً ما يشار لهم بشكل مستقل. أهمية الخزرجي تكمن في الواقع في جهده في البناء وفي التأسيس لأطروحة حاذقة لأشكال متعددة في كتابة التاريخ، كانت الريادة فيها لأسلافه من الأمراء المؤرخين لنهاية القرن السابع/ الثالث عشر. فمن الحوليات الأولى، لابن حاتم ولإدريس الحمزي، كان الخزرجي قد استعار الحكاية الحولية أو المعارك الملحمية التي سجلت التوسع الهادئ للهيمنة الرسولية على كامل اليمن. بشكل آخر، كان الاسترجاع، وحتى الإسهاب في لخطاب الأنسابي المدشن من قبل السلطان الأشرف عمر في النصف الثاني من القرن السابع/ الثالث عشر، قد عاد لاستعارة جزءٍ من اللغة السلالية للقبائل العربية الجنوبية، والتي كان الدعم فيها أساساً لإبقاء السلطة في مواجهة التهديد الزيدي.

وفي «مستوى» آخر، وبعيداً عن مخاوف وضجيج المحاربين، يعيد الخزرجي تعقب، بداية ظهور مساحة البلاط والتوسع المستمر للإدارة المدنية والقضائية والدينية، الممزقة آنياً بسبب الأزمة الكبيرة لعام 720/1320, آخذاً كلمات ابن عبد المجيد والجندي. إنما إذا كان الخزرجي يتزود بكثرة من ملاحظات كُتّاب السير الذين جمعهم الجندي، إنما لا يأخذ لحسابه البناء الأصيل لكتاب السلوك الذي كان قد بسط بالتوازي خط السلطة، معيداً ربط الملوك ورجالهم للسيف وللقلم و«حلقات» المعرفة، المحفوظة والمنقولة عبر الصفوة الدينية. وعلى غرار كتاب العطايا السنية للسلطان الأفضل العباس الذي يستخدمه بكثرة، إتّبع الخزرجي تصنيفاً أبجدياً في مؤلّفه للسيرة، العقد/ الطراز. وبطريقة أخرى، وحسب عادة ملاحظة في مناطق أخرى من العالم العربي، يعتبركتاب العقود اللؤلؤية جزءاً هاماً من «الحولية الرسولية الكبيرة» والتي احتوت على ملاحظات سيرية قصيرة مفصّلة تالية لأحداث كل سنة. الملاحظات السيرية كانت توجد كذلك معاد توزيعها حسب التصنيف التاريخي الذي يُخضعها له، وعبر البنية نفسها للمؤلّف وعلى امتداد الأحداث الدنيوية. بهذا المعنى، الكتابة التاريخية المنقولة عن الملكين- المؤرخين لنهاية القرن الثامن/ الرابع عشر ومحيطهما بحثت بالتأكيد عن انتزاع شكل الكتابة التاريخية المدشنة من قبل الجندي. فهي عند هذا الأخير، مظهر نقل المعرفة الذي كان منمذجاً حسب نقل المعرفة الدينية والتعليمية.

العلاقة معكوسة في الحولية الكبيرة: فعالم العلماء ينصهر في إطار مملي من المؤسسة نفسها للدولة السلطانية.

بالإضافة للمواجهات بين القبائل والسلطة الرسولية، هناك أيضاً العلاقات المعقدة بين العلماء ورجال الدولة والموجودة في قلب صناعة الكتابة التاريخية الرسولية: فالعارفين السنيين الذين تأكدت لمساتهم التعليمية عبر تعدد المدارس والرواتب والإعفاءات حملوا على كاهلهم مشروعية هذه السلالة ذات المنطلق الأجنبي وساهموا بمجيء عهد «عادل» وذلك عبر الممارسة اليومية لوظائف قضائية، مراقبة بشدة من قبل السلطة. فالظهور المستمر لتقديم العائلة الرسولية كسلالة متعلمة، والنشاط نفسه للأمراء المؤرخين لا يمكن استيعابهما خارج هذا التحالف المدفوع بين العارفين والحكام. ففي يمن القرنين السابع-الثامن/ الثالث عشر- الرابع عشر،عميلة تأليف المؤلفات السيرية والدمج في قلبها لأعضاء الدولة خلق ارهانات حقيقية للكتابة. في هذا المجال ظهر جهد بنائية النصوص أكثر نمواً والتجديدات كانت ملاحظة بشكل أكبر. وبالعكس من ذلك، كانت الكتابة الحولية بعيدة عن إحداث الغليان. ودون الحديث عن أنماط أخرى من الكتابة التاريخية، كالسيرة الملكية (أو السلطانية)، كانت السيرة تُكتب بغزارة في العالم المملوكي ولكنها كانت غائبة كإنتاج مستقل للعالم الصغير السلطاني لليمن. نستطيع أن نرى فيها دون شك تأثيراً لصغر مساحة البلاط، أو لجانب غياب القنصلية الرسولية، مساحة أماكن أخرى ملائمة لتحرير السير. ولكن، وبتعمق أكبر ألم يكن فيها هنا أثر لرؤىً مختلفة لتخليد الدولة؟ الخائفة من تعز أو زبيد، فتجذير السلطة السلطانية لم يكن قط مُدركاً في البُعد الوحيد لشخص الملك، لكنه كان موصوفاً ككيان في المركز الذي كان العلماء يحتلون فيه مكانة متفوقة.

قطيعة هذا التعايش بين العلماء السنيين والسلطة السلطانية منذ سنة 820 / 1420 ساهم بدون شك في سقوط السلالة، التي تم استبدالها قطعياً عام 1454/858 بعائلة لشيخ من شرق اليمن، من بني طاهر، وقد دلت كذلك على نهاية «تجارب» الكتابة التاريخية التي تم الابتداء بها من قبل مؤلفي القرن الثامن/ الرابع عشر. في سنة 830/1430، إستأنف الحسين بن عبدالرحمن الأهدل (779-855/ 1387-1451) وهو الأخير إطار التفوق المرتب من قبل الجندي كتاب تحفة الزمن في تاريخ سادة اليمن. يقدم في الحقيقة كتعليق على السلوك، مختصر ومصحح ومكمل حتى سنة 835/ 1431. وذلك في الفترة التي كان فيها السلطان الظاهر يحيى، الابن الأخير للأشرف إسماعيل قد أخذ بفرض هدوء مؤقت في تهامة. المخطط هو نفسه. والذي قاد المؤلف ليميز بين فترتين، قبل وبعد القرن الثالث/ التاسع عشر، في كل مرة لأجيال العلماء ثم لتاريخ الملوك وخدمهم. كان الأهدل،بناءً على ذلك وبالكتابة بعد أكثر من قرن من الجندي، قد هم مع ذلك بالتوسع في الجزء الثاني، معتمداً بالتأكيد على الملاحظات المجمعة من قبل الأفضل العباس والخزرجي بالنسبة لعلماء القرن الثامن/ الرابع عشر. وبمجرد الورود إلى بداية القرن التاسع/ الخامس عشر نجد أن عمله يستند على شهادات معاصريه وعلى معارفهم الخاصة. إنما حقل ملاحظاته كان حينها مختصراً بشكل فريد مقارنة بذلك الذي للجندي. فضاء لعائلة من الأشراف السنيين أقامت لوقت طويل في تهامة. فالأهدل سكن في الحقيقة تقريباً أثناء كل حياته في مدينة أبيات حسين، إحدى المحلات الهامة لوادي سردود. هناك حيث مارس وظيفة المفتي كمعلم معتبر. ونجد أن كتابه، مفصل بشكل خاص على السهول الساحلية. إذ لم يتطرق تقريباً في جزءه الأحدث لمناطق اليمن الرسولي الأخرى، من عدن وحتى مدن الجبال. طبقاً له، لم يعد هناك مؤلف كان قد توجب عليه الخروج من الأطر الضيقة لأقاليم تهامة أو الجبال. ولا أحد أيضاً كان قد توجب عليه حتى مطابقة مكان بعيد عن «رجال الدولة». في المؤلفين الأساسيين للنصف الثاني من القرن التاسع/ الخامس عشر. طبقات الخواص للشرجي وطبقات صلحاء اليمن للبريهي كان حضور السلطان غائبين عملياً لحظة. الكتابة التاريخية الرسولية التي قد كانت حينئذ منجرة بالتأكيد.

[illegible]

تعريف بكتاب الإعــلان بنعم اللّه الواهب الكريم المنان

الحلقة (1)

الكاتب الأستاذ/ محمد محمد العرشي

بشرى سارة لأبناء اليمن والعالم العربي والإسلامي بظهور كتاب (الإعلان بنعم الله الواهب الكريم المنان ....) لمؤلفه العلامة احمد بن عبد الله السُّلمي الوصابي المتوفى في 1122هـ الموافق 1710م

والذي يعتبر عشرة كتب في كتاب واحد وهو كتاب في الفقه إذا قرأته أفقيا, وتسعة كتب لو قرأته رأسيا, كل كتاب عمود بلون مختلف وهي: -1 العروض -2 النحو -3 الصرف -4 المنطق -5 التجويد -6 علم القوافي -7 علم المواريث -8 قسمة التركات -9 علم الأقدار. ووجه الإعجاز فيه تناسق النصوص وتوافقها راسيا وأفقيا في نفس الوقت دون خلل في المعنى

هذا الكتاب خرج إلى النور بجهد وتحقيق ثلاثة من مثقفي عصرنا وهم الأساتذة الأعلام:

أ. محمد بن محمد بن عبد الله العرشي - الوكيل السابق لوزارة المواصلات.

أ. علي بن صالح الجمرة – المدير العام السابق لمؤسسة الإذاعة والتلفزيون

أ. عبد الخالق حسين المغربي

يعاونهم آخرون في الجوانب الفنية للطباعة

نتركك مع الموجز التعريفي للكتاب والجهد الكبير المبذول على مدى سنوات لإخراجه إلى حيز الوجود مع الأستاذ/ محمد محمد العرشي

موجز تعريفي عن كتاب الاعلان

إخواني القراء الكرام:

إن بداية العلاقة بين كتاب (الإعلان) ومحققيه - الأستاذ/محمد بن محمد عبد الله العرشي، والأستاذ/ علي بن صالح الجمرة، والأستاذ/ عبد الخالق بن حسين المغربي – كانت في عام 2004م أثناء ما كانت صنعاء عاصمة الثقافة العربية. وفي ذلك العام نشطت الحركة الثقافية والإبداعية وتبنت وزارة الثقافة والسياحة برئاسة وزيرها في ذلك الحين الأستاذ/ خالد عبد الله الرويشان طباعة ونشر العشرات بل المئات من كتب التراث والعديد من دواوين الشعراء

اليمنيين لا سيما الشباب منهم وقد شجع مالك هذه المخطوطة الأستاذ/عبد الخالق بن حسين المغربي بالتقدم إلى الوزارة بمخطوطة (كتاب الإعلان) بهدف طبعها ونشرها، ولكن لم تسمح الظروف بذلك في حينه، وهو ما جعل المحققين يتفقون في ذلك الوقت على القيام بتحقيقها، ولما تصفحنا تلك المخطوطة النادرة وجدنا من الصعوبة طباعتها، إلا أننا قمنا بعرضها على العديد من المختصين بالطباعة على الكمبيوتر؛ وكان الجواب علينا صعوبة ذلك بل تعذره وأشاروا علينا القيام بعرض المخطوطة على مبرمجي الكمبيوتر ولما عرضناها على العديد منهم أكدوا لنا صعوبة بل استحالة برمجتها لأنها تحتاج في البداية إلى طباعتها ورقياً، إلا أن الرغبة والتصميم على النجاح جعلنا لا نيأس تمام اليأس في ذلك واستعنا بالأخ/وليد محمد علي الذعواني الذي كان يعمل حينها سكرتيراً لمكتب الأمل للاستشارات المملوك لي، وحثثناه على المحاولة قدر الإمكان، وقد تفاعل معنا وقمنا بتجربة طباعة صفحة واحدة والتي قمنا بتصحيحها وتعديلها أكثر من عشر مرات ولمدة أسبوع، وبعد ذلك استمرينا في طباعة بقية صفحات المخطوطة والتي بلغت عدد صفحاتها (226) صفحة.

واستمر العمل متواصل في إعداد الطبعة الأولى عاماً كاملاً ليلاً ونهاراً من الساعة الرابعة عصراً إلى الساعة العاشرة ليلاً حتى حصلنا على نسخة واحدة، وبما أن الكتاب هو نسيج قام المؤلف بنسجه على منوال كتاب (الشرف الوافي) للمقري، حيث يقرأ كتاب (الإعلان) أفقياً فقهاً على مذهب الإمام الشافعي، ويقرأ عمودياً كالآتي: (العمود الأول ويقرأ عروضاً. والعمود الثاني ويقرأ نحواً، والعمود الثالث ويقرأ صرفاً ، والعمود الرابع ويقرأ منطقاً، والعمود الخامس ويقرأ تجويداً). وقد زاد على عنوان الشرف الوافي في عدد أعمدته بِعَمُوْدٍ أخر وهو العمود الخامس. وكان من الصعوبة أيضاً قراءة الكتاب لأن كل كلمة أو لفظ له أكثر من معنى ففي الفقه لها معنى يختلف عن معناها في الأعمدة للعلوم الأخرى. بل إن الكلمة أحياناً تكون مُجَزّأَة بين علم الفقه وبين العلوم الأخرى. وقمنا بمراجعة النسخة الناتجة عن الطبع حوالي عشر مرات حصلنا بموجب هذه المراجعة على عشر مسودات، استغرق العمل فيها ما يقرب من عامين، وكان معظم الكتاب معتمداً على التشكيل للكلمات وقد وجدنا صعوبة لأن أي خطأ في تشكيل الكلمة يترتب عليه تغيير معناها، ولما رجعنا إلى الكتاب وجدنا أن القاضي العلامة المرحوم/حسين المغربي قد قام بتشكيل بعض الجمل والكلمات، فاستعنا بها، وبعد ذلك قمنا بوضع آلية للتحقيق اشتملت على عدة خطوات تمثلت في ضبط النص، وإعداد دراسة عن المخطوطة وعصرها ومؤلفها، والبحث عن نسخة أخرى للمخطوطة لتتم المقارنة بينهما، وقد توفقنا بالحصول على نسخة أخرى في مكتبة الأحقاف بتريم، وقمنا بتوصيف نسختي المخطوطتين.

ثم بدأنا في التحقيق، فقمنا بإعداد جداول مقارنة بين المخطوطتين وقد حصرنا الفروقات في (161) فرقاً، ثم قمنا بتنزيل الأعمدة الرأسية بشكل أفقي أسفل كل صفحة وبألوان على النحو التالي: (فالعمود الأول لُوِّنَ باللون الأحمر ويختص بعلم العروض، والعمود الثاني لُوِّنَ باللون الأزرق ويختص بعلم النحو، والعمود الثالث لُوِّنَ باللون الأخضر ويختص بعلم الصرف، والعمود الرابع لُوِّنَ باللون البنفسجي ويختص بعلم المنطق، والعمود الخامس لُوِّنَ باللون الذهبي ويختص بعلم التجويد) بل إننا قمنا بتلوين الترجيعات التي أتت بعد صفحات الكتاب مباشرةً بنفس الألوان التي لونت بها في أعمدة الكتاب بهدف

مساعدة القارئ في قراءة كل صفحة فقهاً وكذا علومها الأخرى، ووجدنا أن المؤلف رحمه الله تعالى قد أضاف إلى إعجازه العلمي البارع إضافاتٍ هي عبارة عن العديد من العلوم سماها (التتمّات) وزعها على العلوم الخمسة العمودية هي على النحو التالي: علم القوافي، وعلم المواريث وقسمة التركات، وعلم الأقدار المتناسبة والوصايا، وتستخرج من الترجيعات من علم العروض، وأضاف إلى ترجيعات علم النحو معلومات عن: فضائله وبيان أول من وضعه، وسبعة وثلاثين حديثاً نبوياً مرتبطة بموضوع (إفصاح اللسان وتقويم الكلام مع الاستشهاد بالحِكَم والأشعار، وأحاديث عن تكريم المعلمين ومكانتهم العظيمة عند الله وعند خلقه..)، كما أضاف إلى ترجيعات علم التصريف نبذة عن السيرة الذاتية للمؤلف، وأحاديث عن بر الوالدين وعن السلطان ومكانته الجليلة في الأرض وفي السماء. كما أضاف بعد ترجيعات علم المنطق عن ظروف تأليفه لهذا الكتاب وما عاناه من المتاعب، ثم الاعتذار عن أي تقصير قد حصل، ومجموعة أدعية. وأضاف بعد ترجيعات علم التجويد علم الخط وذكر فوائد متعلقة بذلك، وعن أول من وضع علم الكتاب العربي، وعن آداب مسك المصحف وتزيينه ومعاملته.

فهذه التتمّات كلها إضافة إلى مؤلفه يصل مجموع العلوم التي تناولها في الترجيعات والتتمّات في هذا المؤلف إلى نحو أحد عشر علماً. ومن خلال التحقيق وجدنا أن المخطوطة تحوي علماً سابعاً هو علم الحديث مرتبةً على أبواب الفقه وفصوله ولصعوبة ذكر الحديث كاملاً في سياق النص كان يذكر جزءاً منه في علم الفقه الأفقي وبقية الحديث في حاشية الصفحة، وقد بلغت الأحاديث المذكورة (147) حديثاً قمنا بمراجعتها وتخريجها.

كما قام مؤلف الكتاب بإنشاء قصيدة تضمنت فهرسة أبواب وفصول وفروع علم الفقه التي تضمنها الكتاب، قمنا بدورنا بإضافة أرقام الصفحات التي ورد فيها أبواب وفصول وفروع علم الفقه.

وقمنا بحصر الكلمات التي رأى المؤلف في حواشي الكتاب أن يوضح معناها. وقمنا أيضاً باختصارها إلى خمس مائة وستة وأربعين كلمة والتي رأينا أن نشرها ضروري ويفيد القارئ وبقية الكلمات كانت متداولة ومعروفة لدى القارئ.

وقمنا بإعداد ترجمة لجميع الأعلام والبلدان والملل التي وردت في علم الفقه الأفقي وأفردنا لها جداول مستقلة لأننا وجدنا صعوبة في إضافتها في صفحات الكتاب كون المساحة لا تكفي، ولصعوبة التعامل الفني مع محتوى الصفحة.

وقد أطلق المؤلف على العلوم التي كانت في أعمدة مستقلة بالترجيعات ووجه إطلاق اسم الترجيعات على تلك العلوم أن القارئ يرجع إلى قراءة ألفاظهن نحواً — مثلاً — بعد أن قرأها فقهاً.

ثم بدأنا نتساءل من هو المؤلف؟ وكيف عاش؟ ومتى ولد؟ وأين توفي؟ ومتى؟، وبدأنا مرحلة مضنية في البحث والدراسة والتدقيق والمقارنة. فوجدنا العجب العجاب في اختلاف اسم المؤلف ونسبه ومسميات مؤلفاته، وقد اختلفت المصادر التي تعرضت لترجمته سواءً كان الزركلي في كتابه (الأعلام). أو عبدالله الحبشي في كتابه(مصادر الفكر العربي والإسلامي في اليمن)، أو المرحوم/ عبدالرحمن عبدالله الحضرمي في كتابه(زبيد مساجدها ومدارسها العلمية في التاريخ)، أو عبده علي عبدالله هارون في كتابه (الدر النضيد في تحديد معالم وآثار مدينة زبيد) وبينما نحن في أثناء البحث والحيرة من اختلاف المصادر العلمية التي تعرضت لترجمة المؤلف وجدنا بارقةً من الأمل وهي صدور الطبعة الأولى عام 2008م من كتاب

(نفحات العنبر في تراجم أعيان وفضلاء اليمن في القرن الثاني عشر الهجري) تأليف العلامة إبراهيم بن عبدالله بن إسماعيل الحوثي الصنعاني، وغالب ظننا أن يكون مؤلف (نفحات العنبر) هو أول من تعرض لترجمة مؤلف كتاب (الإعلان)، حيث تعرض لأسمه ونسبه ولقبه وذكر مشايخه وكذا بعض مؤلفاته، إلا إن الذي قام بتحقيق نفحات العنبر أصابته الحيرة عن سنة وفاته، فكان لابد من مواصلة البحث فوجدنا في إحدى حواشي مخطوطة كتاب الإعلان ما يؤكد لنا أن وفاته كانت بتاريخ 3 صفر 1122هـ (الموافق 1710/4/3م). واستطعنا بعد ذلك أن نضع ترجمة مستوفاة للمؤلف يمكن الرجوع إليها في مقدمة الكتاب.

ثم بدأنا نفكر في إعداد مقدمة للكتاب وبما أن المخطوطة نفيسة ونادرة في التراث اليمني والعربي والإسلامي والإنساني كان لابد أن تكون مقدمتنا على مستوى هذا الكتاب من خلالها نقدم التراث اليمني إلى القارئ الكريم عموماً سواءً في الداخل أو في الخارج. وأول سؤال تبادر إلى أذهاننا هو ما سبب تفنن علماء اليمن في الابتكار والإبداع في منهج التأليف؟ وكان الجواب على هذا السؤال يحتاج إلى بحث ورجوع إلى العديد من المراجع وقد رجعنا إلى ما يقرب من (81)مرجعاً، ذكرناها في فهارس الكتاب. وقد تعرضنا في مقدمة الكتاب إلى ما تمتلكه اليمن من ثروة كبيرة من المخطوطات في كافة مجالات فروع المعرفة وأشرنا إلى العشرات من المكتبات في العالم والتي تزخر بالمخطوطات العربية واليمنية حيث بلغ عددها (454) مكتبة منتشرة في أمريكا وأوربا وتركيا والدول الإسلامية وفي جميع أنحاء العالم. ولكي ندلل على إسهامات اليمنيين في الحضارة العربية والإسلامية من القرن الأول الهجري إلى بداية القرن الخامس عشر الهجري ذكرنا نماذج من أعلام اليمن وعددهم (41) عالماً ومؤلفاً. وكان من الصعوبة بمكان اختيار هؤلاء العلماء من بين المئات من العلماء اليمنيين عبر العصور المختلفة، وقد حاولنا قدر الإمكان أن نضع في اختيارهم معايير موضوعية أهمها أن يكونوا من العلماء الذين شملهم النسيج الاجتماعي لليمن وينتمون إلى جميع المذاهب الإسلامية في اليمن دون تفرقة بين مذهب وآخر ومنطقة وأخرى، بالإضافة إلى ذكر بعض العلماء الذين كانوا ضحية التهميش خلال العصور الماضية بسبب الصراعات المذهبية والاجتماعية والسياسية. وقد تعرضنا لذكر أسماء بعض مؤلفات هؤلاء ونتاجهم العلمي في كافة فروع المعرفة حيث بلغت (206) مؤلفات تقريباً.

وقد تعرضنا لأسباب التراكم الكمي والنوعي في جميع فروع المعرفة في اليمن. وتعرضنا أيضاً لذكر تفنن علماء اليمن في الابتكار والإبداع في منهج التأليف. وبعد ذلك قمنا بفهرسة أعلام مقدمة الكتاب وقد بلغ عددهم ما يقرب من (181) علماً، كما قمنا بترجمة للأعلام الواردة في علم الفقه حيث بلغ عددهم (16) عَلَماً، وقمنا أيضاً بوضع جدول خاص بالبلدات الواردة في علم الفقه والتعريف بها بلغ عددها (20) بلداً، وقمنا كذلك بترجمة للأعلام الواردة في الكتاب بلغت (67) علماً. كما قام الأستاذ الأديب الكبير/خالد عبدالله الرويشان – عضو مجلس الشورى – وزير الثقافة السابق، بتقديم كتاب الإعلام بإطلالة بقلمه الرشيق وأسلوبه المتميز والمعروف بين أدباء اليمن والعالم العربي.

كما قام الشاعر الكبير الأستاذ حسن عبدالله الشرفي بتقريظه بقصيدة رائعة.

مساجد مدينة زبيد حتى نهاية العصر الأيوبي

(دراسة أثرية معمارية مقارنة)

صالح أحمد الفقيه*

تكمن أهمية الدراسة في أن مدينة زبيد احتلت دوراً علمياً وثقافياً بارزاً، الأمر الذي جعل منها حاضرة للعلم والعلماء والمتعلمين عبر الفترات التاريخية المختلفة، وقد كان لما شهدته هذه المدينة من حركة علمية وثقافية واسعة، الدور الرئيسي في وجود كم كبير من المنشآت الدينية؛ إذ بلغ عدد المنشآت الدينية فيها سنة (795هـ/1393م) أكثر من مائتين وثلاثين منشأة ما بين مسجد، ومدرسة، ورباط علم، وزاوية، وغيرها من المنشآت الدينية.

من تلك المنشآت على سبيل المثال جامع الأشاعر الذي يعد أول مسجد في تهامة، وأحد أقدم المساجد التي بنيت في اليمن بناه الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في عهد الرسول (ص). كذلك الجامع الكبير بمدينة زبيد الذي يرجع تأسيسه إلى القرن الثالث الهجري، وغيرها من المساجد.

غير أن بعض هذه المساجد لم تدرس من قبل على الإطلاق، والبعض الآخر لم تنل حقها من الدراسة العلمية الوافية لاسيما فيما يتعلق بدراستها على مر العصور، وما تناولته تلك الدراسات لا تشبع نهم الباحثين ممن يريد دراسة تلك المساجد دراسة علمية.

ومما يزيد في أهمية الموضوع وأسباب اختياره؛ في أن مدينة زبيد تعد من المدن اليمنية التي استمرت آهلة بالسكان عبر مختلف العصور الإسلامية حتى أيامنا هذه، مما جعل آثارها المعمارية عرضة للهدم والتجديد والإضافة، خاصة فيما يتعلق بالمنشآت الدينية، الأمر الذي أُستدعي القيام بهذه الدراسة قبل اندثار معالمها التي لا تزال باقية كلياً أو جزيئاً.

ونظراً لكثرة المساجد الباقية التي يربو عددها على الستين مسجداً، فقد اكتفى الباحث بدراسة المساجد

* رسالة ماجستير نال عنها الباحث درجة الماجستير في الآثار الإسلامية، قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة صنعاء، 2011م.

التي أنشئت منذ صدر الإسلام حتى نهاية العصر الأيوبي.

وقد اعتمد الباحث للقيام بهذه الدراسة على عدد من المناهج: منها المنهج التاريخي الذي تم من خلاله الوقوف عند تاريخ إنشاء هذه المساجد، ومراحل عمارتها، وترجمة منشئيها، أو مجدديها، وتحليل المعلومات التاريخية لبيان صحة هذه المعلومات من عدمه، ومدى ارتباط هذه المعلومات بالمنشأة أو العنصر المعماري. وأُستخدم المنهجين الوصفي والتحليلي لهذه المنشآت وعناصرها المعمارية والزخرفية، وعمل المساقط الأفقية والتصورات لمراحل عمارتها عبر مختلف العصور الإسلامية، والتصوير لجميع المنشآت وعمل الأشكال التفصيلية، فضلاً عن استخدام المنهج المقارن لمقارنة العناصر المعمارية فيما بينها ومع غيرها من العناصر داخل اليمن وخارجه لمعرفة التأثير المتبادل بينها.

ولتطبيق هذه المناهج اعتمد الباحث على مصدرين أساسيين، المصدر الأول: الآثار المادية المتمثلة في المساجد القائمة، وما أمدت به من معلومات عن تخطيطاتها، ومواد بنائها، وعناصرها المعمارية والزخرفية. واعتمد هذا المصدر على عدد من الزيارات الميدانية التي تخللها إقامة الباحث في مدينة زبيد، وزيارات ميدانية لمنشآت أخرى في المدينة نفسها، وغيرها من المدن اليمنية لإجراء الدراسة المقارنة والتحليلية.

المصدر الثاني: ما دوّن في المصادر، والمراجع التاريخية المختلفة. والرسائل العلمية. وتقارير الحفريات العلمية التي أجريت في المدينة ومساجدها. والتقارير الأولية لبعض البعثات الأجنبية والوطنية. والدارسين.

وقد اقتضت الدراسة تقسيمها إلى ثلاثة فصول مسبوقة بتمهيد، ومتبوعة بخاتمة. وملاحق. كالآتي:

التمهيد: تناول فيه الباحث موقع مدينة زبيد، ونشأتها، وتخطيطها، وتاريخها منذ صدر الإسلام حتى نهاية العصر الأيوبي.

الفصل الأول: جامع الأشاعر.

ويتكون الفصل من قسمين: القسم الأول. خصصه الباحث لدراسة تخطيط الجامع ومراحل عمارته، ابتداء بتحديد موقع الجامع في المدينة، وسنة تأسيسه، ثم دراسة تاريخية للجامع منذ نشأته متتبعاً جميع الأعمال المعمارية، والإضافات التي جرت فيه، وكان لها أثر في إحداث تغييرات في التخطيط ولو طفيفة، وعمل تصورات تخطيطية لتلك التغيرات. حتى العصر الحالي، مستعيناً في ذلك بما ورد في المصادر التاريخية، وتقارير الحفريات التي جرت فيه. والدراسة الميدانية. وخصص القسم الثاني للدراسة الوصفية والتحليلية للجامع وملحقاته.

الفصل الثاني: الجامع الكبير.

ويتكون الفصل من قسمين: القسم الأول. خصصه الباحث لدراسة تخطيط الجامع ومراحل عمارته. ابتداء بتحديد موقع الجامع في المدينة. وسنة

تأسيسه، ثم دراسة تاريخية للجامع منذ نشأته حتى العصر الحالي، مستعيناً في ذلك بما ورد في المصادر التاريخية، والدراسة الميدانية. وخصص القسم الثاني للدراسة الوصفية والتحليلية للجامع وملحقاته.

الفصل الثالث: خصصه الباحث لدراسة مساجد الفروض وهي: مسجد سرور، مسجد علي أفلح، مسجد ابن عقامة. بالإضافة إلى هذه المساجد التي لا تزال قائمة؛ تناول الباحث المساجد الدارسة وذلك من خلال ما أمدتنا به المصادر التاريخية والوثائق من أسماء هذه المساجد ومواقعها، ومنشئها أو مجدديها.

الخاتمة: وتضمنت أهم النتائج التي توصل إليها الباحث والتوصيات المقترحة.

الملاحق: وتشتمل على الآتي:

ملحق الألقاب: وفيه أورد الباحث الألقاب التي وردت ضمن الكتابات الأثرية التي تضمنتها الدراسة، مرتبة ترتيباً الفبائياً.

ملحق المصطلحات: وفيه أورد الباحث مصطلحات البناء المحلية الشائعة التي وردت ضمن الدراسة، مرتبة ترتيباً الفبائياً، وتعريف كل مصطلح من خلال كتب المعاجم والمصطلحات.

وتتضمن الدراسة ثبت بقائمة المصادر والمراجع، وفهرس خاص بالخرائط والمساقط الأفقية، والأشكال التوضيحية، واللوحات؛فمن المخططات نشر الباحث [48] مخططاً، منها [20] مخططاً وتصورات لمخططات من عمل الباحث. ومن الأشكال نشر الباحث [94] شكل: منها [81] شكلا من عمل الباحث، تشتمل على [16] شكلاً مفرغاً للزخارف الكتابية، وبقية الأشكال تفريغات لعناصر زخرفية، ومعمارية. ونشر[141] صورة فوتوغرافية معظمها ينشر لأول مرة.

وأخيرا يمكن القول أن مدينة زبيد كانت محل اهتمام الولاة والسلاطين والأمراء في مختلف العصور الإسلامية المتعاقبة، بدءاً بالشراحيين ونهايةً بالقاسميين، وتمثل هذا الاهتمام في إنشاء العديد من المنشآت الدينية وتجديدها، والتي كان لها الأثر الكبير والواضح في ازدهار المدينة علمياً وثقافياً.

ملخص لرسالة ماجستير بعنوان

المعافريون في الأندلس منذ الفتح القرن (7م) حتى القرن الخامس الهجري (11م)

أ/ سناء محمد حسان الترب*

تمهيد:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد الصادق الأمين. كان لليمنيين دورٌ كبير في نصرة الإسلام، ورفع راية التوحيد، فمنهم الأنصار الذين ناصروا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وساعدوه في تأسيس قاعدة دولة المسلمين في المدينة المنورة. وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وإخماد حركة الردة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بدأت الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً وشمالاً. وكان لأهل اليمن وافر الحظ في المشاركة في فتح بلاد الشام ومصر والمغرب حتى وصلوا الأندلس.

وشارك الكثير من اليمنيين قادةً وجنوداً في هذه الفتوحات العظيمة التي توقفت نهائياً في جنوب فرنسا بعد معركة بلاط الشهداء سنة 114هـ.

ومن الأسباب أيضاً أن الموضوع جديدٌ لم تتم فيه دراسة علمية حتى الآن على حد علمي.

- من أسباب اختيار الموضوع (المعافريون في الأندلس منذ الفتح حتى القرن الخامس الهجري) أنه جديدٌ لم تتم فيه دراسة علمية حتى الآن على حد علمي.
- ولم يكن ذلك تحيزا لقبيلة دون أخرى وإنما لكونهم جزءا من الكل، وشريحة من المجتمع الإسلامي.

وكان تحديد المدة الزمنية منذ الفتح حتى القرن الخامس الهجري لأن دور المعافريين السياسي ينتهي في أواخر القرن الخامس، أما دورهم العلمي فقد تجاوز هذه المدة، ولكن التحديد كان ضرورياً لتكون الدراسة أعمق وأشمل كلما تحددت الأبعاد الزمنية والمكانية للبحث.

- توفر المعلومات عنهم في الأندلس واهتمامي الخاص بهذه الرقعة من بلاد المسلمين.

* هذه الدراسة هي ملخص لرسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي وحضارته - جامعة صنعاء، كلية الآداب، قسم التاريخ.

أما أهمية الدراسة فترجع إلى ضرورة إبراز دور المعافريين في بناء حضارة عظيمة في تلك الرقعة البعيدة من أرض المسلمين، وما يشكله ذلك من أهمية في حياتنا اليوم فما أحوجنا إلى العظة والعبرة من أجدادنا لنستطيع أعادة أمجاد المسلمين وحضارتهم. وأيضاً رغبتي في الإسهام ولو قليلاً في إضافة حلقة جديدة إلى حلقات تاريخ المسلمين في الأندلس.

أما الهدف من الدراسة فهو تتبع تاريخ المعافريين منذ دخولهم الأندلس، ومناطق استقرارهم، وإسهاماتهم في الجانب السياسي والإداري والعلمي حتى القرن الخامس الهجري.

الصعوبات التي واجهتني في العمل:

- لم أتمكن من العثور على بعض المصادر الأساسية للبحث في اليمن ولكني تخطيت هذه الصعوبة بعد حصولي على منحة دراسية لمدة فصل دراسي في جامعة الرور الألمانية مما مكنني من استيفاء النقص.
- أيضاً فرض شهادة التوفل في اللغة الإنجليزية مما اضطرني لدراسة اللغة إلى جانب العمل في الرسالة الأمر الذي أعاق سرعة إنجاز العمل وشتت جهودي.
- إغلاق مكتبة كلية الآداب لمدة طويلة حرمني من العودة إلى 50% من مصادر البحث إذ أنها موجودة في مكتبات أخرى ولكن بطبعات مختلفة الأمر الذي عطل المراجعة النهائية للرسالة.
- الإضرابات المستمرة في نيابة الدراسات العليا عطلت إنجاز معاملة تشكيل اللجنة مدةً طويلة.

محتوى الرسالة:

المعافر باليمن قبيلة ومخلاف. ويعود نسب المعافريين إلى المعافر الأكبر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ. وتقع المعافر جنوب غرب اليمن. وتحديداً ما بين الجند وزبيد.

كان دخول المعافريين في الإسلام في العام التاسع للهجرة /630م. وشاركوا في الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام ومصر والمغرب والأندلس.

من أوائل الداخلين إلى الأندلس طريف بن مالك المعافري الذي قاد الحملة الإستطلاعية قبل الفتح سنة 91هـ/709م. وأثناء الفتح برز القائد عبد الملك المعافري الذي فتح حصن قرطاجنة وأمن المناطق الجنوبية بمساعدة طريف بن مالك المعافري. واستقر الكثير من العائلات المعافرية بالأندلس بعد الفتح وخاصة في المناطق الجنوبية. مثل بني عامر في الجزيرة الخضراء، وبني مفوز في بينة، وبني جحاف في بلنسية، وبني منخل في جيان، وبني شراحيل في باجة.

كانت مشاركة المعافريين السياسية في الأندلس قليلة حتى القرن الثالث الهجري/ العاشر الميلادي، ثم برز دورهم السياسي بشكل كبير علي يد المنصور محمد بن أبي عامر المعافري (367هـ/977م) وابناؤه المظفر عبد الملك (392هـ/1001م)، وشنجول عبدالرحمن(399هـ/1008م) الذين سيطروا على الحكم في الأندلس وعلى الخليفة هشام بن الحكم المؤيد، في ما عرف بالدولة العامرية حتى سقوطها

سنة399هـ/1008م. وصلت الأندلس في عهد المنصور وابنه عبد الملك درجة كبيرة من القوة والإزدهار، أما ابنه عبد الرحمن فلم يحكم طويلاً بسبب الثورة عليه لأنه طلب ولاية العهد لنفسه الأمر الذي لم يكن مقبولاً في الأندلس وقتها أن تخرج الخلافة من بني أمية. وسقوط دولة العامريين أحدث فراغاً سياسياً كبيراً كان أحد أسباب سقوط الدولة الأموية فيما بعد سنة 422هـ/1030م، فلم يتولَ حكم الأندلس رجالُ على مستوى المنصور وابنه عبد الملك.

وفي القرن الحادي عشر أسس الفتيان العامريون مماليك المنصور أمارة في بلنسية ونصبوا حفيده أميراً تداول هو وابناؤه حكمها مدة 60 عاماً كالآتي:

1) عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول بن أبي عامر توفي452هـ/ يناير 1060م.

2) عبد الملك بن المنصور عبد العزيز بن أبي عامر خلع من الحكم سنة 457هـ/ 11 نوفمبر 1064م.

3) محمد بن عبد العزيز بن أبي عامر توفي 478هـ/ يونيو 1058م.

4) عثمان بن محمد بن أبي عامر خلع من الحكم 478هـ/6 يونيو1085م.

حكم بلنسية بعد العامريين القاضي جعفر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن جحاف بن يمن بن سعيد المعافري البلنسي. بعد أن قتل القادر ذو النون الذي خلع عثمان آخر العامريين. وبقي جعفر حاكم بلنسية حتى دخلها رودريجو الكنبيطور وأحرق القاضي جحاف حرقاً سنة سنة 488هـ/ 1095م. الذي بموته انتهى دور المعافريين السياسي في الأندلس نهاية القرن الخامس الهجري/ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي.

تولى الكثير من المعافريين مناصب مهمة في الدولة وأسهموا في العمل الإداري، من هذه الوظائف الحجابة، الوزارة، الولاية، القضاء، الحسبة، المواريث (تقسيم الإرث)، السكة، الشرطة، الجيش. وقد تداول منصب القضاء الكثير من المعافريين أجيالاً خاصة في بعض العائلات مثل بني جحاف الذين اشتهروا بكونهم قضاة بلنسية، وبني مفوز وبني شراحيل.

وتمثل دور المعافريين في الحياة العلمية بإسهاماتهم في مجال العلوم الشرعية (علم القرآءات، علم التفسير، علم الحديث، علم الفقة). وفي العلوم اللغوية والأدبية والخط العربي والتاريخ. أخيراً علم الفلسفة وتفسير ما حصل من تشدد على الفلاسفة في عهد المنصور ومحاولته مجارات فقهاء المالكية الذين كرهوا هذا العلم ورواده. وان ذلك لم يدم مدة طويلة لأن الفلسفة أخذت مكانها بشكل كبير في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

بعض الاضطرابات النفسية لدى أبناء متناولات وغير متناولات القات

هويدا عبدالله عمر الشيبة*

ملخص البحث

أولاً: أهداف البحث:

تحدد أهداف البحث الحالي على الوجه الآتي:

1. بناء مقياس يقيس الاضطرابات النفسية لدى الأطفال محدداً لقياس الاضطرابات النفسية (القلق - الخوف).
2. التعرف على مستويات لدى أبناء الأمهات متناولات وأبناء غير متناولات القات.
3. التعرف على طبيعة الفروق في الاضطرابات النفسية لدى أبناء متناولات وغير متناولات القات تبعاً للمتغيرات الآتية:
   - عمل الأم.
   - المستوى التعليمي للأم.
4. التعرف على طبيعة الفروق في مجمل الاضطرابات النفسية المشمولة بالبحث الحالي بين أبناء متناولات القات تبعاً لعدد الأيام التي تتناول فيها الأم القات.

ثانياً: عينة البحث:

طبق البحث الحالي على (612) طالب وطالبة من طلاب المرحلة الإعدادية في أمانة العاصمة تراوحت أعمارهم ما بين (11-15) سنة، بمتوسط عمري مقداره (13.5) سنة.

ثالثاً: أدوات البحث:

استخدمت الباحثة الأدوات الآتية:

1. مقياس الاضطرابات النفسية (القلق والخوف) من إعداد الباحثة.
2. مقياس الاكتئاب للاطفال إعداد (غريب عبدالفتاح)

رابعاً: الوسائل الإحصائية:

- المتوسطات والانحرافات المعيارية.
- معامل ارتباط بيرسون
- الاختبار التائي (T. Test) للعينات المستقلة.
- معادلة الفاكروبناخ للاتساق الداخلي.
- معادلة جتمان للتجزئة النصفية لإيجاد معامل الثبات.

خامسا: نتائج البحث:

1. فيما يتعلق التعرف على مستوى الاضطرابات النفسية المشمولة بالبحث الحالي وهي المتمثلة بكلٍ من (القلق - الخوف - الاكتئاب) لدى أبناء متناولات

* هذه الدراسة هي ملخص لرسالة ماجستير - قسم الخدمة الاجتماعية.

وغير متناولات القات، فقد أشارت المعالجة الإحصائية SPSS إلى أن مستوى الاضطرابات النفسية عند أبناء متناولات القات أعلى بالنسبة لأقرانهم من أبناءالأمهات غير متناولات القات

2. أما ما يتعلق بالفروق في الاضطرابات النفسية المشمولة بالبحث لدى أبناء متناولات وغير متناولات القات تبعاً لعمل الأم والمستوى التعليمي فقد كانت كالآتي:

- يتبين أن هناك فرقاً دالاً معنوياً في مستوى القلق لدى الأبناء يعزى لتفاعل المستوى التعليمي وتناول الأم للقات ، حيث بلغت قيمة (37.94) (F) ولمعرفة مصدر الفرق تم استخدام اختبار توكي الذي أظهر الفرق للأمهات اللاتي يتناولن القات من ناحية ، ومستوى تعليمهن الابتدائية فما دون ،وقد بلغ حجم أثر المتغيرين على مستوى القلق لدى الأبناء بنسبة 12% تقريبا .
- هناك فرق دال معنويا في مستوى الخوف لدى الأبناء يعزى لمتغير تفاعل المستوى التعليمي للأم وتناولها للقات ،حيث بلغت قيمة 26.95) ((F)، ويتبين أن مصدر الفرق يعزى للأمهات اللاتي يتناولن القات من ناحية و مستوى تعليمهن الابتدائية فما دون ، وبلغ حجم أثره على مستوى الخوف 18% تقريبا .
- لا توجد فروق دالة معنويا في مستوى الاكتئاب للابناء نتيجة لتفاعل متغيري تناول الأم للقات ومستواها التعليمي لأن مستوى دلالتها (083) أكبر من (0.05) لذلك لا توجد فروق في مستوى الاكتئاب عند تفاعل المتغيرين معا .

ويعني ذلك أن تلك المتغيرات (القات-المستوى التعليمي للام) تؤثر على مستوى القلق والخوف لدى الأبناء أكثرمن تأثيرها على مستوى الأبناء لديهم،وهو ما يعني أيضاً أن الاكتئاب يرتبط أو يتأثر بعوامل أخرى غير هذين المتغيرين.

3. وفيما يتعلق بمتغير العمل:

- توجد فروق دالة معنوياً بين أبناء متناولات وغير متناولات القات للأمهات اللاتي يعملن لحساب أبناء متناولات القات اللاتي يعملن، حيث بلغ المتوسط (30.39) وعند أبناء الأمهات اللاتي يتناولن القات ويعملن (17.16).
- توجد فروق دالة معنوياً بين أبناء متناولات وغير متناولات القات للأمهات اللاتي لا يعملن لحساب أبناء متناولات القات حيث بلغ متوسط عند أبناء هذه الفئة (39.22) وعند أبناء غير المتناولات ولا يعملن (16.72).

4. أما فيما يتعلق بمعرفة الفروق في مجمل الاضطرابات النفسية المشمولة بالبحث الحالي بين أبناء متناولات القات تبعاً لعدد الأيام فقد كانت كالآتي:

- توجد فروق دالة معنوياً عند مستوى (0.05) فأقل بين أبناء الأمهات اللاتي يتناولن القات (3 أيام في الأسبوع) واللاتي يتناولن القات (طول الأسبوع) وكانت لحساب أبناء الأمهات اللاتي يتناولن القات طوال الأسبوع، حيث بلغ المتوسط لديهم (131.30) وعند أبناء اللاتي يتناولن القات 3 أيام في الأسبوع (71.75).

المعافر الشرقية
الصلو - خدير - القبيطة

دراسة أثرية اثنوغرافية

سامي شرف الشهاب*

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في انها تغطي جزء هام من الأرض اليمنية لم تسبق دراسته من قبل , حيث أسفت هذه الدراسة الأثرية عن اكتشاف عدداً كبير من المواقع الأثرية وثقت جميعها, وتم إسقاط ها على الخارطة الطبوغرافية للمنطقة والصور الجوية بحيث يسهل على الباحثين في المستقبل الوصول إليها.

كما أنها قدمت جداول تفصيلية بجميع المواقع المسجلة القديمة منها والإسلامية , وحددت الدراسة حجم الدمار البشري والطبيعي الذي تتعرض له هذه المواقع يومياً , كما حدد فيها الباحث مصادر بحثه ومنهجه وإطار بحثه الزماني والمكاني.

عرض مختصر لموضوع البحث:

تمهيد

في الماضي ركز الباحثون في تاريخ اليمن وآثاره جل اهتمامهم في دراسة المناطق الشرقية والشمالية الشرقية من اليمن، كونها شهدت ازدهاراً حضارياً كبيراً منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد، وورد ذكر عواصم ممالكها في المصادر الكلاسيكية والمصادر الإسلامية وفي القرآن الكريم والتوراة , في حين لم يرد أي ذكر في المصادر المذكورة للمراكز الحضارية في منطقة الدراسة , رغم ورود بعض الإشارات في هذه المصادر لمنطقة المعافر التي تشكل منطقة دراستنا الجزء الشرقي منها دون ذكرها. لهذه الأسباب وغيرها بقت منطقة المعافر الشرقية بكاملها خارج دائرة البحث الأثري والتاريخي حتى يومنا هذا. ولهذا فقد وقع اختيارنا لمنطقة المعافر الشرقية في محاولة منا للكشف عن مواقع أثرية تعود لفترات تاريخية مختلفة وتسجيلها وتوثيقها بالرسم والصورة ودراستها دراسة أثرية معمقة وفق طرق البحث الأثري والأثنوغرافي، بهدف لفت أنظار الباحثين لأهمية هذه المنطقة وجعل المعلومات التي ستقدمها هذه الدراسة قاعدة معلومات أولية تفيد الباحثين الآثاريين وتحثهم على القيام بعمل دراسات أثرية واسعة ودقيقة لآثار ومعالم هذه المنطقة.

- ولا ندعي أننا قد قمنا بتغطية المنطقة كاملة، كون ذلك عمل مضني يفوق إمكانياتنا وخاصة المادية

* هذه الدراسة هي أطروحة نال بموجبها الباحث درجة الماجستير في الآثار القديمة والاثنوغرافيا , بدرجة ممتاز من قسم الآثار بجامعة صنعاء «شعبة الآثار القديمة».

منهـا، ولكن يمكـن القول أننـا قد تمكنا مـن توثيق عدداً لا يسـتهان به من المواقع الأثريـة، منها مواقع علـى درجة كبيـرة من الأهمية، وكان لهـا دور ريادي في رسـم كثير من الأحداث السياسية التي شهدتها اليمـن كحصن الدملؤة فـي الصلو وحصن الريد في الهجر على سبيل المثال لا الحصر.

الصعوبات

واجهـت الباحث أثناء قيامه بهذه الدراسـة العديد من المشاكل والمنغصات والتي من أهمها:

- قلـة المعلومـات عـن منطقة الدراسـة فـي الأدبيات والدراسـات المنشـورة بسـبب انعـدام الدراسـات والأعمـال الأثريـة فـي نطـاق تعز عامـة ومنطقة الدراسات خاصة.
- اتسـاع رقعـة منطقة الدارسـة، وتباين تضاريسـها، ووعـورة طرقهـا ودروبهـا وصعوبة الوصـول إليها، الأمـر الـذي جعـل عملية تغطيتهـا كاملـة في هذه الدراسة أمراً مستحيلاً.
- اندثـار الكثيـر مـن المواقـع الأثريـة بفعل التوسـع الاسـتيطاني والاسـتصلاح الجائـر للأراضي على حسـاب المواقع والمنشـئات الأثرية، ومـا تبقى منها بحاجـة إلى إجـراء حفريات أثريـة إنقاذية، وهو ما يفوق إمكانيات الباحث بطبيعة الحال.
- قلـة المواقع الأثرية الظاهرة التـي تعود إلى الفترات المبكـرة (مـا قبل الإسـلام) بسـبب الاسـتمرارية في الاسـتيطان وبنـاء الكثيـر من المنشـآت الأثرية الإسلامية على أنقاض المنشآت الأثرية القديمة التي تقتضـي عملية التعرف عليها إجـراء حفريات أثرية جادة ومنهجية.

أهداف الدراسة:

حقق البحث جميع أهدافه بنجاح وهي:

- تسجيل أكبر قدر ممكن من المواقع الأثرية في منطقة الدراسة وتوثيقها قبل اندثارها.
- رسـم خارطـة أثريـة للمنطقة تسـجل عليهـا جميع المواقع الأثرية المكتشفة. وتقديم تصنيف أولي لها.
- توثيق المنشـئات الأثرية المختلفة في المواقع المكتشفة وعمل مخططات هندسية لها.
- تحديـد المصـادر التاريخية والأثرية المنشـورة كمادة أساسية في إنجاز البحث

أسباب اختيار الموضوع:

هناك جملة من الأسـباب التـي دفعتني إلى اختيار موضوع البحث أهمها:

- الأهمية الإستراتيجية لمنطقة البحث وغناها بالمواقع الأثرية التي كان يتطلب منا استكشـافها ودراسـتها وتسجيلها وتوثيقها قبل اندثارها.
- عمل خارطة أثرية لمنطقة البحث. تسجل عليها جميع المواقـع المكتشـفة، لتكن معيناً للدراسـيين الآثاريين في المسـتقبل تسـهل عليهم عملية الوصول إلى هذه المواقع ودراستها.
- السـبق العلمي في تسـجيل وتصنيف المواقع الأثرية فـي منطقة الدراسـة. خاصـة وأنها فـي منأى عن اهتمام الدارسين والمهتمين بتاريخ اليمن وحضارته.
- التعـرف علـى دور المعافـر فـي صياغـة الأحـداث التاريخية التي رسمت الصورة الحضارية لليمن قبل وبعد الإسلام.

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على المنهج الأثري الأثنوغرافي، المتمثل بـ

- النزول الميداني إلى مواقع البحث لتسجيل المواقع الأثرية المختلفة وفقاً للواقع في استمارات خاصة معدة سلفاً، وإسقاط تلك المواقع على الخارطة من خلال أخذ بياناتها الفلكية.
- المسح الأثنوغرافي من خلال الاستعانة بالمعلومات المسجلة في الذاكرة الشعبية والتحقق منها ميدانياً من خلال المسح الأثري.
- الدراسة المكتبية، والمتمثلة بجمع المادة العلمية من المصادر والمراجع والأدبيات المختلفة.

منطقة الدراسة

غطت الدراسة المنطقة الشرقية من إقليم المعافر ممثلة بالجزء الجنوبي الشرقي من محافظة تعز الذي يضم (الصلو وخدير إلى جانب مناطق ماوية وحيفان) وتمتد شرقاً لتشمل منطقة القبيطة في محافظة لحج.

وطبوغرافياً تدخل منطقة الدراسة ضمن إقليم المنطقة الثالثة (منطقة المرتفعات الجنوبية) التي تحتل الجزء الجنوبي من اليمن والمشرف على خليج عدن ويشمل هذا الإقليم تعز ومكيراس والضالع.

موضوعات الدراسة

تتألف هذه الدراسة من مقدمة , وخاتمة , وأربعة فصول مذيلة بالهوامش وقائمة المصادر وعدد من الملاحق الإيضاحية.

المقدمة:

تضمنت أسباب إختيار الباحث لموضوع البحث وأهدافه ومنهجه بشقيها الميداني والمكتبي.

الفصل الأول:

يتحدث عن جغرافية وطبوغرافية إقليم المعافر بشكل عام , ومنطقة الدراسة (المعافر الشرقية) بشكل خاص , وذلك بهدف إبراز الأهمية الإستراتيجية لإقليم المعافر , والموقع الجغرافي لمنطقة الدراسة، كما يناقش هذا الفصل في سياق الحديث عن طبوغرافية إقليم المعافر الظواهر المشتركة مع القرن الأفريقي؛ ثم يقدم عرضاً موجزاً للتركيب الجيولوجي للمعافر الشرقية.

الفصل الثاني:

ناقش فيه الباحث المعافر تاريخياً من حيث قدم الإشارات إليها في المصادر التاريخية على اختلافها ممثلة بالمصادر القديمة « النقوش و المصادر الكلاسيكية »، ومن ثم المعافر في المصادر التاريخية العربية والإسلامية

الفصل الثالث:

أفرد هذا الفصل لمناقشة دور المعافر في تاريخ اليمن القديم والإسلامي، وعلاقة المعافر بالقوى السياسية التي كانت موجودة على الساحة اليمنية قبل الإسلام وبعده.

الفصل الرابع:

يعدُ هذا الفصل صُلب الدراسة وقد أُفرِد لنتائج الدراسة الميدانية التي قام بها الباحث، في مناطق المعافر الشرقية المذيلة في عنوان البحث، والتي أسفرت عن تسجيل وتوثيق عددٍ لا بأس به من المواقع الأثرية التي لم يسبق اكتشافها، والتي تم توصيفها وتوثيقها بدقة من خلال التسجيل الميداني لها، كما تضمن هذا الفصل كل المعلومات الأثرية والأثنوغرافية التي تمكن الباحث من جمعها واستقصائها عن تلك المواقع.

نتائج الدراسة الميدانية:

- أسفرت هذه الدراسة الميدانية عن تسجيل وتوثيق حوالي 32موقعاً أثريا, يعود معظمها إلى الفترات التاريخية القديمة , تم تسجيلها في جدول خاص ضمن الملاحق التي ذيلت بها الدراسة. تناولت الدراسة منها حوالي 19 موقعاً أثرياً .أضافت نتائج دراسة هذه المواقع معلومات هامة تؤكد أن إقليم المعافر كان من الأقاليم الواسعة جغرافياً والذي كان يمتد ليشمل الجزء الجنوبي الغربي من اليمن بكل مسمياته وتقسيماته الإدارية اليوم (محافظة تعز – جزء من محافظتي لحج والضالع في الشرق – جزء من محافظة إب في الشمال – جزء من محافظة الحديدة غرباً). وقد شهد هذا الإقليم نشاطاً بشرياً مبكراً خلف العديد من المواقع الأثرية يعود أقدمها إلى العصر الحجري القديم؛
- كما تبين أن هذا الإقليم قد تأثر وبشكل مباشر بالظروف المناخية التي شهدتها شبه الجزيرة العربية في أواخر البليستوسين وعصر الهولوسين , وأن السجل الأثري في إقليم المعافر قد تأثر بتلك الظروف المناخية والبيئية , والتي كانت سبباً في تدمير وتعرية الكثير من المواقع التي تعود إلى عصور الفترة التاريخية القديمة في هذه المنطقة وكشفت نتائج البحث عن أن هذه المواقع تأثرت سلباً بالأنشطة الاستيطانية المتعاقبة المتمثلة ببناء المساكن والحقول الزراعية المدرجة والطرقات.
- بينت الدراسة أن المعافر كانت ومنذ القدم من المناطق التي تسعى إلى تحقيق الاستقلال الذاتي عن جسم الدولة المركزية، مستغلة بذلك موقعها الجغرافي في الطرف الجنوبي الغربي من اليمن وإطلالها على الساحل الغربي. فضلاً عن قربها من البر الأفريقي، وفي سبيل ذلك لم تجد المعافر حرج من الدخول في حلف سياسي مع القوى السياسية التي كانت موجودة على الساحة اليمنية لمساعدتها في تحقيق بغيتها. الأمر الذي جعلها عرضة للاستهداف العسكري المتكرر من قبل القوى المحلية والأجنبية كما تشير المصادر النقشية.
- ومن خلال دراستنا للمصادر أظهرنا في هذا البحث أيضاً أن المعافر كانت في مطلع الألف الأول قبل الميلاد. على قدر كبير من القوة العسكرية والاقتصادية، وكان فيها الكثير من المدن المشار إليها بالهجر , وأنها عقب الحرب التي شنها عليها كرب أل وتر ضمن حملته العسكرية على أوسان أصبحت تحت سيطرة الدولة القتبانية ثم بعد ذلك أصبحت جزءاً من أراضي الدولة الحميرية , وخلصنا من خلال دراستنا لهذه المصادر إلى احتمال أن منطقة المعافر كانت في البدء ضمن أراضي الدولة الأوسانية.
- كشفت الدراسة الميدانية عن وجود مستوطنات مبكرة في منطقة خدير تشبه من حيث شكلها العام ومخطط وحداتها المعمارية مستوطنات العصر البرونزي في منطقة الهضبة , تعرضت هذه المستوطنات للتدمير بشكل كبير جداً بسبب التوسع الاستيطاني والنشاط البشري في المنطقة.
- كان للمظهر الطبوغرافي المتباين ووجود القمم الجبلية الحصينة في منطقة الدراسة عظيم الأثر في وجود العديد من القلاع العسكرية التي كان لها دور ريادي في كثير من الأحداث العسكرية والسياسية التي شهدتها الساحة اليمنية ومن أهم تلك الحصون أو القلاع (قلعة الدملؤة) في منطقة الصلو التي بينت الدراسة الأثرية التي أجريناها عليها أنها من الحصون القديمة التي يعود تاريخها إلى عصر ما

قبل الإسلام في اليمن وليس كما يذكر الكثير من المؤرخين بأنها اختطت في العصر الإسلامي. وبينت الدراسة أن هذه القلعة كانت تتحكم في طرق التجارة الداخلية وتتبعها عدد من المدن الصغيرة والقرى الزراعية على امتداد مرتفعات جبال الصلو وجزء من قدس و دمنة خدير والراهدة , ولعل من أهم تلك المدن في منطقة المعافر الشرقية - وبحسب هذه الدراسة - مدينة الجؤة في الصلو ومن هذه المدن الصغيرة مدينة (الهجر) في منطقة القبيطة التي كانت تقع على خط التجارة البري القادم من ميناء عدن ويستمر شمالاً ربما إلى الجند وربما إلى ماوية ومن هناك تتجه شمالاً إلى مدن الهضبة الوسطى.

المنطقة الجنوبية -الصلو-

تقع منطقة الصلو إلى الجنوب الشرقي من مدينة تعز، وتبعد عنها حوالي 42 كم (خارطة 3)، وهي منطقة جبلية يبلغ أقصى ارتفاع لها في قرية المنصورة، أكثر من 2334م عن مستوى سطح البحر؛ يحدها من الشمال خدير، ومن الغرب سامع، ومن الجنوب قدس والجنوب الغربي قدس وبني يوسف، ومن الشرق منطقة حيفان (الاعروق).

توجد بالصلو العديد من المواقع الأثرية المبكرة التي تعود إلى عصر ما قبل الإسلام واهم هذه المواقع قلعة الدملؤة وقرية المنصورة وقرية الجؤة وقرية الأذمور غلى جانب العديد من المواقع في القرى الأخرى والتي تم رصدها في هذا البحث.

المنطقة الشرقية

تقع منطقة القبيطة في أقصى الطرف الشرقي من المعافر الشرقية , وهي حالياً تتبع محافظة لحج وفقاً للتقسيم الإداري الجديد. وهي منطقة كبيرة تمتاز بتضاريسها الجبلية الوعرة، تسقط عليها الأمطار بنسب قليلة , ومياهها السطحية شحيحة، وتتكون من عدد من العزل منها عزلة الهجر التي يتواجد فيها حصن الريد , أهم المواقع الأثرية في المنطقة والذي يرتفع حوالي 1201م عن مستوى سطح البحر , وقد تناولته هذه الدراسة بالتفصيل إلى جانب موقع جبل القطرية.

المنطقة الشمالية - خدير -

تقع منطقة خدير إلى الشرق من مدينة تعز، وتعد من المديريات الكبيرة من حيث المساحة وعدد السكان، وتتقسم خدير إلى خدير السلمي وخدير البدو وتوجد فيها العديد من المواقع الأثرية التي تعود إلى فترات زمنية مختلفة؛ ونظراً لمساحة خدير الشاسعة فقد استعصت على الباحث عملية حصر وتوثيق مواقعها الأثرية، لذلك قمنا بإجراء مسوحات أثرية على المنطقة الجنوبية من خدير (شِعب الداخل) نظراً لوجود مستوطنات مبكرة في هذا الموقع تعود الى العصور البرونزية والتي امتازت بمبانيها الدائرية والشبه دائرية كما تم توثيق المنطقة الشرقية (الصريرة بالراهدة) التي تم العثور فيها على العملات القتبانية صيف عام 1994م.

